أرنولد توينبي



تاريخ البشرية

الجزء الأول

نقله إلى العربية
الدكتور نقولا زياده

الأهلية للنشر والتوزيع

تاريخ الطبعات

طبعة اولى ١٩٨١

طبعة ثانية ١٩٨٣

Originally published in English under the title

MANKIND AND MOTHER EARTH

الأهلية للنشر والتوزيع

بيروت ١٩٨٨

بيروت، الحمراء، بناية الدورادو، ص.ب. ١١٣٥٤٣٣ هاتف : ٣٥٤١٥٦/٣٥٤١٥٧

تاريخ البشرية

تاريخ البشرية

المحتويات

تصديـــر

في سنة ١٨٩٧ احتفل باليوبيل الماسي لاعتلاء الملكة فكتوريا عرش بريطانية. وقد أعاد هذا الأمر الى الفكر تاريخ الستين سنة التي خلت من قبل. وقد أدى هذا الاستعراض الى نظرة الى ذلك التاريخ بأكمله، وهي نظرة بدت واضحة بسيطة. فبين سنتي ١٨٣٩ (سنة اعتلاء الملكة العرش) و١٨٩٧ أتمّ الغرب توطيد سيطرته على بقية أنحاء العالم. وقد كان ذلك إتماماً لمسيرة كانت قد بدأت قبل سنة ١٨٩٧ بأربعمئة سنة، لما عبر كولمبوس المحيط الأطلسي، وغادر فاسكودي غاما البرتغال ودار برأس الرجاء الصالح، ووصل الى الهند. ففي خلال هذه القرون الأربعة كانت الأقطار غير الغربية، باستثناء اثنين منها هما أفغانستان والحبشة (أثيوبيا)، اما انها قد وقعت تحت السيطرة الغربية او أنها أنقذت استقلالها بأن تقبلت طوعاً الى درجة معينة، أساليب الحضارة الغربية المزدهرة. كان بطرس الأكبر قد بدأ تحديث روسيا على الأسلوب الغربي سنة ١٦٩٤، وسار صانعو ثورة مييجي في اليابان على الدرب نفسه سنة ١٨٦٨. وفي سنة ١٨٩٧ كانت ست من الدول السبع الكبرى آنذاك دولا غربية، وكانت الدولة السابعة، وهي روسيا، دولة كبيرة لأنها تمكنت من قبول الأساليب الغربية الى درجة كبيرة خلال القرنين السابقين لذلك. اما اليابان فلم تكن قد بلغت مرتبة الدولة الكبيرة ـ ذلك بأنها لم تشن حرباً على روسيا وتنتصر فيها حتى ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥.

وهكذا فإن ترسيخ السيطرة الغربية، مع أنه كان حديث العهد، ظهر وكأنه أمر كتب له البقاء. فقد بدا العالم، في سنة ١٨٩٧، وكأنه قد قبل ان يكون تصريف أموره في يد الغرب. ومن الواضح ان التاريخ بلغ نهاية مطافه في قيام الوحدة السياسية في كل من ايطالية وألمانية سنة ١٨٧١. وإذا كان «التاريخ» مرادفاً في معناه لما حفلت به الحضارة الغربية في ماضيها الصاخب من اضطراب وسير حثيث (كما كان كثيرون قد قبلوا ذلك سنة ١٨٩٧) فمعنى ذلك ان التاريخ قد تخلى عنه الناس راضين، وذلك في فترة لا تزال ذكراها

عالقة في الأذهان. وعلى ذلك فإن سنة ١٨٩٧ بدت وكأنها نقطة تاريخية يتخذها الملاحظ منطلقاً لالقاء نظرة خلفية على المسيرة التاريخية ولتفحصها تفحصاً وئيداً وكلياً من نقطة من الزمن كان فيها الملاحظ نفسه قد خرج من تخبطه في التغير الدائم للتاريخ.

وبدا التاريخ، وقد استعرض في تلك اللحظة، وكأنه انتهى به المطاف الى حالة من الاستقرار أساسها سيطرة الغرب، وأن مخطط التاريخ، أخذا بهذه النظرة، قد أصبح واضحاً. وقد بدا عندئذ كأن التاريخ تكون من أحداث سابقة معينة هي التي انتهت بسيطرة الغرب الحالية. وأما غيرها من الأحداث السالفة فلم تعد من صلب التاريخ. ومن ثم فمن الممكن تجاهلها. حقاً كان العالم كله كأنه قد ضم الى نطاق الغرب. ومن ثم فقد دخل مجال التاريخ. لكن أخذ العالم بالأساليب الغربية كان حديث العهد. والأقطار التي قبلت بالصيغة الغربية للحياة كانت تابعة او على كل حال هامشية. وعلى سبيل المثال فقد أدخلت الهند في نطاق الغرب لأنها أصبحت، سنة ١٧٤٦ إحدى حلبات المنافسة بين دولتين غربيتين هما بريطانية وفرنسة. وفي سنة ١٨٩٧ كان للهند مكانة في العالم على أنها جزء من الامبراطورية البريطانية. وقد أصبحت روسيا دولة كبرى بسبب ما كان لبطرس الأكبر من بصيرة. على ان روسيا، مع الاعتراف بقوتها، لم تكن قد بلغت من الحضارة الغاية؛ فهي، من حيث الثقافة، لم تكن بعد عضواً من الدرجة الأولى في نادي الغرب. أما أخذ اليابان بالحضارة الغربية فقد كان أمراً عجيباً، لكنه كان فريداً.

أما وقد عرف التاريخ على أنه سلسلة من الأحداث التي أدت الى سيطرة الغرب، فقد أصبح من الممكن تحديده بدقة. فالاسرائيليون القدامى وأحفادهم اليهود قد أسهموا، ولا ريب، في التاريخ على الأقل الى سنة ٧٠ للميلاد. ذلك بأن تاريخهم كان مقدمة لتاريخ المسيحية ـ كاثوليكية وبروتستانتية على السواء. وهذه هي دين الغرب. وإسهام أغارقة العصر الهليني في التاريخ كان كذلك لا ريب فيه. فالفلسفة الاغريقية المتحدرة من العصر الهليني كانت قد استخدمت في صياغة اللاهوت المسيحي، ولم يقتصر الأمر على الفلسفة، بل ان ما كان عند الهلينيين من أدب وفنون مرئية وعمارة كانت، منذ النهضة، مصدر وحي لثقافة الغرب الحديثة.

كانت اليهودية والهلينية المصدرين الرئيسين للحضارة الغربية. وقد تولدت هذه بسبب ما كان بين اليهودية والهلينية من صدام، ولم يكن من المحتم على المؤرخ، عندما يحاول التعرف الى الماضي، ان يسير في تيار الماضي الى أبعد من ذلك. ومع ذلك فإن رجال

الآثار الغربيين كانوا، خلال السنوات الستين من حكم الملكة فكتوريـا، أي حتى سنة ١٨٩٧، ينبشون بضع حضارات سابقة زمنياً لحضارة الاسرائيليين القدامى والهلينيين: وعلى سبيل المثال حضارة مصر الفرعونية والحضارة الأشورية، والحضارة الميكانية في وقت أقرب عهداً. وقد كان تصور رجال الآثار هؤلاء لهذه الحضارات القديمة، الى ذلك الحين، شرائحياً ومبهماً. ولكن هذه الحضارات المنبوشة كان يحق لها أيضاً ان تضم الى التاريخ، فيما اذا تبين انها كانت قد أضافت شيئاً ما الى أصلي الحضارة الغربية اليهودي والهليني.

وقد بدا، في سنة ١٨٩٧، انه من اليسير ان نتابع التقدم الذي أصاب العالم الذي قبل الحضارة الغربية من أيام اليهودية، والهلينية الى ذلك الوقت. فاليهود والأغارقة اندمجوا في الامبراطورية الرومانية. وهذه كانت الرحم السياسي للمسيحية. وكانت الامبراطورية الرومانية قد اعتنقت المسيحية قبل سقوط الامبراطورية في ولاياتها الغـربية. واعتنـاق البرابرة الذين فتحوا البلاد التي كانت تابعة للرومان في الغرب هو الذي أدى الى انتشار تدريجي للمسيحية الغربية، وهو الانتشار الذي كان قد بدأ في العقد الأخير من القرن الخامس من التاريخ المسيحي. ومنذ ذلك الحين كانت بقية أجزاء العالم تدخل في مجال التاريخ بالطريقة ذاتها وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه هذه البقية تضم الى نطاق الغرب، هذا النطاق الذي كان يتسع باستمرار.

هذه النظرة الاستعراضية للتاريخ كانت مقبولة في سنة ١٨٩٧، لأنه في ذلك التاريخ ظهر للعيان وكأن السيطرة العالمية التي بلغها الغرب هي دائمة البقاء. وفي سنة ١٩٧٣ كانت سيطرة الغرب تبدو وكأنها لم يسبق لها مثيل في انتشارها العالمي الواسع، إلا انه كان يبدو أيضاً وكأن هذه السيطرة هي عابرة، على نحو ما كانت السيطرات السابقة، وهي التي لم تكن عالمية والتي عرفها المغول والعرب والهون والرومان والاغريق والفرس والأشوريون والأكديون. وإذا كان من المحتمل ان تكون سيطرة الغرب هامشية أيضاً، فإنه لا يمكن اعتبارها الغاية التي انتهى اليها التاريخ بأكمله. إذن فمجال التاريخ لا يمكن، بعد ذلك، ان يحصر ضمن حدود هي السوابق التاريخية للحضارة الغربية. وعندما يمحى هذا التحديد التحكمي، تتضح لنا الكمية الهائلة من التاريخ التي طرحت جانباً في سبيل خلق صورة للتاريخ مبنية على البقية التي لم تطرح، وهي الصورة التي كانت ترمي، في سنة ١٨٩٧، الى ضم كل شيء اعتبر مطابقاً للحالة التي بلغتها شؤون البشر في تلك السنة.

فالصورة التي عرضت سنة ١٨٩٧، كانت قد أخرجت من التاريخ تاريخ اليابان

قبل ١٨٦٨ ، وتاريخ الصين قبل ١٨٣٩ ، وتاريخ الهند قبل ١٧٤٦ ، وتاريخ روسيا قبل ١٦٦٤ . وكانت قد استثنت التاريخ الكامل للبوذية والهندوكية والاسلام ، مع العلم ، بأن هذه كانت في سنة ١٨٩٣ كما كانت في سنة ١٩٧٣ ، ثلاثة من الأديان الأربعة التي كان لها أكبر عدد من الأتباع، وان البوذية والاسلام كانا دينين من الأديان الثلاثة التي تنطوي على دعوة عالمية. وقد كان مدى كل منهما متسعاً اتساع مدى المسيحية. والصورة التي رسمت سنة ١٨٩٧ كانت قد أخرجت ايضا ثلاثة من الفروع الأربعة الرئيسية نفسها أي النسطورية وأهل الطبيعة الواحدة والأرثوذكسية الشرقية ، مع أنه ، في سنة ١٨٩٧ ، كان أتباع الكنائس الأرثوذكسية الشرقية ، مثل البروتستانت والكاثوليك (الغربيين) ، من حيث عددهم وأهميتهم في ذلك التاريخ.

وكان ثمة نواح في الصورة اكثر إمعانا بعد في الغرابة. فاليهود قد أقصوا من التاريخ اعتباراً من سنة ٧٠م وهي السنة التي هدم فيها الرومان الهيكل في القدس، كما أقصي الأغريق منذ سنة ٤٥١م، وهي السنة التي صيغت فيها قرارات مجمع خلقدونية على أيدي لاهوتيين مسيحيين يونانيين. (وقد أعيد اليونان الى الحظيرة اعتبارا من سنة ١٨٢١ لأنهم في تلك السنة ثاروا ضد الأمبراطورية العثمانية رغبة منهم في ان يقبلوا في عضوية المجتمع الغربي).

والطريقة التي عولج بها تاريخ الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي كانت الأمعن في الغرابة. ففي ذلك القرن كانت الامبراطورية الرومانية لا تزال قائمة في المشرق، وهو المكان الذي كان دوماً مركز الثقل في الناحيتين البشرية والاقتصادية ، لكنها كانت قد انهارت في ولاياتها الغربية التي كانت متأخرة نسبياً. ومع ذلك فإن مخطط التاريخ الذي كان سائداً سنة ١٨٩٧ تجاهل، اعتبارا من سنة ٤٧٦م (وهي السنة التي خلع فيها آخر الأباطرة الرومان العاجزين في الجزء الغربي من الامبراطورية) الأمبراطورية الرومانية مع أنها كانت لا تزال حية في المشرق ومع أنها استمرت في القيام بدور في الشؤون العامة الى مختتم القرن الثاني عشر. وفي واقع الأمر فان مخطط التاريخ الذي كان مألوفاً سنة ١٨٩٧ تجاهل، في سنة ٤٧٦م، العالم المتحضر القائم يومها والممتد من اليونان الى الصين، ومن الصين الى أميركا الوسطى والبيرو. وهذا المخطط، البالغ في الغرابة، ركز اهتمامه، اعتبارا من سنة ٤٧٦م، على الدول البربرية التي ورثت الامبراطورية الرومانية في ولاياتها الغربية المتداعية.

وقد اتضح، في سنة ١٩٧٣، انه لا يمكن أن يشطب أي جزء من هذه الكمية الضخمة من التاريخ الذي كان قد طرح جانباً باعتباره غير ذي موضوع. مثال ذلك أن حضارة أميركا الوسطى، التي بدا وكأن كورتيز قد محا أثرها، بدت وكأنها قد أخذت تظهر ثانية خلال طلاء بال من الحضارة الغربية في المكسيك وغواتيمالا. وفيما يتعلق بتاريخ آسية الشرقية فإن أي شخص يلقي نظرة على الصين واليابان سنة ١٩٧٣ كان لا بد له من القول بأن ما كان في هذين البلدين من السوابق التاريخية، عودة الى العصر الحجري الحديث في شرق آسية، لم تكن بأقل أهمية من سوابق الغرب المعاصر. ولم يكن في مقدور مؤرخ في سنة ١٩٧٣ ان يتخلى عن القسم الأكبر من التاريخ الذي كان على استعداد لطرحه جانباً سنة ١٨٩٧. كان عليه الآن ان يسترد ذلك كله وأن يعيد صياغته مع ما كان قد قُبِل، والذي أدى الى ما كان عليه الغرب سنة ١٨٩٧، والذي كان مخطط التاريخ المألوف في سنة ١٨٩٧ قد احتفظ به دون غيره.

في سنة ١٩٧٣ أصبح المسح التام للتاريخ أمراً حتمياً، لكن هذا العمل كانت ترافقه مشاكل جسيمة من حيث الاختيار والعرض على السواء.

فأي حكاية، مهما كان الأمر الذي تعالجه، لا بد من ان يرافقها اختيار. فالعقل البشري لا يتمتع بالقدرة على إدراك جماع الأمور في نظرة شاملة واحدة. فالاختيار أمر لا مفر منه، وهو أيضاً أمر تحكمي حتماً، وبقدر ما تكون مادة الأخبار التي يطلب الاختيار منها أكبر، يكون النقاش حول تخير الباحث أشدّ. وعلى سبيل المثال فإن الاختيار من الأحداث التاريخية الذي بدا مقبولا سنة ١٨٩٧، قد ظهر غريباً سنة ١٩٧٣. وفي القصة التي أقدمها الآن تجنبت ان أضفي على حضارة الغرب وسوابقها الأهمية البالغة التي اعتادت الدراسات الغربية لتاريخ العالم ان تسبغها عليها. والى ذلك فقد حاولت ان أتجنب الوقوع في خطأ مقابل أي إعطاء الغرب وسوابقه أقل مما يستحق. وعلى كل فإن الصيني الذي يقرأ حكايتي هذه قد يحكم علي بأنني منحت الغرب مدى أوسع من اللازم، فيما قد يكون حكم القارىء الغربي عليّ هو أنني بذلت من الجهد الكثير لضغط الحضارة التي ننتمي كلانا اليها، ووضعها في مكانها المناسب لها.

في هذه الحكاية التي وضعت سنة ١٩٧٣ كان تناول المراحل الأولى والأخيرة في تاريخ البشرية أقل صعوبة من تناول المراحل الواقعة بين هذه وتلك. ففي العصر الحجري القديم المبكر (وهو يكون خمسة عشر او ستة عشر جزءا من فترة تاريخ البشرية الى الآن)

كانت الحياة متسقة . فمع أن الاتصال بين الجماعات كان بطيئاً، فان مسيرة التغير في حياة المجتمعات كانت بعد أبطأ. اما خلال القرون الخمسة الأخيرة فقد أصبح موطن الجنس البشري وحدة على المستويين التكنولوجي والاقتصادي وإن لم يبلغ ذلك على المستوى السياسي بعد، وذلك لأن التسارع في سير التغير قد سبقه تسارع في وسائل المواصلات. وفي المرحلة الواقعة بين هذه وتلك، وخصوصاً في الأربعة آلاف ونصف الألف من السنين أي حول ٣٠٠٠ ق. م. الى ١٥٠٠م، كان التغير أسرع من تطور وسائل المواصلات، ومن ثم فإن التباين بين انماط الحياة الاقليمية بلغ الذروة.

وثمة فترات، حتى في هذه الحقبة ذاتها، كانت فيها أجزاء كبيرة من موطن الانسان مرتبطة بعضها بالبعض الآخر، وقد أفدت من ذلك لتقديم نظرة شاملة الى القارىء. فمن أمثلة الآفاق الواسعة التي يضعها العالم القديم امامنا، هذا التحول في الحياة الروحية الذي عرفه القرن السادس قبل الميلاد، وانتشار الحضارة الهلينية نتيجة حياة الاسكندر الكبير، والتوحيد السياسي للعالم القديم الذي تم على يد المغول في القرن الثالث عشر للميلاد والذي لم ينج منه سوى طرفي ذلك العالم. وقد كان هناك فترات مماثلة في التاريخ الأندي التي تمثلها آفاق تشافن وتياهواناكو. وعلى كل فإن الغالب على الحقبة الممتدة من ٣٠٠٠ ق. م. الى ١٥٠٠م أنه كان لكل من المناطق التي تتقسم موطن الانسان سبيلها الخاص بها. فالانعزال والتباين تغلبا على الاتصال والتمثل. فالحضارات الاقليمية تعايشت دون أن تتلاحم.

هذه حقيقة تاريخية لا بد من ان تنعكس على الرواية التاريخية. ولذلك فإن الكاتب يواجه مشكلة التحدث عن عدد من سلسلة أحداث متعاصرة. وقد لجأت الى حيل المشعوذين في الاحتفاظ بعدد من الطابات في الهواء في وقت واحد. وسرت على خطة تتلخص في أن أتناول تاريخ كل منطقة ثم أتخلى عنه بالتتابع. وقد ضحيت بمعالجة مستمرة لمناطق معينة، وبذلك تمكنت من تقديم تاريخ للعالم ككل في شكل زمني منتظم تقريباً.

وكل من الأسلوبين ـ أسلوب العرض الروائي وأسلوب التحليل والمقارنة ـ له فوائده الواضحة ونقائصه. وقد كان هدفي من هذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء هو أن أقدم عرضاً مجملاً واضحاً لتاريخ البشرية بأسلوب الحكاية.

١ - ألغاز في الظواهر الطبيعية

بعد أن يحبل بالكائن البشري ثم يولد، قد يموت الطفل قبل أن يستيقظ فيه الوعي . وحتى القرن العشرين كانت نسبة مئوية عالية الى حد القسوة من الأطفال تموت قبل مرحلة الوعي في الحياة ، إذ كانت وفيات الأطفال أمراً عادياً بشكل فظيع ، حتى في المجتمعات البشرية التي كانت تستمتع بقسط نسبي من الأمن والثراء، والتي كان لها أيضاً، ولونسبياً، حظ من المعرفة والعناية الطبية.

وقد كانت وفيات الأطفال بين البشر قبل العصر الحديث على درجة من الجسامة نفسها التي كانت بين الأرانب، فضلا عن ذلك فإن الطفل الذي قد يعيش طويلاً بحيث يحس بفجر الوعي ، قد ينقصف عمره في أي من مراحل حياته إما عمداً أو بسبب حادثة ما أو مرض ما او اصابة ما بحيث تعجز المهارة والعدة الطبية والجراحية ، التي يمكن الحصول عليها في الوقت والمكان المعينين، عن شفائه من أي منها.

وعلى كل فإن طول المدة المحتملة للعمر قد زادت زيادة تدعو الى الدهشة في المجتمعات التي تصل مبكرة الى النضج في الناحيتين الطبية والاجتماعية. وحتى في المجتمعات المتأخرة نسبياً بدأ هذا الطول بالتزايد. ففي أيامنا هذه قد يستمر الوعي عند الكائن البشري سبعين أو ثمانين سنة قبل أن يضع الموت حداً له، او قبل ان تغيبه الشيخوخة، حتى قبل الموت الطبيعي. وخلال هذه السنوات، السبعين أو الثمانين، من الوعي يدري الكائن البشري بالظواهر الطبيعية. وهذه الظواهر الطبيعية تضع أمامه عدداً من الألغاز، والألغاز النهائية لم يوضحها بعد ما وصلت اليه المعرفةوالفهم العمليات من تقدم ـ على ما في هذا التقدم من سرعة واتساع نتمتع بهما في العصر الحديث.

لقد أخذ العلماء حديثاً في الكشف عن التركيب الكيماوي للمادة وأشكالها التكوينية التي تنتج عنها الأحوال الطبيعية التي تبعث الحياة في المادة وتوقظ الوعي في الكائن الحي. وهذا التقدم العلمي حمل الينا معه اكتشافاً سلبياً واحداً الذي قد يلقي القبول بين أتباع

الأديان الآلهية، لكنه يقابل بالرفض العنيف من العقائد التقليدية، لأنه يتناقض مع هذه العقائد المؤصلة في النفس البشرية، رغم أنها لم تثبت بعد ولن يتاح لها ان تثبت. فلم يعد بالامكان اليوم الاعتقاد بأن الظواهر التي يعيها الكائن البشري قد وجدت بأمر من إله خالق هو على صورة الانسان. فهذه الطريقة التقليدية لتفسير الظواهر كان قوامها اتخاذ الأعمال البشرية مقياساً للتفسير، وهو أمر لا مبرر له. إن البشر يصيغون من الموجود من «المواد الخام» الجامدة أدوات وآلات وثياباً وبيوتاً وغيرها من الأشياء المصنوعة. ويسبغون على هذه المصنوعات وظيفة ونمطاً، وهما ليسا أصيلين في طبيعة «المواد الخام». فالوظيفة والنمط ليسا شيئاً عادياً، وهما، من وجهة النظر المادية، مخلوقان من العدم. اما ما يقدم من تفسير لوجود الظواهر الطبيعية من حيث انها ناتجة عن نشاط قوة خلاقة هي على صورة الانسان، قد فقد قدرته على الاقناع، لأن وجود إله خالق هو على صورة الانسان انما هو فرضية لم يقم دليل على إثباتها. إلا أن هذه الفرضية التقليدية، التي لا سبيل الى قبولها، لم يحل محلها بديل مقنع الى الآن.

وما نتمتع به من ازدياد في معرفتنا للأحوال الطبيعية التي تبعث الحياة والوعي والقصد في البشر، لم يحمل معه فهماً جاداً لطبيعة الحياة والغاية منها (هذا إذا كان ثمة غاية) والوعي. فهذه صيغ للوجود تختلف واحدتها عن الأخرى، كما تختلف عن المادة المركبة عضوياً والمتعلقة بها، على نحو ما تدلنا تجربتنا. فكل كائن بشري حي الذي يعرفه كائن بشري آخر او يعرف عنه، بما في ذلك الكائن نفسه، انما هو روح واع ذو قصد معين، ويعيش في جسم مادي. ولم يحدث قط أن أياً من العناصر التي يتكون منها الكائن البشري الحي أمكن التعرف عليه منفصلاً عن البقية. فالعناصر تكون دوماً مرتبطة واحدها بالآخر، ومع ذلك فإن هذه الصلة القائمة بينها ليس من سبيل الى إدراكها.

لماذا تكون بعض أجزاء من الظواهر المادية مرتبطة موقتاً بالحياة (كما تكون هذه الأجزاء في الكائنات الحية من كل نوع) ومرتبطة أيضاً بالوعي (كما تكون في الكائنات البشرية) فيما تكون الأجزاء الأخرى (التي يبدو انها تكّون القسم الأكبر من جماع المادة في المنظومة الكونية) جامدة لا وعي لها دوما ؟ وكيف تم، في مر مجرى المكان ـ الزمان، وفي نقطة ـ لحظة معينة منه (أي في هذا المحيط الحيوي الواهي الذي يغلف كرتنا الزائلة تغليفاً موقتا) للحياة والوعي أن يرتبطا بالمادة ؟ ولماذا تجهد الحياة نفسها، وهي المجسمة في مادة مركبة تركيباً عضوياً، في تخليد ذاتها، او عندما تكون الحياة ممثلة بأحياء جنسية وفانية،

تحاول استيلاد ذاتها على صورتها الصحيحة ؟ من الواضح ان الحفاظ على أي نوع من الكائنات الحية يكلف جهداً عظيماً. فهل هذا الجهد متأصل «في طبيعة النوع وفي نسله» ؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون هذا الجهد متأصلاً في طبيعة عناصر المادة العضوية، في حالتين : قبل أن تكون عضوية وبعد كونها كذلك، ما دام تشكلها العضوي يكون، الى حد كبير، فصلاً قصيراً في تاريخها ؟ واذا كان الجهد ليس متأصلاً بل دخيلاً، فما هي الوساطة التي تدخله ، إذا نحن تخلينا عن الفرضية التي تقبل فكرة تدخل إله خالق ؟

وبعد، فلنقبل حقيقة التبدل الخلقي بالنسبة الى بناء الأحياء ووظائفها. ولنقبل أيضا صحة الرأي الدارويني بأن التبدل الخلقي، المصحوب بالانتخاب الطبيعي لمدة كافية، يوضح، بشكل دقيق، التباين في الحياة الى أنواع مختلفة، وكذلك نجاح بعض الأنواع في البقاء وفشل أنواع أخرى. حتى لو قبلنا كل هذا فان التبدلات الخلقية نفسها تظل دون توضيح. فهل إن التبدلات الخلقية عرضية أو أنها مصممة أو أنها خروج على التصميم ؟ أم ترى هذه الأسئلة الثلاثة هي في غير موضعها عندما تثار بالنسبة الى الظواهر التي لا تملك الوعي ولا القدرة على التصميم ؟ ولنفرض أننا نسمح لأنفسنا أن نعنى بالأنواع غير البشرية في حدود موصوفة بالبشرية فإننا سنواجه أسئلة أخرى. إن تعرض نوع من الأنواع لأن تمر به تبدلات خلقية هو نزعة مغايرة لجهد النوع في الحفاظ على ذاته او لاستيلادها على مثاله. فهل الحفاظ على الذات المماثلة هو غاية النوع، وهي ان التبدلات الخلقية لا تعدو كونها قصوراً في النوع عن تحقيق ذاته ؟ أم هل ان النوع مهيأ للتبدل، وما محاولته في الحفاظ على الذات المماثلة إلا عقبة في سبيل هذا التبدل، وهي محاولة أساسها قوة الاستمرار ؟

هذا التباين في الحياة الذي نراه في الأنواع المختلفة يحمل في طياته المنافسة بين بعض الأنواع المختلفة وبعضها الآخر، والتعاون بين غيرها من الأنواع. فأي من هذين الصنفين من العلاقات المتناقضة هو السنة الأسمى للطبيعة ؟ ليس في العلاقات التي تقوم فيها بين الأنواع اللاواعية، سواء في ذلك التعاون او المنافسة، ما هو فعل صادر عن اختيار متعمد، ولكن الاختيار متعمد في الكائنات البشرية، وهو بالنسبة الينا، مرتبط بالحس البشري للفرق والتناقض بين الصواب والخطأ وبين الخير والشر. فما هو مصدر هذه الأحكام الخلقية التي هي، على ما يبدو، ذاتية بالنسبة الى الطبيعة البشرية لكنها غريبة بالنسبة الى طبيعة الأنواع غير البشرية ؟

وأخيراً فالكائن البشري الواعي والذي له مقصد معين والذي يملأه الحس بالتمييز

بين الصواب والخطأ والذي يحمل (حتى ولو كان هذا منافياً للباعث الخلقي) على أن يفعل ما يبدو له صحيحاً ـ هذا الكائن البشري ما هو مكانه وأهميته في الكون ؟ إن الكائن البشري يشعر كأنه مركز الكون، لأن وعيه بالذات هو، بالنسبة اليه، النقطة التي يرى منها المنظر الشامل الروحي والمادي للكون. وهو أيضاً أناني بمعنى ان الباعث الطبيعي عنده هو ان يتخذ من كل ما تبقى من الكون أداة لخدمة أغراضه. على أنه يدري، في الوقت ذاته، أنه فضلاً عن قصوره عن أن يكون مركز الكون حقاً، فهو نفسه زائل مستهلك، يضاف الى ذلك أن ضميره ينبؤه بأنه عندما يسلم نفسه للأنانية، فإنه يقع في الخطأ، خلقياً وعقلياً.

هذه هي بعض الألغاز التي تطرحها الظواهر الطبيعية امام الكائن البشري الذي يعيها. قد يستمر العلم في تقدمه، وقد لا يستمر في ذلك. وفيما إذا كان العلم سيسير قدماً أم أنه سيأسن ليس مسألة مقدرة عقلية في الانسان. إذ يبدو انه لا حدّ لمقدرة الانسان العقلية في الاستزادة من المعرفة العلمية، وفي وضع هذه المعرفة في موضع التطبيق وللتقدم في التكنولوجيا. ذلك بان مستقبل العلم او التكنولوجيا يعتمد، بعض الاعتماد، على المجتمع أي فيما اذا كان هذا المجتمع سيستمر في تقدير هذه النشاطات هذا التقدير الكبير، وفيما اذا كان سيستمر في تقديم المكافأة السخية على نحو ما جرى عليه في الأزمنة الحديثة. كما يعتمد ذلك المستقبل بعض الشيء أيضاً على موقف أصحاب القدرات العقلية الممتازة، أي فيما اذا كان هؤلاء الأشخاص سيستمرون بالعناية بالعلم والتكنولوجيا. ليس ثمة ما يضمن هذا الأمر. ذلك بأنه في مجالات النشاط البشري جمعاء تتبدل الأنماط. فمن المعقول ان يعود الدين او الفن الى مركز الصدارة من حيث اهتمام أصحاب العقول القادرة بهما، على ما كان عليه الحال في الماضي، في أماكن وأوقات مختلفة. وعلى كل فحتى لو أتيح للعلم ان يستمر في تقدمه بالمسيرة نفسها، فمن المنتظر ان لا تنقله انجازاته المقبلة الى حدود أبعد مما وصل اليه في الماضي والحاضر. قد تزداد معرفتنا عن الطريقة التي يسير فيها الكون الظاهر، لكن العلم لا يؤمل له ان ينجح في المستقبل، أكثر مما نجح في الماضي، في تمكيننا من فهم السبب في أن الكون يسير على الطريقة التي يسير عليها او حتى في واقع الأمر، لماذا الكون موجود.

وعلى كل فالكائن البشري يحتم عليه ان يعيش ويعمل، خلال حياته المضطربة (جسداً وعقلاً) في المحيط الحيوي. ومتطلبات العيش والعمل تفرض عليه ان يزود نفسه بأجوبة موقتة للألغاز التي تضعها الظواهر الطبيعية أمامه، هذا مفروض عليه حتى ولو عجز

عن الحصول على هذه الأجوبة من العلم، وحتى لو كان يعتقد بأن المعرفة العلمية هي المعرفة الوحيدة الحقة. على ان هذا الاعتقاد ليس في حرز من التشكيك فيه. ومع ذلك فإنه من الصحيح أن الأجوبة التي نعثر عليها خارج حدود العلم هي أفعال إيمان لا يمكن التثبت منها. فهي ليست شرحاً عقلياً، إنما هي حدس ديني. ومن ثم يبدو من المحتمل ان الحياة سترغم الكائنات البشرية في المستقبل، كما أرغمتها في الماضي، على ان تصيغ أجوبتها، بالنسبة للقضايا النهائية، في عبارات حدسية دينية لا يمكن التثبت منها. وقد يبدو للناظر إلى الأمور نظرة سطحية ان التعابير الدينية العائدة الى ما بعد عصر العلم ستكون بعيدة بعداً شاسعاً عن تلك العائدة الى ما قبل عصر العلم. وكل تعبير ديني سابق كان يعدل بحيث يتناسب مع النظرة العقلية للعصر والمكان حيث صيغ ذلك التعبير بالذات. ولكن الجوهري الذي هو ركيزة الدين هو، ولا ريب، ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاتها. فالدين، في الحقيقة، هو صفة ذاتية ومميزة للطبيعة البشرية. فهو الاستجابة الحتمية لتحدي غموض الظواهر الطبيعية، هذا هو التحدي الذي يواجه الكائن البشري بسبب أنه يملك هذه القدرة البشرية الفريدة ـ قدرة الوعي.

٢ ـ المحيط الحيويّ

هذه الكلمة هي من وضع تيار دوشاردان، وهي كلمة جديدة اقتضاها وصولنا الى مرحلة جديدة في مسيرة اكتشافاتنا العلمية بسبب ما نملك من قوة مادية. والمحيط الحيوي يتكون من طبقة من الأرض اليابسة والماء والهواء وهي تغلف كرة (أو الكرة تقريباً) سيارنا الأرض. وهو الآن الموطن الوحيد ـ وسيظل، بقدر ما يمكننا أن نرى ذلك الآن، الموطن الوحيد الذي يمكننا الوصول اليه ـ لجميع أنواع الكائنات الحية المعروفة، بما في ذلك البشر.

والمحيط الحيوي محدود الحجم بشكل ثابت، ومن ثم فإنه يحتوي على قدر محدود من الموارد التي تعتمد عليها مختلف أنواع الكائنات الحية في الحفاظ على كيانها. بعض هذه الموارد متجدد، والبعض الآخر لا يمكن تعويضه. وأي نوع من الأحياء الذي يفرط في استهلاك الموارد المتجددة، او يستنزف ما لا يمكن تعويضه من الموارد، يقضي على نفسه بالانقراض. وعدد الأنواع المنقرضة التي خلفت آثارها في الطبقات الجيولوجية هو كبير بشكل مذهل، إذا ما قورن بعدد الأنواع التي لا تزال موجودة.

والصفة البارزة للمحيط الحيوي هي صغر حجمه نسبياً، وضآلة الموارد التي يحتوي عليها. فمن حيث الحدود الأرضية فالمحيط الحيوي رقيق جداً. فحده الأعلى يقابل أقصى ارتفاع في الجو تظل فيه الطائرات، محمولة على الهواء، وحده الأدنى هو العمق الذي يتمكن فيه المهندسون من التعدين أو النقب، وذلك تحت سطح الجزء الصلد منه. فثخن المحيط الحيوي بين هذين الحدين، دقيق للغاية اذا قورن بطول نصف قطر الكرة التي يغلفها كالجلد الرقيق. والكرة هذه أبعد ما يمكن عن أن تكون أكبر السيارات الشمسية، وكذلك كونها أبعد هذه السيارات عن الشمس، هذه السيارات التي تدور حول الشمس في مدارات هي، في الحقيقة، اهليليجية وليست دائرية. فضلا عن ذلك فشمسنا إنما هي واحدة من عدد لا يصدق من الشموس التي

تكوّن كوكبتنا، وهذه نفسها إنما هي واحدة في عدد من الكوكبات التي لا يعرف عددها (فعدد الكوكبات المعروف يتزايد مع كل اتساع في مجال الرؤية للمراقب التي نستعملها). وهكذا فإن أبعادنا في محيطنا الحيوي بالمقارنة مع الأبعاد المعروفة للكون الطبيعي، هي دقيقة الى درجة متناهية.

والمحيط الحيوي ليس من عمر الكرة التي يغلفها الآن. إنه نتوء ـ يمكن ان يسمى إما هالة او قشرة ـ ظهر الى الوجود بعد ان بردت قشرة الكرة التي يغلفها، بحيث تم لأجزاء من مركباتها الغازية الأصلية أن تصبح سائلاً ثم تجمّد. يكاد يكون من المؤكد انه المحيط الحيوي الوحيد الموجود الآن في نظامنا الشمسي، ومن المحتمل أنه لم يوجد في نظامنا الشمسي محيط حيوي آخر، أو أنه يمكن ان يوجد في المستقبل. من المحتمل ان شموساً أخرى ـ ولعلها كثيرة ـ غير شمسنا لها سيارات. وأن البعض من بين هذه السيارات الممكن وجودها، ما يدور، كما تدور أرضنا، حول شمسه على بعد يمكنه من ان يتكون على سطحه محيط حيوي، على نحو ما عندنا. ولكن فيما لو أمكن، في الحقيقة، وجود محيطات حيوية أخرى. فلا يمكن القول بأنها حتماً مواطن لكائنات حية، كما هي الحال في محيطنا الحيوي. ففي المواطن الممكنة الحياة فيها، ليس من الضروري لهذه الحالة التي نعيشها أن تتحقق.

ان التشكل الطبيعي للمادة المركبة عضوياً قد أصبح الآن معروفاً. ولكن، كما لاحظنا من قبل، نجد ان الوعاء الطبيعي للحياة والوعي والقصد ليس هو الشيء ذاته كالحياة والوعي والقصد. نحن لا نعرف كيف أو لماذا وجدت الحياة والوعي والقصد حول سطح أرضنا. وعلى كل فإننا نعرف أنه بسبب التفاعل بين الأحياء والمادة غير العضوية، قد أعيد توزيع العناصر المادية مكانيا. كما أن هذه العناصر أعيد تركيبها كيماوياً. ونعرف أن إحدى النتائج التي ترتبت على تكون الأحياء «البدائية» كانت تزويد المحيط الحيوي بمصفاة للاشعاع المسلط عليه باستمرار من شمسنا ومن مصادر أخرى خارجية. وبذلك أصبح هذا الاشعاع يدخل محيطنا الحيوي الآن بدرجة من القوة ليست محتملة فحسب، ولكنها صالحة لأنماط من الحياة العليا (إن تعبير «العليا» يقصد به ما كان من أشكال الحياة قريباً من النوع المعروف باسم الانسان العاقل Homo Sapiens ـ وهو استعمال نسبي وذاتي لكلمة «عليا»).

ونحن نعرف أيضاً ان المادة التي يحتوي عليها محيطنا الحيوي كانت، ولا تزال، في

تبادل أو تداور مستمر بين الأجزاء من هذه المادة التي هي، في لحظة معينة، جامدة وحية. وأن بعض أقسام الجزء الحي، في تلك اللحظة المعينة بالذات هي نبات والبعض الآخر حيوان، وفي القسم الحيواني بعض النماذج غير البشرية والبعض الآخر بشريّ. والمحيط الحيوي يوجد ويبقى حياً بواسطة تنظيم ذاتي وصيانة ذاتية دقيقتين لتوازن القوى. وعناصر المحيط الحيوي يتكل واحدها على الآخر، والانسان يعتمد في صلته ببقية المحيط الحيوي كما يعتمد أي من عناصر المحيط الحيوي الحالية. وعندما يكون ثمة فعل تفكير فإن الكائن البشري يمكنه أن يميز نفسه عن بقية البشرية وعن بقية المحيط الحيوي، وعن بقية الكون الطبيعي والروحي. ومع ذلك فإن الطبيعة البشرية، بما في ذلك الوعي والضمير البشريان والكيان البشري أيضاً ـ هذه الطبيعة البشرية قائمة في المحيط الحيوي. وليس لدينا أي دليل على ان الكائنات البشرية، كأفراد، أو أن البشر بأجمعهم، أمكنهم أن يوجدوا، أو أنهم وجدوا، خارج نطاق الحياة التي يوفرها المحيط الحيوي. وفيما لو فقد المحيط الحيوي إمكانه في أن يكون موطن الحياة فإن البشرية، على حد ما نعرف، تتعرض للهلاك، الأمر الذي سيصيب حينئذ أشكال الحياة جمعاء.

يضاف الى ذلك أن أقرب محيط حيوي محتمل وجوده الى محيطنا (هذا إذا كان وجوده، اضافة الى محيطنا، ممكنا في المنظومة الكونية) قد يكون على بعد مئات الملايين من السنين الضوئية من سيارنا. ففي جيلنا نحن تمكن بضعة من الكائنات البشرية من ان تهبط على سطح قمر سيارنا، وبعد قضاء فترة قصيرة هناك، أمكن إعادتهم أحياء الى الأرض في كل حالة تقريبا. وقد كان نصراً عظيماً للعلم في تطبيقه على التكنولوجيا، إلا أنه كان نصراً أكثر روعة للتآلف الاجتماعي، اذا اعتبرنا أنه، الى الآن، كان نجاح الكائنات البشرية في تنظيم علاقاتها بعضها مع البعض الآخر أقل منه في سيطرتها على الجزء اللابشري من الطبيعة. فهذا العمل البارع علمنا بضعة دروس ذات أهمية علمية في تقدير مستقبلنا واختيار سياستنا على الأرض.

إن القمر أقرب الى الأرض من أي نجم آخر، وهو تابع لسيارنا. ومع ذلك فإن إرسال بضعة رجال الى القمر لبضع ساعات اقتضى عملاً مدبراً تدبيراً دقيقاً وتعاوناً بالغاً في الحماسة وقام به بضع مئات من آلاف الكائنات البشرية. واقتضى كذلك إنفاق كميات هائلة من الموارد المادية كما تطلب قسطاً كبيراً من الشجاعة والمقدرة، وهي من أندر وأثمن ما تملكه البشرية. وحتى لو ثبت ان القمر غني في موارده اللازمة للحياة

البشرية غنى الاميركيتين، فإن استغلال هذه الموارد لن يكون مستمراً من الناحية الاقتصادية. فاستعمار أناس من الأرض للقمر استعماراً مستمراً لن يكون عملياً. فالأجسام البشرية لها تركيب طبيعي يمكنها من تحمل جذب الكتلة الأرضية والضغط المعين للغلاف الهوائي المحيط بالأرض، دون أن تشعر هذه الأجسام بأي إرهاق. وتحتاج هذه الأجسام الى طعام بشكل مواد عضوية مختلفة، إما نباتية أو حيوانية. وقد كانت هذه الأمور والضروريات جاهزة في الأميركيتين للأوروبيين لما وصلوهما عبر المحيط الأطلسي في القرن العاشر الميلادي من اسكندنافيا وفي القرن الخامس عشر من اسبانية. وكان التقاؤهم بالكائنات البشرية التي سبقتهم الى الاميركيتين واحتلتها دليلاً على أن تلك الأجزاء الأخرى من الأرض اليابسة لكرتنا كانت مأهولة.

القمر لا يصلح موطناً لأي شكل من أشكال الحياة. والمادة القمرية الوحيدة التي يمكن ان تكون مصدراً للكائنات البشرية هي مادة جامدة، وهي مادة لم تكن قط مادة عضوية ولو مؤقتاً. ولكي يمكن الاستفادة من هذه المادة القمرية فإنه يتوجب ان يقوم بنقلها، من القمر الى الأرض، أناس ينصبون خيامهم على القمر ويعملون هناك حيث تعترض سبلهم أحوال صعبة للغاية. ولن يكون في ذلك ربح، كما كان في حمل التبغ من اميركا الى اوروبة، واستغلال نباتات أخرى ـ مثل الذرة الصفراء والبطاطا ـ في أوروبة وآسية. وهذه النباتات كان قد دجنها في أميركا أولئك الذين سبقوا الأوروبيين، والذين كانوا قد وصلوا أميركا من الجهة المقابلة.

مع أنه لا القمر ولا السيارات الشقيقة للأرض ـ وكلها أبعد عن الأرض من القمر ـ صالحة لأن تكون موطناً لسكان محيطنا الحيوي، فإنه من الجائز ان يكون لشمس غير شمسنا ـ ربما تكون شمساً في كوكبة أخرى ـ سيار قد يصلح لسكنانا. ولكن حتى لو تمكنا من تعيين سيار آخر صالح للعيش فيه، فإنه لن يكون من المتيسر للمسافرين من محيطنا الحيوي الوصول اليه. ولنفرض اننا اكتشفنا كيف نتبع مساراً دون ان ننجذب في طريقنا الى واحد من هذه الأفران المتأججة النيران من الشموس الدائمة الحركة عبر الفضاء، فان الرحلة قد تحتاج الى مئة من السنوات. ومن ثم فإنه يتحتم علينا ان نصنع سفينة فضاء بحيث يتمكن المسافرون فيها من انجاب اولاد يعيشون في السفينة، وينجبون هم الأولاد والأحفاد بدورهم، قبل ان تهبط مركبتنا وتنزل الجيل الثالث أو الرابع. وحتى اذا كان هذا الجيل الواصل هناك يأمل في الحصول على هواء صالح

للتنفس وماء مناسب للشرب وطعام نافع للأكل وضغط جوي وجذب محتملين في هذه البقعة المطابقة لمحيطنا الحيوي، فإن المركبة (وهي فلك نوح مصنوع على طريقة حديثة) التي نقلتهم من محيط حيوي صالح للعيش الى آخر، يجب ان تخزن فيها حاجات أجيال متتابعة بحيث تكفيهم لقرن ـ حاجات من الهواء والماء. يبدو أنه من غير المتوقع ان مثل هذه الرحلة يمكن أن تتم حقاً.

إذن فإن معرفتنا وتجربتنا الحاليتين تشيران الى القول الفصل بأن موطن سكان المحيط الحيوي على سطح الأرض سيظل مقصوراً على هذه الكبسولة التي ظهرت فيها الحياة، على الشكل الذي نعرفه، ومع أنه من المحتمل ان تكون هناك محيطات حيوية أخرى، صالحة لسكان محيطنا الحيوي، فإنه من غير الممكن ان يكون باستطاعتنا الوصول الى أي منها واستعماره، بحيث ان مثل هذا الاحتمال لا يمكن النظر اليه نظرة عاقلة. هذا الخيال المغرب هو، في الواقع طوباوي.

إذا كنا نستنتج أن محيطنا الحيوي الحالي، الذي كان موطننا الوحيد حتى الآن، هو أيضاً الموطن الطبيعي الوحيد الذي يمكن ان يكون لنا، فمثل هذا الاستنتاج سيحملنا على تركيز تفكيرنا وجهدنا على هذا المحيط الحيوي: على التعرف الى تاريخه، والتفكير بمستقبله، والقيام بكل ما يستطيع الفعل البشري أن يقوم به لنتأكد من ان هذا المحيط الحيوي ـ والذي هو بالنسبة لنا هو المحيط الحيوي ـ سيظل صالحاً للعيش الى أن يفقد هذه الخاصية في نهاية المطاف بسبب القوى الكونية الخارجة عن السيطرة البشرية.

إن القوة المادية التي تستمتع بها البشرية قد ازدادت الآن الى درجة قد تجعل المحيط الحيوي غير صالح للسكن، وفي الواقع فإنها ستؤدي الى هذه النتيجة الانتحارية في فترة قصيرة من الزمن، هذا ما لم يقم سكان العالم الآن بعمل مشترك فوري حازم لوقف التلوث والنهب اللذين يفرضهما على المحيط الحيوي الطمع البشري القصير النظر. وفي الناحية الأخرى فإن قوى البشرية المادية لن تتوقف عن التأكد من ان المحيط الحيوي سيظل صالحا للسكن ما دمنا نحن نمتنع عن تدميره. ذلك أنه مع أن المحيط الحيوي غير محدود، فهو لا يملك الاكتفاء الذاتي. والأرض الأم لم تتولد فيها الحياة تولداً عذرياً. فقد ظهرت الحياة في المحيط الحيوي نتيجة تلقيح الأرض الأم من أبٍ: آتون إله الفرعون أخناتون، قرص الشمس، وهو الشمس التي لا تقهر، والتي كان أباطرة الرومان الاليريون يقبلون بها من عهد أورليان إلى أيام قسطنطين الكبير.

ومعين المحيط الحيوي من الطاقة الطبيعية - وهو في الوقت ذاته مصدر الحياة ومصدر القوة الطبيعية الكائنة في الطبيعة الجامدة وهي الطبيعة التي سخرها الانسان الآن - لا ينشأ في المحيط الحيوي بالذات. فهذه الطاقة الطبيعية كانت تشع، ولا تزال تفعل ذلك باستمرار، الى المحيط الحيوي من شمسنا، ومن غيرها من المصادر الكونية. ودور المحيط الحيوي في تقبل هذا الاشعاع الذي يأتيه من خارج حدوده لا يعدو ان يكون انتقائياً. لقد ذكر ان المحيط الجوي يصفي الاشعاع الذي يأتيه فيسمح للأشعة المعطية للحياة ويرفض القاتلة. لكن هذا الدور الخير الذي يقوم به الاشعاع من المصادر الخارجية بالنسبة الى المحيط الحيوي سيستمر خيراً ما دامت المصفاة لا تعطل عن القيام بعملها، وما دامت مصادر الاشعاع تبقى ثابتة، وشمسنا مثل كل شمس أخرى في الكون النجمي، يصيبها التبدل باستمرار. ومن المعقول ان هذه التبدلات الكونية - سواء في شمسنا او في نجوم غيرها - قد تُبدِّل، في وقت ما في المستقبل، الاشعاع الذي يتقبله محيطنا الحيوي بحيث يصبح ما هو الآن محيط «حيوي» مكاناً غير صالح للعيش. وفيما إذا، او عندما، يتعرض محيطنا الحيوي لمثل هذه المصيبة، يبدو انه من غير المحتمل أن قوى البشر المادية ستكون كبيرة بحيث تقاوم تبدلاً مميتاً في فعل القوى الكونية.

ولننظر الآن في الأجزاء المركب منها المحيط الحيوي وفي طبيعة العلاقة بينها. هناك ثلاثة أجزاء يتركب منها المحيط الحيوي: أولها مادة لم تصبها الحياة بعد إذ لم يصبها بعد تركيب عضوي؛ ثانيها مادة عضوية حية؛ وثالثها مادة جامدة التي كانت في وقت من الأوقات حية وعضوية، والتي لا تزال تحتفظ ببعض الصفات والقوى العضوية. نحن نعرف ان المحيط الحيوي احدث عهداً من السيار الذي يغلفه، ونحن نعرف أيضاً أن الحياة والوعي، في داخل المحيط الحيوي نفسه، لم يكونا موجودين للمدة ذاتها التي كانت المادة التي ارتبطا بها موجودة. والطبقة من المادة التي هي الآن محيط حيوي كانت في وقت ما جامدة ولا واعية كلياً، على ما لا يزال عليه الجزء الأكبر من مادة الأرض الآن. ولا نعرف كيف أو لماذا أصبح جزء من الكيان المادي للمحيط الحيوي في النهاية حياً. كما لا نعرف كيف ولماذا أصبح جزء من هذه المادة الحية واعياً. ونستطيع أن نصوغ السؤال ذاته بالعكس: كيف ولماذا أصبحت الحياة والوعي مجسمين؟ ولكن الجواب، حتى على هذه الصيغة المعكوسة لا يزال يمتنع علينا.

والجزء الذي كان من قبل عضوياً من المحيط الحيوي ضخم الى درجة مدهشة،

وقد زود البشرية ببعض أهم الموارد التي صانت الحياة البشرية. وقد أصبح من المعروف ان الرفوف المرجانية والجزر إنما انتجتها آلاف مؤلفة من الحييوينات التي أضاف كل منها إضافة بالغة في الصغر من الصخر الصناعي الصلب الدائم. والعمل الذي قامت به هذه الحييوينات، عبر الحقب الطويلة، قد أضاف إضافة محسوسة الى الأرض الجافة من المحيط الحيوي التي تصلح لمعيشة الأشكال غير المائية من الحياة. وقد بنت هذه الأحياء الدقيقة، وهي كثيرة وكدودة، مساحة إجمالية من الأرض الجزيرية أكبر مما بنته القوة الجامدة بفعل البراكين. وهذه كانت تباري الحييوينات التي تصنع المرجان في تكويم مادة صلبة تحت الماء حتى أصبحت جزيرة تظهر فوق سطح الماء.

إنه من المعروف اليوم ان الفحم الحجري هو نتاج بقايا الأشجار التي كانت حية في وقت ما، وأن التربة الخصبة تستمد جزءا من خصبها عن طريق مرورها بأجسام الدود وعن طريق وجود أنواع من البكتيريا التي تزيد من مقدرة التربة على تغذية النبات؛ إلا أن الرجل العادي تأخذه الدهشة إذا ذكر له جيولوجي ان الصخر الكلسي، الذي تقع عليه العين الآن في الآفاق المشرخة لبعض سلاسل الجبال الحالية في المحيط الحيوي، إنما هو ترسبات قرون طويلة من القواقع والعظام التي خلفتها الحيوانات البحرية التي اختفت في قيعان البحار؛ وأن تلك الترسبات الأفقية من المادة التي كانت حية عضوية إنما تعوّجت - في وقت قريب من أيامنا بحساب الأوقات التي يأخذ بها الجيولوجيون - بسبب تقلص في قشرة الأرض حتى تغضنت هذه المادة واتخذت أشكالها المعوجة الحالية. وقد تزداد دهشة الرجل البادىء إذا قيل له إن الاحتياطي الكبير من الزيت المعدني المخزون في جوف الأرض قد يكون هو أيضاً من مادة كانت عضوية - أي أنه قد يكون أقرب الى الفحم الحجري منه الى الحديد أو حجر الغرانيت: وهاتان المادتان لم تمرّا قط بمرحلة عضوية في تشكل الجزئيات التي تكوّنها.

والحجم المذهل لكمية المادة العضوية سابقاً في المحيط الحيوي تستدعي انتباهنا الى نواح مزعجة في تاريخ الحياة (وهو الذي يسمى خطأ «التطور» وهي كلمة لا تعني التغير الأصيل بل تعني فقط «نشر» شيء كان دوماً موجوداً في حالة كامنة). فقد تباينت الحياة الى أجناس وأنواع، وكل نوع يتمثل في عدد من النماذج. وتعدد الأنواع والنماذج كان الوضع الدافع لتقدم الحياة من الأحياء البسيطة والضعيفة نسبياً الى تلك المعقدة والقوية نسبياً، ولكن ثمن هذا التقدم الذي تم عن طريق الانقسام والتباين كان المنافسة

والصراع. فكل نوع وكل نموذج من كل نوع كان ينافس غيره في سبيل كسب تلك العناصر من المحيط الحيوي، الحي منها والجامد على السواء، التي كانت بالنسبة الى نوع معين والى نماذجه مورد الغذاء، بمعنى انها كانت واسطة ناجعة للحفاظ على الحياة. وقد كانت المنافسة في بعض الحالات غير مباشرة. فقد يبيد نوع، أو نموذج من نوع آخر مثله، لا بالهجوم عليه او استئصاله، بل بأن يستحوذ لنفسه على حصة الأسد من مورد غذاء هو، بالنسبة الى كلا المتنافسين، من ضرورات الحياة. فعندما تتنازع نماذج من أنواع غير بشرية، أي من الحيوان، على الطعام أو الماء او التزواج فالخاسر، على ما هو معروف عنها، يطلب مأوى من الرابح ويحصل على ذلك لقاء خضوعه. ومن المعروف ان الكائنات البشرية هي الحيوانات الوحيدة التي تقتتل فيما بينها حتى الموت، وأنها تثخن قتلاً في نساء «العدو» وأطفاله وشيوخه كما تفعل ذلك بالمقاتلة من الذكور. وهذه الصفة البشرية المميزة من الوحشية كانت تمارس في فيتنام في اللحظة التي كنت أكتب فيها هذه الكلمات في لندن. وقد امتد الاحتفال بها (وبذا نالت اللعنة بدون قصد) في أعمال فنية صنعت خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة: مثال ذلك ملونة نارمر؛ ونقش أيناتوم، ونصب نارامن وآثار من تبعه من مضاهيه الأشوريين، والملاحم الهوميرية الاغريقية، وعامود تراجان في روما .

ومن هنا فإن تقدم الحياة كان، على خير ما فيه، طفيلياً، أما في أسوأ حالاته فقد كان سلاباً نهاباً. فمملكة الحيوان كانت، بالنسبة الى مملكة النبات، طفيلية. فالحيوانات (على الأقل الحيوانات غير البحرية) ما كانت لتظهر إلى حيز الوجود لو لم تكن النباتات قد سبقتها إلى الظهور. فكانت بذلك مصدراً يزود الحيوانات بالهواء وبالطعام اللازمين لحياتها؛ وبعض أنواع حيوانات تحافظ على كيانها بقتل أنواع أخرى من الحيوانات وافتراسها، والانسان أصبح من صنف أكلة اللحوم منذ الوقت الذي نزل فيه من ملجأه القائم في الأشجار وغامر على سطح الأرض قاتلاً، أو مقتولاً. أما الفرائس التي دفعت ثمن تقدم الحياة فهي الأنواع التي انقرضت وتلك التي تمثل الأنواع الباقية المعرضة للتقتيل باستمرار. وقد دجن الانسان بضعة أنواع من الحيوانات (غير البشرية) وذلك ليستحوذ على نتاجها ـ كالحليب والعسل ـ وهي حية، ثم ليقتلها بقسوة ليستعين بلحمها طعاماً، وبعظامها وأوتارها وجلودها وفرائها خامات لصنع الأدوات والثياب.

وقد سطت الكائنات البشرية بعضها على البعض الآخر. فأكل لحوم البشر

والاسترقاق عرفتهما مجتمعات متطورة ـ فكلا الأمرين الفاحشين عرفا في ميزو ـ أميركا في الزمن السابق لوصول كولمبوس ، والرق عرفته المجتمعات اليونانية ـ الرومانية والاسلامية والغربية الحديثة . فالرقيق هو كائن بشري لكنه يعامل كما لو كان حيواناً أليفاً غير بشري ؛ وخلال القرنين الماضيين ظهرت حركة لإلغاء استرقاق الكائنات البشرية . وفي هذه الحركة اعترف ضمنا بالشناعة التي عامل بها الانسان الحيوانات غير البشرية . فضلاً عن ذلك فإن تحرير العبيد القانوني قد لا يؤدي الى تحريرهم واقعياً، ذلك بأن المحرر قانونيا قد يستغل بطريقة فيها معنى العبودية . فالمعمر الروماني من أهل القرن الرابع الميلادي الذي كان حرّاً اسما، ومعاصره الروماني كانا أقل حرية في الواقع من رقيق روماني من أهل القرن الأول للميلاد، الذي قد يكون راعياً أو مدبراً لمزرعة للرقيق أو كاتباً (رقيقاً) في حاشية الامبراطور أو مملوكاً مسلماً (ولكن بالنسبة لهذا المملوك فإن استرقاقه الشرعي قد يفتح امامه الطريق ليصبح سيد عدد من المحررين قانوناً أي المعتقين شرعاً، ولكن العتق يشمله هو أيضاً) . والسود في الولايات المتحدة الذين حرروا قانوناً في سنة ١٨٦٢ لا يزالون يشعرون الى الآن ، وقد مرّ على تحريرهم أكثر من قرن ، بأن الغالبية البيضاء من مواطنيهم لا تزال تنكر عليهم حقوقهم المدنية الكاملة، وهم في شعورهم هذا على شيء كثير من الحق .

والبشاعة التي يختص بها البشر والتي هي صائرة الى الزوال بخطى وئيدة هي القتل عن طريق تقديم الضحايا البشرية بشكل طقسي . لقد أدين القتل عندما يكون الدافع اليه الطمع الشخصي او الحقد. والقتل عقاباً للقتل أمر مستنكر باستمرار. ولم يقتصر الالغاء على الثأر الدموي الشخصي ، بل تعدى ذلك الى الاعدام الرسمي في بعض الدول المعاصرة. والقتل الطقسي حرم أيضاً في الحالات التي يكون فيها الإله الذي تقدم له الضحية البشرية تجسيماً لأحد المصادر الطبيعية اللازمة للحفاظ على الحياة البشرية ـ على سبيل المثال المطر والغلات والأنعام . ومع ذلك فإننا نجد، انه منذ ان تفوق الانسان على الطبيعة غير البشرية، أن الآلهة التي عبدت بالتقوى والتعصب والقسوة أكثر من سواها هي الآلهة المجسدة للقوة البشرية المجتمعة المنظمة التي مكنت للانسان من هذا الانتصار على الطبيعة غير البشرية .

إن الدول ذات السيادة كانت، خلال الخمسة آلاف السنة الماضية، أسمى ما يعبد، وهذه الآلهة هي التي طلبت قرابين كثيرة من الضحايا البشرية ونالتها . فالدول

ذات السيادة تحارب واحدتها الأخرى، وتجنّد في سبيل ذلك خيار مواطنيها الشباب ليقتلوا مواطني الدولة العدو، وبذلك تعرضهم لخطر قتلهم أنفسهم على يد أولئك المفروض ان يكونوا فريسة لهم. وحتى الوقت الذي تعيه ذاكرة الأحياء كانت الكائنات البشرية، باستثناء أقليات ضئيلة ـ مثل أعضاء جمعية الأصدقاء (الفرندز او الكويكرز)ـ تعتبر القتل والسقوط في المعركة أمراً حرياً بالثناء وليس أمراً مشروعاً فحسب. فالقتل في الحرب، مثل القتل لتنفيذ حكم بالاعدام، كل يتغاضى عنه باعتباره ليس قتلاً، وهو أمر فيه من التناقض ما فيه.

فهل كان تقدم الحياة في المحيط الحيوي أمراً يستحق مثل هذا الثمن من الألم الشديد؟ هل الكائن البشري أثمن من الشجرة، وهل الشجرة أثمن من جرثومة الأميبا؟ إن تقدم الحياة أنتج سلسلة متصاعدة من الأنواع، هذا اذا قدرنا التصاعد بمعنى القوة. فالبشرية هي أقوى الأنواع التي ارتقت الى الآن، لكن البشرية وحدها شرّ. فالكائنات البشرية فريدة في مقدرتها على الشر، لأنها الوحيدة التي تملك الوعي لما تفعل ولما تختار بقصد. كان الشاعر وليام بلايك William Blake يرى أن المخلوقات الحية، حسب النظرة التقليدية، هي من صنع إله خالق على صورة الانسان، ومن ثم فقد هاله حقاً أن يخلق النمر. ولكن النمر، على عكس كل من الانسان والاله الخالق الفرضي، بريء. فالنمر الذي يرضي جوعه، عندما يقتل فريسة ويأكلها، لا يتألم من وخز الضمير. وفي الناحية الأخرى فإن الأمر الذي ليس له غاية ولا ضرورة والذي يبلغ الغاية في الاثم هو أن يكون إله قد خلق النمر ليفترس الحمل، وخلق الكائن البشري ليقتل النمر، وخلق المكروب والفيروس ليحتفظ بنوعه عن طريق قتل الانسان بالجملة.

ومن ثم فإن تقدم الحياة يبدو ـ من النظرة الأولى، شراً. شرّ من الناحية الموضوعية، حتى ولو اطرحنا جانباً الاعتقاد بأن هذا الشر خلقه إله قصداً، فيما لو أنه فعل ذلك متعمداً، لكان هو نفسه أمعن في الشر من أي كائن بشري كان في مقدوره ان يكون شريراً. وعلى كل فهذا الحكم الأولي على آثار التقدم في الحياة يشهد على انه إضافة الى الشر الموجود في المحيط الحيوي، يوجد في هذا المحيط الحيوي ضمير هو الذي يدين ما هو شر ويكرهه.

والضمير مستقر في الانسان. وثورة الضمير البشري ضد الشر دليل على ان الانسان قادر أيضاً على ان يكون خيراً. ونحن نعرف من التجربة أن الكائنات البشرية

بإمكانها ان تتصرف لا أنانياً ولا سعياً وراء غاية، الى حد أنها تضحي بنفسها في سبيل الآخرين. وهي لا تملك القدرة على الفعل فقط، ولكنها أحياناً تفعل ذلك. ونحن نعرف أيضاً ان التضحية بالنفس ليست فضيلة مقصورة على البشر. والباعث المعروف للتضحية بالنفس هو حب الأم لأطفالها، والأمهات من البشر لسن الوحيدات في التضحية بأنفسهن في هذا السبيل. فالتضحية بالنفس على أساس حب الأم لصغارها موجودة في أنواع أخرى من الثدييات، وفي الطيور أيضاً.

فضلاً عن ذلك فإن تلك الأنواع التي تحافظ على نفسها بطريقة التوالد تلقى من نماذجها الحية تعاوناً بين ممثلين للجنسين، وهو تعاون لا تجني الأفراد نفسها منه فائدة مباشرة. بل هو خدمة تقوم بها لمصلحة النوع. وإذا ألقينا على الأمر نظرة شاملة يمكننا أن نرى أن التفاعل بين مختلف أنواع الحياة لا يتخذ دوماً سبيل المنافسة والصراع. ففيما تكون العلاقة بين المملكة النباتية والمملكة الحيوانية، من ناحية، علاقة مضيف مستغل وطفيلي فتاك، نجد، من ناحية أخرى، ان المملكتين تتصرفان كشريكين يعملان في سبيل مصلحة عامة هي الحفاظ على المحيط الحيوي، صالحاً للعيش للنبات والحيوان على السواء. وهذا التفاعل التعاوني هو الذي يضمن، على سبيل المثال، توزيع الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون ودوراتهما في حركة متواترة تجعل الحياة ممكنة.

وهكذا فإن تقدم الحياة في المحيط الحيوي يبدو أنه يكشف في نفسه عن نزعتين لا أخلاقيتين ومتضادتين. وعندما يستعرض كائن بشري تاريخ المحيط الحيوي الى الآن، يجد انه انتج الشر والخير، والفجور والفضيلة. وهذه كلها، بطبيعة الحال، مفاهيم بشرية. فالكائن الذي يملك الوعي هو الوحيد الذي يمكنه التمييز بين الشر والخير، والذي يستطيع الاختيار في أن يتصرف تصرفاً فاجراً أو تصرفاً فاضلاً. فهذه المفاهيم لا وجود لها في المخلوقات الحية غير البشرية، ولذلك فإن الأحكام البشرية هي التي تراها شريرة أو خيّرة.

هل معنى هذا هو أن المقاييس الخلقية يفرضها اعتباطاً أمر بشري، وأن مثل هذا الأمر لا ارتباط له بحقائق الحياة وهو إذن طوباوي؟ لعله كان يتوجب علينا ان نصل الى هذه النتيجة لو ان الانسان لا يعدو ان يكون مشاهداً ومراقباً ينظر الى المحيط الحيوي ويقدره من الخارج. من المؤكد ان الانسان هو مشاهد ومراقب. فهذان الدوران هما نتيجة مقدرته على الوعي. وبالتالي قدرته وحاجته، اللتين لا يمكن التملص منهما

لانتقاء اختيارات خلقيـة وإصدار أحكـام خلقية. ولكن البشـرية هي أيضـاً فروع من شجرة الحياة؛ ونحن أحدمنتوجات التقدم في الحيـاة. وهذا يعني ان مـا عند الانسـان من مقاييس وأحكام خلقية هي ذاتية وملازمة للمحيط الحيـوي. ومن ثم فهي كذلـك بالنسبة للحقيقة الكلية التي يكون المحيط الحيوي جزءا منها. وإذن فالحياة والوعي والخير والشـر ليس أقل في حقيقتهـا من المادة المقتـرنة بهـا بشكـل غـامض في إطـار المحيط الحيوي. وإذا كنا نخمّن ان المادة عنصر فطري من الحقيقة، فليس هناك سبب للقول بأن هذه المظاهر غير المادية للحقيقة هي ليست عنصراً فطرياً كذلك.

وعلى كل حال ففي تقدم الحياة في المحيط الحيوي نجد ان الوعي ظهـر في زمن حديث بالنسبة الى ظهور الانسـان. وقد أدركنـا، إدراكاً متـأخراً ومفـاجئاً، أن وجـود الانسان يهدد الآن صلاحية المحيط الحيوي للعيش فيه لكل أشكال الحياة، بما في ذلك الحياة البشرية نفسها. فالى الوقت الحاضر أدت المنافسة والصراع، اللذان كانا وجهاً من وجوه تقدم الحياة الى انقراض عدد من أنواع الكائنات الحيـة كما ابتليـا بنماذج لا تحـد أعدادها من كل الأنواع بـالموت السـابق لأوانه وكـان موتـاً عنيفاً ومؤلمـاً. وقد دفعت البشرية ضريبة من الضحايا البشرية من ابنائها. اضافة الى انها وجهت ضربات قـاتلة لأنواع مزاحمة لها من الضـاوري وأبادت عدداً من أنواع النبات. حتى أسماك القـرش والبكتيريا والفيروس لم يعد باستطاعتها ان تكون أنداداً لخصومها من البشر. وعلى كل فإن القضاء على أنواع خاصة ونماذج فردية من بعض الأنواع لا يظهر انه يحمل في طياته تهديداً لاستمرار الحياة بالذات، حتى يومنا هذا. فحتى الآن كان فناء بعض الأنواع من الأحياء يتيح الفرصة لأنواع أخرى بأن تترعرع.

وقـد كان الانسـان أبعد الأنـواع نجاحـاً في التحكم في أجـزاء المحيط الحيـوي الأخرى، الحية منها والجامدة على السواء. ففي فجر وعيه وجد الانسان نفسه تحت رحمة الطبيعة غير البشرية فصمم على ان يجعل من نفسه سيداً للطبيعة غير البشرية. وقد تقدم بتؤدة نحو بلوغ هذا الهدف. ففي غضون العشرة آلاف السنة الماضية تحدى الانسان الانتخاب الطبيعي واستعاض عنه بالانتخاب البشري، بقدر ما كان ذلك في مقدوره. فشجع بقاء النباتات والحيوانات التي دجنها لحاجاته الخـاصة. وعمـل على إبـادة بعض الأنواع الأخرى التي وجدها بغيضة وضارة. وقد سمى هذه الأنواع غير المرغوب فيهـا أعشاباً وحشرات. وباعطائه إياها هذه الأسماء المزدراة فقد أنذرها بأنه عـازم على بـذل

جهده لابادتها. وبقدر ما نجح الانسان في الاستعاضة بالانتخاب البشري عن الانتخاب الطبيعي فقد أنقص عدد الأنواع الباقية.

على أنه في غضون المرحلة الأولى من وجوده، وهي التي كانت الى الآن أطول مرحلة، لم يترك الانسان على المحيط الحيوي طابعاً يقارب في الأثر الطابع الذي تركته الكائنات الحية المعايشة له من الأنواع الأخرى. إن أهرام الجيزة وأهرام تيوتيهوا كان والجبال التي بناها الانسان في تشولولو وسكاي تجعل الهياكل والكاتدرائيات وناطحات السحاب التي شادها الانسان فيها تلا من العصور تبدو شيئاً صغيراً. ولكن أضخم الآثار التي أقامها الانسان هي ضئيلة اذا قورنت بعمل الحييوينات التي بنت الجزر المرجانية.

منذ فجر المدنية، قبل نحو خمسة آلاف سنة، وعى الانسان القدرة الفائقة التي آلت اليه في المحيط الحيوي. وقبل بدء الحقبة المسيحية كان قد اكتشف أن المحيط الحيوي هو غلاف «محدود» يحيط بسطح نجم هو الكرة الأرضية. ومنذ القرن الخامس عشر والأوروبيون يستولون على أجزاء المحيط الحيوي الأرضية التي كانت من قبل قليلة السكان ويستوطنونها. ومع ذلك فإن البشرية كانت، حتى الجيل الحاضر، تتصرف كما لو أن المخزون من موارد المحيط الحيوي التي هي غير قابلة للتعويض - مثل المعادن - غير قابل للنفاذ، وكما لو أن البحر والهواء غير قابلين للتلوث.

وفي واقع الأمر فإن عناصر المحيط الحيوي كانت تبدو، حتى الى قبل فترة قصيرة، غير محدودة، إذا قيست بمقدرة الانسان على استهلاكها او تلويثها. في حداثتي (أنا مولود سنة ١٨٨٩) كان يعتبر من الوهم حتى ان يتخيل المرء أن الانسان قد يملك من القدرة ما يمكنه من تلويث كل الجو المغلف للمحيط الحيوي، مع انه في لندن، حيث ترعرعت ومانشستر وسنت لويس وفي عدد من المدن التي كانت تتضخم باستمرار - في هذه كان الدخان المتصاعد من حرق الفحم الحجري في المنازل والمصانع ينتج الضباب الذي كان يحجب نور الشمس ويختنق به البشر أياماً طويلة. مثل هذا الخطر الذي كان يهدد نقاء الجو كان يصرف النظر عنه على أنه لا يزيد عن إزعاج محلي وعابر. أما احتمال تلويث البحر بسبب النشاطات البشرية فقد كان ينظر اليه على أنه وهم في غاية السخف.

وفي حقيقة الأمر فإن البشرية كانت، الى الربع الثالث من القرن العشرين الميلادي، تقلل من أهمية التزايد الحديث في قدرتها على التأثير على المحيط الحيوي. وقد

نتج هذا التزايد عن تحولين جديدين: أولهما متابعة البحث العلمي المنظم الهادف، وتطبيق هذا على تقدم التكنولوجيا، وثانيهما تسخير الطاقة الطبيعية، الظاهرة او المستترة، الموجودة في العناصر الجامدة في المحيط الحيوي، في خدمة الأغراض البشرية. وعلى سبيل المثال الطاقة المائية التي تجري دوماً في اتجاه سفلي نحو سطح البحر، بعد ان تكون قد حملت من سطح البحر الى الجو. فهذه القوة المائية المنحدرة بقوة الجذب، والتي كانت لا تستعمل من قبل إلا لطحن الحبوب، أصبحت منذ بدء الثورة الصناعية في بريطانية، قبل مئتي سنة، تسخر لادارة الآلات التي تقوم بصنع أصناف عدة من السلع المادية. وقد صعدت قدرة القوة المائية الى درجة أكبر من الفاعلية لما حولت الى قوة بخارية وقوة كهربائية. ومن الممكن توليد الكهرباء من القوة الطبيعية للشلالات الطبيعية او المصطنعة، لكن الماء لا يمكن تحويله الى بخار دون ان يسخن وذلك بإحراق الوقود. والوقود استعمل لا في سبيل تحويل القوة المائية الى قوة بخارية وقوة كهربائية فحسب، ولكن في سبيل الاستعاضة بالوقود عن استعمال القوة المائية نفسها حتى في أكثر حالاتها فعالية. وفضلا عن ذلك فإن الفحم الذي يمكن سد النقص في كميته من الحطب، قد استعيض عنه بوقود لا يمكن ان يعوض: الفحم الحجري والزيت المعدني وفي النهاية الأورانيوم.

الأورانيوم، وهو أحدث المستغلات من الوقود يطلق طاقة ذرية. ولكن الانسان في محاولته تسيير هذه القوة الجبارة بدأ، منذ سنة ١٩٤٥، السير في مغامرة انتهت بشكل مميت لما حاول نصف الإله الأسطوري فيتون ان يغتصب مركبة الوالد المقدس الشمس. فإن خيل مركبة هيليوس (الشمس) خرجت عن الخط المرسوم لها لما أحست بأن الأعنة أصبحت في أيدي كائن بشري ضعيف، فاندفعت خارج مساقها الصحيح، وقد كان من الممكن ان يتحول المحيط الحيوي الى رماد لو ان زفس لم ينقذه من الدمار، وذلك بضرب الكائن البشري المجترىء، الذي حاول ان يكون بديلاً للشمس، بصاعقة قاصفة. وأسطورة فيتون هي قصة رمزية للخطر الذي عرض الانسان نفسه له لما جرب اللعب بالطاقة الذرية. وسنرى فيما اذا كان الانسان سيتمكن من الافادة من هذه القوة المادية الهائلة دون الوقوع في شرها. ان قوتها لم يسبق لها مثيل في العظم، ولكن مثل ذلك يقال أيضاً عن الخطر السام الناشىء عما يعقبها من الشعاع الذري. وها هو الانسان قد تدخل الآن في الطريقة التي كان المحيط الحيوي - وهو الأرض الأم للحياة -

يلقح بها الاشعاع الشمسي في حدود هي نافحة للحياة، لا قاتلة لها. وهذا النجاح المنذر بالشر للتكنولوجيا العلمية البشرية، اضافة الى النتائج الأصغر للانجازات السابقة التي قامت بها الثورة الصناعية هي التي تهدد بجعل المحيط الحيوي مكاناً غير صالح للعيش.

وهكذا فإننا نقف الآن عند نقطة حاسمة في تاريخ المحيط الحيوي وفي التاريخ الأقصر زمناً لواحد من منتوجاته والدخلاء عليه أي البشرية. فالانسان كان أول واحد من أبناء الأرض الأم الذي أخضع أم الحياة وانتزع من أيدي موجد الحياة، أي الشمس، الزخم المخيف للقوة الشمسية. وقد أطلق الانسان الآن العنان لهذه القوة، عارية ودون قيد، وذلك للمرة الأولى منذ أن أصبح المحيط الحيوي مكاناً صالحاً للعيش. ولسنا ندري اليوم فيما اذا كان الانسان سيكون مستعداً او قادراً على أن يجنب نفسه وما يرافقه من الكائنات الحية، المصير المحتوم الذي انتهى اليه فيتون.

والانسان هو أول نوع من الكائن الحي في محيطنا الحيوي الذي اكتسب القوة التي تمكنه من تحطيم المحيط الحيوي، وبتحطيمه يقضي على نفسه. والانسان، باعتباره كائناً حياً يعاني من الاضطراب النفسي، خاضع لقانون لا يتبدل من قوانين الطبيعة، والذي تخضع له أيضاً كل الأشكال الأخرى من الحياة. فالانسان، مثل كل مرافقيه من الكائنات الحية من كل الألوان، هو جزء لا يتجزأ من المحيط الحيوي، فإذا أصبح المحيط الحيوي غير صالح للعيش، فالانسان ينقرض، كما تنقرض كل الأنواع الأخرى.

كان باستطاعة المحيط الحيوي ان يحتضن الحياة لأنه كان تجمعاً تتسق الحركة فيه بين الأجزاء الأصلية المتممة لبعضها البعض. ولم يحدث قط، قبل ظهور الانسان، أن أياً من أجزاء المحيط الحيوي الأصلية هذه ـ العضوية والعضوية سابقاً وغير العضوية ـ اكتسب القوة التي تمكنه من الاخلال بهذا التوازن المضبوط بدقة، والذي كان ينظم تفاعل القوى بحيث أصبح المحيط الحيوي مستوطناً للحياة. وأنواع الكائنات الحية السابقة للبشر، والتي كانت إما عاجزة عن المحافظة على الانسجام مع الحياة أو أنها كانت معادية له، قد انقرضت بفعل هذا الاتزان، وبوقت طويل قبل ان يتاح لضعفها او لعدوانها حتى من ان تقترب الى حد تهديد التوازن الذي كانت تعتمد عليه حياتها وحياة الأنواع الأخرى جمعاء. فقد كان المحيط الحيوي أقدر من أي من مخلوقاته السابقة للبشرية.

والانسان هو أول مخلوقات المحيط الحيوي الذي هو أقوى من ذلك المحيط نفسه . واكتساب الانسان الوعي مكنه من التخير في الأمور، ومن ثم من وضع الخطط وتنفيذها بحيث تحول دون الطبيعة ودون إهلاكه كما أهلكت الأنواع الأخرى التي كانت مصدر إزعاج وخطر للمحيط الحيوي فإنه سيقضي على نفسه كما سيقضي على كل أشكال الحياة المضطربة الموجودة على سطح أم الحياة، الأرض.

من هذه النقطة يمكن إذن ان ننطلق للقيام باستعراض رجعي، نصل فيه الى هذا اليوم، لتاريخ الصدام بين الأرض الأم والانسان، الذي هو أشد بأساً وأكثر غموضاً من أبنائها جميعاً. أما الغموض فيقوم على الحقيقة المبهمة وهي أن الانسان هو وحده من سكان المحيط الحيوي الذي يقيم في مجال آخر أيضاً ـ مجال روحي، هو غير مادي وغير منظور. في المحيط الحيوي الانسان كائن مضطرب نفسياًوهو يتصرف في عالم هو مادي ومحدود. وعلى هذا المستوى من النشاط البشري كان هدفه ، منذ ان اكتسب الوعي، أن يسود بيئته غير البشرية، وقد كاد ان ينجح في هذه المحاولة في يومنا هذا ـ ومن المحتمل ان يكون دماره في ذلك. ولكن بيت الانسان الآخر، العالم الروحي، هو أيضاً جزء أساسي من الماهية الكلية، وهو يختلف عن المحيط الحيوي في أنه غير مادي وغير محدود، وفي حياته هذه في العالم الروحي يجد الانسان ان رسالته هي أن لا يبحث عن سيادة مادية لبيئته غير البشرية بل لسيادة روحية على نفسه. وهاتان المتناقضتان، والمثلان الأعليان المتباينان اللذان يحفزانه الى تينك الغايتين قد وضح أمرهما في متون مشهورة. والتوجيه الكلاسيكي الذي يدعو الانسان الى التحكم في المحيط الحيوي موجود في العدد ٢٨ من الاصلاح الأول من سفر التكوين:

«وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض».

والتوجيه صريح وقوي، ومثل ذلك نجد ان الرد عليه صريح وقوي. فقولنا « لا تدخلنا في التجربة ولكن نجنا من الشرير»، يبدو كأنه جواب مباشر للتوجيه الوارد في سفر التكوين. وقد سبق العهد الجديد الى ذلك تاوته تشنغ Tao té Ching في قوله بأن إنجازات الانسان التكنولوجية والتنظيمية إنما هي شرك لاصطياده:

كلما ازدادت الأسلحة الحادة،
تزداد الأرض كلها انغماساً في الظلام

وكلما ازداد عدد الصناع الحاذقين
تزداد الآلات المتلفة التي تخترع.
كلما ازدادت القوانين التي تشرع،
يزداد عدد اللصوص وقطاع الطرق.

شد القوس الى النهاية،
وستتمنى لو أنك توقفت في الوقت المناسب.

وقد ينتهي الأمر الى القول بأنه مع وجود آلات مع الناس تقتضي عملاً عشر مرات او مئة مرة أقل، فإنهم لن يستعملوها. . . وقد يكون هناك بعد قوارب وعربات ولكن أحداً لن يدخلها، وقد يكون هناك أسلحة للقتال ولكن لن يتدرب عليها أحد. وهذه النبذ المأخوذة من تاوته تشنغ لها ما يقابلها في إنجيل متى:

«ولماذا تهتمون باللباس. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ولا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها».

هذه تكون ردا على الدعوة التي تحملنا على وقف أنفسنا على تجميع القوة والثروة. إنها تنقي الجو لدعوتنا الى التعلق بمثل أعلى مناقض لذلك تماماً.

«ودعا الجمع مع تلاميذه وقال لهم من أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني. فإن من أراد ان يخلص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الانجيل فهو يخلصها. لأنه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. او ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه. لان من استحى بي وبكلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطىء فان ابن الانسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين» (الانجيل).

إذا فقد الكائن البشري روحه، فإنه يفقد انسانيته، ذلك بأن جوهر الكيان البشري هو إدراك لوجود روحي خلف المظاهر الطبيعية، والكائن الحي إنما يتصل بهذا الوجود الروحي، بوصفه روحاً لا بوصفه حياً مضطرباً نفسياً، وقد يكون حتى توأما للوجود الروحي على ما يعرف من تجربة المتصوفة.

وبسبب أنه يعيش في وقت واحد في المحيط الحيوي وفي العالم الروحي، فالانسان، كما دعاه السير توماس براون Sir Thomas Brown بدقة هو حقا حيوان

برمائي، وفي كل من الوضعين، حيث يشعر أنه منسجم مع الـوضع، يكـون له غـاية خاصة. ولكنه لن يتمكن من متابعة كل من الغـايتين او ان يخـدم كلا من السيـدين، بإخلاص تام. فلا بد لواحدة من الغايتين ولواحـد من الولاءين من أن يحـظى بمكانـة سامية، بل انه قد يحظى بتفان مطلق اذا اتضح ان الاثنين (أي الغـايتين او الـولاءين) متنافيان وغير قابلين للتوفيق فيما بينهما.

فأي البديلين يختار؟ كانـت المناقشـة حول هذه المسألة صريحة في الهند في زمن بـوذا، حول منتصف الألف الأول قبـل الميلاد. وقـد كانت صـريحة في زمن القـديس فرنسيس الأسيزي في القرن الثالث عشر للميلاد. وفي الحالتين انتهى الأخذ باختيارين متضادين الى اختلاف المسيرة بين الأب وابنه. ولعل القضية كانت تناقش بصراحة منذ فجر الوعي، ذلك بأن واحدة من الحقائق الأليمة التي يظهرها الوعي واضحة للكـائن الحي هو التكافؤ الخلقي في الطبيعة البشرية. وعلى كل فإن الناس كـانوا يتجنبـون في أكثر الأوقات والأمكنة حتى يومنا هذا، البحث على المكشوف في المسألة التي حملت بوذا والقديس فرنسيس، كلا بدوره، على ان يقطع الصلات الطبيعية التي كانت تـربطهـما بأسرتيهما. وفي عصرنا فقط أصبح الاختيار أمراً لا مفر منه للبشرية ككل.

ففي عصرنا نجد أن سيادة الانسان التامة على المحيط الحيوي بأكمله تهدد بأحباط نوايا الانسان وذلك بتحـطيم المحيط الحيوي والقضـاء على الحيـاة، بما في ذلـك الحياة البشـرية نفسهـا. ومنذ القـرن الثالث عشـر والانسان الغـربي يكرم علنـاً فـرنسيسكـو برناردوني، القديس الذي تخلى عن إرثه من تجارة عائلية مربحة جداً، والذي كوفىء على تمسكه بالفقر بأن ظهرت على جسمه العلامات (آثار المسـامير) التي ظهـرت على جسم السيد المسيح. ولكن المثال الذي احتذاه الانسان الغربي لم يكن مثال القديس فرنسيس، فالانسان الغربي قدر أباه، بيترو برناردوني، التاجر الناجح الذي كان يتـاجر بـالأقمشة بالجملة. ومنذ بدء الثورة الصناعية جند الانسان الحديث نفسه، على نحو مَلَكَ عليـه نفسه أكثر من أي من أسلافه، في تتبع الغاية التي وضعها نصب عينيه، اي الفصل الأول من سفر التكوين.

يظهر أن الانسان لن يستطيع إنقاذ نفسه من الدمار الذي تسببه قوته المادية وطمعه الشيطانيان ما لم يسمح لنفسه بأن تتغير نفسه كليا بحيث يحفزه ذلك الى ان يتخلى عن غايته الحالية، ويعتنق المثل الأعلى المخالف لذلك تماماً. فورطته الحالية، والتي أوقع نفسه

فيها، وضعت أمامه تحدياً حاسماً. فهل باستطاعته ان يقبل، باعتباره إنساناً عادياً في مقدرته الخلقية، القواعد التي يدعو إليها ويطبقها القديسون، على أن تكون هي لهذا الانسان القواعد الاساسية العملية للسلوك، (وهي القواعد التي اعتبرت الى الآن نصائح طوباوية تؤدي الى الكمال)، صالحة للانسان العادي الشعور؟ إن المناظرة حول هذه القضية التي طال عليها الزمن، والتي يبدو كأنها تكاد تبلغ نهاية تصعيدها في يومنا هذا، هي الموضوع الذي يتناوله التأريخ للصدام بين البشرية والأرض الأم، وهو هذا التأريخ الموضع بين يديك.

٣ ـ تحدّر الانسان

ثمة على الأقل ثلاثة معان يمكن ان تستعمل لكلمة «تحدّر» بالنسبة الى كلمة الانسان. فقد هبط أسلافنا من العيش عاليا في الأشجار الى الأرض، وهذا هو المعنى الطبيعي الحرفي للكلمة. وهم متحدرون أيضاً، من حيث الأصل الحيوي، من أشكال من الحياة هي سابقة للبشر. وهناك من يرى ايضا (مع ان هذه الفكرة موضع خلاف) انهم انحطوا خلقياً لما استيقظ الوعي فيهم.

من المؤكد انه ليس ثمة ما يبرر الاستعمال الثالث لكلمة «تحدّر». صحيح ان الكائن الواعي يمكن ان يكون شريراً، بينما لا يمكن للكائن غير الواعي ان يكون كذلك. لكن العجز عن ان يكون الكائن شريراً لا يقابله، بالضرورة، ان يكون فاضلاً. والكائن الواعي يمكن ان يكون فاضلاً، اضافة الى احتمال ان يكون شريراً، والكائن غير الواعي يمكن ان يكون فاضلاً، أو شريراً. إذ بالنسبة الى الكائن غير الواعي ليس ثمة تمييز خلقي بين الشر والخير، ولا يمكن أن يوجد. فالأخلاق ظهرت في المحيط الحيوي لأول مرة مع الوعي. والوعي والأخلاق يكونان، مجتمعين، نمطاً للوجود ـ النمط الروحي ـ لم يكن ممثلاً في المحيط الحيوي من قبل. ومن ثم فليس ثمة اساس للمقارنة بين الانسان وأسلافه غير الواعين من حيث النواحي الأخلاقية. من الممكن المقارنة بين الانسان وأسلافه على المستوى البيولوجي، وعلى هذا المستوى من الممكن التعرف الى انتسابه اليهم وتتبع ذلك، ولكن ليس ثمة أساس مشترك بينه وبينهم على المستوى الخلقي لأن هذا المستوى موجود بالنسبة الى الكائنات الواعية فقط.

على المستوى الخلقي نجد أن أبرز ناحية وأكثرها إبهاماً في الطبيعة البشرية هي امتداد السلسلة الخلقية عند الانسان. فمجال إمكاناته الخلقية بين القطبين الممثلين للسلوك الشيطاني والقداسة هي ناحية من الحياة البشرية لا تقل غرابة عن البعد الخلقي ذاته. والناحيتان كلتاهما خاصتان بالانسان من دون جميع المخلوقات الموجودة في

المحيطط الحيوي. اما وقد امتلك الانسان القدرة على تحطيم المحيط المحيوي، فليس لدينا ما يؤكد انه لن يقترف هذا الجرم الانتحاري؛ إننا لا نستطيع أن نجزم أيضاً انه لن ينقذ المحيط المحيوي من حالة الطبيعة التي يقوم فيها، حتى الآن، خلاف بين المحبة والصراع وهو خلاف لا ينتهي الى نتيجة. من المعقول ان الانسان، بدل أن يحطم المحيط الحيوي ان يستعمل سلطته على المحيط الحيوي لتبديل الحالة الطبيعية هذه بحالة النعمة حيث تسود المحبة. إن شيئاً كهذا ينقل الحياة من جحيم الى مجتمع قديسين.

عندما نتناول كلمة تحدر بمعناها الحيوي فإنها تجابهنا بسؤال حول عمر الجنس البشري. من حيث الظاهر ثمة فكرة مقبولة وهي ان الانسان مجايل لكل الأنواع الأخرى من الكائنات الحية التي لا تزال باقية، بل وفي الواقع فإنه مجايل للحياة نفسها، لأنه مع ان التطور بدأ بالتباين، فإن الأنواع المختلفة التي أنتجها هذا التباين مرتبطة بعضها بالبعض الآخر مثل أغصان شجرة واحدة وكلها تستمد من جذر مشترك. وإذا بحثنا في تاريخ تكوين الانسان بشكل متميز، فإننا سنفرد جانباً التاريخ الذي تفرعت فيه فصيلة الاحياء الشبيهة بالانسان عن غيرها من الفصائل في رتبة الحيوانات العليا من الثدييات. هذا التفرع في الطرق الحياتية يعين نقطة اللارجوع. فبالنسبة للأحياء الشبيهة بالانسان فقد قطعت عليها الطريق لأن تصبح من نوع الهيلوباتيد (hylobatidae) (مثل الغبون) او من نوع البونغيدا (pongidae) (مثل الأوران ـ أو تانغ أو الشمبانزي أو الغوريلا). فلما تجاوز الأب الأول للأحياء الشبيهة بالانسان نقطة التفرع هذه، وتجاوزها باتباعه طريق الأحياء الشبيهة بالانسان، لم يبق أمام هذه الأحياء إلا أحد احتمالين بديلين: فأما ان تصبح بشرية او انها تعجز عن البقاء. وفي واقع الأمر فإن الصنف الوحيد الذي استمر في البقاء من فصيلة الأحياء الشبيهة بالانسان هو الانسان، والنوع الوحيد الذي استمر من الجنس الشري هو الانسان العاقل (وهي تسمية فيها الكثير من المديح المبالغ فيه، وقد ألصقها بنفسه هذا النوع الوحيد المستمر من الأحياء الشبيهة بالانسان وفيها الكثير من خداع النفس الساذج). فإذا حسبنا ان الانسان قديم قدم الزمن الذي أصبح فيه متعذراً على أجدادنا ان يصبحوا شيئاً آخر سوى بشر، هذا اذا ارادوا ان يستمروا في البقاء، فإن هذا يعني ان الانسان قد نشأ على شكل متميز من أشكال الحياة، في الحقبة الوسطى، ومعنى هذا هو أن الانسان قد مرّ على وجوده حتى اليوم، بين عشرين مليونا وخمسة وعشرين مليوناً من السنين.

هل من الممكن ان نعين تاريخ البشرية بشكل أدق عن طريق واحدة أو أكثر من خصائص الانسان التشريحية المميزة أو عاداته وانجازاته المتميزة ؟ هل يمكن القول بأن أجدادنا أصبحوا بشرا لماانحدروامن الأشجار الى الأرض ؟ أو لما اكتسبوا القدرة على المشي والركض معتمدين على زوج واحد من الأطراف للحركة، وبذلك حرروا الزوج الآخر لاستعمال الأدوات ؟ أو لما نمت أدمغتهم لا من حيث انها أصبحت أكبر حجماً من بقية الأحياء الشبيهة بالانسان فقط، بل أصبحت اكثر تنظيماً بمعنى ان عدد الأساليب البديلة التي يمكن لخلايا الدماغ ان تستعملها في الاتصال فيما بينها ازداد زيادة كبيرة ؟ أو هل بإمكاننا ان نؤرخ لتكون الطبيعة البشرية بالنسبة الى الوقت الذي حققت فيه إنجازات معينة مثل التجمعات او مثل اللغة (أي نظام للأصوات يحمل في طياته معاني يفهمها جميع أعضاء الجماعة، مغايرة لمجموعة من الهتفات التي تفصح عن التأثر)؟ أو هل ان بروميثيوس جعل من أجدادنا بشراً إذ علمهم كيف يحتفظون بالنار مشتعلة وكيف يستعملونها في التدفئة والطبخ وذلك دون أن يحرقوا أصابعهم، وكيف يمكنهم ان يشعلوها بدل ان يرتعبوا من هذه القوة التي بالامكان ان تكون نافعة، لكن بإمكانها ان تكون أيضاً خطرة ومخربة ؟

والجواب، بالتأكيد هو أن الحادثة التي تؤرخ لظهور الطبيعة البشرية في المحيط الحيوي ليست تطور خاصية تشريحية، ولا هي تحقيق إنجاز ما؛ الحادثة التاريخية هي استيقاظ وعي الانسان. وتاريخ هذه الحادثة يمكن ان يستنتج فقط من البقايا المادية التي خلفها أجدادنا (مثل العظام والأدوات). وليس هناك، ولم يكن من الممكن ان يوجد، إدراك معاصر لهذه التجربة، ومن ثم فلم يكن من الممكن ان تدون. فالكائن البشري يدرك انه مستيقظ عندما يكون مستيقظاً فعلاً، ولكنه لا يستطيع أن يحس بنفسه إحساساً واعياً إما أنه في سبيل اليقظة او في طريق النوم. وإذن فليس بإمكاننا ان نفعل شيئاً سوى ان نخمن تاريخ يقظة الوعي في الانسان في حدود تطوره التشريحي واكتسابه منجزات اجتماعية وتكنولوجية معينة.

وإذا أخذنا بالاستنتاج من استمرار أجدادنا بالبقاء بعد نزولهم من ملجأهم في الأشجار الى الأرض الخطرة نسبيا، فقد نخمّن أنهم في ذلك الوقت كانوا قد أصبحوا حيوانات اجتماعية او انهم كانوا على الأقل في سبيل ان يصبحوا كذلك أثناء عملية تغير مسكنهم. ذلك بأن الأحياء الشبيهة بالانسان إذا كانت متفرقة تكون معرضة، على

سطح الأرض، لأن تصبح فريسة سهلة للمفترسة من الأحياء غير الشبيهة بالانسان، والتي لم يكن أجدادنا عندها قادرين على مقاومتها إن لم يتحدوا. ومن المؤكد ان الانسان قد أصبح حيواناً اجتماعياً قبل أن يخترع اللغة؛ ولكن اختراعه للغة قد يكون حادثة أحدث عهداً من اكتسابه للتجمع؛ ذلك بأنه ثمة أصناف أخرى من الحيوانات الاجتماعية (مثل الحشرات الاجتماعية) التي تتواصل فيما بينها بصورة مجدية للحفاظ على التعاون الاجتماعي اللازم دون ان يكون لها صوتية. فالنحل، على سبيل المثال، تبدو وكأنها توصل الأخبار والتعليمات واحدها الى الآخر بتهريج طبيعي، الأمر الذي يجب ان نصفه بأنه رقص، فيما لو كان النحل أحياء بشرية.

أما فيما يتعلق بتحرير الأيدي بحيث يمكن استعمالها لغير حاجة الحركة، واستكمال الدماغ فلنا ان نخمن ان تطور اليدين والدماغ كانا متعاصرين وأنه، في كل مرحلة، كان هناك تفاعل بينهما، الأمر الذي أعان على تطور كل منهما. ويجوز لنا ان نخمن أيضاً ان تطور هذين العضوين المتفاعلين معاً كان الوضع التشريحي الذي يسّر للانسان ان يستيقظ وعيه. فالانسان كان ولا شك واعياً لما تغلب على الخوف من النار، وهو الخوف الذي لا يزال يساور أنواعاً عدة من الحيوانات غير البشرية اللامدجّنة. وما كان الانسان يخشى النار التي تشتعل تلقائياً لما كان قد اكتشف كيف يحتفظ بها مشتعلة، وأن يستعملها، وأخيراً أن يشعلها صناعياً.

وهل نستطيع ان نؤرخ لفجر الوعي في حدود الحقب الجيولوجية أو حتى، بشيء من القحة، في حدود سنوات قبل الميلاد؟ إن محاولة تأريخه تزداد صعوبة إذا خمنا ـ ويبدو ان هذا التخمين معقول ـ ان الأمر كان عملية تدريجية قد تبدو سريعة، إذا قسناها بحدود المقياس الزمني الجيولوجي ولكنها احتاجت دهوراً في حدود المقياس ـ الزمن بالنسبة الى التاريخ المدون (وهو تدوين لم يتجاوز تقييده نحو خمسة آلاف سنة على ما نعرف الى الآن). ونحن واثقون من ان الفرع الوحيد المستمر الى الآن من نوع الجنس البشري هو الانسان العاقل، على ما سمى هو نفسه، وأن هذا الانسان لم يكن الفرع الوحيد من الأحياء الشبيهة بالبشر الذي كان يتمتع بالوعي. فمن الآراء المقبولة ان الانسان النيندرتالي Neanderthal Man كان يتخلص من موتاه بطريقة شعائرية، بدل ان يعتبر جثثهم كأنها أقذار. واذا كان هذا الدليل مقنعاً فمعنى هذا ان الانسان النيندرتالي، كان يشترك مع الانسان العاقل في الفكرة القائلة بأن الطبيعة البشرية لها

كرامة لا تنتشر بين بقية أشكال الحياة.

ويبدو أن الانسان النيندرتالي استمر بقاؤه الى فترة الانتقال من العصر الحجري القديم المبكر الى العصر الحجري القديم المتأخر اي الى قبل ما بين ٧٠,٠٠٠ و٤٠,٠٠٠ من السنين. بل ثمة دلائل تشير الى وجود مجتمعات مختلطة من الانسان النيندرتالي والانسان العاقل؛ واذا وجدت هذه المجتمعات فمن المحتمل أن هذين الضربين من الأحياء البشرية كانا شبيهين الى حد انهما توالدا فيما بينهما، كما تتوالد جميع ضروب الانسان العاقل. واذا كان الأمر كذلك فإن الانسان النيندرتالي والانسان العاقل يمكن اعتبارهما نوعين متفرعين من نوع واحد. وعلى كل حال فان إنسان بكين Peking Man، الذي يخمن بأن تاريخه يعود الى نحو نصف مليون من السنين، يجب ان يعتبر أنه نوع مختلف؛ وإذا صح ان إنسان بكين كان يحذق استعمال النار، فإن وعيه كان قد تقدم كثيراً. ولا بد ان بريقاً من الوعي كان لازماً كي يفكر الحي في تشحيف الحجارة ليصبح استعمالها أدوات أكبر أثراً من استعمال الأشياء الطبيعية غير المحورة. وصنع الأدوات بواسطة تشحيف الحجارة يعزى الى الانسان الاسترالي البدائي - وهو حي شبيه بالبشر ويخمن تاريخه على انه كان قبل مليونين او ثلاثة ملايين من السنين. وهذا الانسان الاسترالي البدائي يصنف على انه شبيه بالبشر لا على انه انسان homo، وليس من المؤكد أنه هو جدّ الانسان هذا. وقد أخرجت في سنة ١٩٧٢ جمجمة تشبه جمجمة الانسان العاقل كثيراً وكانت تحت طبقة من الرماد الركاني المقدّر عمرها بنحو ٢,٦٠٠,٠٠٠ سنة.

وحتى هذان التاريخان التقديريان لجمجمة الانسان الاسترالي البدائي وجمجمة الانسان الشبيه بالانسان العاقل هما حديثان عندما يقارنان بالتاريخ المفروض ان أجدادنا المشتركين قد اختلفوا، بشكل نهائي، عن أسلاف أبناء عمومتنا من الهيلوبتيدا والبونغيدا. ومن الناحية الأخرى إذا كان العصر الحجري القديم المبكر معاصراً للانسان الاسترالي البدائي الذي اندثر منذ زمن بعيد، فإن العصر الحجري القديم المبكر يقابل تسعة وخمسين جزءا من ستين جزءا من فترة الأحياء الشبيهة بالبشر، وربما يساوي أربعة عشر جزءا من خمسة عشر جزءا من فترة الانسان homo بما في ذلك إنسان بكين والانسان النيندرتالي وكذلك الانسان العاقل. هناك بقايا أثرية على أشكال من أدوات مشحفة بطريق المصادفة هي قديمة قدم الانسان الاسترالي البدائي، لكن أقدم الآثار التي

صنعت خصيصا لتستعمل كأدوات تعود الى ما بين ٢٠,٠٠٠ و٣٠,٠٠٠ سنة فقط؛ هذا اذا كانت الرسوم العائدة الى العصر الحجري القديم المتأخر والموجودة على جدران الكهوف في فرنسة واسبانية هي أقدم البقايا المصنوعة قصداً.

والمقيدات التي لها شكل صوري والتي كانت السلف للكتابة التجريدية لم تظهر، على ما نعرف، حتى الألف الخامس ق.م. وفي ذلك الوقت، على ما نعرف أيضاً، في سومر فقط. وبعد، فالبقايا المادية التي خلفتها المجتمعات البشرية المنقرضة، والتي لا يدخل في عدادها وثائق مكتوبة، لما عرفت وترجمت أمدتنا بمعلومات ولكنها ناقصة عن حياة الشعب الذي خلف مثل هذه الآثار المادية غير الموثّقة عن وجوده. فالبينة الأثرية السابقة للتدوين تنبئنا عن التكنولوجيا، ولكن التكنولوجيا هذه لا تزيد عن كونها الوضع المساعد للعناصر غير المادية التي تتكون منها طريقة الانسان في الحياة: شعوره وأفكاره، مؤسساته وارائه ومثله العليا وهي مظاهر أكثر أهمية في الدلالة على طبيعة الانسان من التكنولوجيا، ذلك بأنه من الخصائص الأنبل والمميزة للانسان هي انه لا يعيش بالخبز وحده. ومع أن الركام المادي للتكنولوجيا يلقي شيئاً من الضوء على بعض نواحي الحياة البشرية غير المادية، فإن هذا الضوء قاتم. فالاستدلال مما هو مادي على ما هو روحي، إنما هو، في أحسن حالاته، تخبط في الظلام. وعندما يكون كل ما بين أيدينا هو الشاهد المادي، فإن ذلك يترك بعض نواحي الحياة الروحية يكتنفها الغموض التام.

وهكذا فإن معلوماتنا عن الخمسة آلاف السنة الماضية من التاريخ ـ الخمسة آلاف السنة الموثقة ـ هي أغزر وأشد وضوحاً منها عن المليون الأول او نصف المليون الأول من السنين التي تلت فجر الوعي التدريجي الذي يحتمل حدوثه. فهل تتناسب أهمية هذه الفترة الأخيرة والأقصر زمناً من هاتين الفترتين مع درجة ما نعرفه عنها؟ يجب ان نكون حذرين في اعتبار هذا الأمر قضية مفروغاً منها. إن الشيء الأقرب الينا والأوضح يبدو الأكبر ولا شك، ومع ذلك فإن هذا المظهر قد لا يتفق مع الحقيقة. إن المساق الذي نسميه عصر ما قبل التاريخ ـ ونحن نعني العصر الذي سبق تدوين القيود التي وصلتنا والتي حلت رموزها وترجمت ـ كان (بقدر ما يمكن تتبع ذلك) يسير على نمط واحد، فضلاً عن انه كان هائلاً في طوله، بالمقابلة مع مساق العصر الموثق الذي تلاه. ونحن إذا نظرنا الى الأمر على أساس خلفية ما قبل التاريخ، وجدنا أن التاريخ المدون بكامله هو، في الواقع، تاريخ معاصر بالمعنى الحرفي، وهو كذلك بالمعنى الذاتي الذي ذهب اليه بندتو

كـروتشي Benedetto Croce من أن التاريـخ كله تاريـخ معاصـر. إن المراقب الـذي يستعرض الماضي من نقطة معينة زماناً ومكاناً، بالنسبة اليه، يظهر له هذا الماضي حتماً بشكل ذاتي.

فهل لنا ان نخلص الى القول بأن هذه الخمسة آلاف السنـة المعاصـرة هي، في الواقع، الجزء الوحيد من التاريخ الذي يحسب له حساب؟ مثل هذا الاستنتـاج منطو على التناقض، ويرفضه الواقع، لأن عصر ما قبل التاريخ كان قد شق له الطريق أكثر الأحداث أهمية الى أيامنا، في التاريخ البشري؛ والحادثة الهامة هي ظهور فجر الوعي في المحيط الحيوي. وقد كان هذا الانجاز جسيماً، والجهد الذي تطلبه ذلك كان منهكـاً، بحيث انه ليس ثمة أي شيء من الغرابة في أن يكون مليون او نصف مليون من سني السبات قد مرّت بعد ذلك، قبل أن بدأ الانسان يمارس بطريقة فعالة، القدرة الروحية والمـادية التي وفـرتها لـه يقظة الـوعي. واذا نحن نظرنـا الآن الى الماضي من اللحـظة الحاضرة الى الفجر (فجر الوعي)، واذا اعتبرنا التاريخ البشري بأكمله، منذ الفجـر، على أنه حقبة واحدة، فلربما وجدنا الايقاع العادي لهذه الحقبة في السبات النسبي الذي عرفه العصر الحجري القديم المبكر. وعندئذ فإن التسارع والعنف والتنوع التي عرفتها الفترة التي تمتد من ٧٠,٠٠٠ الى ٤٠,٠٠٠ سنة، والممتدة من بدء الثورة الصناعية التي ظهرت في العصـر الحجري القديم المتأخر الى تسخير الطاقـة الذريـة ـ تلك الأمور لن تظهر على أنها كل ما يهم، بل على انها الفصل الكبير الذي يؤدي الى الذروة.

وهذه الذروة قد تكون إبادة تامة للحياة عن طريق تحطيم المحيط الحيوي، بكل ما عند الانسان من شر وجنون، بعـد أن تمكن الشيطان المتجسم في الانسـان من تسليح نفسه بالقوة التكنولوجية الكافية لذلك. والبـديل لـذلك هـو في أن تكون الـذروة هذه عبوراً من الحقبة الأولى في التاريخ البشري الى حقبة ثانية، أو على الأرجح، الى سلسلة طـويلة من الحقـب المتتاليـة، ذلك فـأن فترة المليـوني سنة التي مـرت منـذ أن شحف الانسان الأ سترالي البدائي الأحجار ليجعل شكلها أسهل استعمالاً، لا تزيد عن طرفة عين، إذا ما قوبلت بالألفي مليون المقدر أنها باقية من عمر المحيط الحيوي بحيث يظل مكاناً صالحاً للعيش، هذا إذا سمح الانسان بذلك. ولسنا نستطيع التنبؤ بـالمستقبل، ولكننا نستطيع أن نتكهن بأننا نقترب من مفترق طرق خلقي هو الذي سيكون حاسماً، كما كان المفترق البيولوجي، قبل عشرين أو خمسة وعشرين مليوناً من السنين، حاسماً بين

الطريقين ـ الطريق الذي أدى الى الانسان والطريق الـذي انتهى الى القرود الشبيهة بالانسان. ومرة ثانية: قد يكون البديلان يبعد واحدهما عن الآخر بعد القطب الواحد عن الآخر. والحكاية، في ما تبقى من هذا الكتاب، تصل بالقصة الى حافة توضيح هذه الأحجية التي لا يزال الظلام يلفها.

٤ ـ الأويكومين

أويكومين تعبير إغريقي شاع استعماله في العصر الهليني من التاريخ الاغريقي بعد ما اتسع العالم الهليني الاغريقي، أولا غرباً ثم شرقاً، من مجاله الأصلي الذي كان يمتد عبر البحر الايجي. وقد وصل امتداده غرباً الى سواحل الأطلسي في أوروبة وشمال غرب افريقية والى بريطانية، أكبر جزيرة تقع عبر البحر بالنسبة الى غرب أوروبة. وامتداده الشرقي الذي تلا ذلك وصل الى اواسط آسية والى الهند. وكان فتح الاسكندر الكبير لفارس وقضاؤه على الامبراطورية الفارسية الأولى هو الذي مهد السبيل للامتداد الشرقي لذلك العالم. وفي الزمن الذي تلا عصر الاسكندر بالنسبة للتاريخ الهليني شاع استعمال كلمة أويكومين، ومعناها الحرفي (الجزء المسكون) من العالم. ولكن الأغارقة الذين وضعوا الكلمة ونشروها حصروا معناها، عملياً، في الجزء المسكون من العالم الذي كانت تقيم فيه المجتمعات المسماة «متمدنة». وقد كانت المجتمعات المسهمة في ذلك هي التي أطلقت على نفسها كلمة «متمدنة» الى يومنا هذا، حتى تبين لنا، من تجربتنا المروعة والمهينة فيما اقترفنا من فظائع، أن المدنية لم تصل بعد الى تحقيق إنجاز واقعي، بل هي لا تعدو ان تكون محاولة أو أملاً.

حتى بموجب الاستعمال الأصلي للكلمة، التي تجاهل تحديدها البرابرة الذين كانوا يعيشون على حافة المدنيات، فإن أويكومين، على ما استعملت في العصر الاغريقي التالي للاسكندر، كانت تشمل فقط مجالات المدنيات التي كان الأغارقة أنفسهم قد سمعوا بوجودها. وعلى الأقل منذ أيام المؤرخ هيرودتس في القرن الخامس ق.م. كان الأغارقة يدرون، بشيء من الأبهام، بوجود مدينة تقوم في مكان قاص يقع وراء الريح الشمالية، وكانت لها اتصالات مع الدول ـ المدن الاغريقية التي كانت موجودة على ساحل البحر الأسود الشمالي. وهذه الاتصالات كانت تتم بواسطة طريق رفيع ممتد عبر السهوب الأوراسية التي كانت بدورها تكوّن المنطقة الداخلية للمستعمرات الاغريقية

البحرية. ولنا أن نخمن، رغم التسمية التي أطلقها الاغريق على هذه المجتمعات، بأن موطنها لم يكن وراء الريح الشمالية، بل الى الشرق من السهوب، وأن هذا كان، في الحقيقة، المجتمع الصيني الذي عرفه الأغارقة والرومان في الزمن التالي للاسكندر باسم سيرس اوسيناي.

لما تم للقسم الأكبر من العالم الاغريقي الروماني ان يتوحد سياسياً في الامبراطورية الرومانية، كان الحرير يستورده العالم الاغريقي الروماني، برا وبحراً. ولكن الشعوب المسماة متمدنة، والتي كانت تعيش في الطرفين الشرقي والغربي للعالم القديم كانت معرفة الواحد منها بوجود الآخر معرفة ضئيلة فقط. وكان يقابل الاويكومين الاغريقي عند الصينيين قولهم «جميع ما هو تحت السماء». ولكن بالنسبة للصينيين فإن تا تشين Ta Chin التي هي نسخة كبيرة للامبراطورية الصينية، والتي كانت تقع في الطرف الغربي للقارة، كانت شيئاً مبهماً بقدر ما كانت سيرس او سيناي او جماعة ما وراء الريح الشمالية، مبهمة بالنسبة الى الأغارقة والرومان. وقد تم الوصل بين طرفي القارة الأبعدين في وقت متأخر فقط: أولا بشكل مؤقت لما ضمت شواطىء السهوب الأوراسية كلها في القرن الثالث عشر في إطار امبراطورية المغول السريعة العطب. وبعد ذلك، بشكل دائم، لما تم لشعوب أوروبة الغربية ان تقهر المحيط قبيل نهاية القرن الخامس عشر. اما في ما يتعلق بمدنيات أميركا الوسطى والمنطقة الضيقة في الانديز من اميركا الجنوبية، فإنها لم تكن معروفة للعالم القديم حتى بعد ان ألقى كولمبوس مراسيه على الجهة الأميركية من المحيط الأطلسي. وبعد فلعل مدنيات اميركا الوسطى والبيرو وصلت عصرها الذهبي وقت بدء التاريخ المسيحي. أما الفترة السابقة التكوينية لهذه الحضارات الاميركية الراقية فلعلها تكون قد بدأت ـ بالنسبة لأميركا الوسطى على كل حال ـ في فترة زمنية مبكرة تتفق مع بدء أي من مدنيات العالم القديم، باستثناء المدنية السومرية ـ الأكدية والمدنية الفرعونية.

إذا نحن استعملنا التعبير أويكومين بالمعنى الحرفي الدال على مستوطن البشرية، فإننا نرى ان مدى الاويكومين هو أوسع بكثير من رقعة العالم المتمدن الذي عرفه الاغريق والرومان، ولكننا نرى أيضاً ان هذا الاويكومين الشامل هو، رغم كل ذلك، أصغر بكثير من المحيط الحيوي. والقسم الأكبر من سطح المحيط الحيوي يحتله البحر، والهواء المغلف للمحيط الحيوي يحتسب الجزء الأكبر من المحيط الحيوي نفسه. ومن

المعتقد ان البحر كـان الموطن الأصـلي للحياة، وأنـه لا يزا

كليهما. ولكن منذ أن أصبح أسلاف الانسان حيوانات برية

موطناً لها، على نحو ما فعل القرناء من الثدييات مثل الحوت و

لم تصبح حيوانات برمائية على نحو ما تم لقرناء أخر مثل عجل

اكتشفت الكـائنات البشـرية كيف تجتـاز الأنهار والبحـار في ال

تغطس تحت سطح البحر، ولو أن الغطس لم يكن لأعماق بعيد، ي امرة

الواحدة. ولكن الكائنات البشـرية بـالنسبة الى المـاء هي عابـرة فقط؛ فهي ليست من سكانه . هي في الواقع ليست أنواعاً مائية.

وفي القـرن العشرين للميـلاد اخترع الانسـان الطائـرة؛ لكن الانسان سبق الى الطيران في الهواء منذ وقت طويل. سبقته الحشرات والطيور والخفـاشات، ولكن ليس باستطاعة الخفاش او الطائر او الحشرة او الكائن البشري ان يعيش في الهواء كما تعيش الأسماك والأنواع البحرية من الثدييات في الماء. وليس ثمة نوع من الكائنات الحية يمكن ان يكون في الهواء سوى عابر سبيل والنوع المجنح قد يعتمد على كونه يُحْمَل في الهـواء للحصول على رزقه، ولكنه لا يستغني عن أن يكون له موضع للتحـرك ـ إما أرضـاً أو ماء. حتى السنونو ترتكز على أعمـدة التلغراف وتبني عشـوشها من الـطين لتتمكن من تربية صغارها.

وأويكومين البشرية يقوم بأكمله على سطح الأرض من المحيط الحيـوي، مع أن سكان الأويكومين من البشر يجتازون سطح المـاء المحيط الحيوي، وهـم الآن يجتـازون الهـواء المغلف له أيضـاً، وذلك في تنقلهم من نقـطة الى أخرى في الاويكـومين. لكن الاويكومين لم يكن دوماً يشغل المساحة نفسهـا من سطح الأرض في المحيط الحيـوي. ومدى رقعته تبدلت في حدود سواحل الأرض اليابسة كثيراً، على ما يبدو من الجفـاف الفتاك الحالي في الساحل، أي في منطقة السافانا الأفريقية الواقعة بين طـرف الصحراء من جهـة والطرف الشمـالي لغابـات الأمطار المـداريـة من جهـة أخـرى. بعض هـذه التبدلات قد سببتها جزئياً تغيرات جغرافية طبيعية ومناخية، وهي أشياء لم يكن للانسان يد في إيجادها كما أنه لم يمكنه تعديلها. وهناك بعض هذه التبـدلات المسببة عن الفعـل البشري المتعمد او غير المقصود . والعوامل غير البشرية التي عينت شكل الأويكومين كانت الى قبل نحــو ١٠,٠٠٠ ـ ١٢,٠٠٠ سنة هي المتغلبة على الفعل البشري .

مساق تاريخ سيارنا الأرض كانت التبدلات الجغرافية الطبيعية والمناخية في
السيار جسيمة. من المرجح انها كانت غاية في التطرف والعنف في الحقب الأولى
من وجود الأرض، قبل أن يظهر المحيط الحيوي على سطح الأرض. إن البقايا المتحجرة
من النبات والحيوان في طبقات من القشرة الأرضية التي كانت على سطح الأرض قبل
تاريخ ظهور الانسان قد أظهرت لنا ان مناطق هي اليوم معتدلة او شبيهة بالباردة كانت
من قبل ذات مناخ حار. وثمة تفسيرات متنوعة لهذه التبدلات المناخية الاقليمية. ثمة
احتمال ان يكون محور الأرض قد انحرف أو مال. وأن النقطتين اللتين تعينان الآن
القطبين على سطح الأرض كانتا في وقت من الأوقات على خط الاستواء أو قريبتين منه.
ولكن، إذا صح هذا فإنه من العسير ان ندرك كيف استطاعت الأرض ان تحافظ على
انتظام حركتها في الدوران وعلى فلكها الاهليلجي، دون ان تلقي بها النقلة المفترضة عن
وضعيتها خارج مساقها. وهناك احتمال بديل بأن القارات قد تكون انساقت عبر سطح
الأرض، كما لو كانت طوفا يسبح على سطح مستنقع، لا طبقات من الحجر ترتكز الى
صخر. ونظرية انسياق القارات، مثل نظرية تبدل القطبين هي موضع جدل، ولعلها لا
يمكن التثبت منها، ولكنها تبدو وكأنها تكسب الأنصار، بشكل أو بآخر. ومما يشفع بها
بأنها، على عكس النظرية البديلة، لا تفرض تبدل الجهات في الكرة بأكملها، بل تفرض
تبدلاً في تكوين سطح الكرة فقط.

وعلى كل حال فإن الوجود الغامض للمتحجرات المدارية في المناطق التي هي
ليست مدارية الآن هي مشكلة «متعلقة» بحقبة جيولوجية تسبق ظهور الأحياء الشبيهة
بالبشر بملايين السنين. أما الظاهرة المناخية التي عاصرت ظهور الأحياء الشبيهة بالبشر
في المحيط الحيوي فهي سلسلة الفترات الجليدية، التي كان يتخللها ذوبان الجليد، في
الحقبة الأحدث، أي في غضون المليوني السنة الأخيرة. وأحدث فترة جليدية (ولا شك
أنه من التسرع بمكان الفرض بأن هذه ستكون آخر فترة جليدية بالمرة) هي التي عقبها
الذوبان الحالي قبل ١٢,٠٠٠ او ١٠,٠٠٠ سنة.

ويبدو أنه في الفترات الجليدية لم يغمر الجليد أكثر من جزء صغير من سطح
اليابسة في المحيط الحيوي. والمساحات التي غمرها الجليد كانت تقع في الغالب على
مقربة من المنطقتين القطبيتين، اضافة الى رقاع متباعدة غطاها الجليد، وهذه كانت أقل
بعداً من تلك عن خط الاستواء. وعلى كل فهذه التغطية من الجليد استثنت موقتاً بعض

الأراضي الخصبة من الأويكومين (على سبيل المثال في سكاني وفي الجزء الجزري من الدانمرك، وفي مدلوثيان وفي كاثنس) التي كانت غاية في الانتاج منذ ان بدأ استغلالها. وفضلا عن ذلك فان النسبة في التغطية المحلية للجليد كانت تتغير بين البحر واليابسة وذلك لمصلحة اليابسة. وترتب على ذلك أن كمية ضخمة من المياه تكومت في الغطاء الجليدي وتجمدت في مكانها، بحيث أن سطح البحر انخفض انخفاضاً محسوساً حول الكرة جميعها. وظهرت قيعان البحار الضحلة جافة؛ والبحار الضيقة ازدادت ضيقاً؛ وبعض المضايق ظهرت فيها البرازخ. وأثر هذه التغطية الجليدية المحلية كان ضئيلاً إذا قيس بمعدل عمق البحر ونسبة البحر الى اليابسة في تكوين سطح السيار؛ ولكن هذا الأثر كان كبيراً بما أتاحه من فرصة في توسيع مدى أويكومين الانسان في زمن كانت وسيلة الانسان الوحيدة للتنقل على الأرض هي قدماه، وكانت فيه صناعة السفن وفن الملاحة لا يزالان في طفولتهما.

وحتى إذا أخذنا في الاعتبار تيسير الهجرة الناشىء عن انخفاض موقت في سطح البحر، فإن بلاء الأحياء الشبيهة بالبشر، التي جاءت في وقت مبكر، في توسيع رقعة الاويكومين يبدو مذهلاً في أعين إنسان اليوم. ويرجع السبب في هذا الى ما اخترعناه في المئة والخمسين السنة الأخيرة، من سلسلة وسائل النقل الميكانيكية، بدءا من السفن والقطارات الميكانيكيـة الى السيارات والطائرات. وسنشعر أن نجاح الأحياء الشبيهة بالبشر لا يثير مثل هذه الدهشة، عندما نقابل ذلك بنجاح الحيوانات الرئيسة من غير الأحياء الشبيهة بالبشر. فإن هذه قد استعمرت الاميركيتين كما استعمرت آسية بما في ذلك من أشباه جزر وجزر تقبع عبر البحر. ومن الناحية الأخرى فلم يتمكن أي من أصناف أسرة الأحياء الشبيهة بالبشر باستثناء الجنس البشري ولا أي نوع من الجنس البشري سوى الانسان العاقل، من الوصول الى الاميركيتين بحراً من جنوب إفريقية المداري، وهي المنطقة التي بدأ فيها التباين بين الأحياء الشبيهة بالبشر وأبناء عمومتهم من القرود الكبار. فجميع السكان البشريين الذين كانوا في الاميركيتين قبل كولمبوس متحدرون من ممثلي الانسان العاقل الذين وصلوا الى الاميركيتين برا من القارة، وذلك في غضون الفترة الجليدية الأخيرة. وقد وصل الاميركيون السابقون لكولمبس من الزاوية الشمالية الشرقية لآسية عن طريق برزخ موقت هو الذي غمره فيما بعد مضيق بيرنغ. أما الأميركيون الذين يرجعون الى الفترة التالية لكولمبس، والذين شقوا الطريق قبل

النورسيين من الزاوية الشمالية الغربية الأوروبية لآسية ، هم الوحيدون الذين عبروا المحيط الأطلسي .

إذا كان الانسان العاقل ظهر أول من ظهر في شرق إفريقية المدارية، على نحو ما ظهر رفاقه من الأحياء الشبيهة بالبشر التي انقرضت الآن، فإنه، في انتقاله على الأقدام الى تيرا دلفوغو، يكون قد اجتاز مسافة جغرافية طويلة. ومثل ذلك فان الزمن الذي احتاجه كان طويلاً. يضاف الى ذلك أن الانسان، مثل بقية أشكال الحيوان متنقل. فهو ليس ملتصقاً بالأرض على نحو ما يلتصق أكثر النبات الذي ينمو في المحيط الحيوي. على ان النباتات انتشرت انتشار الحيوانات رقعة، ولو أن أكثر النباتات تعتمد، في انتشارها، على عمل الحشرات والرياح. وبعد ان يقال كل ما يمكن قوله، فإن المدى الذي انتشر فيه الانسان في العصر الحجري أمر رائع. فقد وصل الانسان تيرا دلفوغو واسترالية أيضاً، في وقت مبكر يعود الى حوال ٦٠٠٠ ق.م. مع أن الطريق البري من آسية الى استرالية كان يعترضه نحو خمسين كليومتراً من الماء، بين بورنيو وسيليبيس، هذا في الوقت الذي وصل سطح البحر الى حده الأدنى. وأعجب ما حققه إنسان العصر الحجري كان استعمار بولينيزيا، بما في ذلك جزيرة الفصح Easter Island . وقد جاس الأوروبيون الغربيون والمستعمرون منهم فيما وراء البحار في غضون الخمسمئة السنة الأخيرة سطح المحيط الحيوي بأكمله. ومع ذلك فإنه باستثناء المناطق القطبية لم يعثروا إلا على القليل من الأماكن التي لم يكن قد استقر فيها الناس منذ عصر ما قبل الأوروبيين .

والانسان غريب أمره بين الحيوانات العليا في انه فقد فروته باستثناء بقع قليلة تغطي جزءا صغيراً من جسمه. وكانت الكائنات البشرية بحاجة إلى أن تكسو نفسها بفراء صناعي لتتمكن من العيش في المناطق المدارية حيث لا توجد ستارة من أوراق الشجر تفصل الجسم البشري العاري عن الشمس؛ وكذلك احتاجت الكائنات البشرية ثياباً للعيش في المناطق الباردة او الشبيهة بالقطبية، حيث كانت معرضة للصقيع. فالعربي البدوي المتنقل والأسكيمو يستعملان الثياب السميكة ـ فالبدوي يستعمل الثياب الصوفية والاسكيمو يلجأ الى الجلود. واليوم يلجأ القوم الى التكنولوجيا الحديثة لتوسيع مناطق الاستغلال، إن لم تكن مناطق العيش، الى أقاصي الشمال في الاتحاد السوفيتي وكندا.

إن المناطق التي تغطيها الثلوج دوماً في غـرينلانـد وفي القارة الأوسـع في القطب الجنوبي، لا تزال خارج حدود الأويكـومين، ومثـل ذلك الحـال بالنسبـة الى جهات في المناطق المدارية ذات الغابات الكثيفة والبلاد الجبلية المغطاة بالثلوج والصحارى الجافة. ولكن الانسان يبدو وكأنه يستطيع العيش في مناطق أكثر تنوعاً في المنـاخ من تلك التي تعيش فيها الحيوانات العليا. إذا اجتزت واحداً من الأودية الضيقة العميقة التي نجدها في التربة البركانية الناعمة في إثيوبيا، فإنك تنحدر من السـطح المعتدل في الهضبـة الى مستوى تعيش فيه القرود؛ ولكن قبل ان تصل القاع، فإنك تكون قد خلفت مسـاكن القرود وراءك. وتنحدر الى انخفاض حيث يكون الوادي حاراً أكثر مما تتحمله القرود. ولكن ليس ثمة مكان مهما كان ارتفاعه، من الهضبة المعتدلة الى أحواض الأنهار المدارية في إثيوبيا لا يستطيع الانسان العيش فيه.

إن تشكيل الأويكومين لم يتبدل كثيراً منذ أن انحسرت موجة الجليد الأخيرة قبل ما بين ١٢,٠٠٠ و١٠,٠٠٠ سنة. وسطح الأرض اليابسة الصالح للعيش يتكون من قارة واحدة كبيرة هي آسية بما في ذلك أشباه جزرها والجزر القابعة في البحر. وأهم أشباه الجزر الآسيوية هي أوروبة والجزيرة العربية والهند والهند الصينية. وكان من المحتمل أن تكون هذه الأخيرية أوسع الأربع مساحة لو انها امتدت باستمرار من الملايو الى استرالية ونيوزيلاندة. لكن في الواقع فان الجزء المتوسط منها تفسخ، وسقط جـزئياً في البحـر، وإسترالية الآن مفصولة عن آسية بالبحر الضيق الذي هو أرخبيل اندونيسيا ـ وهو تيـه من المضايق والجزر. وأكبر جزر آسية القابعة في البحر هي إفريقية والاميركيتان وأبعـد الجزر هي المنطقة القطبية الجنوبية. ويصل برزخ السويس إفريقية بآسية، ويصل برزخ بنما أميركا الجنوبية بأمريكا الشمالية. وهـذان البرزخـان جعلا ممـرين اصطنـاعيين لمـا خرقهما الانسان بالقناتين اللتين حفرهما فيهما. وأهم الممرات المائية الطبيعيـة هو مضيق ملقا الذي يزود المحيطين الأطلسي والهادي بطريق بحري يصل بينهما.

إن أفضل سبل المواصلات لنقل المسافرين من جزء من الأويكومين الى جزء آخر هي في الواقع خارج نطاق الأويكومين، ذلك بأن أفضل العناصر توصيلا هما الهواء والمـاء، وهذان العنصران تستطيع الكائنات البشرية أن تجتازهما، ولكنها لا تقـدر على العيش فيهما. وحتى الوقت الذي تم فيه اختراع القاطرات التي تسير بقوة البخار عـلى السكك الحديدية، وذلك في القرن التاسع عشر، كان النقـل النهري والبحـري أسرع

وأرخص من النقل البري. وقد كانت القوة العضلية البشرية والحيوانية هي القوة الحركية الوحيدة التي كان الانسان يستطيع استخدامها في السفر والنقل براً في العصر السابق للسكة الحديدية. اما بالنسبة للنقل المائي، في الناحية الثانية، فان القوة العضلية البشرية، التي كانت تسير المردي والمجذاف، كانت، حتى قبل فجر المدنية، قد أضيف اليها تسخير قوة الريح للشراع. وقوة الريح كانت القدرة الطبيعية الجامدة الأولى التي سخرها الانسان؛ وكانت أول ما تخلى عنها أيضاً. لقد أصبحت فائضة عن الحاجة لما سخرت قوى طبيعية جامدة غيرها لادارة الآلات.

وفي عصر النقل المائي كانت طرق المواصلات الرئيسة تحددها تشكيلات سطح الماء في المحيط الحيوي. وقد كانت الممرات المائية أفضل الطرق البحرية (مثلا، إضافة الى مضيق ملقا، المضايق الضيقة التي تصل البحر الأسود بالبحر الأيجيّ، ومضيق جبل طارق، ومضيق دوفر، ومجموعة المياه الضيقة التي تصل البحر البلطيّ ببحر الشمال). والطرق المائية الداخلية النافعة كانت الأنهار البطيئة والصالحة للملاحة. والمثل الكلاسيكي على ذلك هو نهر النيل شمالي الشلال الأول. ففي هذه المسافة المائية، كانت القوارب الشراعية تنحدر مع النهر يدفعها التيار، وتسير صعداً ضد النهر باستعمال الشراع، إذ أن الريح الشمالية هي الريح الغالبة في مصر إضافة الى ذلك فانه بعد التوغل في مصر لم يبق مستوطن بشري أو حقل او حتى مقلع للحجارة بعيداً بعداً كبيراً عن مجرى مائي يصلح للملاحة. وقد كانت وسائل المواصلات في مصر، قبل اختراع السكة الحديدية، أفضل من مثيلاتها في أي قطر في مثل تلك المساحة.

في عصر النقل المائي كانت الأجزاء التي تصلح لأن تكون مفاتيح نقل على سطح الأرض في الأويكومين هي التي وفرت سبل النقل من بحر الى بحر آخر، أو من نهر صالح للملاحة الى نهر آخر. وكانت مصر بالذات منطقة نقل، إذ أن النيل يفرغ ماءه في البحر المتوسط، وثمة مسافتان قصيرتان للنقل البري من النيل الى شاطىء البحر الأحمر. الأولى من الذراع الشرقي للنيل الى السويس عبر وادي توميلات والأخرى عبر وادي حمامات من قفط، في مصر العليا، الى القصير القديمة (لوكس ليمن). وحقيقة الأمر ان النقل براً عبر برزخ السويس هو جزء من مجال للنقل البري يشمل مصر في الغرب والعراق في الشرق. ففي هذه المنطقة نجد أن البحر المتوسط، وهو متجمع ماء خلفي للمحيط الأطلسي، والبحر الأحمر والخليج العربي، وهما متجمعان مائيان خلفيان

للمحيط الهندي، إنما تفصل بينهما أضيق فسحة من اليابسة. فالجواز من البحر المتوسط الى البحر الأحمر عبر النيل يكرر نفسه في الجواز الى الخليج العربي عبر نهر الفرات.

هذه التسهيلات الفريدة للمواصلات جعلت مصر وجنوب غرب آسية الدولاب الجيوبوليتيكي للأويكومين في العالم القديم. ومن المؤكد انه ليس من قبيل المصادفة أن كانت هذه المنطقة مهد أولى حضارات العصر الحجري الحديث، وبعدها مهد أقدم مدنيتين. وقد كان ثمة مجالان آخران للنقل كان لهما أهمية تاريخية بارزة: المجال النقلي بين الأنهار التي تصب في البحر البلطي والأنهار التي تصب في البحر الأسود وبحر الأسود وبحر قزيون (الخزر) في الجهة الواحدة، والمجال النقلي عبر سهل الصين الشمالية بين المجاري الدنيا لنهر يانغتسى والنهر الأصفر ونهر باي هو - وهو مجال أصبح ممراً مائياً لما حفرت القناة الكبيرة. وعلى كل فإن هذين المجالين النقليين - الصيني والروسي هما على هامش أويكومين العالم القديم؛ فقد سبقهما في الأهمية التاريخية المجال النقلي الرئيسي بين البحر المتوسط والمحيط الهندي.

في حدود هذا المجال الشامل الممتد من مصر الى جنوب غرب آسية، تركزت التجارة في منعرجين. أحدهما في شمال سورية بين انحناءة نهر الفرات والزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط؛ وثانيهما يقع في أفغانستان الحالية، عبر جزء من سلسلة جبال هندكوش التي تخترقها ممرات تصل حوضي سيحون (اوكسس) وجيحون (جاكسارتس) العلويين بالحوض الأعلى لنهر السند (الاندس). وسورية الشمالية متصلة برا وبحرا بمصر، وبحرا بكل شواطىء البحر المتوسط ومياهه الخلفية، وبالمحيط الأطلسي عن طريق مضيق جبل طارق؛ وتتصل سورية بأوروبة براً عن طريق ممرات كيليكيا، وبحرا عبر مضيقي الدردنيل والبوسفور. ومع الممرات الخزرية وحوض سيحون - جيحون (ما وراء النهر)، ومع الهند، وتتصل أيضاً انحداراً مع الفرات الى الخليج العربي والمحيط الهندي، ومع المحيط الهادي مروراً بمضيق ملقا. وأفغانستان متصلة بأرض الرافدين وشمال سورية عبر الممرات الخزرية ومع حوض الفولغا انحداراً مع نهر جيحون وعبر السهوب الأوراسية، وتتصل أفغانستان بالصين بطريق سيكيانغ، ومع الهند بطريق الممرات التي تخترق سلسلة جبال سليمان.

قبل ما توالت اختراعات السكك الحديدية والطائرات كانت التجارة التي تتلاقى في المنعرجين وتتفرع عنهما تفيد من النقل المائي، النهري والبحري، حيثما كان ذلك ممكناً

عملياً. وعندما كان الناس والمتاجر تضطر الى التنقل براً، قبل اختراع الآلة، كان الانسان يقع تحت رحمة الأرض. فقد كان من الممكن الدوران حول الجبال أو تسلقها؛ أما الغابات، المعتدلة منها والمدارية على السواء، فكانت عقبات بشكل خاص؛ وأما السهوب فقد كانت صلة وصل ممتازة. وفي الحقيقة فإن مناطق السهوب الثلاث المتصلة ـ الأوراسية والعربية والشمال افريقية أصبحت صلة وصل تكاد تعادل البحر ذاته لما دجن الانسان الحيوانات الصالحة للخدمة: الحمير والخيل وفوق هذا كله الجمال. وأصبح بإمكان الكائنات البشرية ان تجتاز السهوب تقريباً بمثل السرعة التي تجتاز بها البحر، وذلك بمساعدة حيوانات الركوب وحيوانات الحمل وحيوانات الجرّ، لكن استعمال كلا العنصرين اقتضى تنظيماً ونظاماً. فالقافلة، مثل السفينة، كان لا بد لها من قائد، وكانت أوامره واجبة الطاعة.

وحتى لما سخرت السهوب، كما سخرت البحار والأنهار الصالحة للملاحة، سبلاً للمواصلات بين مختلف أجزاء الأويكومين، فان وسائل التواصل البشرية ظلت ناقصة الى عصر الآلة. وحتى مع النقص في هذه الوسائل فقد قامت امبراطوريات عاشت طويلاً ناجحة. والأديان التي انتشر دعاتها ليهدوا البشرية بأجمعها قد كسبوا أتباعاً وحافظوا عليهم في رقعة أوسع مما حققته أي امبراطورية دنيوية. فالامبراطورية الفارسية الأولى والامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية والخلافة العربية والأديان الثلاثة ذات الدعوة العالمية ـ البوذية والمسيحية والاسلام ـ إنما هي آثار شاهدة على انتصار قوة الارادة البشرية على العوائق الطبيعية. ولكن الحدود التي بلغها النجاح تظهر أيضا حدود المدى الذي كان ممكناً عملياً للمجتمعات البشرية أن تبلغه بدون مساعدة وسائل المواصلات الميكانيكية، التي اخترعت منذ مطلع القرن التاسع عشر.

والشاهد الذي يدعو الى الانتباه اكثرمن غيره على عجز وسائل النقل قبل بدء عصر الآلة هو اللغات المختلفة، التي كانت تستعمل محليا في مختلف أنحاء الأويكومين، والتي لا يمكن تبين أي صلة بين الواحدة منها والأخرى. واللغة مقدرة بشرية عالمية. ولم يسمع بجماعة بشرية لا لغة لها. وإذا أخذنا هاتين الحقيقتين معا فإن ذلك يوحي إلينا أنه قبل ان ينتشر الانسان العاقل على سطح الأرض في المحيط الحيوي من شرق افريقية المدارية (إذا صح ان هذه هي المنطقة التي ظهر فيها هذا الصنف من النوع البشري لأول مرة) فان البشرية ككل كانت ولا ريب في سبيل استعمال النطق، ولكنها لم تكن قد

طورت هذه الامكانية بعد. وهذه الفرضية قد تفسر لنا كيف تم للمجتمعات البشرية جمعاء ان تكون لها لغات. ولكن اللغات، بخلاف الكائنات البشرية التي تتكلمها، ليس بينها قرابة واضحة. وبطبيعة الحال فإن الكائنات البشرية الوحيدة التي نعرفها من مخلّفاتها، الخارجة عن العظام والأدوات، ليست سوى الكائنات الممثلة للأنواع الباقية وحدها. ولسنا نعرف فيما اذا كانت أي أنواع أخرى من النوع البشري، أو أي نوع من فصيلة الكائنات الشبيهة بالبشر، قد تعلمت الكلام، أو أن هذا الانجاز كان خاصاً بالانسان العاقل، كما أنه لا سبيل لنا الى الكشف عن ذلك.

واللغات المعروفة التي تتكلمها المجتمعات المختلفة التي هي من نوعنا، انتشرت في مجالات متباعدة في مداها.

فقد كان في غابات غرب إفريقية المدارية، قبل أن يدخلها المهاجمون من خارج المنطقة، لغات متعددة متقاربة في مواقعها، إلا أنها، على ما يبدو، لم تكن ذات صلة واحدتها بالأخرى. وقد كان مجال استعمال كل من هذه اللغات صغيرا للغاية. وقد يعجز سكان قريتين، لا يفصل بينهما سوى بضعة كيلومترات من الغابات، من التواصل معا بشكل واضح عن طريق الكلام. وكانت اللغة الشائعة هي الاشارات. واللغات المحكية الآن في غرب افريقية جاءت من الخارج: فلغة الهوسا (الحوسا) على سبيل المثال، جاءت من سهوب شمال افريقية والفرنسية والانكليزية جاءتا من الساحل.

وبالمقارنة مع انغلاق الغابات فإن البحر قد حمل لغات الملايو الى جزر الفلبين في اتجاه شمال شرقي، والى مدغشقر في اتجاه جنوبي غربي. وكذلك حمل البحر اللغة البولينيزية الى كل جزر أوقيانوسية، اي الى أمكنة بعيدة من القارة مثل جزيرة الفصح ونيوزيلاندة. والبحر المتوسط كان، في زمن مضى، عاملاً في نشر اللغات البونية (الفينيقية) واليونانية واللاتينية في شواطئه، والمحيط الأطلسي نقل اللغات الاسبانية والبرتغالية والانكليزية والفرنسية من غرب اوروبة الى الاميركيتين. والسهوب نقلت اللغات الى أماكن بعيدة على نحو ما فعل البحر. واللغات الهندية ـ الأوروبية أولا واللغات التركية فيما بعد، اجتازت السهوب الأوراسية وانتشرت وراء شواطئها في اتجاهات متضادة. وقد انتقلت اللغة العربية من الجزيرة العربية الى شواطىء المحيط الاطلسي عبر السهوب الشمال افريقية.

وانتشار اللغات عن طريق الوسائل غير البشرية قواه العمل البشري المقصود الذي اتخذ شكل النشاط التبشيري الديني والاحتلال العسكري والتنظيم السياسي والتجارة. فالدويلات والقبائل الآرامية كانت عاجزة سياسياً وقد خضعت للأشوريين، ومع ذلك فقد انتشرت اللغة الآرامية في جنوب غرب آسية، كما انتشرت الالفباء الآرامية شرقا الى منغوليا ومنشوريا، وذلك بسبب الاستعمال الاداري للآرامية في الامبراطورية الأشورية والامبراطورية الفارسية الأولى، ولأن النساطرة والمانويين استعملوها في الطقوس الدينية. ومن الجهة الثانية فإن نجاح اللغة اليونانية في التغلب على الآرامية في جنوب غرب آسية وفي مصر يعود الى قضاء الاسكندر الكبير عسكرياً على الامبراطورية الفارسية الأولى؛ كما كان الاحتلال العسكري واسطة نقل اللغات الرومانسية الى رومانية شرقا والى شيلي في الاتجاه الجنوبي الغربي، وذلك من الوطن الأصلي الصغير للغة اللاتينية، وهو الوطن الذي كان يقوم أصلاً على شاطىء المجرى الأدنى لنهر التيبر الايطالي.

وقد قامت الأنظمة المختلفة بأدوار رئيسة في أوقات مختلفة من تاريخ الأويكومين. وإذا كانت منطقة إفريقية الاستوائية والمنطقة الجنوبية الشرقية من إفريقية هي في الحقيقة مهد الأحياء الشبيهة بالبشر، ومن بينها الأصناف العاقلة من النوع البشري، فمعنى هذا أن شرق افريقية والأويكومين كانا أصلاً متطابقين في حدودهما. وقبل نهاية العصر الحجري القديم المتأخر اتسعت حدود الأويكومين من شرق افريقية بحيث شملت القسم الأكبر من القارة، وكانت الأحياء البشرية تنتشر في الأميركيتين. في هذه المرحلة كان الدور الرئيس، على ما يبدو، قد انتقل الى التخوم الجنوبية من مناطق الجليد الأوروبية الشمالية، حيث كان صيادو العصر الحجري يقعون على الصيد الوفير قبل موجة الذوبان الحالية. ومع ذلك فقد تكون الأولية الظاهرة لأوروبة في هذا العصر وهو ناشىء عن النقص في ما لدينا من المعلومات. وإذا أتيح لمخلفات إنسان العصر الحجري القديم المتأخر الموجودة في بقية العالم ان يكشف عنها القناع في النهاية، على نحو ما كشف القناع عنها في أوروبة الى الآن، فقد تظهر الصورة عندها مختلفة عما هي عليه الآن.

ونحن أكثر تأكداً من أن جنوب غرب آسية والأجزاء الشمالية القصوى من وادي النيل، قامت بالدور الرئيس في العصر الحجري الحديث، وبأن سومر ـ وهي السهول

الرسوبية في الجزء المنخفض من وادي الرافدين ـ كانت مهد أقدم المدنيات. هذا مع العلم بأنه، في ما سبق من العصر الحجري الحديث، لم يكن هذا الجزء من جنوب غرب آسية صالحاً للعيش. وفي القرن الثالث عشر للميلاد، لما خسرت هذه المنطقة الرسوبية أخيراً قدرتها على الانتاج، انتقل الدور الرئيس في الأويكومين، والى مدة قصيرة هي فترة جيلين، الى منغوليا. ويعود ذلك الى ان السهوب الأوراسية صالحة للتنقل، والى أن هؤلاء البدو الأوراسيين، الذين كانوا رعاة، كانت لهم المقدرة على الحركة، وكانوا يتمتعون بالشجاعة الفائقة والنظام. وقد تمكن هؤلاء، وقد اتحدوا مؤقتا تحت إمرة المغول، من إخضاع كل قلب القارة، ولم يسلم منهم إلا أشباه الجزر والجزر البعيدة عن الشاطىء. ومن ثم فقد انتقل الدور الرئيس في الأويكومين الى أوروبة في القرن الخامس عشر، وذلك لما تمكن ملاحوها من السيادة على المحيط ـ وكان المحيط سبيلاً للتنقل أوسع من السهوب الأوراسية.

وفي القرن العشرين، بعد أن خسر غرب أوروبة سيطرته العالمية، بسبب أنه شن حربين طاحنتين بين الأشقاء، انتقل الدور الرئيس الى الولايات المتحدة. ويظهر، عند كتابة هذه الصفحات، كأن السيادة الاميركية ستكون قصيرة الأجل، كما كانت السيادة المغولية. إن المستقبل لغز؛ لكن يبدو أنه من المحتمل أن القيادة قد تنتقل من أميركا الى آسية الشرقية في الفصل التالي من تاريخ الأويكومين.

٥ ـ الثورات التكنولوجية حـول ٧٠,٠٠٠/ ٤٠,٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م.

كل نوع من الكائنات الحية وكل نموذج من كل نوع يؤثر في المحيط الحيوي ويبدل فيه بسبب ما يبذله من جهد للاحتفاظ بحياته في الفترة القصيرة التي يعيشها. ومع ذلك فلم يكن لأي من الأنواع السابقة للأحياء الشبيهة بالانسان من القوة ما يمكنه من السيطرة على المجال الحيوي او تحطيمه. ومن الناحية الثانية فإنه لما قام واحد من الأحياء الشبيهة بالانسان بتشحيف حجر، رغبة منه في جعله أداة أصلح، الأمر الذي لعله تم قبل مليوني سنة، كان هذا الفعل التاريخي إيذاناً بأنه في يوم من الأيام سيتمكن نوع ما من أحد أصناف العائلة الشبيهة بالانسان من الحيوانات الثديية العليا من وضع المحيط الحيوي تحت رحمته، ولن يكتفي بالتأثير فيه وتبديله فقط. وقد تم للانسان العاقل، في أيامنا هذه، السيطرة على المحيط الحيوي.

وهذه القدرة التي تملكها عائلة الأحياء الشبيهة بالانسان، والتي تمكّن هذه العائلة من السيطرة على المحيط الحيوي، لم يتح لها ان تصبح أمراً واقعياً خلال هذين المليونين من السنين، التي صنعت فيها الأدوات، إلا خلال السبعين أو الأربعين الفا الأخيرة من السنين. كان هناك ولا شك شيء من التقدم التكنولوجي خلال العصر الحجري القديم المبكر، ولكن التقدم في تلك الحقبة كان بطيئاً وضعيفاً. وكل من التجديدات التكنولوجية المتتالية التي ظهرت كانت تنتشر انتشاراً متسقاً في الأويكومين (وهذا لم يشمل، في العصر الحجري القديم المبكر، الاميركيتين). وانتشار التجديدات التكنولوجية العائدة الى ذلك الزمن كان بطيئاً، ذلك بأن الضرب الجديد من الأداة كان ينقله الناس بأنفسهم من مجتمع الى آخر. ومن الواضح أنه في هذه المرحلة الاقتصادية التي كان قوامها جمع الغذاء، لم يكن من الممكن للمجتمعات البشرية أن تكون مساكنها متقاربة، إذ أن كل فريق كان يعوزه حيز واسع يتجول فيه سعياً وراء لقمة العيش.

يضاف الى ذلك أن الأحياء الشبيهة بالانسان من أهل العصر الحجري القديم

المبكر، بما في ذلك أكثر أنواعها نجاحاً أي الانسان العاقل، كانت ذات عقلية محافظة، وأنها كانت تنفر من قبول شيء جديد، حتى ولو كان الصنف الجديد في متناولها. ومع ذلك فالسبب في ان الانتشار كان متسقاً في الأويكومين بالنسبة الى الأدوات الجديدة، مع أن النقل كان بطيئاً، يعود الى ان التجديد لم يكن يحدث كثيراً. فقد كانت الفترات الزمنية بين التجديدات المتتالية طويلة، بحيث تتيح لكل تجديد أن ينتشر في الأويكومين، قبل ان يتبعه التجديد التالي.

وفي تاريخ التكنولوجية نجد أن الثورة التي قامت في العصر الحجري القديم المتأخر وذلك قبل ٤٠,٠٠٠/٧٠,٠٠٠ سنة، كانت حدثاً حاسماً، ومن ذلك الوقت والى يوم الناس هذا، تسارعت التحسينات في الأدوات من كل الأصناف. ومع انه كان ثمة توقف محلي وموقت، وحتى في بعض الأحيان نكسات، فإن التسارع هو النزعة الأسمى في تاريخ التكنولوجية في هذه المرحلة الأخيرة.

وفي الفترة الممتدة من حول ٣٠٠٠ ق.م. الى ١٥٠٠م انعكس الأمر بالنسبة الى سرعة الانتشار وسرعة التجديد في مقابل ذلك. فقد كانت تخترع ضروب جديدة من الأدوات، قبل ان يتاح للأصناف الموجودة ان تنتشر في أنحاء الأويكومين. وترتب على ذلك ان هذا الاتساق العالمي الذي كان صفة ملازمة للعصر الحجري القديم المبكر حل محله، في العصور التالية، التباين. فلم يكن للمخترعات الجديدة من الوقت مايسمح لها بالانتقال من موطنها الأصلي الى أقاصي الأويكومين، قبل ان تتغلب عليها مخترعات أحدث في المنطقة. ولم تلحق سرعة الانتشار سرعة الاختراع وتتغلب عليها ثانية إلا بعد القرن الخامس عشر للميلاد؛ إذ أن قدرة الأويكومين على التوصيل ازدادت فجأة لما اخترعت شعوب غرب أوروبة شكلاً جديداً من السفن الشراعية التي كانت تتمكن من المكوث في البحر شهوراً متطاولة بحيث أنها وصلت الى كل شاطىء، بل وتمكنت من الدوران حول الأرض.

خلال الخمسمئة سنة الماضية أصبحت سرعة كل من الانتشار والاختراع أكبر بكثير جداً مما كانت عليه خلال المليونين الأولين من السنين التي مرت على صنع الأدوات. لكن العصر الحديث والعصر الحجري القديم المبكر يشتركان في صفة واحدة. ففيهما قصرت سرعة الاختراع عن سرعة الانتشار، وقد ترتب على ذلك، في كلتا الحالتين، قيام حالة من الاتساق العالمي على درجة عالية، وذلك على المستوى

التكنولوجي.

في العصر الحجري القديم المتأخر انتقل الانسان العاقل من شمال شرق آسية الى شمال غرب اميركا الشمالية، ومن هناك انتشر حتى وصل الى الطرف الجنوبي لأميركا الجنوبية. هؤلاء المعمرون من العصر الحجري المتأخر فقدوا صلتهم بآسية، باستثناء سكان شواطىء المحيط الهادي حيث تقوم اليوم ولايتا أوريغون وواشنطون ومنطقة كولمبيا البريطانية. وقد مرت فترة لعلها كانت عشرين ألف عام بين استعمار الاميركيتين من شمال شرق آسية وبين الاستعمار الثاني من أوروبة، التي هي شبه جزيرة لآسية. وخلال هذه الفترة المعترضة تطور المجتمع والحضارة في الاميركيتين تطوراً مستقلاً. ومراحل هذا التطور لا تتفق زمنياً مع تلك المراحل المعاصرة لها التي عرفتها آسية وملحقاتها، يضاف الى ذلك أن الأسماء والتواريخ التقليدية لمراحل تاريخ العالم القديم، منذ نهاية العصر الحجري القديم المتأخر، هي خاطئة هنا أيضاً الى درجة معينة.

فعلى سبيل المثال نجد ان العصر الحجري القديم المبكر لم يتميز فقط بتقدمه في تقنية قشر الأدوات الحجرية وتشحيفها. لقد تم له على الأقل ثلاثة اختراعات رائدة: تدجين الكلب، والرمي بالقوس، وتصوير الحيوانات والأحياء البشرية وصياغة نماذج لها. إن نجاح صيادي العصر الحجري القديم المبكر في تأنيس الكلاب بحيث أصبحت للانسان خادمته المطيعة، بعد أن كانت الخصم المزاحم له، كان أول نجاح للانسان في أن يجعل الحيوانات غير البشرية تقوم على خدمته. ولما اخترع هذا الانسان القوس سخر قوة طبيعية غير حية، وهي مرونة الخشب لتمكن قوة عضلاته، وذلك بشد القوس، من ان تطلق سهماً الى مسافة أبعد مما يمكن للذراع البشري من إطلاقه دون عون. اما في ما يتعلق بالتصوير وصياغة النماذج فهما أقدم الأعمال الفنية المنظورة المعروفة. فإن الذين صوروا على جدران الكهوف في فرنسة واسبانية، أفادوا من السطوح الخشنة فجعلوا هيئة الحيوانات المصورة عليها تبدو وكأنها بارزة. وفي ليبنسكي فير، على شاطىء نهر الدانوب الأيمن، عند البوابة الحديدية، خطا فنانو العصر الحجري القديم المتأخر خطوة أبعد فصاغوا أشكالاً ثلاثية الأبعاد تماماً. ولعله كان للصور الكهفية غاية دينية او على الأقل غاية سحرية. ومركز الطقوس في ليبنسكي فير كان بالتأكيد حرماً دينياً. فموقع ليبنسكي فير كان نقطة نهاية طبيعية لمسيرة جامعي الغذاء والصيادين. وقد نستنتج من ذلك أن البشرية مع أنها كانت مضطرة، قبل اختراع الزراعة، الى السير

المستمر في سبيل الحصول على لقمة العيش، فقد كانت ثمة جماعات من أهل العصر الحجري القديم المتأخر اتخذت لها نقاطاً ثابتة كانت تزورها في أوقات منتظمة، قلت او كثرت، رغبة منها، على الأرجح، في القيام بطقوس جماعية. ويبدو كأن مثل هذه النقاط الطقسية (للعبادة) كانت أصل مراكز السكن الدائمة.

وهكذا فإن «الحجري القديم» هو اسم غير صالح لوصف النشاطات والانجازات التي تمت على يد ما نسميه إنسان العصر الحجري القديم المتأخر. وبالأحرى فإن الحقبة التي بدأت بعيد ابتداء الذوبان الحالي (للجليد) - اي لنقل قبل اثني عشرة او عشرة آلاف سنة - لا يصح تسميتها «بالحجري الحديث». صحيح أن أقدم اختراع تكنولوجي في العصر الحجري الحديث هو اكتشاف الطرق التي يمكن بها للانسان شحذ أدواته على الشكل الذي يريده، بدل ان يقشر الصوان أو أي نوع من الحجارة القابل للانشقاق. إذ أن هذا اختراع لم يؤد فقط الى صنع أدوات مناسبة تماماً لقضاء مآربه، بل إنه مكّن الصناع من أن يختاروا موادهم الخام من مجال أوسع لصنع أدواتهم. ومع ذلك فإن الانجاز الذي كان فاتحة عهد جديد لم يكن فن شحذ الأدوات، إنه كان تدجين بعض اصناف من النبات والحيوان. يضاف الى ذلك ان الاختراعات التي تمت في العصر الحجري الحديث مثل الغزل والحياكة وصنع الفخار بدلت في الحياة البشرية تبديلاً لا يقل عن اختراع الزراعة وتربية الحيوان.

ومن المؤكد أن الزراعة وتربية الحيوان كانا أهم الاختراعات البشرية حتى يومنا هذا. ذلك أنهما لم يخسرا قيمتهما كأساس اقتصادي للحياة البشرية، حتى ولا في الأزمنة والأمكنة التي يبدو وكأن التجارة والصناعة قد تغلبتا عليهما. واذا نحن ألقينا نظرة نحو الماضي وجدنا ان الزراعة وتربية الحيوان كانا وسيلتين مباركتين للتوفيق بين تطور قوة الانسان التكنولوجية والحفاظ على سلامة المحيط الحيوي - وهذه السلامة هي الشرط اللازم لاستمرار كل أصناف الحياة، بما في ذلك الحياة البشرية ذاتها. ولما كان الانسان قد نجح في تدجين أصناف من النبات والحيوان، فإنه قد استعاض عن الانتخاب الطبيعي بالانتخاب البشري، وإذ فرض اختياره من أجل غاياته الخاصة، فانه أفقر المحيط الحيوي في سبيل إغناء البشرية. وقد حلت مزروعات الانسان وبساتينه وأغنامه وأبقاره محل العديد من الأصناف التي لا فائدة منها للانسان أو أنها عدوة له، والتي تسبها الانسان «أعشاباً» و«سامة»؛ ومن ثم فقد حكم عليها بالفناء، ما استطاع الى

ذلك سبيلاً، وفي الوقت ذاته ضمن الانسان بقاء تلك النباتات والحيوانات التي اتخذهـا لنفسه. لقد تعلم ان يحتفظ بجزء من حصاده السنوي لتزويده بحاجته من البذار للعام التالي، وكان يجدد أغنامه وأبقاره بالاحتفاظ ببعض حملانه وعجوله أحياء كل سنة. وفضلا عن ذلك فإنه، إذ كان يلجأ الى تخير في التلقيح الحيواني، تمكن من تبديل بعض الأصناف المدجنة بطريقة أسرع وبشكل جذري أكثر، مما لو ترك الأمر للطبيعة لتغيرها بوسيلتها الخاصة.

وقد كان اختراع الفخار سبيلاً لتزويدنا بثبت منظور للتباين في الحضارة. ففي الفخار تتبدل أنماط الشكل والتزويق بسرعة تكاد تشبه التبدل في الثياب؛ وقطع الفخار لا تبلى، فيما تهترىء الثياب، إلا في الحالات النادرة إذ تحفظ في الرمل الجاف او في الخُثّ المعزول عن الهواء. ومن هنا كان تصنيف قطع الفخار طبقات في المكان الذي قطنه الانسان بالنسبة الى الزمن الذي مر بين اختراع الفخار واختراع الكتابة، هو أدق مقياس للزمن التاريخي. وهو أيضاً أضمن ما يدل على الحدود الجغرافية للحضارات المتميزة، ومؤشر لتمازج الحضارات أو انصهارها عن طريق انتشار الفنون وعن طريق الهجرة او الفتح. ففي العالم القديم والاميركيتين على السواء نجد ان تنوع أساليب الفخار هو مفتاح لتاريخ تطور الحضارات الاقليمية وتباينها في العصر السابق للمدنية - وحتى بعد ظهور المدنيات في الأمكنة التي لم يرافق هذا الظهور فيها اختراع الكتابة، او حتى اذا اخترعت الكتابة لكنها أهملت في ما بعد، ولم تحل رموزها الى الآن.

وقد خلفت حضارات العصر الحجري الحديث الاقليمية حضارة العصر الحجري القديم المتأخر في أكثر أقسام العالم القديم من الأويكومين. (في الاميركيتين، كما لاحظنا من قبل، اتخذت حضارة العصر الحجري القديم المتأخر، التي حملها المستعمرون الآتون من شمال شرق آسية، في تطورها سبلها الخاصة بها). وقد تطورت حضارة العصر الحجري الحديث - في العالم القديم - في منطقة معينة، هي جنوب غرب آسية بشكل تدريجي الى حضارة العصر النحاسي عبر دور انتقالي سمي الخلكوليثي. وهو عصر استعمل فيه الحجر والنحاس متعاصرين باعتبارهما المادة الخام لصنع الأدوات. وفي واقع الأمر فان الحجر ظل معتمداً لصنع بعض الأدوات - أعم الأنواع وأنفعها - لمدة طويلة حتى بعد ان استعمل النحاس والبرونز والحديد، كل بدوره، لصنع الأسلحة والحلي. ومن هنا فان العصور التي سميت بأسماء المواد المختلفة التي استخدمت في صنع الأدوات

كانت تتداخل فيما بينها زمنيا. فالعصر الحجري الحديث لم ينته حقاً إلا لما خلف الحديد الحجر نهائياً بوصفه المادة التي تصنع منها الآلات الزراعية والأوعية المنزلية غير الفخارية - وكان هذا في تواريخ مختلفة ومناطق مختلفة.

فيما أصبح تدجين النباتات والحيوانات الوحشية لحمة الحياة البشرية وسداها، فان اختراع التعدين هو عنوان الروعة التكنولوجية للانسان. فالتعدين هو نهاية سلسلة من الاكتشافات الناجحة، ولم تكن نهاية هذه السلسلة بينة من قبل. فكل حلقة منها كانت بنت عمل عقلي فذ. فقد وقع نظر إنسان العصر الحجري الحديث، أول الأمر، على قطع من المعدن الخالص على سطح أرض الأويكومين. وقد تعامل مع هذه القطع المعدنية كما لو كانت حجارة، واكتشف انها، على خلاف الحجارة العادية، هي طيعة. ثم اكتشف، فيما بعد، أنها، اذا أحميت أصبحت مرنة موقتا. واذا رفعت حرارتها الى درجة عالية، تذوب. وهكذا فقد عثر الانسان، في المعدن، على مادة خام هي، مثل الدلغان (الصلصال)، أكثر قبولاً للتشكل من الحجر. وكان الاكتشاف التالي هو أن المعادن يعثر عليها، لا في حالتها الخالصة فحسب، ولكن كعناصر في ركاز (معدن خام)، وأنه اذا أحميت الخامةالمعدنية الى درجة عالية بحيث يذوب محتواها المعدني، فان المعدن الأصلي يمكن تخليصه من الشوائب. وكانت الخطوة الأخيرة هي ان الانسان اكتشف أن أغنى المخزون من الركاز موجود تحت سطح الأرض، ثم جاء اختراع تقنية التعدين.

عند هذه الوقفة كان قد مرّ على استخدام التعدين في العالم القديم من الأويكومين نحو ستة آلاف سنة، ونحو ٢٨٠٠ سنة في البيرو على وجه الاحتمال، وقد كان له آثار ثورية على كل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للحياة البشرية وعلى التفاعل بين الانسان والمحيط الحيوي الذي هو المكان الوحيد الصالح لعيشه. فقد رفع التعدين مستوى الحياة المادية للبشرية، لكن الثمن الذي دفعه المجتمع لقاء الخبرة التعدينية ظهر في تقسيم العمل؛ أما من ناحية البيئة فقد كان الثمن الاستهلاك المستمر للمادة الخام التي هي في الوقت نفسه نادرة وغير قابلة للتعويض.

لقد كان الحداد والمعدِن أقدم المتخصصين في العمل. فقد كان على كل منهما أن يخصص كل وقته لصناعته، بدل الاستمرار في أن يكون صاحب كارات مختلفة، على نحو ما كان عليه صياد العصر الحجري القديم أو مربي الحيوانات في العصر الحجري

الحديث. فقد كان تقسيم العمل هذا نتيجة للتكنولوجيا. وترتب على ذلك، اجتماعياً، تبادل المنتوجات الناشئة عن تنوع الأعمال. وقد خلق هذا مشكلة لم تحل بعد، ولعلها غير قابلة للحل، وهي المشكلة الأخلاقية. فما هو المبدأ الذي يمكن اتباعه في تقسيم منتوج المجتمع بكامله على الفئات المختلفة من المنتجين ؟ فالمنتوج بكامله هو ثمرة عمل تعاوني يقوم به جميع المسهمين في المجتمع، لكن ما ينتجه كل واحد ليس متكافئاً في تأثيره او قيمته. والتفاوت ظاهر. لكن هل من الممكن ان ينعكس ذلك في توزيع للحصص بحيث يرى فيه جميع الفرقاء أنه توزيع منصف ؟ هل من اللازم ان تكون ثمة محاولة لتوزيع منصف ؟ أم هل انه من الصحيح، أو على الأقل مما لا يمكن تجنبه، أن ينال حصة الأسد اولئك الذين يتمتعون بالقوة الراجحة ؟

إن اختراع التعدين زرع بذور التباين الطبقي والخصومة الطبقية. واسم العائلة «الحداد» هو دليل على أنه في القرية الخلكوليثية، كان هو يعتبر أنه قروي من نوع يختلف عن الغالبية غير المتخصصة من سكان القرية. ولعله من الصحيح ان العصر الحجري القديم قد عرف مبادىء التخصص التكنولوجي. فانسان العصر الحجري القديم عرف ان الأنواع المختلفة من الصوان كانت ذات قيم مختلفة بالنسبة الى صنع أدواته. لكنه من غير المحتمل ان يكون أي عامل، قبل اختراع التعدين، قد أصبح متخصصاً متفرغاً، بحيث أنه يستطيع ان يحصل على قوت يومه عن طريق المبادلة فقط، دون ان يكون له اي مشاركة مباشرة في العمل الأساسي الذي تقوم به الجماعة لتزويد نفسها بالمواد الغذائية.

والتبديل الثاني من التبديلات الحاسمة التي نشأت عن اختراع التعدين هو استعمال المواد الخام التي لا يمكن تعويضها والنادرة كذلك. إن تعويض الزارع عن محاصيله الزراعية وحيواناته كان مضموناً له، بسبب أن هذه كانت أشياء حيّة، والحياة قادرة على استيلاد ذاتها طبيعياً، ما لم يحل بين «الطبيعة» وعملها. فكل ما كان يطلب من الانسان، لضمان الاستمرار في النباتات والحيوانات المدجنة، هو أن يكون له بعد نظر، وأن يضبط نفسه بعد في ذلك. فالفلاح يجب ان يوفر القدر الكافي من حصاده وحملانه وعجوله ليزود نفسه، في العام التالي، بالبذار وليحافظ على عدد مواشيه وأبقاره. ويتوجب عليه أيضاً ان يتورع عن التمادي في استغلال الأرض الأم. يجب عليه ان يقاوم الرغبة الجامحة في اجهادها (الأرض الأم) عن طريق الزيادة في الزرع أو الرعي. وعلى

شـرط ان يكون للفـلاح بعد نـظر وأن يضبط نفسـه، تستمـر «الـطبيعـة» في خصبهـا لمصلحته. وفي الواقع فليس ثمة سبب يحول دون ان يستمر العمل في الزراعـة وتربيـة المواشي، بعد ان اخترعتا، وذلك الى ان يصبح المحيط الحيوي غير صالح للعيش فيه. وبالمقابلة فإن تاريـخ التعدين هـو تاريـخ البحث المستمر عن مصـادر جديـدة للمعدن للاستعاضة بها عن المصادر التي كان قد تم اكتشافها وكانت قد استهلكت. فالمعادن، بما أنها مادة غير حية، لا تكمل النقص في ما يتطلبه الانسان منهـا عن طريق الاستيـلاد، وهذا ينطبق على المواد التي كانت عضوية من قبل مثل الفحم الحجري. وفي وقتنا هذا بلغ استخراج المصادر الطبيعية التي لا تعوض درجة بالغة الخطورة، بحيث اننا أصبحنا على قاب قوسين من استهلاك كل المخزون منها التي تصل أيدينا اليه.

وثمة اتساق، في الزراعة وفي تـربية المـواشي، بين قـدرة الانسان التكنـولوجيـة وانتاجية «الطبيعة». وأما باختراع التعدين فقـد أصبحت مقدرة الانسـان التكنولـوجية تتطلب من «الطبيعة» ما ليس باستطاعتهـا تلبيته عبـر الزمن الـذي سيظل فيـه المحيط الحيوي صالحاً للعيش فيه. واذا نحن أخذنا العشـرة آلاف السنة المـاضية من التـاريخ البشري أساساً للألفي مليون من السنين التي تأمل البشرية في إمكـان استمرار حيـاتها عبرها، فقد نصل الى نتيجة هي أنه كان من الأفضل لأحفادنا لو ان التعدين لم يخترع قط، ولو أن الانسان، وقد بلغ مستوى العصر الحجري الحديث في التكنولوجيا، لم يوفق الى الوصول الى مستوى أرفع في إنجازه التكنولوجي. ولو أن نجـاح الانسان في تقنيـة صنع أدواته توقف قبل استعماله المعادن، لكانت أعداد البشرية وثروتها الماديـة اليوم، ولا شـك، جزءا فقط ممـا هي عليه الآن. ومن الناحية الأخـرى فـان بقـاء البشـريـة واستمرارها كان أضمن، إذ لن نقع في خطر استهلاك المصادر التي لا تعوض. حقاً إن الحجر الصلب هو الآخر مثل المعدن، لا يمكن تعويضه لأنه ليس بـذات حياة ومن ثم فإنه لا يجدد نفسه. لكن، من الناحية الثانية، فإن الحجر، إذا قورن بأقل المعادن ندرة، وافر بحيث يبدو وكأنه لا يمكن أن يستهلك. كان من الأيسر والأقل إيلاما لأجدادنا من أهل العصر الحجـري الحديث أن يـظلوا في مستوى مـا قبل المعـدن، مما هـو بالنسبـة لأحفادنا في أن يعودوا الى ذلك المستوى، فيما اذا بدا لهم ان هذا هـو البديـل الوحيـد لفنائهم.

ولكن اين اخترعت الزراعة وتربيـة الماشيـة والتعدين، في الأويكـومين، للمـرة

الأولى ؟ والكلمتان الاخيرتان من هذا السؤال هما جوهرة؛ إذ ليس ما يؤكد لنا ان اختراعات الانسان تمت في مكان واحد وزمن واحد فقط ! فأي اختراع يتم في زمن أو مكان معين يمكن بالطبع ان يقتبس في مكان آخر وفي وقت لاحق. وثمة سبيل غير مباشر للانتشار هو المعروف «بالحافز على الانتشار». فان رؤية اختراع أجنبي او الأخبار عنه قد يدفع بالقوم لا الى اقتباسه كما هو، بل الى خلق مقابل له على أسلوب خاص بهم. ومع ذلك فانه من الممكن ان تتم اختراعات متطابقة تماماً في بضعة أماكن وأزمنة وتكون، مع ذلك، مستقلة. إن ذلك ممكن لأن الاختراعات هي من صنع الطبيعة البشرية، والطبيعة البشرية متسقة بمعنى ان لها صفات روحية سيكولوجية فيزيولوجية معينة، والتي تشترك فيها كل النماذج للنوع الواحد، ولو ان هذه النماذج تعبر عن هذه الصفات المشتركة بطريقتها الفردية الخاصة بها. وكل اختراع قد يكون له أي من هذه البدائل الثلاثة التاريخية. وفي الكثير من الحالات ليس لدينا دليل ليوضح لنا فيما اذا كان اختراع معين ظهر في مكان أو زمان معين، قد كان خلقا مستقلاً أم أنه كان استجابة لحافز أم انه اقتبس كما هو تماماً.

ونحسب أنه، التزاماً بهذه الأوضاع التي ذكرناها، يمكننا القول بشيء من الثقة بأن الزراعة وتربية الماشية والتعدين وأيضا تقنية قلع قطع كبيرة وثقيلة من الحجر ونقلها - هذه كلها قد اخترعت للمرة الأولى في جنوب غرب آسية وهي رقعة النقل الرئيسية في الجزء المعروف بالعالم القديم من الأويكومين. وباستطاعتنا حتى تحديد الرقعة في المنطقة بشكل أدق. إنها لا تشمل الجزيرة العربية، إلا في زاويتها الجنوبية. إذ أنه لما كانت الزراعة وتربية الماشية في طريق اختراعهما، كان الجزء الأكبر من الجزيرة العربية، بما في ذلك طرفها في أقصى الشمال، وهو بادية الشام اليوم، قد أصبح جافاً بحيث لم يكن مسرحاً ملائماً لتدجين النبات والحيوان. والزاوية الجنوبية من الجزيرة العربية هو الجزء الوحيد الذي ظل خصباً بسبب الأمطار الموسمية. وهذه الزاوية من اليمن عزلها عن غيرها تشقق بقية الجزيرة العربية قبل اختراع السفن البحرية وتدجين الجمل العربيّ.

إن مهد الزراعة وتربية الماشية والتعدين في منطقة جنوب غرب آسية لم تشمل الغرين الذي حمله نهرا دجلة والفرات في مجرييهما الأدنيين. إذ أنه قبل ان تنزح المياه عن هذا الغرين ويروى بحيث يصبح صالحاً لسكنى الناس فيه واستغلاله زراعياً، لم يكن يسمح للانسان وحيواناته ونباتاته المدجنة التماس المأوى فيه - فقد كان متاهة من مجاري

المياه التي تخترق الأقصاب ـ وهي كالمستنقعات (الأهواز) التي تغطي المنطقة الواقعة في مجرى الفرات الأدنى اليوم. ومن الناحية الثانية، فإن المنطقة التي اخترعت فيها الزراعة وتربية المواشي والتعدين لأول مرة كانت تشمل، إضافة الى الجزيرة الفراتية (ميزوبوتاميا) وسورية ولبنان وفلسطين، جزءا على الأقل من جنوب آسية الصغرى وغرب إيران وتركمنستان. والحبوب والحيوانات التي دجنت في هذه المنطقة، خلال زمن العصر الحجري من تاريخها، كانت موجودة من قبل في حالتها البرية. أما في الأماكن الأخرى فان هذه النباتات والحيوانات بالذات يبدو أنها نقلت من جنوب غرب آسية إما بواسطة مستعمرين خرجوا من هذه المنطقة ذاتها، أو عن طريق شعوب محلية أصلية، هي التي اقتبست هذه الاختراعات. وهي، باقتباسها إياها، تم لها بدورها الانتقال من حياة العصر الحجري القديم الى حياة العصر الحجري الحديث، وفي النهاية الى حياة العصر الخلكوليثي فالعصر النحاسي فالعصر البرونزي.

وفي الوقت الذي يصنف فيه هذا الكتاب كانت مواضع قليلة من العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسية ومصر قد تم الكشف عنها؛ وباستمرار أعمال التنقيب، يستمر تصورنا لحالة العصر الحجري الحديث، في هذه المنطقة حيث ظهرت هذه الحياة لأول مرة، في التغير، كما كان يتغير دوماً في ضوء أعمال الكشف والتنقيب والحفر المتتالية. ومع ذلك فثمة بضع نقاط أصبحت واضحة أمامنا. وأماكن الاستقرار التي تم التنقيب عنها يتراوح ابتداؤها بين حول سنة ١٠,٠٠٠ ق.م. (وهو التاريخ المقدر بالنسبة الى أريحا في العصر السابق للفخار) والألف الخامس ق.م. وفي أماكن غير أريحا يبدو ان الاستيطان بدأ في الألف السابع أو أوائل الألف السادس ق.م. ونعرف أيضاً ان الانتقال من جمع المواد الغذائية والصيد الى الزراعة وتربية الماشية تم في واحات تغذيها الينابيع او في سهول فيضانية ذات تربة خصبة حملتها الأنهار الصغيرة الى السهول الواقعة عند أطراف الجبال التي تنحدر تلك الانهار منها. وكل هذه الحقول المحتمل تطورها كانت تروى بطريقة طبيعية. وهذه الأماكن، على كل، يختلف واحدها عن الآخر في الارتفاع والمناخ. فأريحا تقع في واد ينخفض عن سطح البحر ومناخها مداري؛ وفي الناحية الثانية فان شطال هيوك، الواقعة في هضبة آسية الصغرى، وتبي سيالك في الهضبة الايرانية تغطيها الثلوج جزءا من السنة.

وفي السهول الفيضانية وفي الواحات التي تغذيها الينابيع، تعوض الطبيعة عن

الأنهاك الذي يصيب التربة بسبب استغلالها. ذلك بأنها تجدد خصب الحقول بما تحمله من الطمي. فواحة أريحا وغوطة دمشق تحافظان على خصبهما بهذه العملية الطبيعية. على ان هذه المنحة نادرة الوجود. ذلك بأن القسم الأكبر من منطقة جنوب غرب آسية، حيث اخترعت الزراعة كانت، ولا تزال، منطقة أمطار. وبعض الجماعات الزراعية في جنوب غرب آسية كانت تعتمد حتى في الحصول على مياه الشرب على الأمطار فقط. والمطر لا يحمل طمياً، ومن ثم فان المنتوج في الزراعة التي تعتمد في ريها على مياه المطر ينقص بسرعة. وأيسر السبل - عند الناس - أن ينظر الى التربة التي أصابها الانهاك موقتا، كما لو كانت منجماً تم استهلاك موارده؛ هذا فيما اذا كان الفلاح يعرف انه على مقربة منه توجد أرض بكر يمكنه ان ينتقل اليها. حتى في العصر الحديث نجد ان المعمرين الزراعيين الذين ذهبوا من أوروبة الى اميركا الشمالية استمروا في الاتجاه غرباً، كما نجد ان الفلاحين الروس زحفوا شرقاً، مع أن أسلافهم كانوا قد اكتشفوا قبل وقت طويل تقنية تمكنهم من تجديد خصب التربة المروية بماء المطر دون مساعدة «الطبيعة».

وقد تم اكتشاف هذه التقنية تدريجا. ففي مناطق الغابات لجأ الناس الى حرق الأشجار التي قطعت للحصول على أرض جديدة لاستنبات النباتات المدجنة، وبذلك حصلوا على تسميد صناعي (من الأشجار المحروقة) لتمكينهم من القيام بزراعة بعلية مستقرة. فالرماد المسمد يسر للزارع ان يغنم منتوج موسم أو موسمين من الأرض الجديدة. وكان من الممكن لهذه العملية ان تستمر فيما لو سمح، بعد ذلك، للأشجار ان تنمو ثانية في الأرض الجديدة. وبهذه الطريقة، طريقة القطع والحرق، كان من الممكن لقطعة من الأرض ان تستغل مرة كل عشر سنوات. واذا كان للزارع عشر قطع تحت تصرفه لاستغلالها، كان باستطاعته ان يتنقل في دائرة محددة. اما مشكلة الحصول على الحاجات الغذائية من الزراعة البعلية دون التنقل، حتى ولو محلياً، فقد حلت نهائياً لما لجأ الناس الى تسميد الأرض المتروكة (البور) بروث الماشية بدل انتظار نمو الأشجار، كي تزود الأرض بالرماد من جديد. ولكن الى ان تم للفلاح مثل هذا الاكتشاف، كان مضطراً الى الانتقال الى مناطق غير مستغلة في الأويكومين، على نحو ما يفعل الباحث عن المعادن باستمرار حتى يوم الناس هذا.

وفي الوقت ذاته انتشرت الزراعة وتربية الماشية، تلازمها فنون الغزل والحياكة وصنع الفخار ويتبع ذلك فنون التعدين وقطع الحجارة الضخمة ونقلها من وطنها الأول

في جنوب غرب آسية عبر الجزء الأكبر من العالم القديم؛ وقد تم هذا الانتشار إما عن طريق الهجرة او عن طريق الاقتباس. وسنجد ان مختلف المدنيات الاقليمية في العالم القديم تنمو، في أزمنة متباينة، من هذا الأساس المشترك العائد الى العصر الحجري الحديث الذي امتدت أسبابه - في أزمنة متفاوتة أيضاً - الى مدى بعيد عن موطنه الأصلي في جنوب غرب آسية. وعلى كل حال فإن هذا الانتشار للحضارة السابقة للمدنية في العالم القديم، في شكله الأخير، لم يكن تاماً ولا كان متسقاً.

فقد ظلت استرالية، على سبيل المثال، حظيرة لفئة من جامعي الغذاء من الانسان العاقل من السابقين للعصر الحجري الحديث، التي أتيح لها ان تجتاز الخط الجغرافي الفاصل بين منطقتين: الواحدة تعيش فيها النباتات والحيوانات القارية والأخرى تعيش فيها النباتات والحيوانات الاسترالية. وكان هؤلاء المستوطنون الأوائل من الاناسي في استرالية مع كلابهم أول الثديات غير ذات الجراب التي وصلت الى تلك الديار. ولم يكن ثمة من يمكن ان يجاورهم من أهل العصر الحجري الحديث، وبذلك ظلوا يحتلون ملجأهم البعيد دون ان يتحداهم أحد، حتى «اكتشفت» استرالية في القرن الثامن عشر على أيدي الأوروبيين الغربيين المحدثين. لقد نجح ملاحو العصر الحجري الحديث في احتلال الأرخبيل البولينزي، لكن نيوزيلاندة، التي كانت أثمن غنيمة من الأرض، لم يصلوا اليها إلا قبل ان يدركهم التوسع العالمي الحديث لأوروبة الغربية بنحو ستة قرون فقط.

إن التباين في سبل الحياة التي عرفها العصر الحجري الحديث، عبر الزمن الذي اجتازته في انتشارها من مصدرها الأصلي في جنوب غرب آسية، تصوره لنا المقارنة بين التنوع الاقليمي لأشكال فخاريات العصر الحجري الحديث وتزويقها وبين الاتساق المسكوني لأدوات العصر الحجري القديم. لقد أشرنا من قبل الى أن القطع الفخارية هي مؤشرات منظورة لسبل العيش. ويبدو ان التباين في الأساليب المحلية لفخار العصر الحجري الحديث يعود، في غالبيته، الى روح المبادرة المحلية. فمما يدعو الى التساؤل ان نتمكن من العثور على إيحاء من أرض المشرق قد يصل الى البقايا المغليثية التي أقيمت على سواحل غربي البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من أوروبة، وفي الجزر القابعة عبر هذه السواحل، من جنوب اسبانية والبرتغال الى الدانمرك ومن مالطة الى ستونهنج.

يبدو أن المغليث (الحجارة الضخمة غير المشذبة) في أوروبة، مثل إهرام مصر الفرعونية، ستصمد مدة أطول من كل الأعمال المحلية التي صنعها الانسان. ويبدو انها قد أقيمت (أي المغليث) خلال الألفين من السنين الواقعة بين ٣٥٠٠ و١٥٠٠ ق.م. وهي الفترة التي انتقلت فيها أوروبة الغربية من العصر الحجري الحديث عبر العصر الخلكوليثي الى العصر النحاسي فالعصر البرونزي. ومع أن البناءين الذين أقاموها كانوا لا يعرفون الكتابة، فان هذه الأبنية بالذات، وما يرافقها من أعمال فنية منظورة، تشهد صامتة على أنها أقيمت لخدمة عبادة الأسلاف و«الهة أم»، وهما شيئان لهما مقابلان مشرقيان. ومع ذلك فإن الصلة بين المغليث في أوروبة الغربية والمشرق أمر غامض جداً. ففي المقام الأول نجد أن المنطقة التي انتشرت منها ديانة المغليث وتكنولوجيته على سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي في أوروبة الغربية كانت جنوب إسبانية والبرتغال ـ ولنقل في الطرف الأوروبي الأبعد ما يكون عن مصر والبحر الأيجي. وفي المقام الثاني نجد ان بعض الأعمال المشرقية التي تشبهها أنصاب المغليث في أوروبة الغربية، هي أحدث عهدا من هذه لا أقدم منها. والقبور القفيرية في لوس ميلارس، الواقعة على شواطىء البحر المتوسط في جنوب اسبانية، يبدو أنها أقدم من نظيراتها في ميكاني بأكثر من ألفي سنة. ومع ان ستونهنج يكاد يكون أحدث عهداً من أهرام الأسرة الرابعة من فراعنة مصر بنحو ألف سنة، فإن أبنية القبور في لوس ميلارس الأقل ضخامة قد تكون أقدم ببضعة قرون من البناء الذي هو نظير لها في هرم زوسر من الأسرة الثالثة الموجود في سقارة.

والتباين في المراحل الأخيرة من حضارة قبل المدنية يبدو في كل أعمال التدجين الأصلية. فالكرم والزيتون والتين والخوخ والكرز والدراق والتفاح والأجاص وكذلك الأبقار والماعز والخراف تبدو وكأنها أصيلة في جنوب غرب آسية، وكأنها دجنت هناك في العصر الحجري الحديث. لكن الأرز والنباتات الجذرية والأشجار الحمضية والموز، وكذلك الأبقار ذات السنام والفيلة والجمال، بنوعيها العربية والأوسط آسيوية، دجنت في مناطق تقع خارج جنوب غرب آسية؛ وعلى أساس ما نعرف يبدو ان هذا العمل الكبير في التدجين قد تم بشكل مستقل تماماً، ولعلها لم تكن بإيحاء من جنوب غرب آسية حتى ولو نتيجة للباعث الانتشاري. ولعل شجرة النخيل لم تدجن إلا لما تم شق الأرض في سومر ومصر، المنطقتين الشديدتي الحرارة والرطوبة. وأقدم عصر لدينا

قيود عنه على الجمال العربية المدجنة هو الجزء الأخير من الألف الثاني ق.م. وأقدم دليل عن تدجين الجمل الأوسط آسيوي لا يعدو ٦٠٠ ق.م. هذا إذا صح أن اسم زرادشت تفسيره الصحيح هو «مع الجمال الذهبية».

وبالنسبة للأميركيتين فان الحيوان المدجن الوحيد الذي حمله المستعمرون من آسية معهم هو الكلب، والحيوانات الأميركية الأصلية التي دجنوها هي اللاما والألبكا والنحل والخنزير الهندي. وفي الناحية الأخرى فان عدد النباتات الأميركية الأصيلة التي دجنت هناك يقابل عدد النباتات التي دجنت في العالم القديم. والأميركيتان والعالم القديم لم يكد يكون بينهما أي نباتات مدجنة مشتركة قبل وصول الناس من غرب أوروبة الى الاميركيتين.

ويبدو ان هذا يشير الى ان الزراعة اخترعت في الاميركيتين مستقلة تماما. ونحن إذا قبلنا بهذه النتيجة فلنا ان نحسب أن اختراع البرونز (أي النحاس الممزوج بالقصدير) في البيرو جاء أيضا مستقلا عن اي إيحاء من العالم القديم. أما قضية المدنيات الأميركية السابقة لكولمبوس، وفيما اذا كانت خلقاً مستقلاً أم لا، فهي لا تزال موضع جدل عنيف. ولعل قلة من الباحثين يرفضون الرأي القائل بأن بعض عناصر المدنيات الأميركية له أصل من العالم القديم، ولكن الرأي السائد الآن هو أن هذه العناصر التي جاءت من العالم القديم ذات أهمية ضئيلة، وأن المدنيات الأميركية السابقة لكولمبوس كانت، من حيث الجوهر خلقاً مستقلاً تم في المكان نفسه على أيدي المهاجرين من أهل العصر الحجري القديم المتأخر.

إن فجر أقدم المدنيات في العالم القديم يؤرخ بحول سنة ٣٠٠٠ ق.م. وفي هذا الوقت بالذات كانت الحضارات الأميركية السابقة لكولمبوس، والتي ازدهرت في ما بعد، اصبحت مدنيات تضاهي مدنيات العالم القديم. هذه كانت قد أخذت، على وجه التقريب، الخطوات الأولى في سبيل تدجين الذرة الصفراء، التي قيض لها ان تصبح فيما بعد الغذاء الزراعي الرئيسي. وقد عثر في كهف كوكسكاتلان قرب بوبلا في مرتفعات المكسيك، في أميركا الوسطى، على أكواز من الذرة الصفراء، في طمي رسوبي يعود الى حول سنة ٤٠٠٠ ق.م. وقد تكون هذه نوعاً من نبات الذرة البريّ أو لعلها من نبات طرأ عليه شيء من التبدل بسبب الخطوات الأولى في سبيل تدجينه. وقد وجدت أكواز في كهف بات في نيو مكسيكو داخل طمي رسوبي يعود تاريخه الى حول سنة ٢٥٠٠

ق.م. وفي هذه تظهر عملية التدجين بشكل أوضح. وهكذا فإن فجر الحياة الزراعية في أميركا الوسطى كان مواكباً زمنياً لفجر المدنية في العالم القديم، وكان بذلك متأخراً نحو أربعة آلاف سنة عن بدء الزراعة في العالم القديم في جنوب غرب آسية.

فحضارات العالم القديم وحضارات أميركا قبل كولمبوس كانت تتطور وفق مسارات منفصلة. وفي حدود العالم القديم بالذات دشن فجر المدنية عصراً كان فيه التباين الاقليمي يتزايد. وقد مر نحو من ٤٥٠٠ سنة قبل أن يقهر الأوروبيون الغربيون المحيط وبذلك دفعوا بالتيار نحو التساوق ونحو الوحدة أيضاً، الأمر الذي لم يكن له مجال في العصر الحجري القديم المبكر. وفي وقت تصنيف هذا المؤلف نجد ان القوى المفرقة التي سادت الموقف، عبر العصور التي غبرت بين الزمنين، لا تزال تقاوم بضراوة، وليس ثمة ما يدل على ان الحركة التي تؤيد الوحدة يمكن ان تربح المعركة. ومع ذلك فإن الذي يمكن رؤيته الآن هو أن الشرط الذي لا يتم بقاء البشرية إلا به، هو توحيد الأويكومين بجملته، وهذا ليس على المستوى التكنولوجي فحسب، بل على كل مستوى للحياة بأجملها.

٦ ـ شق غرين دجلة والفرات وخلق المدنية السومرية

أشرنا في الفصل السابق إلى أن اختراع الزراعة خلق مشكلة وهي كيف يمكن التوصل إلى تقنية تجعل من الزراع جماعة مستقرة ، وذلك بعد أن كان هؤلاء الزراع قد تخطوا الحواجز القائمة في الواحات الصغيرة ، والقليلة السكان ، الواقعة في جنوب غرب آسية ، وهي الواحات التي كانت تروى طبيعيا ، والتي يبدو أن الانتقال من جمع الغذاء الى إنتاجه قد تم فيها .

وأما في المناطق البالغة الاتساع في العالم القديم من الأويكومين ، حيث كان على الزارع ان يعتمد على ماء المطر لريّ مزروعاته ، فقد كان ثمة تقدم تدريجي على مراحل . فحالة الزراعة المتنقلة حيث كان الحقل الذي أنهكه الاستغلال يهجر بالمرة ، حلت محلها ، في المجال الأول ، الزراعة التي تعتمد الدورة الزمنية . وقد تم ذلك عن طريق تسميد الأرض الموقت بأحراق الأشجار ، فأصبح من الممكن أن تستغل التربة ثانية لكن بعد فترة زمنية تسمح للاشجار البرية الجديدة بأن تنمو فيها لتسميد الأرض المتروكة فيما بعد .

وقد مر على الأنسان أجيال ، بل لعلها قرون ، في المنطقة التي تعتمد على الأمطار ، قبل أن يكتشف كيفية تحصيل قوت كاف من مجموعة من الحقول متقاربة بحيث يمكن للزارع وعائلته أن يستغلوها من مكان سكن ثابت . ومن ثم يمكنهم ان يورثوا أحفادهم البيت والحقول مجتمعة . وهذا الالتصاق بقطعة من الأرض الصالحة للاستغلال أصبح يعتبر فيما بعد نوعا من العبودية ، وذلك في المجتمعات التي كانت تزود أبناءها بأمكانات اقتصادية بديلة . أما في الأصل فقد كان استقرار الزراع في أرض معينة مكافأة اجتماعية طال انتظارها ، إذ أنه بذلك حقق غاية تكنولوجية مر عليه زمن وهو يتابعها .

بعض الذين هاجروا ـ بل لعل ذلك يشمل الغالبية منهم ـ من الواحات إلى منطقة

الأمطار من الأويكومين وتفرقـوا في أنحائها فعلوا ذلك قبل ان يتعلموا الاستقـرار في مكان واحد دون الاعتماد على الريّ الطبيعي . وعلى كل فقد كان ثمة منطقة واحدة ، تقع على مقربة من مهود الزراعة في واحات جنـوب غرب آسيـة تنتظر شقهـا وحفرهـا بتصفية مياهها وريها صناعيا ، لتزويد الرواد بمردود أكبر مما كـان يحصل عليـه في واحة الأجداد ؛ فضلا عن أن يكون على مقياس أرضي أكبر بكثير . وهذه الأرض المـرجوة كانت المستنقع ـ الغاب في حوض دجلة والفرات الأسفل : فقد كان هنا مزيج في غاية الفوضى بين غرين غنيّ بعناصر الخصب الى ماء غني كذلك بالسماد .

وقـد كانت السيـطرة على المستنقـع ـ الغاب إنجـازاً اجتماعيـا أكثر منـه إنجازا تكنولوجيا . وفي الواقع فان كل الأنجازات التكنولوجيـة التي تمت على يـد البشريـة ، كانت انجازات اجتماعية ايضا . فالانسان كائن اجتماعي . فما كان لأسلافنا من أهل ما قبل الانسان ان يستمروا ويصبحوا بشرا ، لولا أنهم قد صاروا حيوانات اجتماعيـة قبل ذلك . ويبدو أن محدودية الانسان الاجتماعية هي التي كانت تحد من تكنولوجيتـه غير المحدودة . فالاجتماعية هي الشرط اللازم لصنع حتى أبسط الأدوات واستعمالها . ولعل مستغلي الأرض في الواحات الصغرى في جنوب غرب آسية كانوا قد اكتشفوا كيف يمكن تحسين هبة الطبيعة المحلية للري بطريقة صناعية .

وكان على الأنسان ، في سبيل استغلال هبة الرافدين من الغرين ، أن يطبق هذه التقنية التي حذقها في الري الصناعي ، على مقياس كبير كان يتطلب تعاونا بين عدد من الناس أكبر بكثير من أي عدد من الناس تعاونوا في السابق ، في أي مشروع كان . وهذا الفرق في مقياس التعاون لم يكن مساويا للفرق في الدرجة فقط بل كل فرقا في النوع ؛ وقد كانت هذه ثورة اجتماعية ولم تكن ثورة تكنولوجية .

وقد خطط لتغلب الأنسان على الغرين زعماء ذوو مخيلة وبعد نظر وضبط للنفس بحيث كانوا يعملون لمردود هو كبير في النهاية ، لكن ليس آنيا . وما كانت خطط هؤلاء الزعماء لتتجاوز أحلاما بعيدة عن التحقيق لو أنهم عجزوا عن إقناع عدد كبير من رجالهم من السير قدما نحو أهداف لعلهم لم يدركوا كنهها . وقد كان للجماهير إيمان بزعمائها ، ومثل هذا الأيمان بالزعماء كان قائما على إيمان بآلهـة تتمتع بـالقدرة والحكمـة ، الأمرين اللذين كانا يعتبران حقيقة بالنسبة إلى الزعماء وأتباعهم . والأداة الجديدة الوحيدة التي لم يكن عنها غنى هي الكتابة . فقد كان الزعـماء بحاجـة الى هذه الأداة لتنـظيم الناس ،

وتقدير الماء والتراب بكميات ودرجات كانت أكبر من أن تدبر بدقة بالاعتماد على تذكر ترتيبات وتعليمات شفوية دون قيود. وقد كان اختراع الكتابة السومرية رائعة من روائع العبقرية الخلاقة . لكن هذه الكتابة ،وهي اقدم نظام معروف ، كانت معقدة وملتفة ، ومن ثم فقد ظل استعمالها مقصورا على فئة محدودة . ولكنها خدمت المجتمع ككل ؛ وفي الوقت ذاته ثبتت تفوق الكاتب على الغالبية الأمية .

وقد خلق السومريون ، عن طريق فتح الغرين في حوض دجلة والفرات الأدنى ، نوعا جديدا من المجتمع البشري : هو المدنيات الاقليمية . ونحن نعزو هذا الأنجاز إلى السومريين لأن الكتابة السومرية ، وقد حلت رموزها ، إنما تنقل إلينا لغة السومريين في ذلك الدور من تطورها . لكننا لا نستطيع الجزم بأن السومريين هم الذين اخترعوا الأساس الأول لهذه الكتابة، أو أنهم هم أقدم الطلائع من سكان المستنقع ـ الغاب الذي تحول فيما بعد إلى أرض سومر. والسومريون الذين روضوا المستنقع ـ الغاب ما كان من الممكن أن يكونوا ابناءه ، ذلك لأن هذه المناطق الوحشية لم تكن ، قبل ترويضها، قابلة لسكنى الكائنات البشرية. وبعض أقدم المستوطنات السومرية ـ مثل اور (المقير) واروك (الوركاء) واريدو (ابو شهرين) ـ انما قامت على الطرف الجنوبي الغربي للمستنع الكبير ، في جوار بلاد العرب . لكن من المستبعد أن يكون السومريون قد جاءوا من بلاد العرب ؛ فليس للغتهم أي قرابة مع عائلة اللغات السامية ـ وكل الجموع التي هاجرت من بلاد العرب الى آسية وافريقية كانت سامية اللغة .

والمدنية السومرية هي أقدم المدنيات الأقليمية التي نملك وثائق تتعلق بها . وهي أيضا الوحيدة التي من المؤكد أنها تطورت عن مجتمع او مجتمعات ما قبل المدنية ، والتي لم تنقل عن أي مجتمع شبيه بها كان قائما قبل ذلك ، بل ولم تكن نتيجة إيحاء من أي مجتمع من هذا النوع . (ومن المحتمل أن تكون مدنية أميركا الوسطى قد نشأت مباشرة عن سوابق حضارية تعود إلى فترة قبل المدنية ؛ لكن اصالة تلك المدنية ليست معترفا بها عالميا) . وقد أظهر التنقيب الآثري الحديث التطور التدريجي في ما يتعلق بناحيتين متميزتين من المدنية السومرية : الكتابة والمعمار الديني (أي المتعلق بالهيكل) .

نستطيع أن نتابع خلق الكتابة من الصور (أي التمثيل المنظور للناس والأشياء والأحداث والأفعال) . والعمل الخلاق كان اختراع الرموز (أي الأشارات التقليدية التي لم تكن بالضرورة ممثلة ، حتى ولو بشكل رمزي ، ومع ذلك كان لها معان مماثلة

بالنسبة إلى جميع أعضاء المجتمع السومري المتعلم). والمرحلة الاخيرة كانت اختراع الفونيم (أي الأشارات التقليدية التي تمثل الأصوات المستعملة في الكلام المحكي) . ولم يصل السومريون إلى دور الفونيم التام . فقد كانت كتابتهم جمعا غامضا واعتباطيا من الفونيم والرموز . والصعوبة بالنسبة للرموز هي أنها بالضرورة كبيرة العدد ؛ أما أفضلية الرموز بالنسبة إلى الفونيم فهي أن الفكرة والأشارة يمكن أن يضم كل منهما إلى الآخر بشكل دائم ،فيما الصوت والأشارة كما في الفونيم يفقدان ما بينهما من صلة تقليدية أصيلة بتغير الأصوات المستعملة في اللغة المحكية مع توالي الزمن . ومع ذلك فان أفضلية الفونيم بالنسبة إلى الرموز هي أن الأولى محدودة في عددها . فثمة حدود لعدد الأصوات التي يمكن للصوت البشري أن ينطقها . وفي الواقع فان كلا من اللغات البشرية تستعمل فقط عددا مختارا من هذه الذخيرة البشرية .

وفي أقدم المراحل التي نملك لها مستندات صورية أو مكتوبة ، نجد أن المدنية السومرية تظهر صفات تشترك فيها مع انواع من المجتمع التي تمثل هي أقدم نماذجه المعروفة .

لما استغل السومريون الغرين في الزراعة ، كانوا أول مجتمع في العالم القديم من الأويكومين الذي كان في إنتاجه فائض ، فوق الحاجات السنوية الضرورية للاستمرار في العيش . وهذا الفائض لم يوزع بالتساوي على جميع المسهمين من أفراد المجتمع الذين كانت لهم جهود مشتركة في ما أنتجه المجتمع ، بطرق مختلفة ودرجات متنوعة . ولو أن هذا الفائض وزع على الجميع أجزاء متساوية ، لكانت حصة الفرد الواحد منه ضئيلة للغاية ؛ ذلك بان الفائض كان ضئيلا بالنسبة الى الناتج الكليّ اللازم للاستمرار في العيش، ولو أن إنتاج أي فائض، مهما كانت كميته ، كان اتجاها ثوريا جديدا. وفي الواقع فان هذا الفائض احتفظ به لاستعمال فئة قليلة متميزة ، وهي التي حررت طاقتها ووقتها من استعمالها في إنتاج الغذاء ، الأمر الذي كان لا يزال يستأثر بكل الحياة العاملة للغالبية . وتخصيص هذا الفائض لأقلية في المجتمع كان الأساس الاقتصادي لتباين الطبقات. ولكن مع أن هذا الوضع كان العامل المعين الذي مكّن للطبقة الحاكمة من التمتع بامتيازاتها ، فقد كان مثل هذه الامتيازات مكروها بحيث لا يمكن للجمهور تحمله ، لولا ان الجمهور كان واثقا من أن هذه الأقلية كانت تحصل على امتيازاتها لقاء الخدمات التي تقدمها للمجتمع بكامله . وهذه الخدمات كانت حقيقية ، وكان لا بد

منها فيما إذا كان المجتمع ، الذي خلقه فتح الغرين ، سيستمر في الأحوال المربحة ، الناشئة عن ذلك ولو انها اصطناعية . وعلى كل حال فان الأقلية الحاكمة استولت على الفائض الاقتصادي من الزراعة الغرينية ، وعندها صرفت وقت الفراغ الذي حصلت عليه لا في القيام بالخدمات العامة فحسب ، بل في التمتع بحياة الرفاهية الخاصة .

والخدمة العامة التي توجب على الحكام القيام بها كانت إدارة جماعة ذات نواة مدنية بحيث كان ما سبقها من الجماعات القروية التي عرفها العصر الحجري الحديث تبدو قزمة في حجمها ، كما ان هذه الجماعات الجديدة لم يكن لها مثيل من حيث التعقيد . وعلى عكس ما كان عليه الحال بالنسبة لمستغلي الأرض في العصر الحجري الحديث، فان الفلاح السومري لم ينظم عمله الخاص به بنفسه . فقد كانت صيانة نظام الري شرطا أساسيا لبقاء الجماعة بأجمعها ؛ وقد كانت السخرة العامة لصيانة السدود والقني جزءاً من واجبات الفلاح ، كما كان استغلال حقوله الخاصة جزءاً من واجبه ؛ وكانت عملياته جمعاء تقع تحت إشراف السلطات العامة ، إذا أن توزيع ما يلزمه من ماء الري اللازم في كميات معينة وفي فصول معينة كان يقتضي وجود قيادة واحدة تتمتع بقوة لا تقاوم .

ذكرنا أن سلطة الحكام البشرية كان يؤيدها دعم من القوى الغيبية . اضافة إلى ما كان يقوم به الحكام من إدارة نظام الريّ ، الذي كان الأهم من بين المصالح العامة ، اذ أنه كان الأساس للعيش والعمل في الغرين ، كان هؤلاء الحكام يقومون بدور الوسيط بين الجماعة والآلهة . وقد كان الاعتقاد الشائع بقدرة الآلهة وحكمتها هو القوة الروحانية التي تحفز المسهمين في المدينة ـ الدولة السومرية على العمل المشترك ، على رغم أعدادهم وتقسمهم طبقات اجتماعية مختلفة . وقد كان الحكام ينفقون جزءاً من ثروتهم وأوقات فراغهم في نواح من الرفاهية الخاصة : الخدمة الخاصة التي كان الاتباع يقدمونها ، والاعمال الفنية التي أخذت الآن تظهر الى جانب الأدوات المعدنية . (وقد كانت الأدوات الحجرية التي يستعملها الفلاحون في استغلال الأرض ، في الغالب ، مصنوعات بيتية) .

وكان ثمة مظهر جديد آخر للمدنية السومرية وهو تجمع أقلية من العمال غير الزراعيين في المدن ، وهذه الأقلية كانت أيضا تعيش على الفائض من المنتوج الزراعي للغالبية . ولعل هذه المدن قامت أصلا كمراكز للعبادة ، حيث كانت الجماعة يلتئم

شملها في أوقات معينة للقيام بطقوس دينية ، ولتنظيم الأعمـــال العامة العائدة بالفائدة عليها ، وكلا الأمرين كانا متلازمين . ولعل مراكز العبادة هذه كان يستقر فيها أصلا فئة قليلة من السكان ، ولكنها تطورت بعد لتصبح مدنـا ، حيث تحيط المنازل بـالمعابـد ، وحيث يتزايد عـدد الأقلية غـير الزراعيـة ، وتتوزع الـوظائف بـين الكهان والأداريـين المدنيين (ولم يكن الفريق الواحد يتميز عن الآخر في بادىء الأمر) ، وكتّابهم ومرافقيهم وصنّاعهم .

وكان التباين الطبقي ، الذي عززته العزلة الطبقية الجغرافية بين الريف والمدينة ، اول الشرور الاجتماعية التي هي ثمن ولادة المدنيـة في سومـر . والشر الفـطري الثاني للمدنية كان الحرب ؛ وكان الوضع الذي هيأ للشرين هو إنتاج الفائض . فالجماعة التي يعمل جميع الأشداء من أفرادها طوال يومهم في العمل على إنتاج الغذاء ، ليس لديهـا وقت زائد عن حاجتها بحيث تمنحه ، ولو جزئيا ، للأداريين او الكهان أو الصنـاع أو الجنود .

ما هو التجديد الجوهري في هذا النوع من المجتمع الذي أوجـده السومـريون ؟ فائض في الأنتاج وتبـاين في الطبقـات والكتابـة والعمارة الضخمـة والمستقرات المـدنية والحرب . كانت جميعها مظاهر جديدة ومميزة ـ ولكن التغيير الجذري كان في صفة الآلهـة ووظيفتها .

أن الديانة التي عرفتها المجتمعات البائدة السابقة لعصـر الكتابـة يمكن الحدس بشأنها من فنها المنظور : الصور الموجودة على جدران كهـوف العصر الحجـري القديم المتأخر ، والأشكال ذات الأبعاد الثلاثة التي وجدت في لينسكي فير والتماثيل الصغيرة العائدة الى العصر الحجري التي تمثل الأم الخصبة . فنحن نستطيع فقط أن نخمن مـا كان لها من طقوس وما أحاط بها من أساطير . لكن اقدم الوثائق التي يمكن قراءتهـا في كتابة السومريين ولغتهم تلقي فيضا من النور على الديانة السومرية كما تنير سبيـل فهم نواح أخرى من الحياة السومرية . ففي هذه الوثائق نقع على مجمع (بـانثيون) لـلآلهة السومرية ، ونجد أن هذه الآلهة كانت قد بلغت الفصل الثاني في تاريخها .

ونجد أنه بعد ولادة المدنية السومرية كانت آلهتها لا تزال تمثل قوى الطبيعة تمثيلا جزئيا ، ونرى ان هذه كانت وظيفة الآلهـة الوحيـدة أصلا . إلا أن بعض هـذه الآلهة

أصبح لها الآن دور مزدوج ؛ فكل واحد منها أصبح يمثل أيضا القوة البشرية الجماعية لمدينة ـ دولة سومرية معينة . وهذه الازدواجية في دور الأله السومري تعكس ثورة في العلاقة بين الإنسان والطبيعة . ففي الوقت الذي كانت فيه الالهة السومرية تتخذ شكلها لأول مرة ، كان الإنسان لا يزال تحت رحمة الطبيعة . ولكن فتح الغرين للإستغلال واستقرار الانسان نتيجة للعمل المشترك نقل توازن القوى بين الأنسان والطبيعة الى مركز كان في مصلحة الانسان . والإنسان الذي أصبح الآن يقوم بعمله كحيوان اجتماعي صار بمقدوره فرض إرداته على مناطق من عالم الطبيعة كانت من قبل مستعصية عليه . وقد أبرز الانسان معنى هذا الانتصار البشري الكبير بأن اتخذ له من قوته المشتركة شيئا يعبده ، الى جانب القوى غير البشرية التي كان من قبل يشعر بأنها قادرة على كل شيء . فالسومريون الذين روضوا الغرين أظهروا هذا التبدل في الأوضاع إذ جندوا آلهة الطبيعة التي ورثوها عن الأجداد لتصبح الحماة السماوية لدول ذات سيادة بشرية ـ أو لعلهم جندوها لتكون خداما ذات صبغة دينية لهذه الدول .

وقد استمرت الآلهة السومرية ، بوصفها ممثلة لقوى الطبيعة ، على القيام بدورها كجزء من التراث الحضاري المشترك للمجتمع السومري ككل . أما كممثلة للدول فقد أصبحت هذه الآلهة متباعدة ، وصارت تمثل جماعات سومرية قد تتصادم مصالحها . فمن الناحية السياسية كان دور الآلهة يدعو الى التفرقة ، ولم يعد دورها موحدا . وهذا الدور الجديد ، الذي اتخذته الآلهة في الوقت الذي تبينه أقدم المدونات السومرية التي بين أيدينا ، كان نذير سوء بالنسبة لمستقبل المدنية السومرية . فالثمار التي جناها الانسان من انتصار المجتمع البشري على الطبيعة قد تذهب هدرا فيما لو أنه استعمل قوته العظيمة المشتركة لا في سبيل السيطرة على الطبيعة غير البشرية واستغلالها فحسب ، بل في سبيل الحرب المبيدة بين قوى بشرية محلية جيدة التنظيم قوية العدة . .

٧ـ شق الغرين النيلي وخلق المدنية الفرعونية المصرية

أعطينا في الفصل السابق ما كان للسومريين من فضل إذ أنهم قد خلقوا مجتمعا من نوع جديد ـ وهو مدنية إقليمية ـ بسبب عدد من الأمور الجديدة توصلوا إليها أثناء قيامهم بعملية تصريف المياه من المستنقع ـ الغاب الغريني وريه ، وهو المستنقع ـ الغاب الذي كان موجودا في الحوض الادنى لنهري دجلة والفرات . وإذا نحن أخذنا بالأسس نفسها فللمصريين الفراعنة الحق في أن يعطى لهم الفضل نفسه لأنهم خلقوا المدنية الثانية في القدم من المدنيات الأقليمية . إذ أنهم شقوا المستنقع ـ الغاب في الحوض الأدنى للنيل وفي دلتاه .

وقد تم للمصريين بدورهم ، على نحو ما تم للسومريين ، أن يكون عندهم فائض في الأنتاج يفوق حاجتهم لمجرد العيش والبقاء . وكما حدث في سومر ، رافق هذا الأنجاز في مصر تباين طبقي وعمارة ضخمة واستقرار مدني وحروب وتبدل جذري في الديانة . على أن المصريين ، على العكس من السومريين ، لم يتم لهم هذا الانطلاق الجديد بدون مساعدة . فمع أنهم هم الآخرون أقاموا مدنيتهم على الأسس التي وضعها أجدادهم من العصر الحجري والعصر الخلكوليثي ، فقد جاءهم إيحاء من مجتمع كان قائما ، وهو مجتمع شبيه بنوع المجتمع الذي كانوا ينشئونه . فثمة إجماع بين علماء المصريات المعاصرين بأنه من الممكن تتبع الأثر السومري في المدنية المصرية الفرعونية . ولنذكر ، على سبيل المثال ، طريقة ختم الأشياء بأسطوانات محفور عليها صور ، واستعمال الآجر في اسلوب البناء المفرّغ وتقليد بناء السفن السومرية ، وفي عدد من الأسس الفنية ، وفي كتابة كانت فيها الرموز الفكرية تكملها الفونيم دون أن تحل محلها .

وهذا الشكل من الكتابة كان عجيبا . فليس من الممكن أن يخترع بناء مطابق تماما لما سبق ومستقلا للمرة الثانية ، فيما تشير الدلائل على أن الأثر السومريّ المعاصر

كان موجودا في الوقت الذي كانت فيه الكتابة المصرية في دور التطور . اضافة الى ذلك فأن الدلائل الأثرية تشير إلى أن الكتابة المصرية قد ظهرت فجأة ، على عكس ما عرفناه من تطور الكتابة السومرية التدريجي من السابقة الصورية . فالتركيب السومري للكتابة المصرية، إذا قرن بظهورها المفاجىء ، هو أقوى دليل منفرد يشير الى أن التأثير السومري كان أحد العوامل التي أدت الى ولادة المدنية المصرية الفرعونية

ليس لدينا أي مؤشر الى الطريق الذي انتقل عبره التأثير السومري إلى حوض النيل الأدنى . فقد عثر على الدليل في مصر العليا بالذات ، وليس في الدلتا ، لأن مناخ مصر العليا يمكِّن للمصنوعات البشرية ان تحافظ على نفسها ، فيما نجد ان مناخ الدلتا وطبيعة جغرافيتها هما عدوان لذلك . فالمناخ في عروض الدلتا ليس جافا على ما هو عليه في مصر العليا ، مع أن المطر نادر في الدلتا ، باستثناء زاويتها الشمالية الغربية . فضلا عن ذلك فان البقايا المادية التي تعود الى العصر الفرعوني مدفونة في الدلتا تحت طبقة رسوبية لا نعرف سمكها ، وهي الطبقة الرسوبية التي تقوم فوقها مدن حديثة فوق الأماكن التي كانت تقوم عليها مدن العصر الفرعوني . ولهذه الأسباب فان الدلتا لم تخرج بعد القيود الأثرية العائدة لتاريخها الفرعوني ، على عكس ما حصلنا عليه من دلائل للعصر السابق للمدنية من التاريخ المصري في مصر العليا ، في مواقع تعود الى العصر الحجري الحديث ؛ وهي المواقع التي تكون في أماكن تشرف على الغرين . وهذه لها ما يماثلها في الدلتا في ميرماد التي تشرف على الجزء الأعلى من الدلتا من الأرض المرتفعة إلى الغرب منها .

وهذه الفجوة في القيود الأثرية بالنسبة للدلتا تبدأ في الوقت الذي جازف فيه سكان مصر العليا القدامى في المرتفعات القائمة على جانبي النهر ، وهبطوا إلى الغرين وبدأوا بشقه ، على ما تظهره لنا القيود الأثرية من المنطقة نفسها . وبسبب فقدان أي معلومات أثرية ، إيجابا أو سلبا ، عن التاريخ المعاصر للدلتا فان أي محاولة للبحث في الأحوال التي سبقت ولادة مدنية إقليمية في مصر الفرعونية هي ضرب من التخمين . إن ما وصل إلينا من قيود أثرية في مصر العليا يترك في نفوسنا انطباعا بأن ظهور المدنية في مصر كان حدثا مفاجئا ، إذا ما قوبل هذا بالظهور التدريجي للمدنية في سومر . فهل هذا الانطباع لا يعدو كونه فكرة عارضة لا تلبث ان تزول فيما لو تمكنا من العثور على أدلة أثرية من الدلتا عن الفترة التي سبقت ازدهار المدنية المصرية الفرعونية ؟ أم هل

يمكن لمثل هذا التنقيب الأثري الناجح هناك ان يؤ يد انطباعنا الحالي بأن الدلتا ، على عكس مصر العليا ، كانت لا تزال ، إلى درجة كبيرة ، على حالها البدائي ، أي مستنقعا ـ غابا ، توحدت سياسيا مع مصر العليا ؟

إذا صح الاحتمال الثاني من البديلين فقد تكون الدلتا حاجزا لا يمكن اختراقه بالنسبة للاتصال البري بين سومر ومصر، في الوقت الذي كان الأثر السومري يتحسسه المصريون . وقد كانت هذه الفترة قصيرة ؛ فان هذا الأثر فقد المصريون الشعور به حالا بعد توحيد مصر سياسيا . وإذا كان شق الدلتا قد تم في عصر المملكة القديمة الذي تلا ذلك التوحيد ، فان التأثير السومري ما كان له ان يصل مصر العليا برا عبر الدلتا ؛ فلا بد أنه وصل مصر مباشرة عن طريق البحر . وفي هذه الحالة قد تكون السفن السومرية الكبرى قد وصلت موانىء مصر العليا الواقعة على البحر الأحمر ، او ، رغبة في تقديم رأي آخر ، لعل البحارة المصريين والسومريين قد التقوا على أحد السواحل الواقعة بين البلدين : إما ، على سبيل المثال ، في سواحل اليمن أو بلاد الصومال ، وهي التي كانت تصدر البخور ، او على الشواطىء غير المعروفة تماما التي كان يصدر منها النحاس والتي عرفها السومريون باسم ماغان . وقد لفت النظر من قبل إلى أنه ، قبل عصر السكك الحديدية ، كانت الأسفار البحرية الطويلة أسرع وأيسر من الأسفار البرية الأقصر منها .

ومع ذلك فان الفجوة في قيودنا الأثرية بالنسبة للدلتا تترك لنا المجال لتخمين آخر هو ، في الوقت ذاته ، مشروع لكنه غير قابل للبت بشأنه . وهذا التخمين البديل هو القول بأن الدلتا هي التي لعبت الدور الرئيسي بالنسبة الى ظهور المدنية المصرية الفرعونية ، لا مصر العليا . فلنا أن نتصور الدلتا وقد بلغت ، قبيل نهاية الألف الرابع ق . م . ، المرحلة ذاتها التي بلغتها سومر ـ وهي مرحلة كان فيها الأنسان قد سيطر جزئيا على الغرين ، والتي ظهرت فيها مدن في طور النشوء . وعلى أساس هذه الفرضية يكون التأثير السومري قد وصل الدلتا قبل ان يصل مصر العليا ، وأنه انتقل لا عن طريق البحر بل عن الطريق البري عبر بلاد الشام .

وعلى كان فان التأثير السومري على المدنية المصرية الفرعونية الناشئة لم تكن مدته قصيرة فحسب ؛ بل لم يعدُ أن يكون أثرا ؛ ذلك بأنه لم يبلغ حد نشر المدنية السومرية بالذات في مصر جاهزة دون تبديل . وعلى سبيل المثال فان الكتابة المصرية مع كونها سومرية في تركيبها فهي مصرية متميزة في أسلوبها ؛ والهيلوغريفات (الصور

الهيروغليفية) هي خلق أصيل ، وليست تقليدا لنظيراتها السومرية . وقد اختفت الموضوعات السومرية من الفن المصري المنظور، كما أننا نجد أن المصريين لم يستمروا في استعمال الآجر لأقامة ابنيتهم الضخمة ، على نحو ما فعل السومريون . فقد استعاضوا بالحجر عن الآجر في إقامة الأبنية الضخمة ؛ فآثارهم المعمارية الضخمة بنيت من قطع الحجارة الكبيرة . والعمارة في الأسلوب الفخم وعلى المقياس الضخم هي إنجاز وطني لم يكن المصريون مدينين به لا للسومريين ولا لغيرهم من الأجانب . والزيغورات السومرية المبنية من الآجر لا يسمح لها حجمها فقط بأن تكون على مستوى الأهرام . فهذه لا مثيل لها إن من حيث المهارة في تصميمها او من حيث الدقة في إقامتها .

وعجز السومريين عن مجارات فن العمارة المصرية لا يحكم على السومريين بأنهم دون المصريين خيالا أو مهارة؛ إنه في الواقع مما يذكرنا بأن تحويل مستنقعات دجلة والفرات الى مقر للمدنية كان عملا أكبر وأقدم من العمل المماثل واللاحق له أي تحويل المستنقع النيلي . وترويض مصر العليا كان ، نسبيا ، عملا يسيرا- فقد كان هنا نهر واحد فقط بحاجة الى السيطرة عليه . وكان واديه ضيقا . ومنطقة المستنقع - الغاب في هذا القسم من حوض النيل كانت قريبة من الحروف العالية على كل من جانبيه ، حيث كانت تقوم مواقع الاستيطان التي استقر فيها أجداد مصر الفرعونية من أهل العصرين الحجري الحديث والخلكوليثي . وقد كانت الدلتا الجزء الوحيد في مصر الذي كان نظيرا ، من ناحية جغرافيته الطبيعية ، لحوض دجلة والفرات . ويبدو أن الدلتا تم شقها تدريجيا فقط .

يضاف الى ذلك أن مصر بكليتها ، بما في ذلك الدلتا ، كان لها في متناول يدها بعض من المواد التي لا غنى عنها لخلق المدنية والاستمرار في صنعها . فهناك الكثير من أجود أنواع الصخر الصالح لغايات البناء والنقش ؛ والمسافة بين المقلع وشاطىء النهر قصيرة . وحتى المسلة يسهل نقلها متى وصلت سطح الماء لتحمل عليه . والمناجم الواقعة إلى الشرق من السويس - إذا صح أنها كانت مناجم نحاس - هي أيضا يسهل الوصول منها بطريق البحر إلى مصر العليا ، مع مسافة برية قصيرة عبر وادي الحمامات . واذا لم تسد مناجم سيناء كل حاجات مصر من النحاس ، فقد كان باستطاعة جزيرة قبرص ان تفعل ذلك ، إذ ان موانىء كل من قبرص وبلاد الشام كانت في متناول أيدي الحكام في مصر العليا ، بمجرد استيلائهم على الدلتا وعلى موانئها

الواقعة على البحر المتوسط . وقد كان باستطاعة مصر ان تستورد الأخشاب من لبنان عبر ميناء بيبلوس (جبيل) الفينيقية ، وقد استوردتها فعلا ؛ ولعل المشاركة التجارية بين مصر وجبيل كانت متعاصرة مع قيام مملكة مصر المتحدة . لقد كانت الطرق البحرية تنقل الأخشاب والنحاس إلى أبواب مصر ، كما كان النيل ، حتى الشلال الأول ، يزود مصر بطريق مائي داخلي يمتد من الطرف الواحد من البلاد إلى الطرف الآخر . فضلا عن ذلك ، فان هذا الطريق المائي ، مع أنه كان نهرا فقط ، كان يستعمل للنقل صعودا وهبوطا ؛ فالنهر هنا يتجه من الجنوب الى الشمال ، فيما تغلب على مصر الرياح الشمالية كما أشرنا الى ذلك قبلا .

وقد كانت سومر ، بمقارنتها مع مصر العليا ، تشكو من معوقات كبيرة بالنسبة الى وسائل المواصلات والتوصل الى المواد الخام . وانه امر يدعو إلى العجب أن تظهر أقدم المدنيات ، القائمة اقتصاديا على ترويض المستنقعات ، لا في مصر العليا ، بل في الحوض الأدنى لدجلة والفرات . فالسومريون لم يسبقوا المصريين فقط في مغامرتهم بل تفوقوا عليهم . فالسومريون جازفوا بمستقبلهم اعتمادا على استغلال مادة واحدة فقط من المواد الخام ، وهي الغرين ؛ وهم ، بعملهم هذا ، أي بنزولهم الى هذه البقعة وشقها ، كانوا يخلفون وراءهم الموارد التي كانت لأجدادهم من حيث تزويدهم بالحجر ، كما كانت تزودهم بالنحاس والأخشاب كذلك . وقد كان رأس المال الوحيد المحلي ، في الأرض الجديدة التي روضوها وأقاموا فيها وأخذوا باستغلالها ، هو التربة الخصبة . وقد أظهر السومريون حصافتهم في الألمعية التكنولوجية التي تمت على يدهم . فقد توصلوا الى صنع أدوات زراعية من الصلصال (الدلغان ، الطفل) المشوي الى درجة تقرب المعادن صلابة وحدة . ولكن هذا الاختراع لم يغنهم عن النحاس . لذلك اضطروا الى جلب النحاس من الاماكن البعيدة ـ من حوض دجلة والفرات الأعلى ، بل لعلهم جاءوا به من المناجم الواقعة في منقلب المياه المواجه للبحر الأسود ، الذي هو ناشىء عن خطط تقسيم المياه الذي يفصل الفرات عن أنهار آسية الصغرى الشرقية ، التي تصب في البحر الأسود من الجنوب . وكان على السومريين ان يأتوا بالأخشاب من جبال أمانوس . اما استيراد الحجر فقد كان أبعد من متناول البنائين السومريين ؛ ومن ثم كان عليهم أن يبذلوا جهدهم لعمل أفضل ما يمكن من الآجر المصنوع من الطين المحلي . صحيح انهم استوردوا الحجر لاستعماله مادة في النحت وصنع التماثيل ، لكن

استيراد الحجر الصالح للنحاس في سومر كادت كلفته ان تكون ككلفة استيراد الذهب او الفضة .

لم يكن على السومريين أن يستوردوا النحاس والاخشاب فحسب ، بل كان عليهم أن يدفعوا أثمان هذه المستوردات من منتوجهم الخاص ـ مثلا الحبوب (وهي مادة ذات حجم كبير من حيث النقل) والأقمشة ، التي كان الصوف اقدم مادة استعملت في صنعها في سومر . وقد كانت التجارة السومرية بالضرورة ، اكثر نشاطا من التجارة المصرية ، وكان مجال نقلها اوسع بكثير . وقدسارت قدما عن طريق إقامة مستعمرات سومرية . فأشور ، على دجلة الأعلى ، وتل براك في الجزيرة (ميزوبوتاميا) ، وهما اقدم المستوطنات ، يبدو انهما كانتا سومريتين لا ساميتين . وهذا التوسع التجاري إلى المشارف العليا للنهر برا ، كان يقابله توسع تجاري في الخليج العربي ، بل لعله تجاوز ذلك إلى دلتا نهر السند ، وحتى من المحتمل انه وصل إلى ساحل البحر الاحمر في مصر العليا . ولكن اهم عمل كبير في النقل والمتاجرة كان توسع السومريين التجاري برا في الاتجاه الشمالي الغربي .

عندما كانت الاخشاب تقطع من جبال أمانوس كانت تنقل برا إلى شاطىء الفرات الغربي ، كما كان النحاس المستورد من أرغانا مادن ينقل برا (والمسافة اقصر من الأولى) إلى اجزاء دجلة والفرات العليا ، وعندها كانت هذه الأحمال الضخمة توضع على أطواف تحملها المياه هبوطا مع النهرين ، فيما كان الركاب ينتقلون في قوافل مصنوعة من القصب مكسوة بالجلد . وقد كان النقل مع الماء الهابط يسيرا وسريعا ، لان التيار في كل من دجلة والفرات كان أقوى من التيار في النيل في اسفل أجزاء مجراه . إلا أن السومريين ، وللسبب ذاته ، لم يكونوا يستطيعون استعمال الرافدين للسفر أو النقل صعوداً مع المجرى . فحوض دجلة والفرات لا تسود فيه رياح جنوبية شرقية على نحو الرياح الشمالية التي تسود في مصر ، والتي هي إحدى أثمن هبات الطبيعة لمصر . ومن ثم فقد كان على مستثمري النحاس والأخشاب من السومريين أن ينتقلوا إلى الجهة الشمالية الغربية عبر الطريق البري بكثير من العناء . والتجار السومريون ، الذين كانوا يسيرون في أعقاب المستثمرين ، كان عليهم أن ينقلوا متاعهم المصدر لدفع ثمن ما يستوردون ، بالطريق الشاق نفسه .

وكان الحمار هو الدابة الوحيدة التي كانت لدى السومريين لما كانوا يشقون

الغرين . وكان هذا هو الحمار الوحشي المدجن ، وقد كان تدجينه ، وهو أسرع ذوات الأربع وأكثرها طواعية ، لا يقل براعة عن صنع الأدوات الزراعية من الصلصال (الدلغان ، الطفل) . لم يكن لدى السومريين لا الحصان ولا الجمل ، فقد دجن هذان في السهوب على أيدي أقوام أخرى وفي أزمنة لاحقة .

وإذن فقد تفوق السومريون على تلاميذهم المصريين في فن خلق المدنية على المستوى الاقتصادي . وفي الناحية الثانية ، فإن المصريين سبقوا السومريين في المجال السياسي . فعندما ترتفع الستارة عن الفصل الأول من مأساة التاريخ السومري ، نجد المجتمع السومري مقسما سياسيا بين عدد من المدن ـ الدول المحلية ، وهذا التفسخ السياسي في العالم السومري كان متناقضا مع وحدته على المستويات الحضارية والاقتصادية والجغرافية الطبيعية . كانت المدنية السومرية بحاجة ، في سبيل بقائها ، إلى سيطرة وإدارة فعالة للمياه في حوض دجلة والفرات الأسفل ، ومثل هذه السيطرة ما كان لها ان تكون فعالة تماما إلا إذا تم لها ، ومتى تم لها ، قيادة موحدة . وهذه الوحدة السياسية ، وهي التي لم يكن عنها غنى في نهاية المطاف ، جاءت متأخرة ، بالنسبة للتاريخ السومري ، وبعد ما كانت قد كلفت الكثير من الخراب والآلام التي سبقتها ، وحتى لما تمت لم يكن إنجازها على أيدي السومريين انفسهم . لقد فرضت عليهم ، في النهاية ، على أيدي جيرانهم الأكديين .

وفي الناحية الأخرى ، فقد توحدت مصر العليا والدلتا سياسيا عند فجر المدنية المصرية الفرعونية . إن قسوة الحرب التي انتهت باحتلال الدلتا وضمها الى مصر العليا ، توضحها بشكل ساذج المناظر المحفورة على نقش نارمر . ولكن مصر كسبت ، بهذا الثمن ، وحدة سياسية ومن ثم سلاما ونظاما في الداخل ، وهذه الهبات استمرت مدة تزيد عن الثلاثة آلاف سنة من التاريخ المصري الفرعوني ، وذلك بإستثناء « فترات متوسطة » قليلة وقصيرة نسبيا كانت تعترض هذا التاريخ وعندها كانت تفتقد حالة الوحدة العادية والسلام الداخلي .

من الواضح أن توحيد مصر العليا والدلتا كان حدثا فجائيا ومسرحيا ، لكننا نجهل الخطوات التي سبقته . وقد قسمت مملكة مصر الفرعونية المتحدة في جزأيها ، في ما تلا من العصور ، إلى أقسام إدارية ، وقد كانت هذه حقائق اجتماعية . وكان لسكان كل من هذه الأقسام وطنية محلية . لكن هذا ليس دليلاً على أن هذه الأقسام

كانت موجودة كدويلات محلية ذات سيادة قبل أن يتم توحيد مصر السياسي ، بحيث تكون نظيرات للمدن ـ الدول المحلية ذات السيادة في سومر . إن اليونان استعملوا لفظة « نومري » لهذه الوحدات التي قسمت البلاد اليها ، والمعنى الحرفي للكلمة اليونانية هو « وحدات إدارية » ولعله من المحتمل أن هذه « النومات » المصرية ، بدل أن تكون معوقات سابقة للتوحيد، كانت تقسيمات مصطنعة على نحو ما نجد في الوحدات الادراية في فرنسا اليوم ، الغاية من إيجادها ان تحل محل وحدات إدارية كانت قائمة في ما سبق من التاريخ وأن تزيل أثرها ، الأمر الذي قد يكمن فيه خطر داهم بالنسبة للحفاظ على الوحدة السياسية فيما لو سمح لذكراها وللرابطة العاطفية نحوها أن تستمر .

وقد انعكس تاريخ المجتمع الاقتصادي والسياسي في مصر ، كما في سومر ، على التاريخ الديني . ونحن عندما نقابل التاريخين على المستوى الديني نجد ان تصنيف المجتمع المصري الفرعوني إنما هو نموذج للنوع ذاته أي السومري ، على أنه في الوقت ذاته يبين الشخصية الفردية للمدنية المصرية .

وقد كانت الآلهة ، في مصر وفي سومر على السواء ، تمثل قوى الطبيعة التي كانت تضع الانسان تحت رحمتها ، لكن في مصر أضيف الى عبادة الطبيعة عبادة القوى البشرية الجماعية . وقد وجدت هذه الديانة الجديدة التعبير نفسه الذي عرفته سومر . وقد جندت بعض آلهة الطبيعة ، في سومر ومصر الفرعونية على السواء ، لتمثل قوة الانسان وقوة الطبيعة في وقت واحد ، ومما يسر هذه الاضافة إلى وظائف الآلهة ، هو ان هذه الآلهة ، مع أنها كانت مشتركة بين المجتمع بكامله ، سواء في ذلك آلهة الطبيعة والطبيعة ذاتها ، اصبحت مرتبطة بأماكن معينة حيث اصبح للمزار المحلي اعتبار عالمي . وحتى الآله الشمس المصري رع ـ وهو إله كوني على أعلى مستوى ـ كان له موطن خاص في هليوبوليس ، على ضفة النيل الشرقية قرب رأس الدلتا .

وحورس ، وهو الابن الصقر للاله أوزيريس ، إله الحياة النباتية المسكوني ، تولاه حكام المدينتين التوأم ، نخن ـ نخب (هيراكونبوليس) في اعماق مصر العليا . وقد كان هؤلاء هم الذين وحدوا مصر عند ابتداء تاريخ المدنية الفرعونية حول سنة ٣١٠٠ ق . م . وقد فتحوا الدلتا تحت رعاية حورس . ونتج عن هذا الحادث السياسي الرائع ، أن أصبح للاسطورة التي روت قتال حورس مع قريبه الشرير ست ، وانتصار الأول على الثاني ، معنى تاريخي إضافي . فقد كانت هذه الأسطورة أصلا رمزا لأمر

يتجدد في سياق الطبيعة : موت الحياة النباتية وعـودتها إلى الحيـاة سنويـا . وخصوصـا الحبوب التي كان إنسان العصر الحجري الحديث قد دجنها . وقد أصبح الحصاد شرطا لبقاء الانسان ، منذ أن انتقل الأنسان من مرحلة جمع المواد الغذائية إلى مرحلة انتاجها. وقد قتل ست الشرير أخاه أوزيريس ، روح الحياة النباتية ، ولم يكتف بذلك بل قطع جثته إربا ونثرها أشلاء . لكن إيزيس ، اخت اوزيـريس وزوجته المخلصـة ، وجدت هذه الأشلاء وجمعتها ، فعاد أوزيـريس الى الحياة ثـانية ، وسلم مملكتـه إلى ابنه الـوفي حورس ، وكان هذا قد انتقم لقتل أوزيريس بان تغلب على ست القـاتل . وبعـد أن ضمت مصر العليا الدلتا إليها ، صـــارت هذه الأسطورة المنتـزعة من الـطبيعة روايـة لأحياء ذكرى هذا الحادث السيـاسي التاريخي . كـان المركـز الأساسي لعبـادة ست في الزاوية الشمالية الشرقية للدلتا ، في الطرف القصي من مصر المقابـل لنخن ـ نخب . ومن ثم فقد اصبح انتصار حورس على ست يمثل انتصار مصر العليا على مصر السفلى ، أي لاتحاد التاجين الذي تلا ذلك .

وقد دشن توحيد مصر السياسي عهد المدنية المصرية الفرعونية واستمر يتحكم في تاريخها لمدة ثلاثة آلاف سنة . وقد كان هذا مظهرا للتعاون البشري الجماعي لم يسبق له مثيل ، وعبادة هذا التعاون اتخذ شكلا جـديدا . فمـوحد مصـر ومن خَلَفـه من بعـده الذين كانوا يلبسون تاج مصر المزدوج كانت تقدم لهم العبادة على أنهم « تجسد » للقوة الساحقة التي كانت مركزة في التاجين المتحدين الآن فوق رأس الفرعـون . والفرعـون (في العبرية تعني هذه الكلمة المصرية القصر الملكي القائم في العاصمة النهائية للمملكة المتحدة ، ممفيس) كان إلها بشريا حيا ـ وهو قائم بلحمه جنبا الى جنب مع الآلهة الأقدم التي كانت حياتها زيفا ، وكانت تظهر في التماثيل المحفور عليها الطقوس الدينية الحية فقط .

ان توحيد مصـــر العليا والدلتا السياسي على يد نارمر ظهر له اخيرا نظير في وادي دجلة والفرات في توحيد سومر مع أكد على يد لوغـالزغيري . ولكن إتمام هذا التوحيد لم ينجز إلا بعد أن كانت المدنية السومـرية قـد بلغت سبعة قـرون من العمر ؛ وقـد قبل التوحيد ، دون حمـاسة ، عـلى أنه أهـون الشرين ، إذا قـورن بالبـديل أي بـاستمرار الفوضى الدولية المريرة . ومن ثم فلا لوغـالزغيري ولا سرجون ، الذي انتزع من يـد الأول الامبراطورية التي كان قد صنعها ، كوفىء بالتأليه . ومع ان بعضا من خلفائهما ـ

مثلا نارامسن (نحو ٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥) وشلغي (حول ٢٠٩٥ ـ ٢٠٤٨) غامر وادعى الألوهية ، فأنهم لم يستنوا قاعدة لذلك . ففي سومر وأكد كان الاله البشري الحي هو الأمر المستثنى لا القاعدة .

٨ ـ سومر وأكد : نحو ٣٠٠٠ ـ ٢٢٣٠ ق. م .

تسمية المدنية السومرية بهذا الأسم أمر مطابق للواقع لأن شق الغرين في وادي دجلة والفرات الأدنى والاستيطان فيه ـ وهو إنجاز قامت به قوة بشرية جماعية هي التي ولدت هذه المدنية ـ كان عمل شعب واحد ، هو الشعب السومري ، الذي كانت له لغة وديانة وحضارة مشتركة . وعلى كل فلم يكن للقوة البشرية الجماعية للشعب السومري ، في أول الأمر ، وحدة سياسية تجمع شملها في دولة مسكونية تتحكم في المجال الغريني الذي كان السومريون قد امتلكوه . والعمل الرائد قامت به فئات سومرية مختلفة ، مستقلة واحدتها عن الأخرى سياسيا ، وقد تولت امر شق الغرين في نقاط مختلفة . ونستدل على هذا من التركيب السياسي للعالم السومري الذي نجده في أقدم الوثائق المدونة بالكتابة السومرية ، التي تعود إلى الوقت الذي دونت فيه هذه الوثائق التي حلت رموزها والممكن قراءتها . ففي فجر تاريخ المدنية السومرية كانت سومر قطعة فسيفساء مكونة من مدن ـ دول محلية ذات سيادة . والوحدة الثقافية التي عرفها العالم السومري لم تكن بعد قد وازتها وحدة على المستوى السياسي .

ويبدو أن هذه المدن ـ الدول تعايشت ، خلال القرون الخمسة او الستة الأولى من تاريخ المدنية السومرية (حول ٣٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق. م.) ، دون أن تتصادم فيما بينها . ومما لا ريب فيه هو أن الغرين كان قد شق تدريجا ، وأن الحقول المروية والمروج المائية التي صنعها مؤسسو كل من هذه المدن كانت ، إلى مدة طويلة ، لا تعدو كونها واحة تعزلها عن غيرها من أراضي المدن مساحات من المستنقع البكر ، وأن هذه المساحات كانت ، في جملتها ، أوسع بكثير من الواحات جمعاء . وفي خلال الفصول المبكرة من تاريخ المدنية السومرية ، كان المدى الذي تمتد فيه المستنقعات البكر الواقعة خلف الأرض التي كانت كل مدينة قد شقتها لنفسها ، وهي التي كان بامكان كل مدينة ان تتصرف بها ، يبدو كأنه لا نهاية له. يضاف الى ذلك ان كل مدينة كان بإمكانها ان

تتحكم بالمياه في مداها الخاص بها ، دون أن تتدخل في الأعمال المماثلة التي كانت الجماعات الأخرى تقوم بها في الوقت ذاته في الأراضي الأخرى .

وقد جاءت اللحظة الخطرة سياسيا لما أخذت أملاك المدن ـ الدول المحلية في الاتساع بحيث أنها أزالت المناطق العازلة من المستنقع ، وأصبحت هذه المدن ـ الدول مجاورة مباشرة الواحدة منها للأخرى . وهذا الاستكمال لفوز الانسان التكنولوجي على الطبيعة في سومر خلق مشاكل سياسية على مستوى العلاقات البشرية . ولم يستجب السومريون لهذا التحدي الاجتماعي فورا باللجوء الى الطريقة الأساسية للتوحيد المسكوني على نحو ما تم في مصر لما ظهرت المشكلة الاجتماعية ذاتها هناك . فلما اقتربت قطع الفسيفساء السياسية ، التي كانت معزولة قبلا ، واحدتها من الأخرى لم تلتحم بعضها بالبعض الآخر حالا ولم تكون مملكة واحدة على نحو ما حدث في مصر . بل استمرت المدن ـ الدول ، حتى بعد تماسها واحدتها بالأخرى ، في الحفاظ على استقلالها وسيادتها المحلية .

وقد كان إنتاجية غرين دجلة والفرات في هذه المرحلة كبيرة بحيث أن جزءاً منه كان يكفي أعضاء « المؤسسة » في مدينة ـ دولة سومرية ان يعيشوا ـ ويموتوا ـ برفاهية . والحفر الأثري في القبور الملكية للأسرة الأولى لمدينة ـ دولة واحدة ، اور ، أظهر لنا ان الملك كان يملك من الصناع عددا يمكنهم من أن يصنعوا الحلى الدقيقة للملكة . كما أنه كان يسير معه لا الثيران التي تجر العربة الملكية فحسب ، بل جماعة من الأتباع من الجنسين لخدمته في حياة أخرى افتراضية ، وهؤلاء إما أنهم كان يقتلون ، أو أنهم كانوا ينتحرون تطوعا ، في نهاية الطقوس الجنازية للملك . وهذه الدرجة المتباينة في تطرفها من التباين الطبقي التي نجدها في أور في هذا الفصل المبكر من تاريخ المدنية السومرية ، كانت ، على ما يبدو ، امرا مألوفا للأحوال الاجتماعية في كل أنحاء العالم السومري المعاصر .

عندما نصل الدور التالي في التاريخ السومري ، وهو الذي يبدأ في منتصف الألف الثالث ق. م . نجد أن الصفة البارزة هناك لم تكن الحفاظ على الوضع المميز الذي كان « للمؤسسة » ، في كل من المدن ـ الدول ، بل كان صداماً فيما بين هذه المدن ـ الدول . وثمة نقش نافر لايناتم ملك لاغاش (تلو) يصور انتصار هذه المدينة على جارتها أوما (جوها) ؛ ويرينا هذا النقش ان الحروب بين دول سومر قد بلغت درجة

كبيرة من التنظيم ، وأنها كانت نسبياً ضارية ومدمرة . ولم يكن جنود إيناتم فقط مزودين بالخوذ (لعلها كانت معدنية) والتروس الثمينة بكثرة ، بل كانوا قد دربوا على القتال في صفوف من الكتائب . وقد أظهرهم نقاش ايناتم وقد صفوا متكاتفين متراصي الصفوف فيما تبرز أسلحتهم من الصفوف الأمامية عبر التروس المتلاصقة . وكانت جثث القتلى من العدو المهزوم مطروحة تحت أقدام الجيش الظافر وقائده . ولعل ملوك المدن ـ الدول السومرية كانوا يتطلبون الآن ضحايا بشرية على مقياس أوسع من الذين يقاتلون في المعارك ، وقد كانت ضحايا الحروب خيرة المحاربين من شباب الجماعات .

وقد كان النزاع بين لاغاش وأوما في أيام إيناتم يدور حول امتلاك قناة تقع على تخوم الدولتين . وهذه القناة المرموقة كانت تروي أرضا مجاورة وتصرّف مياهها ، ومن ثم فقد كانت إنتاجية تلك الأرض تعتمد على هذه القناة . وامتلاك القناة يحمل معه التمتع بانتاج تلك الأرض . ويدعي إيناتم انه كان المنتصر في الحرب التي دارت رحاها حول القناة التي تمنح الحياة ؛ وحتى لو كان هذا الظفر حقيقيا فاننا نتصور أنه كان انتصارا باهظ الثمن . وعلى كل يبدو أن التوازن الاجتماعي الداخلي المتقلقل في لاغاش قد اضطرب . ذلك بأن الفلاحين السومريين كانوا يتقبلون امتيازات « المؤسسة » على اعتبار أن الغالبية التي لا تتمتع بأي امتيازات تستمر في اعتقادها بأن الأقلية ذات الامتيازات إنما كانت تقوم بخدمات اجتماعية بشكل فعال ، وأن هذه الخدمات الاجتماعية كانت مما لا يستغنى عنه بالنسبة إلى مصلحة الجماعة كليا . ويبدو أن هذا الاعتقاد أصابته هزة في أيام الملك اوروكاجينا ملك لاغاش (حول ٢٣٧٨ ـ ٢٣٧١ ق. م.) الذي استطاع ان يتحدى سلطة الكهنة .

اذا كان اوروكاجينا حاول القيام بثورة اجتماعية فقد أحبط مسعاه . فقد تغلب عليه لوغالزغيري الذي كان قد وطد سلطاته على مدينتين ـ دولتين هما أوما وأوروك . وأخذ لوغالزغيري يوسع سلطانه لا بضم لاغاش فقط بل بضم كل المدن ـ الدول السومرية الأخرى . وقد اتسعت امبراطوريته حتى خارج نطاق سومر إذ امتدت من « البحر الى البحر » أي من رأس الخليج العربي حتى شواطىء المتوسط في شمال بلاد الشام .

وقد وسع لوغالزغيري (حول ٢٣٧١ ـ ٢٣٤٧ ق. م.) إمبراطوريته بحد السيف. ومع ذلك فان حروبه التوسعية كانت أقل شرا على البلاد من الحروب الأهلية

المستمرة الشاملة ، التي كان السومريون أنفسهم يقعون فريسة لشرها ؛ وفي الواقع فان التوحيد السياسي المفروض عليهم كان العلاج الوحيد لهذه الآفة الاجتماعية . ذلك بأن شبكة الأقنية التي كانت قائمة في الحوض الأدنى لدجلة والفرات ، الطبيعي منها والاصطناعي ، كانت وحدة لا تقبل التقسيم ؛ وما لم تقم سلطة واحدة ، قادرة على تنظيم المياه وتوزيعها ـ والمياه كانت عصب الحياة ـ فان إدارة هذه المياه لا يمكن أن تكون لا فعالة ولا سليمة . ومن المحتم ان يكون هذا سببا لأثارة الحرب بين الدول المحلية المستقلة ، ذلك بأن هذه كان لا بد من أن تتنافس وتتنازع فيما بينها ، إذ تحاول كل منها أن يكون لها القسط الأكبر في السيطرة على الماء لمصلحتها . فعمل لوغالزغيري في توحيد سومر سياسيا ، ثم في توسيع إمبراطوريته إلى الشمال الغربي ، جعل قيام سلطة واحدة تشرف على مياه دجلة والفرات أمرا ممكنا للمرة الأولى ؛ كما أن هذا العمل مكّن لحاكم سومر من أن يستولي على مصدر الأخشاب اللازمة لسومر وهو جبل أمانوس . ولعل الشيء نفسه تم بالنسبة الى مصادر النحاس ، التي هي أبعد مسافة .

وعلى كل فان الثمار التي غرسها لوغالزغيري في بناء الأمبراطورية لم يجنها هو نفسه ، ولا حتى أي إمبراطور آخر من الأمة السومرية . ذلك بأن الأمبراطورية التي ضم لوغالزغيري اجزاءها واحدها إلى الآخر انتزعها من يديه ضابط أكدي سامي اللغة اسمه سرجون الذي يبدو أنه بدأ حياته حاكما لكيش (الأحَيْمر) . وقد انسحب سرجون من كيش وأنشأ لنفسه مدينة في أغاد . والمكان لم يهتد الباحثون إلى تعيينه بعد ، لكن يظهر أنه كان على مقربة من الموقع الذي أقيمت عليه بابل فيما بعد . وقد كان اختيار المكان موفقا . ذلك بأن موقعه حيث هو في الطرف الشمالي الغربي للغرين، حيث يقترب مجرى دجلة ومجرى الفرات واحدهما من الآخر الى أقرب نقطة ، يسر للمستولي عليه إمكان السيطرة على كل الشبكة المائية من الطرف الواحد إلى الآخر من الغرين حتى مصب الرافدين .

لعل استيلاء سرجون على إمبراطورية لوغالزغيري لم يكن البروز الأول لأحد المتكلمين بلغة سامية في التاريخ المدون، فمن المحتمل أن سكان بيبلوس كانوا يتكلمون لغة سامية لما بدأت صلاتهم التجارية والحضارية مع مصر الفرعونية لأول مرة ؛ وقد تم هذا نحو ما بين ٦٠٠ ، ٧٠٠ سنة قبل ايام سرجون . وعلى كل فان إمبراطورية سرجون السومرية الأكدية كانت أول دولة كبرى استعمل حكامها لغة سامية . فأكد التي

انشأها سرجون ، والتي كانت أغاد عاصمتها الأمبراطورية ، كانت تقوم عبر نهري دجلة والفرات إلى الشمال من سومر ، وكانت تمتد شمالا في غرب إلى النقاط التي كان ينتهي الغرين عندهـا . ولسنا نعـرف فيما إذا كـان توطن شعب سـامي اللغة في هـذا الموقـع الاستراتيجي كان من عمل سرجون ، أم أن الأكديين كانوا قد انساحوا في هـذا الجزء من حوض دجلة والفرات في وقت سابق لذلك . وعلى كل فانه من الممكن أن نفترض أن الأكديين ، ومثلهم الكنعانيون ، الذين كانوا أقدم من استوطن سورية وفلسطين من الشعوب المتكلمة بالسامية ، كانوا قد جاءوا من الجزيرة العربية ؛ ذلك بـأن الموجـات المتعاقبة من الشعوب المتكلمة بالسامية ، كالموجة العمـورية والمـوجة العبـرية الأراميـة الكلدانيـة والموجـة العربيـة ، والتي اندفعت عبـر شطآن السهـوب العربيـة الى الهلال الخصيب ؛ هذه الموجات جاءت من تلك المنطقة (أي الجزيرة العربية) .

ولغات الأسرة السامية تربطها واحدتها بالأخرى روابط متينة ، والأسرة الساميـة بالذات لها صلات بعيدة مع مجموعات من اللغات في الشمال الافريقي ـ كاللغة المصرية القديمة (المتمثلة اليوم باللغة القبطية) واللغات « الكـوشية » في شمـال شرق افـريقية (مثل البجا والدناقل والغلاّ والصومال) واللهجات البربرية في شمال غرب إفريقية . ويعود الفضل إلى ما في السهوب من تيسير للتوصيل في انتشار اللغات السامية أكثر من غيرها ، باستثناء اللغات الهندية ـ الاوروبية والتركية . واللغة العربية ، التي كانت آخر لغة سامية حملها انسياح الشعوب من الجزيرة العربية ، شائعة اليـوم عبر جنـوب اسية الغربي والشمال الافريقي من موطىء جبال زغروس وشواطىء الخليج العربي الشرقية الى شواطىء الأطلسي في شمال افريقية . واللغة السريانية ، وهي الصيغة الحديثة للغة الأرامية ، لا تزال تستعمل في بعض امكنة على مقربة من دمشق ؛ واللغة العبرية تستعمل الآن في بعض اجزاء من فلسطين .

لقـد حكم سرجـون من نحو ٢٣٧١ ـ ٢٣١٦ ق . م . ، والأسـرة التي أسسها استمرت حتى حول سنة ٢٢٣٠ والامبراطوريـة التي انتزعها سرجون من لوغالزغيري والتي أورثها احفاده هي ، بالنسبة للتاريخ السومري الأكدي ، نظيرة المملكة القديمة في تاريخ مصر الفرعونية . لكن المملكة القديمة كان تتفوق على إمبراطورية سومر وأكد من ناحيتين : أنها قامت عند فجر تاريخ المدنية المصرية الفرعونية ، التي كانت لحظة ميمونة في التاريخ ؛ وأن مؤسسيها لم يكونوا غربـاء عن البلد . فقد كـان المكان الـذي نشأوا فيه ، وهو المدينتان التوأمان ، نِخِن ـ نِخب ، يقع تماما داخل الحدود الجنوبية لمصـر .

وقد كان حكامها حماة مستنقعات مصر الجنوبية ، ولعلهم بسبب هذا الدور الذي كانوا يقومون به ، قد تمرسوا بالبراعة الحربية الفائقة التي ظهرت أخيرا في الحرب بين الأخوة التي مكنتهم من فرض الوحدة السياسية على العالم المصري . وعلى العكس من ذلك فان أكد ، وعاصمتها أغاد ، كانت تقع تماما خارج الحدود الشمالية الغربية لسومر . وقد كان الأكديون متطفلين شبه برابرة ، وكان سرجون وأحفاده ، مثل لوغالزغيري ، سلف سرجون، رجال حرب ، فيما نعمت مصر بنحو الف سنة من السلام ، منذ أن قامت المملكة القديمة في مصر الفرعونية .

وقد روي أن سرجون قاد بنفسه حملة عسكرية إلى شرق آسية الصغرى تلبية لاستغاثة مستوطنة من التجار ـ من المحتمل أنهم كانوا أكديين ـ الذين كانوا يلقون معاملة سيئة على أيدي أهل البلاد . وقد تكون قصة هذه الحملة السرجونية اسطورية . ولعلها قصة سابقة تاريخيا لاستيطان تجار أشوريين مستوثق من وجودهم هناك من القرن العشرين إلى أواخر القرن التاسع عشر ق. م . في ضاحية لمدينة كانش، حيث اكتشفت محفوظاتهم . وعلى كل فان حملة نارام سن السرجوني إلى جبال زغروس لا ريبة في أمرها . إن الحفر النافر على حجر نارام سن يؤيدها ـ وهي وثيقة منظورة لا تقل في شراستها عن الحفر النافر على حجر نارام سن الموجود في إيناتوما .

وحملة نارام سن ، مع أنها كانت ضارية وقد انتهت بالفوز على ما يظهر ، فقد كانت على الأرجح عملية هجومية ـ دفاعية ، على ما يبدو من نتائجها ؛ وإذا كان عمله دفاعيا فهو لم يكن يدافع عن أكد فحسب ، بل كان يدافع عن سومر وعن المدنية السومرية . فقد أسرت هذه المدنية الأكديين الذين قهروها ، وقبسوها بكليتها تقريبا ، بما في ذلك كتابتها وحتى ديانتها . فأكثر الآلهة الأكدية كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية . واللغة الاكدية دونت في حروف سومرية ، مع أن هذه كانت آلة غير ملائمة للتعبير عن لغة من الأسرة السامية ، من حيث أن جذر الكلمة السامية ليس سلكا ينتظم مقاطع، بل مجموعة من ثلاثة حروف صامتة .

ولما أخذ الاكديون بلباب المدنية السومرية كانت هذه قد طورت ظاهرتيها البارزتين . وكانت إحدى هاتين الظاهرتين التقوى الدينية، وكانت الأخرى المهارة التجارية . وقد عبر عن التقوى الدينية بكثير من الحيوية في الأشكال الصغيرة للمتعبدين ، وهي التي كانت ضربا هاما من الفن المنظور السومري الأكدي . فان

المتعبد تنقل يداه المطويتان وعيناه الجاحظتان إلى الناظر اليه الآن العنف العميق الذي يلفه في صلاته . وآثار المهارة التجارية السومرية الأكدية هي هذه الالاف من ألواح الآجر المدونة عليها المعاملات التجارية المتنوعة . كان الآلهة أكبر أصحاب الأملاك ؛ ومديرو هياكلها قديكونون روادا في تنظيم الأساليب السومرية للقيام بالأعمال التجارية على نطاق واسع ؛ إلا ان القطاع العام للاقتصاد السومري كان يعادله القطاع الخاص . فقد كان السومريون ينصرفون الى اعمالهم بكليتهم كما كانوا يعنون بعبادتهم . وقد ضاهى الأكديون السومريين في حقلي النشاط المذكورين ، وتمثلوا روحهم .

قضى على الأسرة السرجونية الغوتيان الجبليون ، أي البرابرة القادمون من الجهة الشمالية الشرقية ، نحو سنة ٢٢٣٠ ق. م . وقد وقعت سومر وأكد تحت حكم الغوتيان من نحو ٢٢٣٠ الى حول ٢١٢٠ ق. م . واثناء فترة سيطرة الغوتيان تسلل العموريون المتكلمون بالسامية الى أكد من الجهة الجنوبية الغربية، وانشأوا مدينة بابل تبعا لذلك . وقد قضي على الغوتيان او لعلهم أخرجوا من البلاد في آخر المطاف ، وذلك لأن الاكديين والسومريين كانوا يكرهونهم . اما العموريون الذين انتهكوا حرمة الأراضي الأكدية فقد استمروا هناك ، وكان أن قاموا بدور رئيس في التاريخ السومري الاكدي في ما بعد .

٩ ـ مصر الفرعونية ، نحو ٣٠٠٠ ـ ٢١٨١ ق . م .

منذ أن انبلج فجر أقدم المدنيات الأقليمية في سومر ، نحو نهاية الألف الرابع ق. م . ، ظهر واختفى عدد من المجتمعات من هذا النوع . وثمة مدنيات أخرى لا تزال حية ، مع أن أقدم هذه المدنيات الحية ، واعني المدنية الصينية ، هي أحدث عهدا من سابقتيها السومرية والمصرية الفرعونية ، بما لا يقل عن ١٥٠٠ من السنين . وقد ميزت المدنية المصرية الفرعونية نفسها ، في عصرها الأول أي « المملكة القديمة » (نحو ٣١٠٠ ـ ٢١٨١ ق. م.) ، عن غيرها من المدنيات الاقليمية ، باستقرارها النسبي . ففي هذه الفترة الزمنية التي دامت قرابة ألف سنة ، كانت المملكة القديمة أكثر استقرارا من أي نظام ظهر في تاريخ مصر ذاتها أو في أي منطقة أخرى ؛ وقد عاشت بعض إنجازات المملكة القديمة حتى بعد زوال تلك المملكة . فأسلوب الفن المنظور المميز ونظام الكتابة كما أوجدها المصريون الفراعنة عند بروز مصر القديمة ، والديانة التي ورثوها ، حافظت على شخصيتها إلى القرن الثالث الميلادي باعتبارها أشياء مستمرة ، ولم تزل قائمة حتى القرن الخامس . لا شك أنها تعرضت لتغييرات وتبديلات خلال هذه الثلاثة آلاف ونصف الألف من السنين ؛ ولكن استمرار التقليد الحضاري المصري الفرعوني ظل على حاله خلال هذه الفترة الزمنية . أما في ما يتعلق بتنظيم المياه في حوض مجرى النيل الأدنى ، إلى الشمال من الشلال الأول ، فقد حوفظ عليه إلى يوم الناس هذا ؛ وهذا التنظيم هو الذي مكّن للمصريين من قلب المستنقع ـ الغاب السابق ، من أرض ماحلة قاسية إلى حقول ومراع خصبة .

فارض سومر القديمة ، وهي مساحة من الأرض في حوض الفرات الأدنى ، لم تسلم من العودة الى حالتها الطبيعية الأولى؛ وفي كل الجزء الغريني في جنوب شرق دولة العراق الحالية ، نجد أن أساليب السيطرة على الماء التي أنشأها السومريون قبل خمسة او ستة الاف سنة ، يجب أن يبدأ بها من جديد . فيما لم يسمح ورثة المملكة القديمة في

مصر الفرعونية قط لأساليب السيطرة على المياه التي بدأها أسلافهم بأن تخرب في أي جزء من أجزاء مصر . وقد اكد هيرودوتس ، المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الخامس ق. م . ، ان مصر « هبة النيل » . وقد كان يفكر بالطمي الذي كان النهر يلقي به ، والذي ظل يجدده بزيادة سنوية حتى تم إنشاء سدّ أسوان سنة ١٩٠٢ . إلا أنه يكون أقرب الى الصواب القول بأن مصر هي الهبة التي قدمها المصريون ، سكان البلاد في الزمن السابق للأسر وزمان الأسر الاولى ، إلى الأجيال المتعاقبة . وهبة النيل لم تزد عن تزويد المواد الخام التي قلبت المستنقع ـ الغاب الغريني الى جنة غرينية . اما تطوير الأراضي البرية اصلا إلى الأرض المصرية الخصبة ، فقد تم إنجازه بسبب ما كان للمصريين انفسهم من نشاط اجتماعي وجد ومهارة وقدرة إدارية .

لقد كان الأنجاز الرئيس للمصريين الفراعنة تنظيم حكومة مركزية فعالة لمصر بأجمعها من الشلال الأول إلى البحر. وقد تم توحيد مصر سياسيا وإداريا عند بدء تاريخ المدنية المصرية الفرعونية . وقد كان هذا العامل السياسي المعين لاستمرار زراعة الري في مصر . وقد استمرت على هذا المنوال إلى يوم الناس هذا ، مع أنه تخللها فترات أصابتها فيها نكسات عادت أثناءها مصر إلى الانقسام خلال العصر الفرعوني . ويسمي علماء المصريات هذه النكسات « فترات معترضة » ، لأنهم يرون ، وهم على حق ، ان الوحدة الفاعلة كانت النظام السياسي العادي في مصر منذ اليوم الأول الذي قام فيه الفرعون الذي وحد مصر . وهذا الأنجاز السياسي الثابت والمستمر ، الذي هو فريد في قدمه ، مكن له ، ولا شك ، نظام المواصلات المصري الداخلي الممتاز ، والذي ظل كذلك فريدا حتى اختراع السكة الحديدية قبل قرن ونصف القرن من الزمان .

والقدرة البشرية الجماعية التي كانت مركزة تحت تصرف حاكم فعال يحكم مصر بأكملها ، كانت تنتج من لوازم الحياة المادية فائضا كبيرا لم يسبق له مثيل ، ويزيد كثيرا عن الحاجات الأساسية ؛ هذا إذا استخدمت هذه القدرة ، بمهارة وتنظيم ، في سبيل استغلال إمكانات الغرين المصري المروض للأنتاج الزراعي . وهذه القدرة الجماعية نفسها ، عندما كانت تستخدم في الأعمال المعمارية الضخمة ، التي لم تكن منتجة بالمعنى المادي ، وخصوصا عندما يضم الى هذه القدرة الجماعية جزء من الوقت الذي وفره الشعب من العمل الرئيس لأنتاج الغذاء ـ عندما يجتمع هذان فأنهما يمكنان الفرعون من إشباع رغبة خاصة به وبحلقة داخلية من أتباعه ذوي الامتيازات . وهذه الرغبة

كانت موضع الاهتمام الأول عند كل مصري في كل مرافق الحياة طيلة العصر الفرعوني .

كان للمصريين توق لضمانة الحياة الأبدية لانفسهم بعد الموت ؛ وقد تابعوا هذه الغاية التي تلي الوفاة بجدّ يفوق جهدهم في ملاحقة أي غاية قد تتحقق في مدى الحياة البشرية . فقد كانوا ماديين في تفكيرهم . كانوا يتلذذون بالأشياء المادية ـ الطعام وحيازة الأشياء ـ التي يمكن الحصول عليها في هذه الحياة . وقد تصوروا الخلود بعد الموت في إطار من التمتع بالطيبات من النوع نفسه . وما دامت الحياة قبل الموت قصيرة ، وبما ان الحياة بعد الموت قد تكون أبدية ، فقد انفقوا من المال والجهد على القبر أكثر مما انفقوا على البيت ، وعلى تحنيط الجثة أكثر منه على تزيين الجسم الحي . وعلى هذا فبدلا من ان يخشوا فكرة الموت ، كانوا يسرون بانتظارها عقليا عن طريق الأعداد لدور من الحياة أطول وأكثر أهمية ؛ إذ كانوا يعتقدون أن هذا الدور يدشن الموت طريقه لهم ، فيما لو أعدوا انفسهم بالعمل اللازم له مسبقا .

ولم تكن عقائد المصريين بالحياة بعد الموت وحدوية كما أنها لم تكن منسجمة واحدتها مع الأخرى . فالمحافظة الطبيعية على الجثة المحنطة في قبر ضخم ، كان يتفق مع عقيدة ترى أن مثل هذا العمل يمكن لجزء من الروح أن يصاحب الجثة . وكانوا يعتقدون أيضا بأن الفرعون ، على كل حال ، سينضم الى بقية الآلهة بجزء آخر من روحه . بل إنهم كانوا يقبلون عقيدة بدائية همجية وهي أن الفرعون سيلهم في الواقع رفاقه من الآلهة وبذلك يستولي على قوتهم . وثمة عقيدة ثالثة كانت تقول بأن اوزيريس ـ روح الحياة النباتية الذي مات ثم بعث حيا ـ سيمكّن لعباده من أن يحققوا مثل هذا التجول ، وأنه عندها يدخلهم الى الجنة الخضراء في الغرب ، حيث يقيمون معه في سعادة دائمة الى الأبد . وأسطورة اوزيريس المصرية كبيرة الشبه بأسطورة أدونيس الكنعانية وأسطورة أتيس في آسية الصغرى . ولكن إذا كانت اسطورة اوزيريس قد جاءت مصر من الخارج فلا شك أنها توغلت في صميم حياة المصريين الدينية في مرحلة مبكرة من تاريخ المدنية المصرية الفرعونية . وخلال هذا المساق الطويل لهذا التاريخ كانت عبادة اوزيريس تزداد شعبية ، وانتهى بها الأمر إلى أنه صار لها محتوى أخلاقي . فقد أصبحت العقيدة عندهم أن الموت سيتبعه حساب ، ولا يقبل في جنة أوزيريس إلا تلك الأرواح التي ترجح افعالها الخيرة على أفعالها الشريرة في ميزان القضاة

الذين يقومون بذلك في ما بعد الموت .

وفي الوقت ذاته أدت العقيدة القائلة بأن الخلود يمكن تحقيقه ، إذا دفن الميت في قبر ضخم ، إلى اختراع اسلوب ضخم في البناء بالحجر . وقد أشرنا من قبل إلى تطور المهارات عند الحجارة والمعماريين والبنائين في مصر الفرعونية . وقد كشف النقاب عن بناء يعود إلى زمن الأسرة الأولى ؛ لكن الأنجازات المعمارية الضخمة على مقياس كبير جاءت فجأة على نحو ما جاء توحيد مصر السياسي وخلق الكتابة الهيروغليفية من قبل - وقد بني أقدم هرم حجري في سقارة للملك زوسر (نحو ٢٦٦٨ - ٢٦٤٧ ق. م.) على يد وزيره امحوتب . وقد كان هذا تجربة فقط . فقد قطعت الحجارة على قياس الآجر . وجمعت بعضها إلى بعض الآخر على نحو ما كان يجمع الآجر . وفضلا عن ذلك فقد كان هناك أكثر من تغيير واحد في الخطة اثناء العمل . والأثر الطموح الذي بني كان أكبر من المحاولات الأولى المتواضعة التي أدخلت في حساب صنعه .

ان امحوتب لم يتذكره الأحفاد فحسب ، بل قد نال احترامهم ، وحتى وصل الى حد التأليه . وقد كان الرجل حريا بهذا الاحترام الدائم، ذلك لأنه ، في حقيقة الأمر، كان اب المعمار الحجري الضخم في مصر . فبعد مدة لم تتجاوز نصف القرن الا قليلا ، كان الملك سنوفرو (نحو ٢٦١٣ - ٢٥٩٠ ق. م.) ، وهو الذي انشأ الأسرة الرابعة ، يبني هرما (أو لعله بنى هرمين) من الحجارة الكبيرة في دهشور ؛ ثم تلا ذلك بسرعة مذهلة ان بنى كيوبس (خوفر نحو ٢٥٨٩ - ٢٥٦٧ ق. م.) هرم الجيزة الأكبر ، وكفرون (خفرع نحو ٢٥٥٨ - ٢٥٣٤ ق. م.) الهرم الثاني في الجيزة ثم مكيرينوس (منكوره) الهرم الثالث في الجيزة .

وقد ازدهر الحفر تماما مع فن المعمار . فقد رافقت براعة البناء في الحجر لتشييد هذه الأبنية الضخمة مهارة الحفار في الحجر لصنع التماثيل لتخليد الصفات المميزة للشخصية . فالتماثيل الرائعة التي تمثل خوفو وخفرع لا تزال حية بعد ما مرت خمسة واربعون قرنا على الحياة الزائلة التي عاشها جسماهما . فالتقاطيع ، كما أظهرها النحات ، جليلة . ويبدو هؤلاء الفراعنة وكأنهم كانوا يتصرفون بسلطانهم القوي دون أي جهد ، على نحو يتناسب مع تصرف الآلهة التي كانوا يدعون أنهم هي ومع ذلك فان الفرعون من المملكة القديمة قد يكون إنسانا رقيقا . فقد أمر منكوره (نحو ٢٥٢٣ - ٢٤٩٦ ق. م.) بأن ينحت تمثال زوجته قرب تمثاله، وكان ذراع كل منهما يلتف حول

خصر الآخر . ومن الواضح أنه حتى العلاقة بين الفرعون وزوجه كانت علاقة حب وتقدير متبادلين ، والأنسانية في هذه العلاقة تبدو أكثر وضوحا في التماثيل التي تعود الى أيام المملكة القديمة للرجال وزوجاتهم ، حتى من غير فئة الفراعنة ، حيث كانوا يجلسون جنبا إلى جنب في الوضع نفسه وهو وضع الضم المتبادل .

وهذا التمثيل الثلاثي الأبعاد للأزواج هو واحد من أصناف الفن في المملكة القديمة . ويوحي إلينا هذا أن الزواج ، في ذلك العهد من التاريخ المصري ، كان مؤسسة ترضي الحاجات العاطفية للشريكين . فاذا صح هذا فقد كان مؤسسة ثابتة ، ولعل ثباتها كان أحد العوامل التي دعمت ثبات المملكة القديمة ذاتها .

ومع ذلك فحتى المملكة القديمة المصرية كانت عرضة للموت ، وقد تعرضت ، في مساق تاريخها الطويل ، إلى الأجهاد والتوتر . ففي نصف الألف الأول من تاريخها ، كانت مركزية الحكومة تزداد باضطراد ، كما كان تركيز السلطات بيد الفرعون يتزايد ايضا ، وقد كانت نخن ـ نخب ، موطن موحدي مصر الأصليين ، قريبة بشكل مزعج من أقصى أطراف مصر العليا . وبعد توحيد التاجين ، نقلت العاصمة مع مجرى النهر ، اولا إلى تينيس (على مسافة قصيرة من أبيدوس) ثم إلى ممفيس ، وهي مدينة جديدة ، تقع شمالي الدلتا ؛ وقد كانت اكثر المواقع ملاءمة كعاصمة للمملكة المتحدة . وقد بلغ استبداد الملكية الفرعونية المطلق غايته في زمن الأسرة الرابعة (نحو ٢٦١٣ ـ ٢٤٩٥ ق. م.) ، إلا أن الجو الذي يضفيه خوفو على هذه السلطة المطلقة العفوية قد يكون فيه شيء من الخداع ؛ إذ أن استبداده لم يمرّ دون تحد في واقع الأمر . ذلك بأن تأليه حامل التاج المزدوج لم يكن الشكل الوحيد للتعبير عن توحيد مصر على المستوى الديني . فقد كان على الفرعون أن يأخذ في الحساب جمهرة من الآلهة اللابشرية التي كانت تعبد في مصر قبل أن يؤله الفرعون الأول .

ان توحيد مصر السياسي أثار مسائل عدة حول الالهة القديمة التي كانت تمثل قوى الطبيعة المحلية في كل مكان. أما وقد أصبحت المزارات المحلية لهذه الآلهة تقع ضمن إطار واحد ، فان الآلهة نفسها أصبحت الآن أعضاء في جمعية مقدسة واحدة . فماذا كانت العلاقات النسبية والطبقية اي الوظائفية بينها ؟ قد تم تنظيم هذه العلاقات في ترتيب لاهوتي وضع في هليوبوليس ، مدينة الأله الشمس رع ، ويبدو أن هذا التنظير الهليوبوليسي للألوهية ، بأنها مجمع لتسعة آلهة لا بشرية برئاسة رع، تتضارب مع معتقد

الأسرة الرابعة القائل بأن الألوهية كانت تجسدا في الفرعون .

والانتقال من الاسرة الرابعة الى الاسرة الخامسة (نحو ٢٤٩٤ ـ ٢٣٤٦ ق. م.) لا يظهر انقطاعا في سلسلة النسب ، بل تحولا في اللاهوت الفرعوني الذي كان ، في الواقع ، تنازلا من قبل الحكومة في ممفيس لكهنوت هليوبوليس . وهذا التبدل في ميزان القوى ينعكس في فن المعمار الفرعوني . ففراعنة الأسرتين الخامسة والسادسة لم يحاولوا أن ينافسوا اسلافهم في بناء أهرام ضخمة ، بل بدلا من ذلك أقاموا الهياكل تكريما للعضو الأعلى رتبة في المجمع الهليوبوليسي ، أي الأله الشمس رع . لقد كان الفرعون دوما ينظر إليه على أنه أحد الآلهة ، لكنه بدءا من قيام الأسرة الخامسة أصبحت الوهيته تستمد من كونه ابنا لرع ، ولم تكن ام الفرعون ـ المرأة تلده نتيجة لفعل جنسي مع أبيه ـ الرجل ، بل نتيجة فعل غير طبيعي يقوم به الأله .

كانت الأسرة الرابعة قد وصلت بالمدنية المصرية الفرعونية الى القمة في إنجازاتها في كل الميادين. والأسرة لخامسة كانت مَعْلَماً لتحول لاهوتي ؛ وشهدت الأسرة السادسة (نحو ٢٣٤٥ ـ ٢١٨١ ق. م.) انحطاطا انتهى بالسقوط . وبيبي الثاني ، الذي لم يكن آخر فرعون من الأسرة السادسة وحسب بل آخر فرعون في المملكة القديمة ذاتها ، حكم مدة أطول من أي ملك حفظت لنا القيود سني حكمه . فقد تولى العرش حول أربع وتسعين سنة (نحو ٢٢٧٨ ـ ٢١٨٤ ق. م.).تولى العرش طفلا ، وقد عاش ليرى بأم عينيه التفسخ يتسارع في الدولة التي ضمها الفرعون الأول من الأسرة الأولى بعضها إلى البعض الآخر .

ويمكن تبين ثلاثة أسباب لانحطاط المملكة القديمة وسقوطها نهائيا . والسبب السياسي المباشر هو التبدل التدريجي في موظفي التاج ؛ فبعدما كانوا موظفين محليين وادعين أصبحوا امراء يتولون مناصبهم على أساس حق وراثي ، وليس بتعيين يمكن إلغاؤه . وقد استولى هؤلاء على فرق الجيش المصرية الوطنية ، وعجزت الخطوة التي اتخذتها الحكومة الفرعونية ضد ذلك ـ أي استخدام المرتزقة النوبيين ـ عن إنقاذ سلطة الفرعون العسكرية العليا . والسبب الثاني لانحطاط المملكة القديمة وسقوطها كان العبء المالي المتراكم بسبب ما شاده الفرعون من المدافن والهياكل .

ولم ينشأ العبء بسبب بناء هذه الآثار بالذات . فقد كانت حقول مصر تنتج فائضا ، والنيل ، بحمله السماد ، كان يحول دون القيام بالأعمال الزراعية في فترة

الفيضـــان السنوي . فالفائض من منتـوج السنة الحـالية ، جنبـا الى جنب مع العـطلة السنوية الأجبارية من العمل في الزراعة ، كان يتيح للقوى البشرية الموسمية ان تتحرر من العمل بينما كانت تطعم كفاية لتقوم ببناء هذه الآثار الكبيـرة . ولكن الذي فـرض هذا العبء المتراكم كان وقف الأرض ومنتوجها للمحافظة ، باستمرار ، على الطقوس التي كان يتوقف عليهـا خلود كل من الفـراعنة المخلدين . ومعنى هـذا ، من الناحيـة العمليـة ، هو الانفـاق غير ذي المردود الاقتصادي عـلى جمع من الكهنـة كـان يتـزايـد باستمرار . وهؤلاء كانوا ، عـلى عكس العمال المـوسميين الـذين يقومـون ببناء هـذه الآثار ، طفيليين يعيشون على إنتاجية مصر .

والسبب الثالث الذي انتهى بالمملكة القديمة الى السقوط هو الشك المتزايد ، ومن ثم التململ الذي عم عامة الشعب . فان التباين الطبقي بين الغالبية التي لا امتيازات لها و « المؤسسة » صاحبة الامتيازات في عصر المملكة القديمـة كان أكبـر مما كـان عليه الحال حتى في عصر المدن ـ الدول المتناحرة في سومر ، وفي الامبراطورية السرجونية التي عقبتها . فان تجنيد العمال لتشييد الأعمال الفرعونية الضخمة ما كان ليتحقق لو أنه كان قسرياً كليا . ولنا أن نخمن بـأن العمال المجنـدين كانوا يعتقدون أنهم كانوا يقومـون بالعمل في سبيل شيء هو أكبر أهمية وقيمة ، من الناحية الاجتماعية والدينية ، من مجرد تعظيم شخصي للفرعون . ولنا أن نخمن ايضا أنهم لما فقدوا هذا الأيمان المفترض كان رد الفعل العاطفي عندهم على مقياس الجبال التي كان هذا الأيمان قادرا على زحزحتها .

وقـد استقينا معلومـاتنا عن تفكـك المجتمع المصـري الفرعـوني الذي تـلا وفاة الفرعون المئوي بيبي الثاني من أعمال أدبية يبدو أنها صنفت في عصر المملكة المتوسطة (نحو ٢٠٤٠ ـ ١٧٣٠ ق . م .) . وإذا كان هذا هو في الواقع تاريخ الدليل الذي بين أيدينا ، فهذا الدليل لم يكن معاصرا لتلك الأحداث ، ومع ذلك فأنه يترك في نفوسنـا الانطباع بأنه يضع بين أيدينا صورة صادقة للاضطرابات الاجتماعية التي يصورها لنـا عبر الماضي . ويبدو لنا ان هـذه « الفترة المعتـرضة » الأولى في تـاريخ مصـر الفرعـونية شهـدت ثورة اجتمـاعية لم يقض عليهـا في المهد ، عـلى نحو مـا تم لثورة اوروكـاغينا الجهيضة في لاغاش . فصورة الثورة المصرية التي تركت طابعها على ذاكرة الشعب كانت انـطباعا يمثـل ثورة عـارمة اختلت فيهـا الموازين وانقلبت الأدوار . فقـد نهب الفقـراء الأغنياء ؛ وقد أصبح السادة السابقون عبيدا لعبيدهم السابقين . وقد تخلى القـوم عن

خدمة الطقوس الجنائزية الفرعونية القديمة . فالطقوس والفراعنة والاهرام والهياكل وكل ما عرفته المملكة القديمة من الأجهزة الفرعونية الثقيلة العبء شوهت سمعته وسخر منه ورفض . وهذه الثورة هي أقدم ثورة اجتماعية شاملة نملك قيودا عنها .

ثمة ما يشير الى أن الأسرة السادسة الفرعونية قد قضى عليها هجوم بربري من الجهة الشمالية الشرقية ، كما قضى هجوم بربري آخر على الأسرة السرجونية في عالم سومر وأكد قبل ذلك بنصف قرن . لكن الدليل الظاهر على هجوم بربري على مصر خلال « الفترة المعترضة » الأولى ليس حاسما ، على عكس الدليل الذي لا يتسرب اليه الشك في أن الغوتيان احتلوا سومر وأكد . وعلى كل فليس ثمة ريب في ان المتحكمين المحليين (حكام الولايات) نجحوا في أن يتحولوا من كونهم موظفين ووكلاء يعينهم الفرعون ، إلى أمراء سادة في الواقع . والدليل على هذا ليس منتزعا من أخبار عبر الماضي . ذلك بأن فراعنة الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ ق. م.) ، الذين جاؤ وا بعد توحيد مصر السياسي ثانية في مطلع عصر المملكة الوسطى ، وجدوا أنه يترتب عليهم أن يخطوا بحذر وبكثير من البطء لتحقيق هدفهم في إعادة حكام المقاطعات الى وضعهم السابق ، بعدما كان هؤلاء مستقلين في الواقع لمدة لا تقل عن مئتي سنة .

١٠ ـ الأفق العالمي نحو ٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق. م.

ان سقوط الامبراطورية السرجونية في سومر وأكد وسقوط المملكة القديمة المصرية الفرعونية يبدوأقل مدعاةً للدهشة من إقامة نظام سياسي موحد في كل من البلدين بعد فترة فراغ إداري دامت ما يزيد عن القرن في سومر (نحو ٢٢٣٠ ـ ٢١٢٠ ق. م.) ، ونحو قرن ونصف القرن في مصر (نحو ٢١٨١ ـ ٢٠٤٠ ق. م.) . وعودةُ العافية اليهما كان أمرا رائعا ؛ ذلك بأن سقوط النظام السياسي الموحد ، في كليهما ، رافقه تفكك ظاهري في المدنية . والذي تلا ذلك دل على انّ هاتين المدنيتين الأقليميتين كانتا أقوى وأقدر على التكّيف مما بدا عليهما لما نزل بهما الانهيار الأول . وبعد عودة الحياة إليهما عاشت المدنية السومرية الأكدية ٢٢٠٠ سنة بعد ذلك ، والمدنية المصرية الفرعونية استمرّت الزمن نفسه ، بل وأطول منه . وعلى كلّ ، فلما تمت لهما العودة الجديدة ، لم يكتب لهما أنْ تكونا المدنّيتين الوحيدتين الأقليميتين في الأويكومين . فقد ظهر غيرهما إلى جانبهما . وكان قد تم ظهور مدنية إقليمية جديدة في آسية الصغرى وقبرص ، بسبب التوسّع التجاري للمجتمع السومري الأكدي الى الجهة الشمالية الغربية . والمدنية الجديدة التي ظهرت معاصرة لها في كريت قد تكون تلقت الأيحاء لا من سومر وأكد فحسب ، بل من مصر أيضا .

والمدنية الجديدة في آسية الصغرى كانت تدور في فلك المدنية السومرية الأكدية بسبب أنها نقلت عنها عناصر هامة بما في ذلك الكتابة وبعض الآلهة . والكتابة التي نقلت لم تستعمل لكتابة اللغة الأكدية فحسب ، بل لتدوين اللّغات الوطنية كذلك . ومجمع الآلهة الوطني حافظ على كيانه إلى جانب الآلهة الأكدية المستوردة .

إن جزر البحر المتوسط والبرّ القارّي كانت قد استوطنت في العصر الحجريّ الحديث . وقد كان ثمة تفاوت في الزمن بالنسبة إلى استيطان الجزر . ولكن ما لبث الناس ان حذقوا الملاحة البحرية حتى أصبحت الجزر المشرقية أماكن ملائمة

للاستيطان . وعلى سبيل المثال فان مناجم النحاس في قبرص أصبحت عنصراً اقتصادياً هاماً لمصر وسومر ، كما كانت الغابات في جبال لبنان وأمانوس عنصراً هاماً في اقتصاد وادي دجلة والفرات الأدنى ووادي مصر الأدنى في الوقت الذي كانت فيه هذه المناطق تنتقل من العصر الحجري الحديث الى العصر الخلكوليثيّ ، ثم إلى العصر النحاسيّ والبرونزيّ . والمدنيات التي ظهرت في قبرص وكريت وجزر الأرخبيل خلال النصف الثاني من الألف الثالث ق. م . جاءها الإيحاء ، ولا ريب ، من سومر ومصر ، إلاّ أنّ الإصالة في مدنيات الجزر كانت تتناسب مع المسافة التي تفصلها عن المناطق التي جاءها منها الحافز . فبينما ترى أن دين آسية الصغرى القارية الحضاري لسومر وأكد واضح ، تجد أنّ دين المدنية الكريتية لسومر وأكد ولمصر أقل بروزاً من التميّز الذي يبدو في مظاهر تلك المدنية نفسها . وقد سمّى علماء الآثار المحدثون ، وهم العلماء الذين أخرجوا المدنيّة الكريتية الى النور ، هذه المدنيّة «المينويّة» ، وهم يشيرون بذلك الى الملك الكريتيّ الأسطوري مينوس ، ملك البحار . وقد خلقت المدنية المينوية فناً يتّسم بالطبيعية ، وهو فن لم يكن له نظيرٌ معاصر إلاّ في مدنية حوض السند ، وهي المنطقة البعيدة جغرافياً عن كريت . وعنيت المدنية المينوية أيضا باستثمار فنّ الملاحة البحريّة الذي كانت مدينة له بوجودها .

لقد كان السبج المادة الخام ، التي لا مثيل لها لصنع نصلٍ حاد ، وذلك في العصر السابق لاستعمال المعدن . والسبج مادة زجاجية ناتجة عن التفجر البركاني . والسبج نادر ندرة القصدير الذي لا غنى عنه لتحويل النحاس إلى برونز . وثمة مترسبات منه في جزيرة ميلوس ، القريبة من كل من كريت وجزر الأرخبيل . كما توجد ترسّبات منه أيضا في جزر ليباري البركانية ، الواقعة في البحر التّيراني ، في الجهة البعيدة من مضيق مسينا ، بالنسبة إلى الملاّحين القادمين من البحر الأيجي . وملاحو جزر الارخبيل الذين غلبهم على أمرهم منافسوهم ملاّحو البحر الأيجي بالنسبة إلى السيطرة على السبج الموجود في ميلوس ـ كانوا ، على ما يبدو ، الروّاد في ما يتعلق بأكتشاف السبج في جزر ليباري واستغلاله . وقد لحق الملاّحون المينويون جيرانهم ملاحي جزر الارخبيل الى المياه الغربية ، وهناك تاجروا على مقياس أوسع ، وكان لديهم سلع أكثر تنوعا . وهكذا فلم تدخل شواطىء بلاد اليونان فحسب ، بل دخلت شواطىء إيطالية الجنوبية الغربية وصقلية ايضا مجال المدنية المعروفة إلى ذلك الوقت ، مع أن كريت كانت لا تزال أبعد نقطة غربا حيث كانت مدنية اقليمية مزدهرة قائمة في ذلك الحين .

توجد الى الشرق من سومر ، حيث يوجد الغرين الذي رسبه دجلة والفرات ، ترسبات غـرينية أصغـر من تلك التي خلفتها أنهار كـارخاه وديـز وقارون . وهنـا ، في عيلام ، قامت مدنيّة يمكن ان تصنّف على أنّها تابعة للمدنية السومرية الأكدية ، أو انها حقيقة تقع في منطقة نفوذها . وقد أوجد العيلاميون ، كما أوجد المصريون من قبـل ، كتابة خاصة بهم ، وهي التي كانت تشبه الكتابة السومرية في بنائها لكنها كانت تتألف من أشكال اخترعت مستقلة ، وكانت ذات أسلوب مميّز لها . إلّا أنّ العيلاميين اخذوا أنفسهم ، خـلال النصف الثـاني من الألف الثـالث ق. م. ، بـاستعمـال الكتـابـة السومرية للغتهم ، على ما نحو ما فعل الأكديون في بادىء الأمر . ولما ضمت عيلام إلى إمبراطورية سومر وأكد ، بعد تأسيسها ثانية في أيام أسرة اور الثالثة ، نحو سنة ٢١١٣ ق. م. ، قبس العيلاميون حتى اللغة الاكدية ـ وكان هذا في المعامـلات التجاريـة كما كان في المعاملات السياسية . وكان العيلاميون ، في القرن الثالث عشر ق. م . ، قد استعادوا استقلالهم اللغوي ، لكنهم لم يعودوا الى استعمال كتابتهم الأصلية التي لم تكن سومرية أصلا .

والمـدنية العيـلامية ـ أو المنـطقة العيـلامية التي كـانت تقع في حيـز نفوذ المـدنية السومرية الأكدية ـ كانت على كل حال مجتمعاً صغيراً . ومع ذلك فانّ العيلاميين اعتدوا على العالم السومري ـ الأكدي سياسياً في الالف الثاني ق. م . واستطاعوا الحفاظ على شخصيتهم المميـزة المـدة الكـافيـة للتمكـين للغتهم ، التي ظلّت تستعمـل الكتـابـة السومرية ، كي تصبح واحدة من اللغات الرسمية في الامبراطورية الفارسية الأولى .

لم يكن ثمة دليل اثري ، حتى إلى قبل مدة قصيرة ، على وجود مـدنية تعـود الى الألف الثالث ق. م . في المنطقة الواقعـة بين عيـلام وحوض السنـد . أما الآن فثمـة مدينة ـ تعود في تاريخها الى الفترة الواقعة بين ٢٩٠٠ و١٩٠٠ ، على ما أظهرته التجارب العلمية ـ يعمل فيها المنقبون في شرهيسوختا وهو مكان في سجستان الأيرانية ، يقع تماما داخل إيران على الحدود الإيرانية الأفغانية ، التي كانت (الحدود) في وقت من الأوقات تتاخم أسفل مجرى نهر هلمند قبـل أن يغيّر مجراه إلى المجرى الحـاليّ . وكان السكـان يعـرفون الـزراعة وتـربيـة الحيـوان والتعـدين (النُحـاس) وصنـع الفخـار والحيـاكـة والصباغة . ويقرر المنقبون أن مدنية شرهيسوختـا كانت مستقلة عن المدنية السـومريـة الأكدية ، إلا أنه هناك دلالة على أنها كانت تتاجر مع سومر ، وأيضـا مع المنـاطق التي

تكـوّن اليوم أفغانستان وتركمنستان السوفيتية . وسنظل في ظلام حول هذه القضية إلى أن يتقدم التنقيب هناك وتنشر تقارير أوفى . فنحن لا نعرف أصول مدنية شرهيسوختا ولا خصائصها ، فيما إذا كان لها أيّ خصائص تميّزها .

وقد يلقى التنقيب في شرهيسوختا ضوءاً على ظهور المدنية الكبرى التي قامت في حوض السند في النصف الثاني للألف الثالث ق. م . وهو الوقت الذي تمثّلت فيه المدنية السومرية الأكدية المدنية العيلامية ، وقامت فيه مدنيـة في آسية الصغـرى كانت تدور في فلك المدنية السومرية الاكدية .

إنّ المنطقة التي كشفت فيها الآثار المادية للمدنية السندية تبلغ المسافة بينهـا وبين سـومر ، عبـر البّر ، ضعف المسـافة بـين هـذه الأخيـرة وبـين أي من مصـر أو آسيـة الصغرى ؛ فليس من المستغرب إذن أنه لم يقم بعد دليل على أن صانعي المدنية السندية استوحوا أي تأثير منبثق من سومر . ويبقى أصل المدنية السندية مبهما إلى أن تحل رموز كتابتها وتفسر هذه الكتابة .

على أن المدنية الاقليمية في حوض السند ، مثل مدنية مجرى النيل الأدنى ، تبدو وكأنها قد ظهرت فجأة وأنها ظهرت تامة النمو . وإذا كانت المدنية السومـرية قـد امتدّ شعاعها في اتجاه جنوبي شرقي ، بطريق البحر ، كما امتدَّ شمالا في غرب برا ، فلا يمكننا أن نستبعد إمكان ولادة المدنية السندية بحافز ثقافي من سومر ؛ إذا أخذنا في الاعتبار أن الطريق البحري من شمال الخليج العـربي الى دلتا السنـد هو أقـل من نصف المسافـة البحرية بين نقطة الابتداء نفسها وساحل البحر الأحمر في مصر العليا . يضاف الى ذلك أنّنا نعرف أن مدنية السند كان لها اتصال مع المدنية السومرية ، ولـو أنّ الأولى لم تتلق الايحاء اصلا من الثانية؛ ذلك بأن اختاما منقوش عليها كتابة سندية قد عثر عليها في سومر في طبقات آثارية أقدم من الأسرة السرجونية . وهذا دليل على أن المدنية السندية كانت قد أصبحت امراً قائماً في وقت مبكر يعود الى سنة ٢٥٠٠ ق. م .

نعرف من تاريخ وجود المدنية السندية في حـوض السند أن اللغـة التي تعبر عنهـا الكتابة التي لم تحل رموزها بعد ليست سنسكريتية اولية لأن المهاجين الذين حملوا هـذه اللغة الهندية ـ الأوروبية إلى شبه القارة الهندية لم يصلوا تلك المنطقة إلاّ بعد ما لا يقل عن الف سنة بعد سنة ٢٥٠٠ ق. م. لكننا لا نعرف فيما إذا كانت لغة نقوش المدنيـة

السندية هي واحدة من أسره اللغات الدرافيدية ، التي سبقت السنسكريتية الأولية ، أو أنها لغة من لغات الأسرة الأسترية ـ الآسيوية ، التي يبدو أنها وصلت شبه القارة قبل كل من اللغة السنسكريتية الأولية أو اللغة الدرافيدية .

وكتابة المدنية السندية لم تكن الصفة المميزة الوحيدة لهذه المدنية . إن الفن المنظور فيها كان طبعيا إذا قورن بالفن التقليدي في سومر وأكد أو في مصر ، على ما أظهرته منمنمات الفنّ السندي التي استخرجت من بين الأنقاض . وفن العمارة في المدنية الهندية ، سواء في ذلك ما هو عام منه وما هو بيتيّ ، يترك في النفس الانطباع أنه عمل مجتمع ذي عقلية نفعية . فالتمديدات المائية والمجاري والحمامات والأحواض في الموانىء ذات مستوى شبيه بمستوى ما كان في الأمبراطورية الرومانية ، بل في الواقع تكاد تصل المستوى الغربي الحديث . والزراعة المروية التي كانت أساس اقتصاد المدنية السندية لم تكن ، بطبيعة الحال ، خاصة بها ؛ كما ان معرفة تقنية الغزل والنسيج والصباغة او استعمال دولاب الخزاف لم تكن خاصة بها كذلك . وعلى كل فان شجيرة القطن ، التي كانت تزود سكان السند بالمادة اللازمة للمنسوجات الخفيفة ، قد يكون تدجينها تم على ايدي هؤلاء القوم بشكل مستقل . ولعلهم كانوا هم أيضا المدجنين الأصليين للبقر ذي السنام (الدرباني او الزبو) .

وثمة مظهر آخر يميّز المدنية السندية عن نظيرتها في حوض دجلة والفرات وحوض النيل الأدنى هو اتساع رقعتها الجغرافية . فالمدينتان السنديتان الرئيسيتان اللتان اكتشفتا حتى الآن هما موهنجودارو في السند وهربا في البنجاب ، والمسافة بينهما ٦٤٠ كيلومترا . وهذه المسافة لا تقلّ عن المسافة بين أسوان والقاهرة . ومجال المدنية السندية لم يقتصر على حوض السند بالذات . فقد امتدت الى بلوخستان شرقا وإلى غوجرات غربا ، أما في الشمال فقد شملت على الأقل المجاري العليا لحوض جومنا ـ غنجز . وأعمال التنقيب الأثري المستمرة ، في الاتجاه الشرقي ، تكشف لنا عن بقايا متزايدة للمدنية السندية . ولم نتمكن بعد من التأكد من حدودها الشرقية .

وهكذا بينما كان عدد المدنيات الاقليمية يتزايد ، كانت الزراعة وتربية الحيوان تنتشر في العالم القديم من الأويكومين من موطنهما الأصلي في جنوب غرب آسية ، إلى ما وراء حدود هذه المدنيات الأقليمية التي كانت قائمة في سنة ٢٥٠٠ ق. م . ولعلّ الزراعة كانت ، على أيّ حال ، معروفة في أميركا الوسطى في ذلك الوقت أيضا ؛ إلا

أنها ، على وجه التأكيد، لم تنتشر هناك من العالم القديم ، بل اخترعت في العالم الجديد بطريقة مستقلة . والتقديرات التي اعطيت لأقدم النماذج من الذرة التي وجدت في هذه المنطقة تتراوح بين النصف الأول من الألف الـرابع وسنـة ٢٥٠٠ ق. م . وإذا كانت عرانيس الذرة التي عثر عليها في ترسبات كهف كوكسكا تلان ، والتي يرجع تاريخها الى نحو سنة ٤٠٠٠ ق. م. ، على ما ذكـر قبلا ، هي بـريّة وليست مـدجنة ولـو قليلا ، فمعنى هذا انّ النبتة البرية التي ولدت منها الذرة المدجنة أصبحت معروفة . وعلى كل فان الجماعات القروية التي كانت تعتمد على الزراعة في سدّ حاجاتها لم تكن قد ظهرت سنة ٢٠٠٠ ق. م . في الاميركتين . بينما نجد انّ حضارة العصر الحجري مع ما كان عندها من نباتات وحيوانات مدجنة ، كـانت قد انتشـرت في العالم القـديم من جنوب غرب آسية غربا عبر الشواطىء القارية والجزرية في حوض البحر المتـوسّط الى المناطق الأفريقية والأوروبية الواقعة خلف البحر المتوسط . وقد كـانت طريقـة الحياة هـذه قد عمّت ، سنـة ٢٥٠٠ ق. م . ، غـربـا حتى الشـواطىء الشـرقيـة لشمـال المحيط الأطلسي ، بما في ذلك الجزر الواقعـة عبره وجنـوب أسوج ، التي كـانت ، في الواقـع واحدةً من هذه الجزر، إذ أنّ الوصول اليها لم يكن ممكناً إلّا عبر الماء المالح .

حافة شمال المحيط الأطلسي من العالم القديم في الأويكومـين يكاد بعـدها عن جنـوب غرب آسيـة يكون ضعف بعـد هذه المنـطقة الأخيـرة عن حوض السنـد ؛ اما الأجزاء الدنيا من حوض النهر الأصفر في الصين فبعدها عن جنوب آسية أكبر من بعد هذه المنطقـة عن حافـة شمال المحيط الأطلسي . وأقـدم حضارة من العصـر الحجري الحديث التي عثر على آثار لها في حوض النهر الأصفر هي حضـارة يانـغ ـ شاو . وقـد سميت كذلك نسبة الى قرية في هونان الحالية وهي القرية التي اعتبرت مـوقعا نمـوذجيا لتلك الحضارة . لكن يبدو أنّ هذه الحضارة قد بدأت قبل ذلك ، واستمرت وقتا أطول من ذلـك ، في ما يسمى اليـوم كانسـو ، وهي أقصى ولاية في شمـال غـرب الصـين الأصلية . والفخار الملون الخاص بهذه الحضارة وهو مظهرهـا المميز لهـا ، يشبه فخـار تريبولجي الملون من حضارة العصر الحجري الحديث التي كانت قد قـامت في اوكرانيـا الغربية ، قبل انقضاء الألف الثالث ق. م. وقد لا يكون هذا الشبه مجرّد مصادفة ؛ فقد يكـون دليلا عـلى اتصال تـاريخي . فكانسـو واوكرانيـا تقعان عـلى الطرفـين الأبعدين للسهوب الأوراسية ـ والسهوب ، كالبحر ، سبيل للتوصيل . فقد يكون رواد من أهل العصـر الحجري الحـديث وصلوا شطآن السهـوب الأوراسية الجنـوبية في منـطقة عبر

قزوين ، ولعلهم ساروا عبر السهوب شمالا في غرب إلى أوكرانيا ، وشمالا في شرق إلى كانسو في الوقت نفسه . وقد تكون حضارة العصر الحجريّ اليانغ شاوية قد قامت هناك ، أي في شمال غرب ما يسمى الصين الآن ، في النصف الثاني من الالف الثالث ق. م .

وهكذا فقد يكون التوصيل الذي تقوم به السهوب الأوراسية قد سهل انتشار الزراعة وتربية المواشي من جنوب غرب آسية الى الصين في العصر الحجري الحديث . وفي العصر الخلكوليثي الذي تلاه سهلت السهوب بلا ريب انتشار لغات الأسرة الهندية الأوروبية . واللغات الهندية الأوروبية التي قد تكون نشأت أصلا في شرق اوروبة ، على حافة السهوب الأوراسية ، كان انتشارها أوسع من انتشار اللغات السامية . فاللغات الهندية الاوروبية يتكلم بها اليوم من بنغال وسيبيريا الشرقية في أقصى الشرق وحتى شواطىء المحيط الهادي في الاميركتين في أقصى الغرب ، وكذلك في أسترالية ونيوزيلاندا ، وأيضا في إفريقية الجنوبية ، وإن كان المتكلمون بها هنا هم أقلية ضئيلة من السكان . وليس من المصادفة ان المتكلمين باللغات الهندية الأوروبية ، مثل الناطقين باللغات السامية ، خرجوا من السهوب أو عبرها في المرحلة الأولى من هجراتهم . فالتوصيل الموجود في السهوب كان القوة الدافعة الأولى لهذا الانتشار الواسع غير العادي للغات هاتين الأسرتين .

وأقدم القيود الوثائقية لأي من اللغات الهندية الأوروبية هي الوثائق الحثية . وقد كانت مملكة خطي (وهو الاسم العبريّ للحثيين) قائمة في شرق آسية الصغرى ، وكانت تدون وثائقها قبل نهاية القرن السابع عشر ق. م . ، بلغةِ حكامها الهندية الأوروبية ، وبكتابة مقتبسة عن الكتابة السومرية . ويقدر بأن اللغة الهندية الأوروبية ، التي كانت قد توطدت في خطي في ذلك الوقت ، ولغة لوفيان الهندية الأوروبية التي هي وثيقة الصلة بالأولى ، والتي وطدت نفسها في غرب آسية الصغرى ، قد حملها مهاجرون جاؤ وا في وقت مبكّر نحو سنة ٢٣٠٠ ق. م .

وثمة لغة هندية أوروبية أخرى ، هي اليونانية ، التي يقدر دخولها الى بلاد اليونان القارية نحو سنة ١٩٠٠ ق. م . وقد ظهر ، حول هذا الوقت نوع مميز من الفخار (وقد سمي خطأ الخزف المنياني) في بلاد اليونان القارية وفي منطقة طروادة . ونجد في بلاد اليونان دليلا على تدمير معاصر لذلك ، وقد كان قوياً بحيث أنه أدى الى نكسة في

الحضارة الأقليمية . وإذا نحن وضعنا هذه النتف من الدلائل الأثرية ، جنباً الى جنب ، فقد نرى في ذلك وصول مهاجمين برابرة الى بلاد اليونان . وإذا صح الدليل ، فمعنى ذلك أن هؤلاء المهاجمين هم الذين حملوا اللغة اليونانية معهم . ذلك بأنّ حل رموز الوثائق المدونة بالكتابة « المستقيمة ب » ، يدل على أن اللغة اليونانية كانت تستعمل في بلاد اليونان قبل أن تدهمها الموجة التالية من الهجمات البربرية ، التي لم تبدأ إلاّ نحو سنة ١٢٠٠ ق. م .

فاللغة اليونانية ولغة لوفيان ـ الحثية كلتاهما لغتان هنديتان اوروبيتان من الفئة المعروفة باسم « كنتم » ، اذ أنّ الصوت « ك » الأصلي فيها استمر بلفظه ، بدلاً من ان ينقلب ، في بعض حالات الكلام الصوتية الى صوت « س » ، كما حدث في فئة اللغات المعروفة باسم « ساتم» ، بسبب هذا الانحراف الجديد . واللغات من فئة « كِنْتُم » موجودة في أقصى طرفي العالم الناطق باللغات الهندية الأوروبية . فاللغات الهندية الأوروبية التي وطدت نفسها في أوروبا الغربية ـ الأيطالية والقلتية والتيوتونية ـ هي لغات « كنتمية » مثل اليونانية ومثل اللوفيان ـ الحثية ؛ إلا انّ لغة هندية اوروبية « كنتيمة » أخرى كان يتكلمها التوخاروي (الذين يسمون يوه ـ تشي باللغة الصينية) . وهذا الشعب ظل حتى القرن الثاني ق. م . ، يقطن مكاناً قصيًا إلى الشرق ، في جزء من السهوب الأوراسية الذي يجاور الآن الطرف الغربي لسور الصين الكبير .

ليس لدينا اي معلومات عن الجهة التي وصل منها هؤلاء المعتدون ، الذين حملوا معهم اللغتين الهنديتين الاوروبيتين ـ الحثية واللوفيانية ، إلى آسية الصغرى . يمكن أن يكونوا قد خرجوا من السهوب عند طرفها الغربي ووصلوا آسية الصغرى بطريق جنوب أوروبة ومن ثم عبر المضائق التي تصل البحر الأسود بالبحر الأيجي . هذا الطريق الغربي هو الطريق الأنسب ، ومن المؤكد ان اللغة اليونانية نقلت من السهوب إلى بلاد اليونان عبر طريق يسير إلى الغرب من البحر الأسود . وفي المقابل ، وهو ممكن ولو أنه أقل احتمالا ، قد يكون الناطقون بالحثية وباللوفانية ، اللغتين الهنديتين الأوروبيتين ، خرجوا من السهوب عند شاطئها الجنوبي ، حيث تقع تركمنستان اليوم ، ودخلوا آسية الصغرى من الشرق ، بعد ما اجتازوا شمال إيران .

وقد افترض ايضا أن الحثيين على أي حال ، إن لم يكن اللوفيانيون أيضا ، من الهنود الأوروبيين قد وصلوا من السهوب باجتيازهم سلسلة جبال القفقاس . هذا

الفرض هو غير واقعي ؛ فمع أنّ طريقاً ما عبر القفقاص قد يكون قصيراً نسبياً ، فأنّ القفقاس بالذات تكون حاجزا لا يقهر بالنسبة إلى شعب مهاجر . وقد نجحت الجيوش أحيانا في شق طريقها بالقوة بين الطرف الجنوبي الشرقي للقفقاس وبحر قزوين ؛ ومع ذلك فلم ينجح شعب هندي أوروربي في الاستقرار في القفقاس ، أو حتى عند أقـدام الجبـال ، باستثنـاء الآلان الذين أعـطوا اسمهم لممّـر داري آل عبـر منتصف السلسلة القفقاسية . وفي يوم الناس هذا يقطن جبال القفقاس كلّها باستمرار من شاطىء بحر قزوين الغربي الى الشاطىء الشرقي للبحر الأسود ، شعوب تنطق بلغات غير اللغـات الهندية الأوروبية . وهناك الآن شعوب تنطق بالتركية وأخرى تنطق بالهندية الأوروبيـة على جانبي سلسلة جبال القفقاس . لكن المنطقة القفقاسية ، التي يتكلم سكانها لغات غير التركية وغير الهندية الأوروبية ، لا تزال تعزل الشعوب الشمالية عن الجنوبية، أي الناطقة باللغة التركية والمتكلمة باللغة الهندية الاوروبية ، الواحد عن الآخر .

ما الذي دفع بالشعوب الهندية الأوروبية الى الانطلاق من السهوب الأوراسية في سلسلة من الهجرات التي أدّت في النهاية الى بذر لغات هذه الأسرة في أنحاء المعمور ؟ إنه من المهم أن اسية الصغرى هي المنطقة التي لنا فيها أقدم دليـل على استعمـال لغة هندية أوروبية ؛ إذ أن أقرب منطقة إلى السهوب الأوراسية التي كانت المدنية قد وطدت نفسها فيها ، قبل نهاية الألف الثالث ق. . م. ، هي آسية الصغرى. والجزء الأخير من ذلـك الألف بالـذات هو الـزمن الذي أخـذت فيه الشعـوب المتكلّمة بـاللغة الهـنديـة الأوروبية بالهجرة ، على ما هو مفترض . ويبدو كما لو أنّ حجر المغنطيس الذي جذبهم هو الثراء النسبي لمدنية مجاورة ، كان مجالها في متناول البرابرة لنهبه . لا شك في ان مدنية آسية الصغرى انتشر تأثيرها خارج حدودها بالذات ، وانّ البرابرة الذين بهـرهم بريق الحضـارة التي كانت اقـدر على الإنتـاج مما كـان عندهم ، انجـذبوا نحـو هذه الثمـرة الناضجة ، كما تنجذب الفراشة نحو لهيب الشمعة .

والقدر الذي تجلبه الفراشة على نفسها هو تشبيه موفّق للنقمة التي تحلّ بالبرابـرة الـذين يهاجـون المجتمعات الثـرية التي لا تملك القـوة الحربيـة لصد اعتـداء جيرانهم البرابرة . فطمع البرابرة المهاجين هو بحد ذاته يهدم نفسـه . ذلك بـأن المعتدين إذا لم تقض عليهم هجمة معاكسة ، كما قضي على الغوتيان الذين فتحوا سومر وأكد ، فأنهم يستمرون في الحيـاة كي يشاركوا الذين هزموهم الفاقة التي أوقعوها بالمهزومين . ومن

سخرية القدر أن هذه كانت النتيجة التي تلت فتح البرابرة لبلاد اليونان ، وهم الذين يحتمل ان يكونوا قد ادخلوا اليها اللغة اليونانية نحو سنة ١٩٠٠ ق. م .

١١ - أويكومين العالم القديم
نحـو ٢١٤٠ - ١٧٣٠ ق.م .

كان البرابرة الغوتيـان الذين هـاجموا سـومر وأكـد قد تغلبـوا على السـرجونيـين الأكديين وحلوا محلهم . وقد كان من المنتظر ان يكون قادة الثورة الوطنية ، التي أفنت الغوتيان أو طردتهم ، بعد ما يزيد عن القرن قليلا من السيطرة الغوتيانية (نحو ٢٢٣٠ - ٢١٢٠ ق. م.) ، من الأكديين الذين كانوا ضحية الغوتيان . لكن في الواقع فإن محرر أكد ، وسومر كذلك ، لم يكن أكديا بل سومرياً . لقد كـان أوتوكيغـال حاكم اوروك (الورقاء حكم نحو ٢١٢٠ - ٢١١٣ ق. م.) . لكن لم يجن لا أوتوكيغال ولا مدينته - الدولة ثمرة انتصاره ، إذ انّ الصولجان انتقل الى مدينة - دولة سومرية أخرى هي أور. فأمبراطورية سومر وأكد التي انشأها الفاتـح السومـري لوغـالزغيـري ، والتي كان قـد انتزعها من يد لوغالزغيري سرجون الأكدي ملك أغاد ، أعاد بناءها الآن سومريّ آخر هو أور - نامو ملك اور (حكم نحو ٢١١٣ - ٢٠٩٦) .

ومن حيث ان سومر كانت مهد المدنية السومرية الأكدية وليس أكد، فقد كان من المنتظر أن تكون إمبراطورية سومرية أكدية ، تتمركز حول مدينة - دولة سومرية ، أقوى أسساً من الامبراطورية الأكدية شبه البربرية التي حكمها السرجونيون . والواقع هو أنّ الامبراطورية السومرية الأكـدية التي أعـاد بناءهـا أور - نامـو ، وأسرة أور الثـالثة التي أسّسها بنفسه ، دامت ما يزيد عن القرن قليلا (نحو ٢١١٣ - ٢٠٠٦) ؛ وفي خـلال هذه الفترة من السيطرة السياسية السومريّة ، تمكنت أكد من بسط لغتها على سومـر . وأصبحت سومر ثنائية اللغة اولا ، ثم صارت تتكلم اللغة الأكدية بلا استثناء ؛ ومع أنّ اللغة السومرية لم يسدل عليها ستار النسيان نهائيا في العالم السومري الأكـدي إلاّ حين سقوط أشور وتدميرها في ٦١٢ - ٦٠٩ ق. م . ، فقد ظلت لغة كلاسيكيـة ، فقط ، من حيث أنها كانت الأداة التي حفظت المعرفة التقليدية للمدنية السومرية الأكدية .

وقد قضى على أسرة أور الثالثة ثورة قام بها اتباعها العيلاميون . فقد نهبوا مدينة

أور ـ وهي نكبة لم تقم لأور بعدها قائمة ـ وتوزع الأمبراطورية فيما بينها عدد من الدول الخليفة المحلية المتنازعة . ولم تستعد عيلام استقلالها فحسب ، بل فُرضت أسرة عيلامية على لارسا (سنكرة) المدينة ـ الدولة السومرية . وقد اتخذت المدينة ـ الدولة السومرية إيسين (بحريات) لقب إمبراطورية سومر وأكد ، دون أن تتمكن من إعادة بناء الإمبراطورية واقعيا . والمدن ـ الدول المحلية الأخرى التي خلفت إمبراطورية أسرة أور الثالثة الزائلة كانت أشنونا (الواقعة شرقي دجلة ، في شمال غربي عيلام) وأشور (على شاطىء دجلة ، شمال أشنونا) وبابل (على شاطىء الفرات في أكد) وماري (تل الحريري على شاطىء الفرات في مجراه الأوسط شمال شرقي بابل) وكركميش (جرابلس على شاطىء انحناءة الفرات الغربية) ويمخد (حلب) وقطنا (الواقعة جنوبي حلب في وادي العاصي) . وكل هذه الدول الخليفة لإمبراطورية أسرة أور الثالثة ، باستثناء قطنا ويمخد وعيلام ، أعاد اليها وحدتها حمورابي ملك بابل (حكم من ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠) ، اذ قام بتسع حملات سنوية متوالية شنها ضدها بين السنة الثلاثين والسنة الثامنة والثلاثين من حكمه . ولكنّ إعادة البناء الثانية هذه كانت أسرع إلى الزوال من إعادة البناء الأولى التي تمت على يد أور ـ نامو السومريّ .

كان مصدر الخطر على إمبراطورية حمورابي ، على نحو ما كانت عليه الحال في إمبراطورية نارام سن قبل ذلك بنحو خمسة قرون ، سكان الجبال في غوتيوم . وقد جرّب حمورابي تفادي هذا الخطر القائم في غوتيوم ، كما جربه نارام سِن من قبل ، بالمبادرة بالهجوم ؛ وقد كانت هذه الخطة ، للمرّة الثانية ، لا نفع فيها . إذ لم تمض سوى عشر سنوات على إتمام حمورابي لفتوحه ، وفي السنة الثامنة من حكم خليفته المباشر سمسو ـ ألونا (أي في سنة ١٧٤٣ ق. م.) انقض البرابرة الكاشيون من غوتيوم وقاموا بأوّل اعتداء لهم على بابل ، وهو الاعتداء الذي وصلتنا أخباره مدوّنة (يبدو أنهم أرخوا قيام الحكم البابلي نحو سنة ١٧٣٢ ق. م.) . وخلال حكم سمسو ـ ألونا انفصلت أشور وماري وكركميش وحتى البلاد البحرية في المستنقعات الواقعة على رأس الخليج العربي ـ عن بابل . وفي سنة ١٥٩٥ ق. م . جاء دور بابل لتشرب الكأس التي شربتها أور : فقد نهبها المهاجمون ، الذين لم يكونوا هذه المرة عيلاميّين ، بل كانوا من الحثيين يقودهم الملك مورشيليش الأول. لقد جاء الحثيون وذهبوا؛ لكن الكاشيين هم الذين جنوا الثمر . قضى الحثيون على أسرة بابل الأولى ، ولكن الكاشيين احتلوا بابل ووحدوا كل سومر وأكد ، باستثناء الأرض البحرية ، تحت سلطة بربرية دامت حتى نحو سنة

١١٦٩ ، اي ما يكاد يســاوي أربعة أضعاف الزمن الذي عاشته سلطة الغوتيان البرابرة الذين جاؤ وا البلاد في أعقاب الحكم السرجوني .

وهكذا فقد كان توحيد امبراطورية سومر وأكّد السرجونية سياسياً للمـرة الثانيـة جهيضا. ففي فترة تمتدّ ٣٧٠ سنة (٢١١٣ - ١٧٤٣ ق. م.) كان ثمة وحدة فعالة لمدة ١٣٠ سنة فقط ، مقابل ٢٤٠ سنة من الخلاف والنزاع والفوضى السياسية . على أنه في هذه الفترة التي إمتدت عبر ٣٧٠ سنة حصل تطوران ، في غير الميدان السياسي ، وسارا بنجاح حثيث . كان احد هذين انتشار اللغة الاكدية . فهذه اللغة لم تأسر السومريّـين فحسب ، بل تعدتهم الى العموريين الذين كانوا قد انساحوا في أكّد ، في الوقت ذاتـه الذي جاء فيه الغوتيان ، وانشأوا الأسرة البابلية الأولى نحو سنة ١٨٩٤ ق. م . (وقد انتقل العموريون ولا ريب بيسرٍ إلى التكلم بالأكدية لأن لغتهم الأصلية كـانت ساميـة مثل الأكدية) . والتطور الثاني كان التوسع الأشوري التجاري شمالا في غرب . وقد أظهرت القيود التي تعود الى مستوطنـة أشوريـة كانت تقـوم خارج أسـوار دولة كـانش الوطنية ، في شرق آسية الصغرى ، مدى النشاط الذي كانت تتمتع به هذه التجارة في القرنين العشرين والتاسع عشر ق. م . وقبيل انقضاء هذه الفترة كان التّجار الأشوريون قد وسعوا نشاطهم بحيث وصلوا الى مدينة خطوشاش (بوغازكاله) .

أمـا في مصر فقـد أختلفت النتيجة التي نشـأت عن سقوط المملكـة القديمـة عن ذلك . فلم يكن في مصر فتح أو احتلال بربريّ أخذ البلاد بأجمعها . كان هناك ثـورة اجتماعية أهليـة ، وترتب عـلى ذلك أن المملكـة القديمـة انهارت وتقسمتها حكـومات محلية . وقد حالت هذه الفـوضى دون الاستمرار في تنـظيم مياه النيـل لمصلحة مصـر بأجمعها ؛ ولما كانت حياة الناس في مصر ، بل بقاؤ هم ، تعتمد أصلا على الحصول على الماء للريّ ، فقد اقتتلت الجماعات المحلية في ما بينها للأشراف على الماء ، كما حصل فعلا في سومر قبل أن يفرض لوغالزغيري وخلفاؤ ه السـرجونيـون وحدة سيـاسية عـلى سومر وأكد .

ولم تكن هذه الحالة مما يمكن تحمله سواء في مصر أو في سومر . وفي وقت مبكـر يعود الى نحو سنة ٢١٦٠ ق. م . كانت قد قامت محاولة لإعادة بناء المملكــة الفرعونية المتحدة وذلك على يد أسرة جديدة كان مركزها هيراكليوبوليس ، وهي مـدينة تقـع في الجزء الشمالي من مصر العليا إلى الجنوب من ممفيس ، عاصمة المملكة القديمة . وقـد

أثبت الحكم الهيراكليوبوليسي عجزه ، لكن الحاجة الملحة لإعادة مصر إلى وحدتها تم على يد الأسرة الحادية عشرة (نحو ٢١١٣ ـ ١٩٩١) التي كانت طيبة (اوبت) مستقرها الأصلي . وطيبة هذه كانت في جنوب مصر العليا ، ومع ذلك فلم تكن بعيدة عن المدينة التوأم نِخِن ـ نِخِب ، التي انجبت الموحدين الأوائل لمصر . والبلد الذي يعتمد على الإشراف على الماء في سبيل حصول السكان على الحد الأدنى من الحاجات ، يمكن لقوة تتمركز في أعلى النهر أن تتفوّق على منافساتها في المجرى الأدنى للنهر . فليس من المستغرب ان يتغلّب الطيبيون على سكان هيراكليوبوليس . والرجل الطيبي الذي وحد مصر كان منتوحوتب الثاني (نحو ٢٠٦٠ ـ ٢٠١٠ ق. م .) . وقد حقّق هدفه في توحيد البلاد نحو سنة ٢٠٤٠ ؛ ودامت المملكة المتوسطة التي أنشأها نحو ثلاثة قرون تقريباً .

وهذه الفترة كانت ثلاثة اضعاف الفترة الزمنية لإمبراطورية سومر وأكد التي أعادها نارام ـ سن الى الوجود ، لكنها بلغت فقط ثلث الفترة الزمنية التي عاشتها مملكة مصر القديمة ؛ ومع أن الحياة في أيام المملكة المتوسطة كانت نسبيا حياة أمن وازدهار ، إذا ما قورنت بما كانت عليه الأحوال في « الفترة المعترضة » الأولى في تاريخ مصر (نحو ٢١٨١ ـ ٢٠٤٠ ق. م .) ، فإن فراعنة المملكة المتوسطة كانوا في جهاد مستمر لتثبيت سلطانهم . ويبدو أن أمنمحات الأول (١٩٩١ ـ ١٩٦٢) ، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، كان وزيراً قبل أن يصبح فرعونا ، كما يبدو وكأنه قد مات اغتيالاً . هذا ما يقرأ بين السطور في الوصية المزعوم أنه تركها لخليفته سيزوستريس (سنوسرات) الأول (١٩٧١ ـ ١٩٢٨ ق. م .) .

كان على فراعنة المملكة الوسطى ان يضعوا حدّا لسلطة الأمراء المحليين ، وقد كانت هذه مهمة بطيئة وعسيرة . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الفراعنة ، على عكس أسلافهم في عصر المملكة القديمة ، وسّعوا إمبراطوريتهم في اتجاهين : أولهما صعودا مع وادي النيل إلى النوبة ما وراء الشلال الأول ؛ والثاني في اتّجاه شمالي شرقي إلى فلسطين، بل لعلهم وصلوا حتى دمشق شمالا . وثمة دليل على وجود تأثير مصري من عهد المملكة المتوسطة حتى في شمال سورية : في اوغاريت (رأس الشمرا) على الساحل وفي الألخ في الداخل . ولسنا ندري فيما إذا كان توسع المملكة المتوسطة في آسية لقي أي مقاومة ، ولكننا نعرف أن توسعها في النوبة قابله شيء من ذاك . والآثار

الخاصة بالأسرة الثانية عشرة ليست أهراما ولا هياكل ، وإنما هي حصون . وقد شاد سيزوستريس (سنوسرات) الثالث (حكم ١٨٧٨ ـ ١٨٤٣ق. م.) ثمانية حصون منيعة بين وادي حلفا ، تحت الشلال الثاني ، وسمنه ، فوقه ؛ وهي ، مثل اهرام الاسرة الرابعة ، آية في فن المعمار ، لكنها صممت من أجل غاية مختلفة . فالهرم كان يبنى ليضمن للفرعون الخلود بعد الموت ، أما حصون سيزوستريس الثالث فقد اقيمت لتضمن له السيطرة ، في حياته ، على أرض استولى عليها بصعوبة .

كان حكم منتوحوتب الثاني ، موحد مصر ، معاصرا للنصف الثاني من الفترة الزمنية لأسرة اور الثالثة (نحو ٢١١٣ ـ ٢٠٠٦ ق. م.) . والمحفوظات التي كشف عنها التنقيب في ماري (تل الحريري) تمتد لفترة اثنتين وخمسين سنة ، ١٨١٧ ـ ١٧٦٥ ق. م . ، وخلال هذه الفترة كانت ماري على اتصال بكل الدول المحلية في العالم السومري الاكدي ، بما في ذلك ما كان منها غربي الفرات . ومع ذلك ليس في المحفوظات أي قيد يدل على وجود المصريين في سورية ، وبالمقابل ليس في قيود مملكة مصر المتوسطة أي إشارة إلى إحياء امبراطورية سومر وأكد الذي تم على يدي أور ـ نامو أو على يد حمورابي بعد ذلك . صحيح أنّ الأسرة الثانية عشرة ، التي بلغت مملكة مصر المتوسطة القمة في عهدها ، لم تعتل العرش إلاّ بعد سقوط أور بخمس عشرة سنة ، وانتهى أمرها بعد أربع سنوات فقط من تولي حمورابي ، وقبل خمس وعشرين سنة من تاريخ الحملة الأولى من الحملات السنوية التسع التي قادها حمورابي والتي أدّت الى إعادة بناء إمبراطورية أور ـ نامو . ومع ذلك فإنه أمر يدعو إلى العجب أن كلا من هذين العالمين ظل يتجاهل واحدهما الآخر في الوقت الذي كانا فيه قريبين جداً واحدهما من الآخر .

والمرجح أن المدنيّة السنديّة كانت خلال هذه القرون الثلاثة ، من نحو ٢١٤٠ ـ ١٧٣٠ ق. م . ، لا تزال قائمة ، وأنّ المدنية المينويّة في كريت كانت مزدهرة . لقد أشرنا من قبل إلى أنّ الإشارة الوحيدة ، التي نملك حتى الآن ، حول زمنيّة المدنيّة السنديّة هي الكشف عن أختام منقوش عليها بالكتابة السنديّة ، والتي عُثِرَ عليها في طبقات موثّق تاريخها من البقايا المادّيّة من المدنيّة السومرية الأكدية . وأقدم هذه الطبقات التي تحتوي على أختام سندية هي من زمن ما قبل السرجونيين ، لكن النهاية الزمنية لوجود هذه الاختام السندية في سومر وأكد ليس مؤكدا . والدليل الأثري الذي حصلنا

عليه من مراكز المدنية السندية نفسها يشير إلى أن هذه المدنية كانت نهايتها مفاجئة ومدمرة .

واذا كان الامر كذلك فمن الجائز ان يكون القوم الذين دمروها هم أنفسهم البرابرة الذين حملوا إلى الهند اللغة الهندية الأوروبية ، وهي اللغة التي دونت بها الآداب الفيدية ، وهي اللغة التي عرفت في ما بعد باسم السنسكريتية بعد إحيائها لتصبح لغة كلاسيكية. وقد كانت اللغة الدرافيدية واللغة الأوسترية ـ الأسيوية شائعتين في شبه القارة الهندية في الوقت الذي سبق هجوم القوم الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية ، والذين جاؤوا البلاد من الشمال الغربي . وثمة لغة كانت شائعة في بعض اجزاء بلوخستان في القرن الحالي تسمى براهوي ، وهي لغة من العائلة الدرافيدية . اما تاريخ وصول اللغة السنسكريتية الأولى الى الهند فليس مؤكداً شأنه في ذلك شأن التاريخ الذي دمرت فيه المدنية السندية . ويدو أن الكاشيين ، الذين انقضوا على بابل من الهضبة الإيرانية في القرن الثامن عشر ق. م. كان بينهم فئة كانت تستعمل اللغة السنسكريتية الأولى ، إذا اعتبرنا وجود سورياش ، إله الشمس الفيدي ، في مجمع الآلهة الكاشي أساسا لذلك . وقد كان هناك آلهة فيدية في مجمع مملكة ميتاني في ميزوبوتاميا (الجزيرة) في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ؛ لكن هذه الآثار التي خلفها المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية في بلاد بابل وفي الجزيرة في تلك الأزمنة لا تدلنا على الزمن الذي خرب فيه أقاربهم المدنية السندية .

وبلغت المدنية المينوية في كريت غاية ازدهارها في الربع الأول من الألف الثاني ق. م . ففي المدة من نحو ٢٠٠٠ ـ ١٧٠٠ ق. م. بنيت القصور الأولى: كنوسوس وفايستوس واياتريادة ومليا وبلاكاسترو ولم تكن هذه القصور محصنة ؛ وقد يستدل من ذلك أن هذه لم تكن عواصم لهذا العدد من الدول المستقلة المحلية ذات السيادة . وقد يستدل أيضا على أنه في هذا العصر أحس الكريتيون بأنهم في مأمن من هجوم بحري . ومع ذلك فهذه المجموعة الأولى من القصور المينوية دمرت بين نحو سنة ١٧٥٠ و١٧٠٠ ق. م . وليس ثمة دليل مؤكد على أن هذا التدمير الكلي كان من صنع الإنسان ؛ فقد يكون سببه زلزالا . إلا أن المصادفة في أن يقع هذا في وقت قريب من زمن الهجوم الكاشي على بابل ، ومن وقت هجوم الهكسوس على مصر قد تحملنا على القول بأن تدمير القصور الكريتية قد يكون فعل اعداء هاجموا البلاد يومها .

في الربع الأول من الألف الثاني ق. م . كانت مرحلة يانـغ ـ شاو من حضـارة العصر الحجري الحديث الأقليمية قـد خلفتها مـرحلة لونـغ ـ شان . ولم يكن هـذا في أسلوب الفخـار فقط من حيث استبدال الخـزف الأسود بـالخزف الملون . إن شعـوب لونغ ـ شان كان عندها من الحيوانات المدجنة تنوع أكبر ، وكانت على الأقل واحدة من مستوطناتهم مدينة تدور بها أسوار من التراب الممهد . على أن حضارة العصر الحجري الحديث الأرقى التي عرفت في آسية الشرقية لم تكن قد وصلت بعد إلى مدنية من النوع ذاته الذي كان معروفا الى الغرب من تلك المنطقة ، في حـوض السند وحـوض البحر الإيجي وما بينهما .

١٢ ـ تدجين الحصان ونشوء البداوة الرعوية في السهوب الأوراسية

لقد بدأ البرابرة الكاشيون انحدارهم الأول من الطرف الغربي للهضبة الإيرانية نحو بلاد بابل سنة ١٧٤٣ ق. م ، . واستمروا في الاعتداء حتى احتلوا مدينة بابل ، التي كان الحثيون الناطقون بلغة هندية أوروبية قد نهبوها سنة ١٥٩٥ ق. م . ويبدو أنّ المملكة المتوسطة المصرية قد لاقت نهايتها على طريقة مماثلة نتجت عن اعتداء تدريجي قام به البرابرة المعروفون باسم الهكسوس الذين انساحوا في الزاوية الشمالية الشرقية لدلتا النيل نحو سنة ١٧٣٠ او ١٧٢٠ ق. م . وانتهى بهم الأمر إلى احتلال ممفيس في سنة ١٦٧٤ ق. م . ؛ وبذلك قضوا على الأسرة الثالثة عشرة . وإذا نحن نظرنا إلى الأسماء الشخصية التي اتخذها الهكسوس ، بدا لنا أنّ الهكسوس كانوا يستعملون لغة سامية ؛ واذا كانت لغتهم الأصلية لغة سامية غريبة فمعنى هذا أنهم لم يكونوا من أقارب الكاشيين . إلا أن معاصرة هجوم الهكسوس على مصر والهجوم الكاشي على بلاد بابل والتخريب التام لمجموعة من الهياكل الأولى في كريت ، كل هذا يحملنا على القول بأن هذه التحركات قد تكون كلها نتيجة ضغط جاء من الخلف بالنسبة إلى هذه الجماعات .

فمن المؤكد أن التحرك الهكسوسي نحو مصر جاء بسبب تحركات مكثفة من الحوريين الذين جاؤ وا حديثاً من مرتفعات تركية الشرقية ، الى الجزيرة وبلاد الشام . إلا أنه ، كما ذكر قبلا ، ثمة دليل لغوي يحملنا على القول بأن المهاجمين الذين انشأوا مملكة ميتاني في الجزيرة في القرن الثامن عشر ق. م ، ومثلهم الكاشيين الذين فرضوا سلطانهم على بلاد بابل في الوقت نفسه ـ كان بين هاتين الجماعتين من المهاجمين فئات ممن يتكلمون اللغة السنسكريتية . هذا الدليل اللغوي يحملنا على القول بأنه ، اضافة الى الضغوط المحلية ، كان هناك عامل أساسي أدى الى هذه التحركات . وقد يكون هذا تفجرا سكانيا بين شعب كان يتكلم اللغة السنسكريتية الأولية بدأ من المنطقة الخلفية لجنوب غرب آسية .

وهذه المنطقة الخلفية هي السهوب الأوراسية . فهي التي يمكن الوصول اليها من المكان الذي يحتمل ان تكون اللغات الهندية الأوروبية قد نشأت فيه أصلا ، أي مكان ما في شرق اوروبة ، فيما تجاوز شطآنه الجنوبية جنوب غرب آسية في تركمنستان . وإذا كانت السهوب قد خبرت تفجرا سكانيا ، فلعل هذا جاء في أعقاب تدجين الحصان ، الأمر الذي مهد الطريق للبداوة الرعوية . لقد عثر في طروادة على عظام الخيل في أسفل طبقة من المدينة (طروادة) السادسة ، والتي يرجع تاريخها الى نحو سنة ١٨٠٠ ق. م . ومن الناحية الأخرى لم يكن السومريون الأكديون في عصر أسرة بابل الأولى ، ولا المصريون في عصر المملكة المتوسطة ، يملكون الخيول . ويدل هذا على أن الحصان قد دجن في السهوب الأوراسية قبل سنة ١٨٠٠ ق. م . بوقت قصير . كما يدل على أن اختراع آلة حربية جديدة ـ العربة التي تجرها الخيول ـ ونشرها ، يفسر عنف الهجمات على سومر وأكد وعلى مصر في القرن الثامن عشر ق.م. ، كما يوضح سر نجاح المهاجمين .

والبداوة الرعوية ، مثل الحياة المدنية ، هي أسلوب في الحياة غير زراعي ، إلا أنه طفيلي يعيش على الزراعة ، وما كان له أن يوجد إلا على مقربة من السكان الزراعيين وبالمشاركة معهم ، إذ أن هؤلاء السكان ينتجون فائضا من الطعام يزيد عن حاجاتهم الضرورية . وسكان المدن يبتاعون الطعام من العاملين في الزراعة مقابل مصنوعاتهم وخدماتهم . والبدو الرعاة هم بحاجة الى شراء منتوج الجماعات المستقرة مقابل الحيوانات والجلود . ومع أن البدو الرعاة أنفسهم قد تخلوا عن الزراعة ، فإن أسلوب حياتهم الجديد كان ممكنا فقط في تكامل مع جيران كانوا قد استمروا في العمل الزراعي . فاذا انتظم هذا الأمر عندها تكون البداوة الرعوية أكثر الطرق إنتاجا لاستغلال المراعي الجافة دون إتلافها . وقد تعطي زراعة هذا النوع من الأراضي مردودا أكبر في المدى القصير ؛ لكن في هذه الحالة يكون منتوج كلّ سنة أمرا فيه الكثير من الشك ؛ وجزاء الاقدام على حرث الأرض واقتلاع العشب تحويل المراعي الى صحراء . والبديل لهذا هو استعمال المراعي للصيد والقنص ، كما كان سكان أميركا الأصليون يصنعون في مراعي أميركا الشمالية الى القرن التاسع عشر ، لما جاءها المستوطنون من أوروبة فقضوا على الثور الأميركي (بيسون) واستبدلوه « بمملكة الأبقار » القصيرة العمر . فالبداوة الرعوية هي أربح الوسائل البشرية التي يمكن استخدامها في المراعي لاستغلال الطبيعة دون أن يؤدي ذلك إلى العقم .

ويتحتم على البدوي الراعي ، إذا أراد للمراعي الجافة أن تعيل أكبر عدد من الحيوانات ، ان ينتقل بها من أرض معشوشبة الى أخرى في مجال ذي مواسم منتظمة . ولن يتمكن من تسيير قطعانه ومواشيه في تنقلاتها المتعددة دون الاستعانة بالأعوان من غير البشر مثل الخيل والجمال . وإذا كان لا بد من التخطيط للتنقل بعناية وتنفيذه بدقة ، تجنبا لما قد يحل به من مصائب ، توجب على الراعي البدوي ان يكون هو وأعوانه من الحيوان ومواشيه خاضعاً لنظام شديد . ففن السوقيات في التنقل عند الجماعة البدوية الرعوية يشبه الفن اللازم في العمليات العسكرية ، وبالنتيجة فان البداوة الرعوية تؤدي بالذين يمارسونها بشكل ذاتي إلى شن الحروب المتحركة ، ولو أنهم في العادة يقومون بالدورة السنوية دون أن يصطدموا لا بأقوام بدوية أخرى ، ولا بجيرانهم البدو المستقرين وشركائهم في التجارة .

وقد مكن تدجين الحصان للانسان أن يحصل على عون غير بشري هو الذي فتح للبداوة الرعوية المجال لتصبح عملية ؛ لكن الحصان الأصلي الذي دجن كان حيوانا ضعيفاً. فلم يكن يستطيع حمل رجل، وكانت اربعة من الخيول لازمة لجر عربة ذات دولابين مصنوعة من أخف المواد . وقد مر ألف من السنين من إنجاب الخيل حتى أمكن إنتاج حصان يستطيع أن يحمل حتى الفارس الخفيف السلاح . ومرت بضعة قرون أخرى حتى أنتج الحصان الكبير ، الذي ينقل أسلحة ويحمل فارسا مدجّجاً بالسلاح من الرأس إلى القدم . على أن البدوي الراعي كان ، من أول الأمر ، يثير الرعب عسكريا في المرات القليلة التي كان يخرج فيها من السهوب التي هي موطنه العادي . ولعل الهجمات التي ذاقت بلاد بابل ومصر وبلاتها ، وقد يكون نال كريت من ذلك نصيب أيضا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق. م . انما هي آثار غير مباشرة للتفجر البدوي الذي عقبته سلسلة من التفجرات ، التي استمرت في السهوب الأوراسية حتى القرن الثامن عشر للميلاد ، وفي السهوب العربية الشمالية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى .

يبدو أن الذين صنعوا البداوة الرعوية في السهوب الأوراسية كانوا هم المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية ، وهم الذين تركوا ، فيما وراء الحدود الجنوبية للسهوب أثارا مؤقتة في بلاد بابل وفي الجزيرة ، كما تركوا أثارا باقية في الهند . على أن البداوة الرعوية لم تكد أن تصنع حتى انتهى احتكار شعب واحد لها . فالسهوب الأوراسية استطوتنتها على توالي الأيام شعوب تتكلم اللغة السنسكريتية الأولية والإيرانية والتركية والمغولية والفنية

(لغة المجريين) . ولما دجن الجمـل ذو السنـام الواحد في السهوب العربية قبل انتهاء الألف الثاني ق. م . ، ولما تأقلم الحصان هناك قبل بدء التاريخ الميلادي ، اتّسع مجال البداوة الرعوية فشمل بلاد العرب ، ومن بلاد العرب انتقلت البداوة الرعوية إلى شمال افريقية . وقد صنع البدو الرعاة التاريخ منذ القرن الثامن عشـر ق. م . حتى زمن لا يزال الكثيرون من الاحياء يذكرونه .

١٣ ـ العلاقات بين المدنيات الأقليمية
نحو ١٧٣٠ ـ ١٢٥٠ ق. م.

خمّنا في الفصل السابق أن تدجين الحصان مهد الطريق لاصطناع أسلوب البداوة الرعوية في الحياة في زمن مبكر في الألف الثاني ق. م ، وأن تدفقا من البدو الأوراسيين المتكلمين بالسنسكريتية الأولية وجد طريقه الى جنوب غرب آسية في القرن الثامن عشر ق. م . واذا كان مثل هذا التدفق قد حدث فقد كان قصير الأمد . وقد ترك هؤلاء البدو الأوراسيون أثرا ضئيلا في السكان المستقرين الذين وصل هؤلاء المهاجون الى مواطنهم . ومن ناحية أخرى ، إذا كان هذا التدفق البدوي هو القوة التي دفعت بالحوريين إلى الجزيرة وبلاد الشام ، والهكسوس الى مصر ، فان الأثر غير المباشر لهذا التدفق البدوي على العلاقات بين المدنيات الاقليمية كان هائلا . ذلك ان انسياح الشعوب هذا حمل المدنيات الاقليمية في المشرق على إقامة علاقات في ما بينها . وقد كانت هذ العلاقات فعالة وجوهرية على مقياس لم يسبق له مثيل .

المدنية السومرية ، وهي أولى النماذج للأنواع الأقليمية ، لم تتفرد ببقائها النموذج الوحيد مدة طويلة . فالمدنية الفرعونية كانت قد ظهرت في مصر عند منقلب الألف الرابع إلى الألف الثالث ق. م ، وظهرت كذلك مدنيات إقليمية أخرى في النصف الثاني من الألف الثالث في آسية الصغرى وكريت وحوض السند . ومع ذلك فان الحالة الوحيدة التي قامت فيها صلات وثيقة بين مدنيتين إقليميتين حتى القرن الثامن عشر ق. م . كانت تتمثل في الدَيْن الحضاري للمدنية السومرية الأكدية على المدنية التي قامت في آسية الصغرى .

وقد كانت مدنية آسية الصغرى ، في الواقع ، تدور في فلك المدنية السومرية الأكدية ، لكن هذه الدرجة من التبعية كانت أمراً استثنائياً . والتأثير السومري على مصر في فجر المدنية المصرية كان حافزاً ، وهو الذي قد يفسر جزئيا قيام المدنية المصرية بشكل يبدو وكأنه كان فجائيا . وقد كان التأثير السومري هنا قصير الأجل . وخلال القرون

الأثني عشر أو الثلاثة عشر الأولى من تاريخ المدنية الفرعونيـة كانت هـذه المدنيـة تشق طريقها الخاص بها ، وتطورت في خطوط متميزة خاصة بها .

وقد أشرنا إلى أن كلا من المدنيتين الفرعونية والسومرية الأكدية تبـدو وكأنها قـد تجـاهلت وجود الأخـرى ، حتى في الربـع الأول من الألف الثالث ق. م حينـما كانت رقعتاهما متماستين ، أو لعلهما كانتا حتى متشابكتين . والعلاقـة بين المـدنية السـومريـة الأكدية ومدنية السند كانت حتى أضعف من ذلك . إن الأختام السندية التي عثر عليها في طبقات الآثار المادية التي خلفتها المدنية السومرية الأكدية تشير إلى وجود علاقة تجارية بين المجتمعين السندي والسومري في وقت مبكر يعود الى نحو سنة ٢٥٠٠ ق. م ، لكن البقايا المادية لمدنية السند لم يظهر فيها بعد أي أثر يدل على تـأثير سـومري . وليس في حوض السند نظائر لما تركته المدنية السومرية من آثار على مصر في العهد السـابق لقيام الأسر وفي عصر الأسر الأولى . هذه الندرة في الاتصال بين المدنيات الاقليمية في المشرق حتى القرن الثامن عشر ق. م ، يقابلها بشكل واضح تعدد وتقارب في هذه الاتصالات في ما بين المدنيات بين القرن الثامن عشر والقرن الثالث عشر ق. م .

كـانت المدنيـة المصريـة هي التي قامت بـالدور الأول في المجـالات العسكـريـة السياسية في المشرق خلال هذه القرون الخمسة ، ويعود القضاء على العزلة التي كانت قائمة بين المدنيات الأقليمية المشرقية على العموم إلى العمل الذي قامت به مصر . وقد يبدو هذا غريبا لأن المدنية المصرية كانت من قبل أقل تطلعا إلى الخارج ، وأقل رغبة في التوسع ، من المـدنية السـومريـة الأكديـة . ومع ذلـك فاننـا نرى أن الانـطواء الذاتي التقليـدي للمجتمع المصـري ولد فيه كرها عـدوانيا لـلأجانب ، لـما تمكن المهـاجـمـون البرابرة ، لأول مرة في تاريخ المجتمع المصري ، من إقحام أنفسهم في ملكه . وقد دفع هذا الكره للأجنبي المصريين إلى طرد المعتـدين الأجانب اولا ، ثم إلى تعقبهم ، بعـد طردهم بحملة ضدهم إلى عقر دارهم في فلسطين وسورية حيث كانت القاعدة الأصلية للعمليات العسكرية .

وقد كانت هذه المنطقة قد انجذبت ، منذ زمن طويل، الى منطقة النفوذ الحضارية المرتبطة بالمدنية السومرية الأكدية . وترتب على ذلك أن الشدة في رد الفعل المصري ، السياسي والحربي ، ضد الاعتداء الأجنبي حملت مصر على الاتصال بحضارة أجنبية هي التي كانت تجابهها عسكرياً .

في العقود المتأخرة من القرن الثامن عشر ق. م . خضع البابليون للسلطان الذي فرضه عليهم الكاشيون البرابرة ، كما أن الأشوريين ، الذين اغتنموا اول فرصة سنحت لهم لنزع النير البابلي ، تقبلوا ، على ما يبدو سيادة الميتانيين البرابرة . وقد تحمل البابليون الحكم الكاشي نحو ستة قرون ، ولعل السيطرة الميتانية على أشور دامت نحو ثلاثة قرون ونصف القرن ، قبل أن يصفيها الشعب المستعبد في ثورة عارمة . وقد بدأ أنسياح الهكسوس في مصر نحو سنة ١٧٣٠ او ١٧٢٠ ق. م . وبلغ حدّه سنة ١٦٧٤ ق. م . ، لما احتل الهكسوس ممفيس . والآن ، ولأول مرة منذ ان توحد التاجان ، عادت مصر للمرة الثانية إلى انقسام سياسي : فمملكة شمالية ومملكة جنوبية ، ولكن في هذه الفترة المعترضة الثانية ، كانت المملكة الشمالية دخيلة غريبة الأصل ، بينما كانت المملكتان في الفترة المعترضة الأولى ـ المملكة الهيركلوبية والمملكة الطيبية اصليتين . وقد تمثل الهكسوس المدنية الأسمى التي كانت موجودة عند رعاياهم من المصريين ، لكن هذا لم يستأصل حقد المصريين عليهم . وقد أعيدت الوحدة السياسية الى مصر ، في القرن السادس عشر ق. م . كما كان قد تم مثل ذلك في القرن الحادي والعشرين ق. م . وذلك بأن احتلت المملكة الجنوبية ، وعاصمتها طيبة ، المملكة الشمالية .

لقد طرد الهكسوس من مصر نحو سنة ١٥٦٧ ق. م . وقد كان المحرر الطيبي هو أحموس (اموسيس) (حكم من نحو ١٥٧٥ ـ ١٥٥٠ ق. م.) والأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحموس ، حكمت من نحو ١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ ق. م . والفترة الزمنية الكاملة للمملكة الحديثة ، من بدء الأسرة الثامنة عشرة إلى سقوط الأسرة العشرين ، كانت خمسة قرون على وجه التقريب (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق. م.) . وقد كانت هذه الفترة نصف الفترة الزمنية للمملكة القديمة ، لكنها كانت ضعف الفترة الزمنية للمملكة المتوسطة تقريبا . وفضلا عن ذلك فقد كانت المملكة الحديثة إمبراطورية عالمية . لقد أشرنا من قبل إلى أن سيزوستريس الثالث ، من ملوك المملكة المتوسطة ، كان قد وسع حدود أملاكه في الجنوب بحيث وصلت الى سمنه ، فوق الشلال الثاني على النيل ، واتخذ في كرمه فوق الشلال الثالث ، مركزا تجاريا . وبعد تأسيس المملكة الحديثة نقل تحوطميس (طتميس) الأول (حكم من نحو ١٥٢٨ ـ ١٥١٠ ق. م) وهو الخليفة الثاني لأحموس ، حدوده الجنوبية الى نبتا تحت الشلال الرابع . فأصبح الآن وادي النيل بأكمله ، من الشلال الأول الى الشلال الرابع ، ملقحا بالمدنية الفرعونية . ويدعي

تحوطميس الأول ، في نقش يعود الى السنة الأولى من حكمه ، أن ملكه امتد في الجهة الشمالية الشرقية الى الفرات .

كان سكان وادي النيل فوق الشلال الأول برابرة ، وقد كانت علاقتهم الثقافية ، تحت السيطرة المصرية في اتجاه واحد . فقد تقبل الكاوشيون المدنية المصرية دون أن يكون لهم يد في تقديم مقابل حضاري ذي قيمة . والحكم المصري ، في المناطق المسماة الآن النوبة والجزء الشمالي من السودان النيلي ، كان ، على المستوى السياسي ، قويا باستمرار إلى أن انتهى امر المملكة الحديثة سنة ١٠٨٧ ق. م . وعلى العكس من ذلك فإن مدى السلطة السياسية المصرية ودرجتها في فلسطين وسورية كانت ، في الفترة ذاتها ، متأرجحتين . لكن التأثير الحضاري في ما بين المصريين ورعاياهم الأسيويين كان متبادلا ، وكانت نتيجته تراكمية . وقد تلقى المصريون من التأثير الحضاري من الآسيويين أكثر مما نفحوهم به .

لسنا ندري فيما إذا شلمت مملكة الهكسوس التي قامت في الدلتا البلاد الآسيوية التي كانوا قد جاؤوا منها . لكن من الواضح أن المصريين ، بعدما قضوا على حكم الهكسوس ، وقادوا حملاتهم إلى فلسطين وسورية ، وجدوا المنطقة قد تقسمتها إمارات صغيرة متعددة . وقد أقام المصريون حاميات في نقاط استراتيجية ، وعينوا مقيمين مصريين . وقد كان ضبط هؤلاء لحكومات الدول التابعة يتوقف على مدى النشاط الذي تبديه الحكومة الإمبراطورية في طيبة لهؤلاء المقيمين ، هذا إذا اهتمت بذلك . إلا أنه يبدو أن الحكومة الإمبراطورية لم تكن تفرض حكما مباشرا على أي جزء من أملاكها الأسيوية ، على نحو ما فعلته بالنسبة لأملاكها في وادي النيل فوق الشلال الأول . ولعل الأثر الحضاري الأسيوي على الحياة المصرية في عصر المملكة الحديثة جاء بعضه نتيجة الجهد الذي بذله المهاجرون من الولايات الآسيوية الى مصر نفسها . وقد كان بعض هؤلاء المهاجرين اسرى حرب ، وقد جاء آخرون عن طيبة خاطر في سبيل البحث في مجالات اقتصادية مربحة . والمهاجرون من كلا النوعين ، حملوا معهم عباداتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد وجد المصريون هذه الأشياء جذابة . والكره للأجانب الذي كان الرد المصري على الفتح العسكري الأسيوي لمصر ، لم يثره الانسياح الأسيوي السلمي الى مصر .

وقد فرضت السيطرة السياسية المصرية لأول مرة في أيام تحوطمس الأول . ويبدو

أنها كانت معطلة في أيام الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق. م.) اذ ان شريكها في الحكم ، تحوطمس الثالث ، حيل بينه وبين تسلمه السلطة في حياتها . وهذا الملك هو نفسه الذي قاد ، بعد وفاتها مباشرة، سلسلة من اثنتي عشرة حملة متتالية ، بين السنة الثانية والعشرين والسنة الثالثة والثلاثين من حكمه (أي من ١٤٦٩ - ١٤٥٨ ق. م .) . وقد وصل ، في آخر هذه الحملات ، الى الفرات . ووجد هناك نصبا كان قد أقامه تحوطمس الأول ، وأقام لنفسه نصبا آخر قرب الأول ، واجتاز الفرات مقاتلا ، وأجبر مملكة ميتاني في الجزيرة على الاعتراف بسيادته . وقد بلغت السيادة المصرية في فلسطين وسورية غايتها في الفترة الممتدة من هذه السنة ، ١٤٥٨ ، حتى تسلم اخناتون العرش . وقد نسف الحكم المصري في تلك المنطقة أيام حكم أخناتون (نحو ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م.) ولم يعد إلى ما كان عليه قبل قط .

وقد كان اخناتون ثورويا . ولم تكن ثورته الأولى في تاريخ مصر . فقد كانت هناك ثورة مزدوجة في الفترة المعترضة التي جاءت بين انحلال المملكة القديمة وقيام المملكة المتوسطة . ففي أيام الأسرة السادسة نجح المشرفون على الأقضية في أن يصبحوا امراء وراثيين مستقلين محليين بدل أن يظلوا الموظفين الذين يعينهم الفرعون ، ولم يعودوا الى وضعهم السابق بحيث يكونون خاضعين لحكومة مركزية منتظمة إلّا تدريجاً وذلك في أيام الأسرة الثانية عشرة . وقد كان ثمة فترة من الفراغ السياسي ، الذي عقب القضاء على الأسرة السادسة مباشرة ، وهي فترة استمرت إحدى وعشرين سنة (نحو ٢١٨١ - ٢١٦٠) قامت خلالها ثورة اجتماعية عنيفة . وقد كانت هاتان الثورتان المصريتان السابقتان مختلفتين نوعا . ففي الحالة الأولى نجحت المؤسسة في أن تزيح نير الفرعون ، وفي الحالة الثانية ثارت الجماهير ضد المؤسسة نفسها . ولكن ثورتي الفترة المعترضة الأولى كانتا مشتركتين في أمر واحد . فقد كانتا ثورتين من الأسفل إلى الأعلى ، وإن كانتا على مستويين مختلفين وعلى درجتين متفاوتتين . أما ثورة أخناتون فقد جاءت من فوق .

كان صدام أخناتون الكبير مع الجناح الكهنوتي من المؤسسة . فقد تخاصم أخناتون ، كما فعل سلفه الأسبق خوفو من الاسرة الرابعة ، مع الكهنة حول قضية لاهوتية ، ولكن الكهنة كانوا يومها قد أصبحوا أقوى نفوذا . فقد كان خصوم خوفو من رجال الكهنوت هم كهنة هليوبوليس ، مدينة رع المقدسة . ومنذ أن صارت طيبة

العاصمة السياسية لمصر الموحدة من جديد ، أصبح رع ، رئيس المجمع الديني المصري ، مطابقا تماماً لأمون ، وهذا كان إلها محليا في طيبة في وقت مبكر يعود الى الأقل إلى حكم أمنمس الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة . وكان تحوطمس الثالث قد نظم كهنة آلهة مصر المحلية جمعاء في مؤسسة مصرية تحت رئاسة الكاهن الأعلى لأمون ـ رع .

كان أخناتون يضع سلطة الفرعون المطلقة الرسمية عمليا على محك التحدي لأكبر سلطة في العالم المصري عدا سلطة الفرعون نفسه . ولعل أخناتون كان باستطاعته ان يتغلب على الكهنة لو أنه حصل على تأييد الشعب ، ولعله كان يمكنه ان ينجح في هذا لو أنه تحدى الكاهن الأعلى لأمون ـ رع نيابة عن الأله اوزيريس ؛ ذلك بأن اوزيريس هو واهب الخلود ، والخلود كان أسمى غايات المصريين . وعلى كل فان أخناتون لم يكن يناضل في سبيل الخلود ، بل في سبيل الوحدانية ؛ ومثل الوحدانية لم تشع الحرارة في قلوب الشعب ، اضافة الى أنها اعتبرت خطرا يهدد المصالح الثابتة للكهنة . وكان إله أخناتون الأوحد ، وهو درع الشمس (أتون) ، مجرد إله رجل واحد ؛ ومع ان الرجل الوحيد هذا كان فرعونا ، فلم تكن حتى قوة الفرعون من الدرجة بحيث تتغلب على مؤسسة كهنوتية كانت تخدم مجمعا دينيا قدسته التقاليد .

فلم يكن من المستغرب أن يفشل أخناتون في أن يستبدل أمون ـ رع وبقية المجمع التقليدي بأتون ، إلا أنه من الجدير بالاهتمام أن ثورة أخناتون ، على كل حال ، تركت أثرا دائماً . فقد أعيد الى أمون ـ رع اعتباره ، إلاّ أنه تبدل مظهره بحيث أصبح يشبه الأله الأوحد الذي حاول أخناتون ابدال أمون ـ رع به ، ولكن دون جدوى . وقد نظم أخناتون ترنيمة لأتون باعتباره واهب الحياة لكل المخلوقات في الكون ؛ والترانيم التي نظمت لأمون ـ رع في الفترة الّتي عقبت ذلك تمثل لنا الإله القديم في هيبة الأله الجديد الذي لم يتم نموه .

وقد نقل أخناتون العاصمة الى مدينة جديدة ، وكان قد سبقه الى ذلك كثيرون . فقد رحل فراعنة المملكة القديمة من نخن ـ نخب نزولا من النهر أولا الى نينيس ثم إلى ممفيس . ومؤسس الأسرة الثانية عشرة رحل من طيبة الى إز ـ تاوي ، وهي مدينة جديدة لا تبعد كثيرا عن ممفيس صعودا مع النهر . ولما وحّد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الطيبي مصر ثانية ، عادت طيبة الى مكانتها كعاصمة . ورحل أخناتون الى اخناتون

(تل العمارنة الحالية) التي كان قد بناها في نقطة متوسطة تقريبا بين طيبة وممفيس . وقد هجرت هذه المدينة الجديدة بعد وفاة أخناتون ، وعادت العاصمة إلى طيبة . ولم تكن طيبة قريبة إلى الحدّ الجنوبي للعالم المصري بحيث يشكل ذلك إزعاجاً للحكم ، إذ أن الامبراطورية كانت قد امتدت حدودها إلى نباتا في أعالي النيل . ومع ذلك فلم تنعم طيبة طويلا بهذا المجد الذي استعادته ، وهو كونها العاصمة الوحيدة للمملكة الحديثة . فقد نقلت العاصمة الحربيّة الى الشمال ، وقد كانت أبعد شمالا بكثير من موقع اخناتون، وذلك لمقابلة الضغط من المناطق الشمالية الشرقية الذي بدت آثاره حتى في ايام اخناتون . وقد حكم الجندي الفخور حور محب (الحاكم الفعلي من نحو ١٣٤٩ - ١٣١٩ ق. م .) الإمبراطورية من ممفيس . وقبل أن تلفظ المملكة الحديثة أنفاسها انتقلت العاصمة الحربية إلى مكان أبعد في اتجاه شمالي شرقي هو تنيس في الزاوية الشمالية الشرقية من الدلتا ، في الموقع الذي كانت تقوم فيه عاصمة الهكسوس أفاريس او على مقربة منه .

كان أخناتون ثائرا في مجاليّ الأدب والفن المتطور كما كان كذلك في مجالي الدين والسياسة ، وقد ترك طابعه في هذين المجالين ايضا . فقد أخذ نفسه باستعمال لغة زمنه الحية في الأدب وعدل عن الكتابة القديمة ، وقد استمر هذا التجديد بعده عصورا حتى أصبحت هذه اللغة الحية بالذات ، اي لغة القرن الرابع عشر ق. م . ، بدورها لغة ميتة . وفي مجال الفن كان يدعم الطبيعية والصدق في تمثيل الحياة بما في ذلك تماثيله الشخصية التي هي عادية المظهر .

لعل أخناتون اقتبس تذوق الطبيعة من المنويين . توجد على جدران القبور المصرية التي تعود إلى المملكة الحديثة صور تمثل منويين يحملون ما يبدو كأنه مصنوعات ميكانية لا منوية ، وهذا دليل على أن صلات تجارية وحضارية كانت قائمة بين مصر والعالم الإيجي في ذلك الوقت . كان اخناتون تدفعه عبقريته الى العمل ، وفضلا عن ذلك فقد استوحى زمانه ومكانه . فالإمبراطورية التي ورث عرشها كانت مسكونيّة - ولم يكن هذا بالطبع بالمدلول الجغرافي للكلمة أي أنها كانت تغمر الأويكومين بأكمله ، بل بالمدلول الحضاري إذ كانت تدخل في تركيبها نماذج طيبة من مختلف الحضارات البشرية . فقد كانت هذه أول امبراطورية مسكونية بهذا المعنى . وليس من قبيل المصادفة ان يكون أحد ملوكها أول موحد حفظ لنا التاريخ خبره ؛ ذلك بأن توحيد

أخناتون كان فكرة المسكونية ، التي عبر عنها بالرّمز الديني . فلم يتصور أتون إلها محليا ، بل رب الكون كله ، وقد دلل على أن أتون حاضر في كل مكان بأن بنى له الهياكل في سورية وفي النوبة كما شادها في مصر .

ولم يكن للامبراطورية المصرية المسكونية نظير في المشرق خلال القرنين الأولين من وجودها . فقد كانت بلاد بابل الواقعة تحت حكم الكاشيين البرابرة ، عاجزة سياسيا . وعلى كل فلم تكن من الناحية الحضارية في ميعة شبابها . وقد كان هذا العصر هو العصر الذي دونت فيه الموضوعات الملحمية ، التي ورثت عن السومريين في القوالب الكلاسيكية باللغة الأكدية : مثل غلغا ميش في بحثه عن شجرة الحياة ؛ هبوط عشتار (أنانا) إلى العالم السفلي ، قهر الأله الشاب مردوخ للفوضى ، وترؤسه لمجمع الآلهة السومرية ـ الأكدية جزاء له على إعادة النظام إلى الكون . وقد تداول الناس هذه القصائد الأكدية حيثما نطق باللغة الأكدية ، وقد كانت يومها قد أصبحت لغة العلاقات الدولية في المشرق ، بما في ذلك الإمبراطورية المصرية . وقد كان من الأدارات التي لا غنى عنها للحكومة المصرية في هذا الوقت مكتب للمحفوظات حيث كان الكتاب يكتبون اللغة الاكدية بالخط السومري على ألواح الأجر . اذ بهذه الوسيلة كانت الحكومة المصرية تتراسل مع الدول التابعة لها في سورية ولبنان وفلسطين . فقد كانت سيطرة مصر العسكرية السياسية تقابلها السيطرة الحضارية للغة الأكدية .

ولم يتح لمصر أن تسلم من التحدي على المستويين السياسي والعسكري . لقد ظل الحثيون هادئين منذ غزا مرشيليش الأول بابل في سنة ١٥٩٥ ق. م . ولكنهم عادوا الى شنّ الحروب بقيادة شيبلوليوما (حكم نحو ١٣٧٥ ـ ١٣٣٥ ق. م .) وكان ذلك في أيام أخناتون . وقد أخضع شيبلوليوما كيزووادنا ، جارة خطّي في الجهة الجنوبية من آسية الصغرى ، وسحق ميتاني ونجح في أن يحمل دول سورية الشمالية التي كانت تابعة لمصر على نقل ولائها إليه ، وذلك اما بالتودد إليها أو بإرغامها على ذلك . ونجح خليفة شيبلوليوما الثاني مرشيليش الثالث (نحو ١٣٣٤ ـ ١٣٠٦ ق. م) ، في احتلال ارزاوا في غرب آسية الصغرى وضمها إلى دولته ، وهي التي كانت إلى ذلك الوقت مساوية لخطي . وقد تمّ ذلك قبل نهاية القرن الرابع عشر ق. م . ، وفي بداءة القرن الثالث عشر ق. م . وكانت خطي قد أصبحت دولة على مستوى مصر ، ومن ثم فقد اقتتل رمسيس الثاني (حكم ١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق. م.) وحفيد شيبلوليوما، موا تاليش (حكم

نحـو ١٣١٦ ـ ١٢٨٢ ق. م) في سبيل السيـطرة عـلى بلاد الشـام . ولم يكن انتصـار الحثيين حاسما في معركة قادِش التي جرت نحو ١٢٨٦/٥ ق. م . وقد رأت الدولتان المتقاتلتان عندها أنه لم يعد في وسعهما ان تستمرا في الحرب في ما بينهما . وذلك بسبب أنهما كانتا معرضتين لأعداء مشتركين ، كانت قوتهم تتزايد باستمرار . ومن ثم فقد اتفقتا على عقد صلح لمصلحة الفريقين ، سنة ١٢٧٠ ق. م . اقتسما بموجبه بلاد الشام في ما بينهما . إلا أن تنبهمـا إلى واقع الحال جاء متأخرا . ففي الشرق كـانت أشور مصـدر الخطر ، وفي الغرب كان المعتدون هم الميكانيون وجموع أخرى من شعوب البحر القلقة السريعة التنقل .

كان الأشوريون ، في القرنين العشرين والتاسع عشر ق. م . تجارا نشيـطين في المـدى البعيد ، وذلك قبل ان يطغى عليهم طوفان الانسياح الشعبي الميتاني . وفي ايام أشور أبالت (حكم ١٣٦٥ ـ ١٣٣٠ ؟ او ١٣٥٦ ـ ١٣٢٠ ؟ ق. م.) عاد الأشوريون إلى الظهور في دور خطر جديد كمحاربين معتدين . وقد قاد أدد ـ نيراري الأول (حكم ١٣٠٧ ـ ١٢٧٥) وشلمنصـر الأول (حكم ١٢٧٤ ـ ١٢٤٥) جيـوشهـما غـربـا الى كركميش عبر الجزيرة . وقد احتل توكلتي ـ نينترا (حكم ١٢٤٤ ـ ١٢٠٨ أو ١٢٣٤ ـ ١١٩٧ او ١٢٣٠ ـ ١١٩٨ ق. م) بلاد بابـل احتلالا مـوقتا . عـلى أنه قبـل أن يتاح للأشوريين ان يجتازوا الذراع اليمنى لنهر الفرات ردهم على أعقابهم ، انسياح شعوب جديد ، إلى موقف دفاعي . وهذا الانسياح كان قد بدأ قبل نهاية القرن الثـالث عشر ق. م .

فالمدنية المينوية ، في حوض البحر الإيجي ، لم تنهض من كبوتها التي دمرت فيها القصور الكريتية نحو ١٧٥٠ ـ ١٧٠٠ ق. م . فحسب ، بل بلغت القمة خلال ربع الألف التالي ـ في الفترتين المسميتين المينوية المتوسطة الثالثة والمينوية المتأخرة الأولى . ولا شك ان الهجوم البربري ، الذي لف البر اليوناني نحو سنة ١٩٠٠ ق. م ، والذي يعود إليه إدخال اللغة اليونانية هناك ، أخّر ولادة مـدنية إقليميـة هناك . أمـا كريت ، التي سلمت من هـذا الهجوم ، فقـد سبقت البر الأصـلي بعيدا في غضـون القرون الثـلاثة التالية ، بحيث ان البر الأصلي تلقى ، وبشكل فجائي ، فنون المدنية المينويـة في وقت متأخر من القرن السابع عشر او وقت مبكر من القرن السادس عشر ق. م .

وقد بدا وكأن البر الأصلي ، بسبب تلقيه القوي والبعيد المدى لهذه المدنية ، كان

على وشك ان يستوعبه العالم المينوي ثقافيا ، على نحو ما استوعبت سومر أكد في الألف الثالث ق. م . وعلى كل فقد أكد البر الأصلي اليوناني على وجود شخصية حضارية ذاتية متميزة على نحو ما فعلت آسية الصغرى لما تلقحت بالتأثير الحضاري السومري الأكدي . وقد تطورت المدنية الميكانية القارية ـ وقد سميت بهذا الأسم لأن ميكاني كانت ألمع بقعة فيها ـ جنبا إلى جنب مع المدنية المينوية في الفترة المينوية المتأخرة الأولى ، وفي نحو ١٤٨٠ ـ ١٤٥٠ ق. م قضت عليها .

وكانت المدنية المينوية قد نجت من كارثة طبيعية عظيمة ، وهي الانفجار الكبير الذي حدث في الجزيرة البركانية تيرا (سنتوريني) نحو ١٥٠٠ ق. م. وقبل الانفجار كانت تيرا نفسها قد خرّبها زلزال . وقد وصل أثر الانفجار (لا الزلزال الذي سبق) إلى سواحل كريت الشمالية أو الشرقية . لكن النكبة التي حلت بكريت في ما بعد ، نحو ١٤٨٠ ـ ١٤٥٠ ق. م . كانت أشد فتكا ؛ وتشير الدلائل الأثرية إلى أن هذه النكبة الثانية كانت من صنع البشر . وقد سلم كونسّس ، وهو القصر الرئيس في كريت في هذه المرة ، بينما دمرت كل القصور الموجودة في الجزيرة . وترتب على ذلك أن ظهرت في كنوسس ، حالا بعد ذلك ، حضارة محلية هي المعروفة باسم المينوية المتأخرة الثانية ، التي لم تسهم فيها بقية جزيرة كريت . وقد كانت هذه الحضارة الكنوسسية المحلية عسكرية النزعة ، وحكمنا مبني على كثرة ما عثر عليه من الأسلحة ؛ وقد كان فخارها ميكانيا في أسلوبه . ويبدو من الدليل الأثري أن جماعة من المهاجمين من ميكاني احتلوا كنوسس ، نحو ١٤٨٠ ـ ١٤٥٠ ق. م . واتخذوها قاعدة لعمليات عسكرية لمهاجمة مراكز المدنية الأخرى وتدميرها .

وقد كانت هذه النكبة الأولى في سلسلة من النكبات البشرية الصنع التي حلت بسكان حوض البحر الأيجي في غضون القرون الثلاثة التالية . فقد دمر قصر كنوسس بعيد ١٤٠٠ ق. م. ـ ولعل هذا تم على أيدي موجة ثانية من المهاجمين القاريين من ميكاني . ودمر القصر الميكاني في طيبة حول الوقت ذاته أو لعله بعد ذلك ـ نتيجة لقتال داخلي ، هذا فيما إذا كان ثمة ذرة من الحقيقة في الأسطورة التي عاشت حتى العصر الهليني للتاريخ اليوناني . وعلى رغم هذه النكبات كلها، فإن المدنية الميكانية ازدهرت في القرن الرابع عشر ق. م . ولعله بسبب احتلال كنوسس نحو ١٤٨٠ ـ ١٤٥٠ ق. م . كان أن اخترعت كتابة مقطعية صوتية ـ التي تعرف باسم الخط ـ ب (B) ، تقليدا

للكتابة المعروفة باسم الخط ـ أ (A) . وكانت الأولى تستعمل لتدوين صيغة اللغة اليونانية الممثلة للعصر الميكاني ، بينما كانت الثانية قد اخترعها المينويون قبلا لتدوين لغتهم ، وهي اللغة التي لم تحل رموزها بعد . وقد بلغ الصناع الميكانيون المستوى الذي كان عند معلميهم المينويين . والميكانيون الذين بنوا القبور الشبيهة بقفير النحل نافسوا نظراءهم من المصريين في المهاجرة والدقة في فن البناء . وقد كانت للميكانيين تجارة واسعة في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م . مع الشرق ، بحيث وصلت تجارتهم إلى أوغاريت (رأس الشمرا) الواقعة في أقصى طرف الى الساحل السوري الشمالي ، ووصلت الى مصر جنوبا ، وغربا بلغت صقلية . وقد كان هؤلاء الميكانيون على استعداد للاتجار والغزو ، والاختيار كان متوقفا على أي النشاطين كان أوفر ربحا .

وقد اشتدت النزعة العسكرية في ميكاني ضراوة في القرن الثالث عشر ق. م . فالقصور الميكانية في الجهة الشرقية من بلاد اليونان في ميكاني نفسها ، وفي تيرنس بمنطقة أرغوليد، والأكروبوليس في أثينا ، على سبيل المثال ـ زيدت تحصيناتها قوة ، وبذل جهد كبير لضمانة الماء اللازم للمدافعين فيها إذا حوصرت القلعةَ . وقد أصاب الشاطىء الشرقي للبحر الإيجي ايضا ، في القرن نفسه ، نكبات بشرية متعددة : فقد دمر المهاجمون مدينة طروادة السابعة نحو سنة ١٢٦٠ ق . م . كما كانت الإمبراطورية الحثية ، الواقعة الى الجنوب من ذلك ، تعاني الاضطراب المتزايد . فقد كان أيسر على الحثيين ان يقضوا على منافستهم إمبراطورية ارزاوا من أن يسيطروا على البلاد سيطرة فعالة . وقد تحدّى الثوار المحليون والمتدخلون الميكانيون الحكم الحثي في غرب آسية الصغرى . وقد كانت الإمبراطورية الحثية والإمارات الميكانية في بلاد اليونان القارية وفي كريت مزودة بالآلة الإدارية الدقيقة والكتابة . لكننا نخمن ، بناء على ما حدث في ما بعد ، ان الطبقة المتعلمة ، في آسية الصغرى وفي بلاد اليونان كانت أقلية ضئيلة ، وأن البورقراطية كانت عبئا ثقيلا لم تتحمله الأسس الاقتصادية للدولة دون أن يمسها من ذلك جهدٌ كبير .

ومعنى هذا ان المنطقة الواقعة إلى الغرب من مصر ومن العالم السومري الأكدي كانت ، في القرن الثالث عشر ق. م . ، تتمخض عن اضطراب . والوضع المعاصر في الهند كان يلفه الغموض فليس لدينا أي دليل أثري يمكننا من تعيين الزمن الذي قضى فيه المهاجمون المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية على المدنية السندية . فاذا كان هؤلاء

قد تدفقوا من السهوب الأوراسية في القرن الثامن عشر ق. م . ، فلعلّهم وصلوا إلى الهند بالسرعة نفسها التي وصلوا بها الى بلاد بابل والجزيرة ؛ إلا أنه من الممكن أنهم احتاجوا إلى بضعة قرون إضافية حتى اكتشفوا طريقهم من حوض اوكسس ـ جاكسارتس (ام داريا ـ وسرداريا ، بلاد ما وراء النهر) الى حوض السند عبر جبال هندوكوش .

وقد ظهرت مدنية إقليمية في الصين ـ سميت شانغ (اوين) باسم الأسرة المؤسسة ـ وذلك نحو سنة ١٥٠٠ ق. م . وقد اقتبست بعض عناصرها من المرحلة السابقة (اي مرحلة الفخار الأسود اللونغ ـ شاني) وهي حضارة العصر الحجري الحديث الاقليمية ؛ ولم يرافق ظهور المدنية في الصين تبديل في الموقع ، على نحو ما حدث في الهلال الخصيب في جنوب غرب آسية أو في مصر. ففي الصين، كما كانت الحال في المشرق ، كانت حضارة العصر الحجري الحديث الإقليمية تعتمد على الامطار لري المزروعات . إذ أنها كانت قائمة في منطقة مرتفعة نسبياً ومكونة من تربة رسوبية تسفوها الرياح ، وهي التربة التي كانت قد ترسبت في كانسو وفي حوض واي ، رافد النهر الأصفر وفي مكان أبعد شرقا في مجال لتقسيم المياه بين النهر الاصفر ، من جهة ، ونهري هان وهواي من جهة ثانية . وهذا هو المكان نفسه الذي قامت فيه مدنية شانغ التي خلفت حضارة العصر الحجري الحديث اللونغ شانية . وبناة هذه المدنية لم يشقوا التربة الغرينية المترسبة في قيعان الأودية للزراعة والاستقرار . ولم يصبح ضبط الماء على المستوى السومري والمصري ظاهرة بارزة في الاقتصاد الصيني إلا بعد مرور نحو ألف سنة على ظهور أقدم مدنية في الصين .

فمن هذه الناحية كانت الفجوة بين هذه المدنية وبين سابقتها اي حضارة العصر الحجري الحديث في حوض النهر الأصفر أقل مما كان بين المدنية السومرية وسابقتيها اي حضارتي العصر الحجري الحديث في ما بين النهرين وايران . إلا أنه كان هناك انطلاق جديد ينطبق على المكانين وتصح المقارنة فيه . ذلك بأن الانتقال من حضارة العصر الحجري إلى المدنية في الصين ، لازمه كما حدث في سومر قبلا ، تباين واضح في الثروة والامتيازات بين الحكام والمحكومين . فالمقابر الملكية في انيانغ ، وهي آخر مدينة اتخذت عاصمة لأسرة شانغ ، تشبه قبور الأسرة الأولى في أور ، مع أن هذه أقدم من تلك بما يزيد عن ألف من السنين . فقبور شانغ ، هي الأخرى ، فخمة ، ومحتويات القبر ،

التي تضم بينها ضحايا بشرية ، فيها طابع السخاء . ففي سومر يسر ازدياد الثروة الجماعية ، الناشيء عن شق الغرين للزراعة، لاقلية مسيطرة ان تعيش ـ وأن تموت ـ برفاهية . أما في الصين فقد فرض هذا التبدل المثير للأحقاد على الجماعة دون ان يصاحبه أي زيادة في جماع الموارد الاقتصادية للجماعة .

وقد ظهرت في الصين عند فجر المدنية ، تجديدات تذكرنا بتلك التي رافقت ظهور المدنية المفاجيء ، على ما يبدو ، في كل من حوض السند وفي مصر ، على أن المدنية هنا أيضا قد تمت ولادتها بحافز من الخارج ، على عكس التطور الذاتي الظاهر في المدنية السومرية .

واحد هذه التجديدات المفاجئة كان استعمال المركبات التي تجرها الخيول ، ولا بد أن هذا قد وصل إلى الصين في عصر شانغ من السهوب الأوراسية في القرن الثامن عشر ق. م . أو بعد ذلك . والتجديد الثاني هو استعمال الكتابة . واختراع كتابة عصر شانغ في الصين ، والتي اشتقت منها بالتأكيد الحروف الصينية الكلاسيكية ، لا بد أنه كان نتيجة ايحاء بتأثير من النموذج السومري ، على نحو ما حدث في اختراع الكتابة الهيروغليفية المصرية . وقد يكون التأثير هذا بعيدا وغير مباشر . والحروف الصينية ، مثل الهيروغليفات المصرية ، لها اسلوب مميز خاص بها ، لكن تركيب الكتابة بالذات هو سومري . وهذا التركيب ـ الذي هو استعمال غير منطقي ، كما أنه تنقصه الرشاقة لصور فكرية فوينمات مصفوفة واحدتها إلى جانب الأخرى ـ أغرب من أن يعقل انه اختراع تمَّ مستقلا في ثلاث مناسبات . وثالث هذه التجديدات المفاجئة الذي نجده في الصين عند فجر المدنية هو استعمال البرونز لصنع الأدوات والأسلحة والأوعية المستعملة في طقوس التضحية ؛ وهذا الفن لا بد أنه وصل الى الصين من الغرب أيضا . والبرونزيات الشانغية ، مثل الكتابة الشانغية ، لها أسلوب خاص بها هو الذي كان قد أصبح صينيا متميزا ؛ فالأوعية البرونزية دقيقة الصنع ، والتقنية التي تبرزها هي على درجة عالية من المهارة . ومن الممكن أن هذه الأوعية كان لها طرز بدائية من الخشب صنعت في العصر الحجري الحديث وقد ضاعت آثارها بالمرة ، لكن هذه الفرضية (وهي ليست أكثر من ذلك) قد تفسر ما يبدو أنه ظهور مفاجيء للأسلوب الفني وحده ، إلا أن الاكتساب المفاجيء للتقنية التعدينية يظل بحاجة الى تفسير .

يوجد في البرونز الشانغي محتوى عال من القصدير ـ سبعة عشر بالمئة ـ وأقرب

مصادر النحاس إلى حوض النهر الأصفر هي الملايو ويونان ؛ لكن تقنية النحاس بالقصدير وصبّ المنتوج المركب لا يمكن أن تكون قد وصلت الى حوض النهر الأصفر من الجنوب . فإن أقدم صناعة للبرونز في جنوب شرق آسية ـ وهي المسماة دونغ سون ، باسم مكان في شمال فيتنام ـ لا تعدو النصف الثاني من الألف الأول ق. م . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون المعدنان قد استوردا من الجنوب إلى حوض النهر الأصفر ، حتى ولو أن تقنية العمل فيهما قد جاءت من مكان آخر . وقد تكون منطقة آسية المدارية مصدر المعدنين بالنسبة إلى الصين الشانغية ، لأن المدنية الشانغية فيها عنصر أساسي من أصل مداري ، اضافة الى العناصر التي ورثتها مما سبقها من حضارة العصر الحجري الحديث في شمال الصين ، واضافة كذلك الى العناصر الأخرى التي كانت قد وصلت شمال الصين من الغرب عبر السهوب الأوراسية . فقد كان صينيو العصر الشانغي يزرعون الأرز كما كانوا يزرعون القمح والذرة ؛ وقد كان عندهم الجاموس المائي كما كان عندهم الأبقار العادية ؛ وواحد من نوعي الخنزير المعروفين عندهم كان من أصل جنوبي .

ولا بد أن الجاموس المائي ونبتة الأرز قد تم تدجينهما أصلا في منطقة مستنقعية مدارية . والجماعة التي دجنتها كانت ولا ريب على مستوى حضاري مساو لمستوى أهل العصر الحجري الحديث ، وهم اولئك الذين سبق وجودهم المدنية الشانغية في شمال الصين . إلا أنه يبدو أنه ليس ثمة من دليل على وجود حضارة من مستوى حضارة العصر الحجري الحديث السابق للعصر الشانغي في أي مكان في المنطقة المدارية في آسية الى الجنوب من حوض النهر الأصفر . والمدنية الاقليمية التي كانت ، على بعدها ، الأقرب الى حوض النهر الأصفر جغرافيا هي المدنية السندية . ولكن حوض السند وحوض النهر الأصفر تفصل بينهما لا مجرد المسافة فحسب بل هناك ايضا سلسلة حواجز جبلية . يضاف الى ذلك أنه ليس ثمة من دليل على أن المدنية الهندية امتدت شرقاً وجنوباً إلى الأجزاء الهندية التي نجد اليوم فيها الأرز هو المنتوج الزراعي الأساسي لا القمح .

وهكذا فإن مصدر العناصر المدارية في المدنية الشانغية لا يزال لغزا . تقول الرواية الصينية إن المنطقة الواقعة الى الجنوب من حوض النهر الأصفر والتي اصبحت جزءاً من الصين ، وبالأولى ما اصبح الان فيتنام ، انما وصلتها المدنية لما تصينت (اي

اصبحت صينية) . وقد تم جزء من هذا عن طريق تمثل شعبها الأصلي ، والجزء الآخر جاء عن طريق انسياح المتوطنين الصينيين من الشمال إلى المنطقة . ولا يمكن صرف النظر عن هذه الرواية لمجرد اعتبارها أنها تعكس تحاملا حضاريا صينيا ، ذلك أنها تلقى تأييدا في الوجود المستمر لمناطق صغيرة حتى القرن التاسع عشر م . يقطنها مواطنون متفردون بدائيون حضاريا في الأجزاء الجبلية الصعبة المرتقى في الجزء الجنوبي من حوض ينغتسي تانغ . كما أنه لا يزال هناك شعوب بدائية تعيش في محاذاة التخوم بين الحد الجنوبي للصين الحالية وجيران الصين في جنوب شرق آسية . ولا بد لنا بعد من العمل على الكشف عن المنطقة التي دجنت فيها نبتة الأرز والجاموس المائي أصلا .

في الوقت الذي كانت المدنية الشانغية تظهر في حوض النهر الأصفر في الصين ، كانت أميركا الوسطى تبدأ المرحلة « التكوينية » في الحضارة . ونستطيع نحن ان نعادل هذا بالعصر الحجري الحديث في العالم القديم ، اذا اعتبرنا ان اختراع الزراعة لا اختراع تقنية صقل الأدوات الحجرية ، هو الانجاز المميز للعصر الحجري الحديث . ففي نحو سنة ١٥٠٠ ق. م . كانت شعوب اميركا الوسطى قد انتقلت من « العصر البائد » ، وهو العصر الذي كانوا فيه يعتمدون على جمع الأغذية والصيد لتحصيل قوتهم ، إلى عصر جديد يسمى « التكويني » الذي اعتمدوا فيه على الزراعة لتوفير حاجات المعيشة . ولا يكاد يساورنا شك في أن تدجين الذرة الصفراء قد تم على يد الإنسان العاقل الأميركي الذي كان يقطن البلاد قبل وصول كولمبس . والذرة الصفراء لم تكن معروفة في العالم القديم إلا لما استوردها من أميركا الأوروبيون الذين وصلوا العالم الجديد لما عبروا المحيط الاطلسي . ومع ذلك فإنه كان هناك تأخر زمني ، بين تدجين نبتةٍ منتجةٍ للطعام وبين إقامة نظام اقتصادي بحيث تصبح فيه زراعة هذه النبتة الوسيلة الأساسية للغذاء ، الأمر الذي لم يكن له نظير في تاريخ العالم القديم الاقتصادي . ففي العالم القديم جاء الانتقال من جمع الأغذية إلى الاعتماد على الزراعة كوسيلة أساسية للعيش ، على ما يبدو ، بعيد نجاح التدجين . وليس ثمة ما يدل على وجود تأخر زمني . وقد كان التأخر الزمني في اميركا الوسطى نحو ١٠٠٠ سنة ، ومن الممكن انه وصل حتى ٢٥٠٠ سنة . وهذا الفرق في السير في هذه المرحلة ، وهو الذي يوضح لنا السبب في التأخر الاقتصادي والتكنولوجي في المدنيات الاميركية السابقة لكولمبس، لا يزال بحاجة إلى تفسير .

١٤ ـ انسياح الشعوب في العـالم القديم نحـو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق. م .

إنّ كل المدنيات الإقليمية في العالم القديم، من المينوية والميكانية في حوض البحر الإيجي ، إلى الشانغية في وادي النهر الأصفر ، تعرضت ، في غضون القـرون الثلاثـة الممتـدة من ١٢٥٠ الـى ٩٥٠ ق. م. ، الى هجوم عنيف قـامت بـه شعـوب همجيـة نسبيا ؛ وقد أدّت هذه الاضطرابـات الى تنقلات هـامة في السكـان . وحتى المهاجمـون الذين كانوا قد ردوا على أعقابهم انتهى بهم المطاف الى الاستيلاء ، عن طريق التسلل السلمي على الأرض التي فشلوا في الحصول عليها بقوة السلاح . وترتب على ذلك في النهاية تبدل واسع النطاق في خارطة المدنيات الأقليمية للعالم القديم . فقد أضعف هذا الأمر المدنيات الأقدم منها . ودمرت بعض من المدنيات الأحـدث ، كما ظهـرت بضع مدنيات جديدة في الصدوع الجغرافية التي تفتقت عنها الأنقـاض . وقد كـان لانسياح الشعوب هذا أثر ثوروي أكبر من ذلك الذي حدث في القرن الثامن عشر ق. م .

ونحن نملك دليلا وثائقيا مصريا معاصرا للإنسياح الذي تم بـين ١٢٥٠ و٩٥٠ ق . م . وهذا الدليل فريد من نوعه ، وهو يلقي الضوء على مسيرة انسياح الشعـوب ونتائجه في مناطق أخرى . والدليل الأثري من المنطقة الايجية ينسجم تماما مع الدليـل المصري الوثائقي ؛ فهو معاصر له مثله في ذلك مثل الدليل المصري ، ولكنـه يختلف عن هذا الأخير في انه صامت . فالدليل المصري يضع بين أيدينا معلومات عن تواريخ تمت فيهـا هجرات الشعـوب ، وعن أسماء الشعـوب المهـاجـرة ، وهي أمـور لا يمكن استخراجها من تسلسل الفخار الـزمني ، ومن آثار الخراب الذي أحـدثه الإنسـان في المنطقة الإيجية . والضوء الذي يلقيه الدليل المصري على انسيـاح الشعوب في المنـاطق الأبعد الى الشرق ينير لنا الطريق لكنه ليس واضحاً كلياً .

فنحـو سنة ١٢٢٠ ق . م . هـاجم الليبيـون (ليبـو) مصـر من الغـرب ، وفي صحبتهم المشوش وغيرهـم من الشعوب البربرية ، كما كانوا قد تقووا بخمسة « شعوب

بحرية» واستطاعوا الوصول الى الزاوية الشمالية الغربية من الدلتا قبل ان يصدهم او يهزمهم الفرعون مرنفتاح (حكم نحو ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق . م .) ، ولم تكن هذه غزوة ، بل ولا حملة حربية ؛ لقد كانت محاولة للهجرة ، ذلك بأن القادمين حملوا معهم نساءهم وأولادهم وأنعامهم وأموالهم المنقولة . وقد كان أحد الشعوب [البحرية] الخمسة المقهورة هو شعب لوكا الذين من المؤكد انه جاء من جنوب غرب آسية الصغرى ؛ وكان الأخائيون شعبا آخر من هذه الشعوب ، الذي لعله جاء من بلاد اليونان القارية او من كريت حيث كانت جماعة واحدة على الأقل من المهاجمين الاخائيين قد استوطنت هناك . والشعوب الثلاثة الأخرى المقهورة من شعوب البحر ، كانت الشكلش والشردن والتورشا . وهذه الشعوب الثلاثة تظهر ، بعد نحو خمسمئة سنة ، من جديد بأسماء الصقلي والسرديني والترزينوي (الأترسكيّين) ، فيما يظهر المشوش من جديد باسم الماكسي (أو الماخسي) في ما يسمى اليوم البلاد التونسية . لكن هذه المواقع الغربية لهذه الشعوب كما تبدو في الألف الأخير ق . م . قد لا تكون هي المواطن ذاتها التي هاجروا منها في سنة ١٢٢٠ ق . م . فهذه المواقع التي انتهوا إليها قد تكون الملاجىء التي اتخذها هؤلاء المهاجرون بعد ما فشلوا في الاستيطان في مصر .

وقد نقش مرنفتاح ، في وقت لاحق ، أخبار إنجازاته العسكرية ، ولكنه لم يكتف بذكر انتصاره الساحق على الليبيين، بل ذكر أنه «خطّي» كانت تتمتع بالسلم وأن أرض كنعان قد تعرضت للنهب واحتلت بعض أجزائها وأن إسرائيل قد دمرت . ويستفاد من ذكر هذه الأمور ان الإمبراطورية الحثية لم يكن قد قضي عليها بعد في أيام مرنفتاح ، كما أنها لم تحاول ان تتخطى الحدود بين منطقة نفوذها ومنطقة النفوذ المصري التي اتفق عليها في سنة ١٢٧٠ ق. م. وذكر إسرائيل يدل على ان الهجرة من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب كانت قد بدأت . وهذه الهجرة لم تحمل فقط قبائل إسرائيل ويهودا الى أرض كنعان ، بل حملت أيضا جماعة من المتكلمين باللغات السامية وهم الكلدانيون ، إلى الجزء الجنوبي الغربي من سومر ، وجماعة أخرى مثلهم ، وهم الأراميون شمالا إلى الطرف الشمالي من وادي الخلع الكبير ، فيما هو اليوم تركية ، وشرقا إلى حدود أشور الغربية وجنوبا في شرق إلى البلاد الواقعة بين ضفة دجلة الشرقية والمنحدر الغربي للهضبة الإيرانية .

وقد صد رعمسيس الثالث (حكم نحو ١١٩٨ - ١١٦٧ ق . م .) هجمات

أخرى على مصر من الغرب ، وذلك نحو سنتي ١١٩٤ و١١٨٨ . ولكن البرابرة (الليبيين والماكسيين والقبائل الأخرى معهم) لم يتقووا بالشعوب البحرية في هاتين المناسبتين . ذلك بأن الشعوب البحرية ، هاجمت مصر مستقلة هذه المرة وجاءتها من الجهة الشمالية الشرقية . وللمرة الثانية لم يكونوا يقصدون الغزو ، بل الهجرة . وقد بدأوا تحركاتهم من نقطة في الأرخبيل الإيجيّ (الذي لعله لم يكن موطنهم الأصلي) وساروا ، برا وبحرا في وقت واحد ، عبر آسية الصغرى وبلاد الشام وسواحلها ، فقضوا على الإمبراطورية الحثية ، ولم يكتفوا بتخريب الجزء الأصلي منها أي خطّي بل إنهم خربوا ارزاوا في غرب آسية الصغرى ، وكودي (كيليكيا الشرقية ؟) وكركميش الواقعة على الكوع الغربي للفرات ، والاشيا (قبرص) كذلك . وبعد ذلك اتخذوا لهم محطة جديدة في عمور ـ وهي المنطقة التي سميت باسم العموريين الذين خرجوا من الجزيرة العربية نحو سنة ٢٠٠٠ ق . م . وهذه المنطقة يرجح أنها كانت تقع في الجزء الجنوبي من الأملاك السورية التابعة للإمبراطورية الحثية ، التي كان قد قضي عليها الآن . ومن هنا تقدمت « الشعوب البحرية » براً وبحراً في وقت واحد ، كما فعلت من قبل .

يظهر ان رعمسيس الثالث اهتم اهتماما بسيطا بالدفاع عن أملاك مصر في فلسطين وجنوب سورية . ويبدو أن المهاجرين الإسرائيليين والأراميين كانوا قد استقروا هناك في ذلك الوقت . وقد ركز رعمسيس الثالث اهتمامه على مقاومة اسطول « شعوب البحر » وأنقذ مصر في السنة الثامنة من حكمه (اي سنة ١١٩١ ق . م .) إذ انتصر في معركة بحرية على مقربة من الزاوية الشمالية الشرقية للدلتا . إلا أن هذه النكبة البحرية لم تحل دون « شعوب البحر » والانتقال من عمور برا والاستقرار نهائيا على الساحل الذي كان جزءا من أملاك مصر الأسيوية . وقد ظهر الشكلش بين « شعوب البحر » في سنة ١١٩١ ق . م . كما كانوا قد ظهروا في سنة ١٢٢٠ ق . م . ، لكن بقية أعضاء التحالف لم يكونوا أنفسهم في المرتين . ففي سنة ١١٩١ ق . م . كان حلفاء الشكلش هم الدانو (داناوي) والتجكر (تويكروي) والبلست (الفلسطينيون) والوشش (لم يتعرف عليهم بعد) . ويبدو وكأن الدانو استقروا في كيليكيا الشرقية والتجكر في دورا ، الواقعة جنوبي جبل الكرمل . فيما انشأ البلست خمس دول ـ مدن في الطرف الجنوبي من فلسطين الساحلية .

وقد حفظت القيود المصرية اسمي القائدين الليبيين اللذين قادا تحالف الشعوب المهاجرة . وقد رد أولها مرنفتاح نحو سنة ١٢٢٠ ق . م . ، اما القائد الآخر فقد صده رعمسيس الثالث نحو سنة ١١٨٨ ق . م . إلا أن اسما أشهر من ذلك هو موسى ، وهو ، بحسب الرواية الاسرائيلية ، الذي قاد الإسرائيليين في تنقلهم من مصر الى عبر الاردن الأمر الذي كان منطلقا لاحتلال بعض البلاد السورية [الفلسطينية] التي استولوا عليها في ما بعد ، لكن القيود المصرية لا تثبت تاريخية موسى . وثمة على الأقل مصريان يسميان موسى يظهران في القيود المصرية العائدة الى القرن الثالث عشر ق . م . ويبدو أن الأسم ، بهذا الشكل الذي يظهر به ، هو اختصار لاسم الهي مركب آخره هو موس أو مسه ، ويكون عندها الجزء الأول من المركب هو اسم لإله . والأمثلة المعروفة على هذا هي احموس (اموزيس) وتحتموس (تحتميس) ورامس (رعمسيس) . وبحسب الرواية الإسرائيلية فإن موسى ربي في مصر وكان موحدا . وإذا كان في هذه الرواية شيء ذو قيمة فإن الأغلب احتمالا هو أن اسم موسى الكامل هو اتون ـ موسى ، لأن عبادة أتون هي الدين التوحيدي الوحيد الذي له قيد في التاريخ المصري الفرعوني .

من المؤكد أنه بعد ان حلت اللعنة على ذكرى الفرعون اخناتون ، ما كان من الممكن أن يعطى اسم مركب مع اسم قرص الشمس لأي مواطن مصري ، دون أن يتعرض مثل هذا الشخص للعقوبة . على أن الرواية الإسرائيلية تمثل موسى وكأنه قد قضى بعض الوقت ، قبل أن يقود الإسرائيليين في خروجهم من مصر ، في أرض كانت خارج سيطرة الحكومة المصرية . ومعنى هذا أنه إذا كانت ديانة اخناتون قد اتيح لها ان تستمر ، فإن ذلك كان في أرض ليست مصرية ، ولكنها كانت مصرية سابقا . وتظهر الرواية الإسرائيلية ان موسى قد عقد اتفاقا ، بعد الخروج ، بين اسرائيل وأله اسمه يهوه . وقيل ان اسم هذا الإله لم يكن معروفا عند الإسرائيليين . وقد فسر اسمه (يهوه) تفسيرا مبدئيا بأنه يعني « الحياة » او « الواهب الحياة » ، وهذان كانا من صفات اتون .

وهذه الاعتبارات توحي بأن موسى قد يكون شخصا حقيقيا ، مثل نظيريه الليبيين واللذين قد يكونان معاصرين له وهما مارايي ومشر ، الثابت وجودهما تاريخيا . وحتى لو أنه لم يقد الإسرائيليين خارج مصر فلعله كانت له خلفية حضارية مصرية .

فتاريخية موسى لا تكذبها الأسطورية الواضحة في العناصر الواردة في الرواية التي تقص تاريخ حياته . فبعض الشخصيات الشهيرة التي لا يرقى الشك إلى تاريخها ، أصبحت توائم أبطالا فولكلوريين أسطوريين . وعلى سبيل المثال فليس من ريب في تاريخيّة كورش الثاني ، مؤسس الإمبراطورية الأشمينية ، ومع ذلك فإن القصة الأسطورية المتعلقة بنجاة بطل بأعجوبة في طفولته من خطرٍ كبير كان يهدد حياته ، التصقت بقصة حياة كورش الثاني الطفل ، على نحو ما التصقت بطفولة موسى .

لقد أنقذ المصريون بلادهم من فتحٍ واحتلال بالقوة على أيدي مهاجرين برابرة ، لكن الثمن كان غاليا . فق أجهدت مصر وانقسمت البلاد نحو سنة ١٠٨٧ ق . م . إلى دولتين (وهذا دليل ساطع على ضعف مصر) وقد استمرت طيبة عاصمة الواحد منهما ، فيما كانت تنيس ، الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية للدلتا ، عاصمة الثانية ، ويبدو أنّ هذه اصبحت عاصمة للعمل العسكري المصري منذ أيام رعمسيس الثاني نحو سنة ، ١٢٩٠ ق. م. ولما ارسلت حكومة طيبة وينامون (دين آمون) نحو سنة ١٩٠٩ ق. م . الى جبيل (بيبلوس) ليبتاع الأخشاب من هناك ، عومل باحتقار ، حتى في هذه المدينة التي كانت شريكا تجاريا لمصر لمدة نحو ألفي سنة . فقد رفض ملك جبيل أن يقطع الأخشاب من جبل لبنان لوينامون ، الى أن تلقى ثمنها من الحكومة المصرية في تنيس . (لقد كانت الحكومتان المصريتان على وفاق في علاقتهما الواحدة بالأخرى) .

وعلى كل فقد كانت النتيجة الأهم لصد المصريين للهجوم الحربي الذي قام به الليبيون وشعوب البحر هي قيام حكم ليبي في مصر في نهاية الأمر ؛ وقد تم هذا بطريقة تدريجية قوامها « الانسياب السلمي » ؛ فقد قامت اسرة جديدة (الأسرة الثانية والعشرون) نحو سنة ٩٤٥ ق . م . ولبس فراعنتها التاج المزدوج وتسموا ، زعماء المشوش . ولا نعرف فيما إذا كان هؤلاء هم أحفاد أسرى الحرب الذين أسروا في السنوات ١٢٢٠ و١١٩٤ و١١٨٨ ق . م . أم أنهم كانوا نسل الليبيين الذين دخلوا مصر سلما فيما بعد ، وبموافقة المصريين أنفسهم . وعلى كل حال فإنه يبدو وكأن تسلم المشوش للحكومة الفرعونية نحو سنة ٩٤٥ ق . م . كان سلميا وأن الأمر قد تم الاتفاق عليه بين الجندية الليبية والكهانة المصرية . فقد احترم الليبيون الاستقلال الذاتي لأربع دول هياكل ـ لا لطيبة فقط ، وهي التي كانت تحت حكم الكاهن الأعلى لأمون ـ رع منذ نحو سنة ١٠٨٧ ق . م . ، بل أيضا لهليوبوليس وممفيس وليتوبوليس ؛ وقد تركت

تحت حكم الكهنة المحليين للآلهة رع وفتاح وحورس .

وهكذا فقد استسلمت مصر في النهاية الى إنسياح الشعوب البربرية . فالليبيون الذين كان المصريون قد دحروهم ثلاث مرات على الأقل انتهى بهم الأمر إلى إنشاء طبقة عسكرية في مصر ، وبالاشتراك مع الكهانة المصرية الوطنية ، وذلك لما ظهروا في مصر وهم مدججون بالسلاح . وقد دون تاريخ انسياح الشعوب في مصر في قيود معاصرة له . أما في غير ذلك من الامكنة ، وذلك باستثناء ما يمكن أن يؤخذ من المعلومات المصرية الموثقة التي قد تشير الى مناطق خارج مصر ، فإن الدليل المعاصر هو أثري ، أما دليلنا الأدبي فهو رجعي الرواية . اذ أنه مستمد من روايات كانت قد مرت عليها ، في بعض الحالات ، أجيال عدة قبلما دونت . وفي المنطقة الآيجية ثمت تناقضات في عدد من الأمور بين الدليل الأثري والرواية ، وهذا ينقص من قيمة الرواية ، لكنه لا يضع بين أيدينا المعلومات الإيجابية الصحيحة . وتاريخ انسياح الشعوب في حوض البحر الإيجي بين نحو ١٢٥٠ و٩٥٠ ق . م . يجابهنا بالكثير من الأحاجي التي لم يستطع الدليل الأثري أن يحلها إلى الآن .

لدينا الدليل الأثري على أن الضواحي الواقعة خارج القصر الحصين في ميكاني قدتعرضت لهجوم قبل نهاية القرن الثالث عشر ق . م . وقد نهبت كل القصور الميكانية ، باستثناء الأكروبوليس في أثينا ، نحو سنة ١٢٠٠ ق . م . وقد نهب قصر ميكاني للمرة الثانية نحو سنة ١١٥٠ ق . م . ومن ناحية ثانية ، فليس ثمة دليل أثري على حدوث تخريب مماثل في كريت أو ثساليا ؛ وقد نجت أتيكا الشرقية والجزر الإيجية تماما . كما نجت الجزر الأيونية ايضا ، وقد أصبحت الزاوية الشمالية الغربية من البلوبونيز ، المجاورة للجزر ، ملاذا للاجئين الذين حملوا حضارة أجدادهم الميكانية معهم . ويشير الدليل الأثري ايضا إلى أن موجات متعاقبة من اللاجئين الميكانيين احتلت قبرص خلال القرن الثاني عشر ق . م . وليس ثمة تناقض بين هذا الدليل الأثري الإيجي والدليل المصري الموثق المعاصر له ؛ ذلك بان رعمسيس الثالث لما ذكر أن هجرة « شعوب البحر » ـ وهي الهجرة التي أوقفها هو ـ قد بدأت من الجزر الإيجية لا يقول بأن الجزر نفسها قد خربت ، إلا أنه يقول بأن قبرص كانت واحدة من البلاد التي دمرها المهاجرون وهم في طريقهم الى مصر .

كان الميكانيون قد دمروا الحضارة المينوية ، والآن جاء دور مدنية الميكانيين

بالذات لتنال حظها من التدمير . وبعد النكبة التي حلت نحو سنة ١٢٠٠ ق . م فقد حوض البحر الإيجي الفبائيته . وقد نشأت كتابة مقطعية مستوحاة من واحدة من الكتابات الأيجية الخطية ، إن لم تكن مشتقة منها أصلا ، واستعملت في قبرص لكتابة اللغة اليونانية ؛ وهي التي يبدو أن المهاجرين اليونان الميكانيين قد ادخلوها الى قبرص في القرن الثاني عشر ق . م . وهذه الكتابة استمرت حتى بعد إدخال الحروف الهجائية الفينيقية ، وظلت تستعمل جنبا إلى جنب مع هذه حتى القرن الثالث ق . م . أما في كريت وبلاد اليونان القارية فقد دخلت الكتابات الإيجية غياهب النسيان . وقد اكتشفت النقوش في آخر الأمر ، وحلت رموز النقوش المدونة بالخط ب (B) تبعاً لذلك في القرن العشرين للميلاد . على أن الألفبائية لم تكن الخاصية الحضارية الوحيدة التي فقدتها بلاد اليونان لما سقطت المدنية الميكانية . إذ أن فن العمارة أهمل ايضا . ولم تصنع المصابيح بعد ذلك . وكان ثمة فقر عام . واختفى الذهب وتخلى الناس عن زي اللباس الأنيق الذي كان الميكانيون قد نقلوه عن المينويين . وإذا نحن أخذنا في الاعتبار عدد الأماكن التي نعرف انها استوطنت في القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق . م . على التوالي ، وجدنا أنه كان هناك هبوط كبير جدا في عدد السكان في المنطقة التي كانت المدنية الميكانية منتشرة فيها بشكل عام ، ولو أنه كان هناك زيادات محلية في مناطق استقر فيها اللاجئون .

ليس ثمة دليل قاطع على أن المناطق التي دمرت ، والتي هرب منها اللاجئون ، قد احتلها المدمرون انفسهم ، فإذا كان هؤلاء هم « شعوب البحر » فقد استمروا في سيرهم لنهب مناطق أخرى تقع إلى الشرق والجنوب ، على ما يبدو من شهادة الوثائق المصرية . ويبدو أن الجزء الجنوبي من البلوبونيز (مسينيا ولاكونيا) قد أقفر من أهله تقريبا خلال القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق . م . ولكن حتى نحو سنة ١٠٥٠ ق . م . كان السكان الباقون في المناطق المدمرة ، لا يزالون يحتفظون بالمدنية الميكانية على صورة منحطة . وفي هذا الوقت بالذات أخذت مدنية جديدة ، ذات أسلوب مميز خاص بها ، تظهر في المنطقة التي كانت من قبل تقع تحت نفوذ المدنية الميكانية التي عُفي عليها الآن .

ثمة دليل أثري على أن استعمار أيونيا (وهي الجزء المتوسط من ساحل آسية الصغرى الغربي) على أيدي سكان جاؤ وا من بلاد اليونان بدأ في القرن العاشر ق .

م . ولكن ليس هناك دليل أثري على وصول الشعب الذي كان يتكلم اللهجة الشمالية الغربية من اللغة اليونانية والذي عرف في زمن لاحق باسم الدوريين . والدليل على هجرتهم هو خارطة اللهجات للعالم الناطق باللغة اليونانية في الألف الأخير ق . م . ونجد على هذه الخارطة ان المنطقة التي يقطنها الناطقون باللهجة الشمالية الغربيةتمتد امتدادا قطريا من ابيروس في الشمال الغربي الى الدوديكانيز وإلى الزاوية الجنوبية الغربية من آسية الصغرى القارية في الجنوب الشرقي . وقد كانت ثمة لهجة مختلفة ، هي الأركادية ـ القبرصية ، تستعمل الآن على جانبي منطقة اللهجة الدورية . وهذه اللهجة اللادورية لا بد ان يكون قد جاء بها إلى قبرص اللاجئون الميكانيون اليونان الذين استقروا هناك . ولا بد أنها احتفظ بها في أركاديا لأن هذا الجزء ، وهو قلب البلوبونيز ، كان معقلا طبيعيا لذلك . وفي الواقع فإن اللهجة الأركادية ـ القبرصية من اليونانية التي تعود الى الألف الأخير ق . م . وثيقة الصلة باللهجة اليونانية من العصر الميكاني والتي تحتوي عليها الكتابة المعروفة بالخط ب (B) .

ليس من الممكن ان يكون الانتشار الجنوبي الشرقي للناطقين باللهجة اليونانية الشمالية الغربية قد تم في وقت متأخر عن القرن العاشر ق . م . والدليل الأثري على استمرار الأسلوب الميكاني للحضارة المادية في المنطقة التي دمرت نحو سنة ١٢٠٠ ق . م . لا يحول دون احتمال وقوع الهجرة المسماة بالهجرة الدورية في وقت مبكر يعود الى القرن الثاني عشر . فالمهاجمون البرابرة يمكن ان يمحوا آثار سيرهم باقتباس الحضارة المادية التي كانت لضحاياهم المتمدنين .

وقد بلغ التدمير الذي تم بسبب انسياح الشعوب بين نحو ١٢٥٠ و٩٥٠ ق . م . حدّه الأقصى في حوض البحر الإيجي . ثمة عدد من الحالات المعروفة التي يحدث فيها أن تستبدل جماعة الفبائية كتابة بأخرى ، لكن انعدام الألفبائية بالذات في حوض البحر الأيجي نحو سنة ١٢٠٠ ق . م . هو بحد ذاته حدث فريد ، وهو يدلنا على عنف النكبة التي ادت إليه . وقد كان حظ مدنية آسية الصغرى أفضل . فمع أن الإمبراطورية الحثية قد قضي عليها، كما قضي على الامارات الميكانية، إلا إن الدول التي خلفتها استمرت في شمال سورية وهي المنطقة التي انتزعها الحثيون من أيدي المصريين ؛ وهؤلاء اللاجئون الحثيون استمروا في استعمال الكتابة الهيروغليفية اللوفيانية ، التي كانت قد اخترعت في آسية الصغرى قبل انسياح الشعوب ، مع أنهم

تخلوا عن استعمال الكتابة السومرية في كتابة اللغة الهندية الاوروبية الحثية واللغة الأكدية .

لقد كان للقضاء على الإمبراطورية الحثية نتيجة باقية وكان لها أهمية عالمية . فقد قضى ذلك على الحظر الذي كان مفروضا على انتشار تقنية إنتاج الحديد المطاوع الذي كان كالبرونز في قسوته . ويبدو أن هذه المعرفة كانت قد اكتشفت في آسية الصغرى . ولما وصل اليونان الى البحر الأسود عزوا هذا الاختراع الى شعب أسطوري ، هو الخاليبس ، والذي عيّنوا موطنه على شاطىء آسية الصغرى الشمالي . وهذه المنطقة لم تدخل في نطاق الإمبراطورية الحثية ، ولكن الحثيين تمكنوا من احتكار الاختراع والحفاظ عليه لأنفسهم على أنه سر ثمين للدولة . وقد كان ملوك الحثيين يهدون ، بين الفينة والفينة ، مصنوعات حديدية على أنها هدايا مختارة تقدم إلى الحكام الأجانب ؛ ولكن الحديد ظل يهتم به ، خارج الإمبراطورية الحثية وحتى سقوطها ، على أنه واحد من المعادن الثمينة .

ففي واقع الأمر نجد ان تقنية صنع الأسلحة والأدوات من الحديد المطاوع هي أكثر تعقيدا وأصعب نسبيا في حذقها ، من تقنية صنع المعدات المساوية لها في الصلابة من البرونز . والدافع الى استعمال الحديد يعود إلى يسر الحصول على الحديد الخام في كل مكان تقريبا (طبعا باستثناء اماكن معينة مثل المناطق الرسوبية في حوض دجلة والفرات الأدنى) . فالحصول على النحاس الخام ، إذا قوبل بالحصول على الحديد الخام هو نادر ؛ وأندر منه الحصول على القصدير . ولما كان البرونز هو مزيج من النحاس والقصدير فالأحوال التي تمكّن المرء من إنتاجه هي أصلا إمكان نقل الكتل المعدنية مسافات طويلة . ومن ثمّ فهناك أفضلية لاستعمال الحديد بدل البرونز في الأماكن والأزمنة حيث تتعطّل وسائل المواصلات .

وقد حدث هذا بعد سلسلة النكبات التي أصابت العالم الأيجي في القرن الثاني عشر ق . م . ، ومن ثم فلم يكن من الغرابة في شيء ان يبدأ استعمال الحديد لصنع الأدوات والأسلحة في أثينا نحو سنة ١٠٥٠ ، ق . م . وأثينا تقع على مقربة من آسية الصغرى . وقد استمر استعمال الحديد هنا ، على أنه المعدن الصناعي الأول ، لمدة القرنين التاليين ، ولكن إذ بدأت بعد ذلك وسائل الاتصال بالتحسن عاد البرونز الى السوق لبعض الأغراض ، لكنه كان يستعمل جنبا الى جنب مع الحديد . وفي الجهة

الثانية فان الحديد لم يأخذ محل النحاس كمادة للأدوات إلا نحو القرن السابع ق . م . فقدّ صدّ المصريون « شعوب البحر » ، ولم يصب حياتهم الاضطراب التام ، وقد اصبح المصريون محافظين نتيجة رد الفعل على الثورة التي تلت سقوط المملكة القديمة . وقد كانت كمية الحجارة التي قطعت في مصر الفرعونية أكبر من أي كمية قطعت في أي مكان آخر وفي أي فترة تلت ذلك . ومع ذلك فإن أكثر ما قطعه المصريون من الحجارة تم قطعه بأدوات مصنوعة من النحاس غير الممزوج بأي معدن آخر . ذلك بأنهم لم يتقبلوا حتى البرونز بيسر . وقد كان حوض النهر الأصفر بعيدا عن المراكز المشرقية للمدنيات القديمة ، ومع ذلك فان الصينيين كانوا قد حذقوا في صنع البرونز نحو القرن الخامس عشر ق . م . وقد اصبحت مهارتهم كصانعين للبرونز كبيرة ، وكانت المصادر التي يحصلون منها على الحديد والقصدير دوما في متناول أيديهم . وقد يفسر هذا بعض الشيء السبب في أن الحديد لم يتغلب على البرونز باعتباره المادة الأساسية لصنع الأدوات والأسلحة حتى نحو القرن الرابع ق . م .

وتظهر خارطة اللهجات في آسية الصغرى في الألف الأخير ق . م . منطقة مقحمة للغة تراكية ـ فريجية تمتد قطريا من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، على نحو ما كانت تمتد منطقة اليونانية « الدورية » ، في حوض البحر الأيجي . وقد تكرر هنا ما حدث من قبل وهو أن اللغات التي كانت منتشرة قبلا ، وهي اللوفائية والحثية في هذه الحالة ، استمرت على جانبي المنطقة : الحثية في شمال سورية واللوفائية في غرب آسية الصغرى (اي في ليكيا وكاريا وليديا) . ولم يكن الفريجيون ، على وجه التأكيد ، مماثلين « لشعوب البحر » . وقد دخلوا آسية الصغرى من تراكيا ، لا من الأرخبيل الإيجي ، وملأوا فراغا كانت « شعوب البحر » قد احدثته . لكن الدليل الأثري لم يبين لنا تاريخ هجرتهم ، كما أنه لم يبين لنا تاريخ هجرة اليونان المتكلمين بالدورية .

ويبدو ان تحركات الكلدانيين والاسرائيليين والأراميين كانت قد تمت قبل ذلك بمدة . فقد كان الاسرائيليون في فلسطين قبل نهاية حكم الفرعون مرنفتاح اي قبل ١٢١٤ ق . م . ومن الجهة الثانية فإن ضغط الأراميين على الجزيرة وشمال سورية لا يبدو أنه كان شديدا في أيام الملك تغلت ـ فلسر الأول الأشوري (حكم نحو ١١١٤ - ١٠٧٦ ق . م .) ، اذا تذكرنا انه نجح في مسيرته غربا حتى وصل الى شاطىء البحر المتوسط . وأشور لم يمسها أذى من انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق . م . على

نحو ما أصابها من انسياح الشعوب في القرن الثامن عشر ق . م . فقد وقعت في هذه الفترة تحت سيطرة ميتاني ، اما في فترة ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق . م . فقط حافظت على استقلالها . ولم « تعبر » شعوب البحر ، في هجرتها المخربة التي انتهت سنة ١٢٩١ ق . م . ، نهر الفرات ؛ كما أن نهر الفرات وسلسلتي جبال طوروس وانتيطوروس كانت حواجز قوية في طريق الفريجيين في سيرهم اتجاه أشور .

تاريخ الهند بين سنتي ١٢٥٠ و٩٥٠ ق . م . غير معروف . فقد يكون المهاجمون الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية قد دخلوا حوض السند ودمروا المدنية السندية قبل ذلك بربع الألف من السنين . والرأي البديل هو أن لا يكون هؤلاء قد وصلوا حوض السند إلا نحو سنة ١٢٥٠ ق . م . وعلى هذا فإذا كان هذا هو تاريخ وصولهم هناك ، فقد تكون هجرتهم نتيجة لزحزحتهم على أيدي مهاجرين انقضوا عليهم من السهوب الأوراسية من الخلف .

وقد قضى على أسرة شانغ في حوض النهر الأصفر أتباعهم التشو وقاموا مكانهم في سنة ١١٢٢ ق . م . ، إذا نحن قبلنا التأريخ المعترف به رسمياً ، أو في سنة ١٠٢٧ق . م . ، إذا اتبعنا حسابا آخر قد يكون أقرب إلى الصواب . وقد هاجم التشو سهل شمال الصين من حوض الواي ، وهو رافد للنهر الأصفر ، اي من الجهة التي لعلها أوصلت للصين ، في ما سبق من الزمن، بعض عناصر الحضارة من المناطق الواقعة الى الغرب وذلك عن طريق السهوب الأوراسية . ولكن الدليل الأثري لا يشير الى أن التشو حملوا معهم أي تجديدات حضارية . والتبديل السياسي من شانغ إلى تشو لا يبدو أنه أحدث صدعا في الاستمرار الحضاري ، على نحو ما حدث في بلاد اليونان نتيجة للقضاء على الأمارات الميكانية . ويبدو أن التشو كانوا صينيين ، او على الأقل أنهم قد أصبحوا صينيين تماما حضاريا ، قبل أن يحلوا محل شانغ . ففنا الكتابة وصنع البرونز لم يبقيا بعد تبدل الحكم فحسب ، بل استمرا في التقدم .

فضلا عن ذلك فإن تبديل الأسرة لا يبدو أنه أدى إلى تبديل هام حالي في التركيب السياسي للمجتمع الصيني . والدليل الأثري الذي يوضح النظام الشانغي لا يشمل مصنوعات فحسب ، بل وثائق ايضا أي نقوشا على عظام الموتى . فالذي كشف عنه التنقيب في انيانغ ، التي كانت بحسب الرواية التقليدية ، العاصمة الخامسة من خمس عواصم متتابعة لأسرة شانغ ، يشير إلى ان هذه الأسرة كانت الدولة النافذة في حوض

النهر الأصفر في فترة انيانغ . ولم يكتشف بعد مكان معاصر يمكن أن يكون مركزا لدولة قد تنافسها على منزلتها . وقد ظن أن تشنغ ـ تشو ، الواقعة على نحو مئة ميل الى الجنوب ، كانت من قبل عاصمة لدولة شانغ نفسها . وعلى كل فان نقوش وعظام الموتى ، تظهر ان شانغ كان يقض مضاجعها الخوف من الأعداء ـ وقد أظهرت الحوادث ان هذا الخوف كان في محله .

ولسنا نستطيع أن نتبين من الدليل الأثري لا مدى ما كان يقع تحت نفوذ شانغ مباشرة ، ولا مدى نفوذهم السياسي ؛ إلا أنه من الواضح أن الدولة الشانغية لم تكن إمبراطورية مزودة بإدارة للولايات تحت إشراف فعال للسلطة المركزية على نحو ما بدت عليه الإمبراطورية الصينية في تطوراتها المختلفة بعد توحيد الصين سياسيا في سنة ٢٢١ ق . م . على يد تشين شيه هوانغ ـ تي . ولقب « شيه هوانغ ـ تي » (الأمبراطور الأول) الذي تسمى به الملك تشنغ ، وهو ملك الدولة المحلية تشن ، الذي انتصر في محاولته ، كان اختيارا موفقا ، ذلك بأنه لم تقم من قبل في الصين امبراطورية مركزية تضم كل المنطقة التي كانت تحت نفوذ المدنية الصينية الحضاري . ولم تكن المملكة الشانغية من ذلك النوع . ومن البين أنها كانت أقرب الى النظام الذي خلفها مباشرة أي نظام تشو ، على ما صورته الرواية الصينية في ما بعد ، في نظرتها التي ترنو الى الزمن السابق .

وحتى في أيامها الأولى ، وقبل أن تحل بها النكبة (سنة ٧٧١ ق .م .) التي اضعفتها تدريجا وبشكل عضال ، لم تحكم أسرة تشو حكما مباشراً سوى جزء صغير من البلاد . فقد كان حكمها ، غالبا ، لا يعدو كونه سيادة على عدد من الأتباع المستقلين استقلالا ذاتياً ، وكان عددهم سبعين او تسعين تابعا . وقد كان حكم تشو ضعيفا ، حتى في عزه ، إذا ما قورن بالنظام الوحدوي الذي فرضه شيه هوانغ ـ تي على العالم الصيني لمدة تقارب الثمانمئة سنة . ومن الجهة الثانية فإن حكم تشوكان الراجح حكما قوياً ، اذا ما قورن بحكم شانغ الذي سبقه . فقد حكمت أسرة تشو العالم الصيني المعاصر لهم ، حتى ولو أن الحكم كان غير مباشر . ويبدو أن أسرة شانغ ، التي تغلبت عليها اسرة تشو ، كانت تسيطر على جيرانها بالغارات التي لم تؤد الى إقامة أي علاقات قائمة على مؤسسات بين الدولة المسيطرة والمجتمعات شبه المستقلة التي تقع في متناولها ، والتي كانت تثير الرعب بين أبنائها ، لكنها كانت تخشاها ايضا .

١٥ ـ ظهور مدنية « أولمك » في ميزو ـ اميركا

إن انسياح الشعوب (بين نحو ١٢٥٠ و٩٥٠ ق . م .) الذي كانت له آثار مزعجة ، كالتي ذكرنا ، في العالم القديم من حوض البحر المتوسط ، في الجهة الواحدة ، إلى حوض النهر الأصفر في الجهة الأخرى ، لم يؤثر على الاميركتين ؛ إلا أن حدثا واحدا قد وقع ، في الفترة ذاتها ، على الأقل في منطقة صغيرة من اميركا الوسطى . فنحو سنة ١٢٥٠ ق . م . انتهت مرحلة التكون الحضاري إلى ظهور مدنية هناك. ومرحلة التكون هذه، في دوريها القديم والمتوسط في العالم الجديد، هي نظير مرحلة العصر الحجري الحديث في العالم القديم . والموقع الذي ظهرت فيه المدنية هناك يسمى اليوم سان لورنزو ، ويقع في مرتفع من الأرض مكسو بالغابات ، ويشرف على وادي كولزا كولكوس، وهو النهر الذي يحمل مياه الجهة الشمالية من برزخ تهوانتبك الى خليج المكسيك . وهذا هو أقدم موقع اكتشف حتى الآن لأقدم مدنية معروفة في الأميركتين ـ وهي المدنية التي أطلق عليها مكتشفوها المحدثون « اولمك » .

لم تكن مدنية أولمك في سان لورنزو قد وصلت دور الألفبائية بعد، لكنها أنتجت أعمالا ضخمة في البناء والنحت . ففي مجال البناء أقيم مركز لإقامة الشعائر الدينية ، وقد وسع عن طريق توسيع الأرض ومناظرها وهندستها من جديد على مقياس واسع . وأعمال النحت المتميزة في سان لورنزو ، وفي المواقع التي تلت ذلك ، هي رؤوس بشرية ضخمة نحتت في حجارة بازلتية نقلت الى سان لورنزو من مكان يبعد خمسين ميلا . وهذه الآثار المادية الباقية هي الأدلة الظاهرة على وجود سلطة بشرية كان بإمكانها ان تعبىء المهارة والقوى البشرية على هذا المقياس العظيم في سبيل تحقيق هدف ديني . وقد اتخذت لأله الأولمك الرئيس تماثيل لهولةٍ هي هجين بين كائن بشري ونمر ، [من النوع الأميركي الاستوائي المنقط] . وعبادة هذا الأله كانت ، ولا شك ، القوة الروحية التي دفعت الأولمك الى تحقيق هذه الإنجازات المادية . ولنا أن نخمن ان مثل هذه

الإنجازات كانت في بعضها على الأقل ، نتيجة عمل تطوعي قام به المؤمنون ، إلا أنه يجوز لنا ان نخمن أيضا أن هذه الإنجازات كانت في جزء منها نتيجة السخرة الذي قام به غير المؤمنين ممن كانوا قد غلبوا على أمرهم في الحروب ؛ ذلك بأن سان لورنزو والأولمكية دمرت بعنف يدل على ما كان يضمره المدمرون من استياء وغيظ .

وقد بلغت مدنية اولمك الذروة في سان لورنزو بين نحو سنة ١١٥٠ و٩٠٠ ق . قبل ان يقضى عليها بعنف في هذا الموقع . ولكن في مواقع أخرى ، هي أقرب إلى ساحل خليج المكسيك ، فقد ازدهرت مدنية اولمك بين نحو ٨٠٠ و٤٠٠ ق . م . ، ولم تزل هناك قبل أن تركت آثارها في حضارة عددٍ من الأجزاء الأخرى من أميركا الوسطى .

وقد تناولنا في الفصل الحادي والعشرين [تحت] المراحل الأخيرة من مدنية اولمك كما فعلنا مثل ذلك ايضا بنظيرتها ، مدنية تشافن ، في الأنديز . وعلى كل فلنلحظ هنا بضع صفات غريبة في آثار مدنية اولمك على ما اكتشفت في سان لورنزو . ففي المقام الأول ان مدنية تظهر إلى الوجود بعد ٢٥٠ سنة فقط من وصول الحضارة المحلية مرحلة التكون ، هو أمر يدعو إلى الغرابة ، كما يدعو الى الغرابة وجود فرجة زمنية مدتها ألف سنة على الأقل ، وقد تصل الى ٢٥٠٠ سنة ، بين تدجين الذرة الصفراء في أميركا الوسطى ، وبين الوقت الذي تم فيه إنتاج هذا النبات المدجن بحيث استعيض به عن جمع الغذاء والصيد كمصدر ثابت للحصول على المواد الغذائية هناك ـ وقد تم هذا الانتقال نحو سنة ١٥٠٠ ق . م . وفي المقام الثاني ، من الغرابة ، هو ان الموقع في سان لونزو لا يبدو أنه كان مركزا لأقامة الشعائر فقط ، بل مكانا لاستيطان دائم ، ولعل عدد السكان فيه بلغ نحو الألف . وفي المقام الثالث هو أن مدنية اولمك في سان لورنزو كانت قد بلغت الشمت في الفن والتكنولوجيا ، بين نحو ١١٥٠ و٩٠٠ ق . م . ، واستمرت على هذا المستوى في المواقع المتأخرة التي وجدت فيها .

وفي الوقت ذاته كانت الحضارة « التكونية » التي ظهرت في أميركا الوسطى نحو سنة ١٥٠٠ ق . م . آخذت في الانتشار وبخاصة نحو الجنوب . وفي سنة ٨٠٠ ق . م . كانت مدنية اولمك تظهر في الأراضي المنخفضة في ساحل المكسيك . كما كانت مدنية تشافن آخذة في الظهور في البيرو . وفي ذلك الوقت كانت الحضارة التكونيّة ، لاميركا الوسطى ـ بما في ذلك فن صنع الفخار وزرع الذرة الصفراء ـ قد انتشرت في

الأجـزاء الرئيسـة من الأميركتـين ـ من أميركـا الوسـطى إلى البيرو ، وهـذان المكانـان داخلان . ويغلب القول على أن زرع الذرة الصفراء قد انتشر من أميركا الوسـطى إلى الأجزاء الرئيسة من الأميركتين الواقعـة الى الجنوب من أميـركا الـوسطى ـ بمـا في ذلك البيرو والأجزاء المتوسطة من أميركا وكولومبيا وإكوادور الحاليتين . فالدلائل تشير إلى أن أميركا الوسطى كانت المنطقة التي دجنت فيها الذرة الصفراء اصـلا . وعلى كـل فمهما كان الزمن الذي وصلت فيه الذرة الصفراء الى السواحل الشمالية من البيرو من أميركا الوسطى ، فمن المؤكد ان سكان البيرو كانوا يومهـا قد اختـرعوا الـزراعة لأنفسهم ، وذلك باستقلال عن أميركـا الوسـطى وعن العالم القـديم . وثمة نـوعان من النبـاتات المحلية التي دجنها سكان البيرو ، وهما البطاطا (البطاطس) والكوينو ، وهما من الممكن إنتاجهما في مرتفعات البيرو العالية ، وحتى في المنحدرات الجبلية المدرّجة صناعيـا التي تعلو فوق الهضبة . فالزراعة لم تستثمر بعد في مثل هـذه الارتفاعـات في أي مكان من الأويكومين .

١٦ ـ العالم السومري ـ الأكدي ومصر نحو سنة ٩٥٠ ـ ٧٤٥ ق . م .

كانت المدنية السومرية ـ الأكدية والمدنية المصرية قد قامتا بالقدر الأكبر من إنجازاتهما الخلاقة الكبيرة في كل مجالات النشاط الإنساني ، قبل نهاية الألف الثالث ق . م . وكانتا قد فقدتا ، في سنة ٢٠٠٠ ق . م . المميز السابق لهما ، وهو انهما كانتا من قبل المدنيتين الوحيدتين في الأويكومين . فقد ظهرت مدنيات أقليمية أخرى إلى جانبهما ، وقد حدث في الوقت ذاته ان تعرضت كل منهما ، وهما أقدم مدنيتين في العالم لنكبة قضت عليها . وعلى كل فقد استجمعت كلتاهما قواهما ، قبل بدء الألف الثالث ق . م . وهذه المقدرة على استجماع القوى ، نتج عنها قوة وقدرة على المقاومة مكنت المدنية السومرية الأكدية من البقاء حتى بعد بدء التاريخ الميلادي ، كما مكنت المدنية المصرية الفرعونية ان تستمر حتى القرن الخامس الميلادي .

لقد عرضنا في الفصل الثالث عشر وصفا للدور الذي قامت به المدنيتان الأوليتان في تنمية العلاقات بين كل المدنيات الأقليمية في المشرق . ففي عصر المملكة الحديثة أقامت المدنية الفرعونية إمبراطورية عالمية النزعة وهي التي أصبحت بوتقة لصهر الحضارات . وفي العصر ذاته أصبحت اللغة الأكدية ، التي احتوتها الكتابة السومرية ، وسيلة لاضفاء صيغة كلاسيكية على الآثار الأدبية السومرية الأصل . وقد أصبحت هذه الآثار ، في هذه الصيغة ، جزءا من التراث الحضاري لمناطق كانت تقع خارج حدود العالم السومري الأكدي ـ وعلى سبيل المثال سورية وآسية الصغرى - وصارت اللغة الأكدية ، في الوقت ذاته وسيلة المراسلات الدبلوماسية ليس فقط بين الدول ذات السيادة في المشرق ، بما في ذلك مصر ، بل بين الحكومة المصرية والدول التي كانت تدور في فلكها في فلسطين وسورية ولبنان .

وقد ضعفت سومر وأكد بسبب الفشل السريع الذي تعرضت له الإمبراطورية التي أعادها حمورابي الى الوجود (١٧٦١ ـ ١٧٣٥ ق . م .) والتي كانت العالم السومري

الأكدي بكامله ، بما في ذلك اشور وماري وكركميش . وقد انهكت مصر وتدنت الى المستوى نفسه من العجز السياسي بسبب الجهد الذي بذلته في صد هجمات الليبيين وشعوب البحر ، بين سنتي ١٢٢٠ و١١٨٨ ق . م . ومع ذلك فقد ظل لكل من هذين المجتمعين الهرمين ولاية بعيدة هي التي احتفظت بحيوتها . ان اشور ، كما ذكر ، مع أنه كان قد تغلب عليها الانسياح الشعبي الميتانيّ في القرن الثامن عشر ق . م . ، عادت الى الظهور في القرن الرّابع عشر ق ـ م . كدولة محاربة . ومع أن أشور اضطرت الى اتخاذ موقف دفاعي ، للمرة الثانية ، اثناء الانسياح الشعبي الطويل الأمد ، نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق . م . فقد نجحت في الحفاظ على هويتها السياسية واستقلالها . وعادت أشور الى الاعتداء على جيرانها (من نحو ٩٣٢ ـ ٧٤٥ ق . م .) لكنها لم تكن قد بلغت درجة الحماسة الطائشة والعنف الوحشي ، وهما الأمران اللذان أديا بها إلى الامّحاء في نهاية المرحلة الثالثة من تاريخها ، وهي المرحلة التي بدأت لما تولى تغلت فلسر العرش سنة ٧٤٥ ق . م .

لم تعد مصر ولا المدنية السومرية الأكدية ، في الفترة الممتدة من ٩٣٢ الى ٧٤٥ ق . م . ، مصدرا رئيسا للخلق الحضاري ، ولا حتى عاملا رئيساً في التواصل الحضاري . ففي هذه الفترة قامت المدنيات الأقليمية الحديثة التي ولدت نتيجة لآخر انسياح للشعوب ، بهذين الدورين ـ أي الخلق والتواصل الحضاريين . وهذه الحضارات الحديثة كانت السورية واليونانية الهلينية والهندية الفيدية والصينية ـ مع أن الصين عرفت استمرارية حضارية بين عصر تشووعصر شانغ الذي سبقه ، أكبر من الاستمرارية التي كانت بين المدنيات الحديثة (التي قامت إلى الغرب من الصين) ونظائرها من المدنيات السابقة لها . ومع ذلك فإن أقدم مدنيتين إقليميتين لم تكونا قد استنفذتا كل مقدرتها على الخلق الحضاري . فقد كان لهما بعد من الجاذبية ما يستهوي الأنصار المؤيدين . فقد نفذت المدنية المصرية ، بعد سنة ٩٥٠ ق . م . ، الى منطقة حضارية جديدة في النيل الأعلى بين الشلالين الثالث والرابع . وفي الفترة نفسها نفذت المدنية السومرية الأكدية إلى منطقة حضارية مماثلة تقع الى الشمال من الحاجز الجبلي الذي يفصل بحيرة فان ، ورافدي نهر الفرات الأعلى عن سهول أشور والجزيرة وعن الحوض الأعلى لدجلة .

كان الحكم الليبي الذي اقامته الأسرة الثانية والعشرون (نحو سنة ٩٤٥ ـ ٧٣٠

ق . م .) بعيداً عن الأحداث الهامة ، ومثل ذلك يقـال عن الحكم الكاشي في بـلاد بابل وعن الحكم الوطني الذي خلف الكـاشيين نحـو سنة ١١٦٩ ق . م . والأعمـال الوحيدة التي قام بها الفراعنة الليبيون كانت غزوات عرضية إلى فلسطين، والتي لم تسفر عن أي نتيجة . ومع ذلك فقد كان هذا هو العصر الذي أصبحت فيه بَنْتَا ، التي كانت حصنا على حدود المملكة المصرية الحديثة ، العاصمة السياسية والحضارية لـدولة كـان سكـانها ، مع أنهم لم يكـونوا مصـريين دمـا ، قد تقبلوا الـديانـة المصريـة الفرعـونيـة بحماسة ، كما قبلوا بقية عناصر الحضارة الفرعونية . وثمة منطقة خصبة التربة تمتد على ضفتي النيل ، فوق بنتا وتحتها ، لا تزال تتجاوب مع الري فتعطي غلات غنية .

وأصبحت مملكة بنتا الكوشية ، بسبب هذا الثراء الزراعي ، نحو سنة ٧٣٠ ق . م . كثيرة السكان وقوية بحيث أثارت في نفوس حكامها الرغبة في محاولة إعادة توحيد العالم المصري بأكمله ، بما في ذلـك الدلتـا بالـذات ، تحت نفوذ الملوك الكـوشيين من لابسي التاج المزدوج .

كانت المنطقة الحضارية الجديدة التي نفذ إليها العالم السومري الأكدي بعد سنة ٩٥٠ ق . م . هي أورارتو . وقد أشرنا إلى مـوقعها الجغـرافي في ما سبق . ومن هـذه المنطقة بالذات انحدر المهاجرون الحوريون إلى الهلال الخصيب مع انسياح الشعوب التي جاء في القرن الثامن عشر ق. م . ، والأورارتيون (او الخلدي) الذين عرفوا في الألف الأخير ق . م . ، هم أحفاد الحوريين الذين ظلوا في موطنهم الأصـلي . وقد اتحـدت الدويلات الأورارتية الحورية في القرن التاسع ق . م . وكونت مملكة واتخذت عاصمة لها توشبا الواقعة على الشاطىء الشرقي لبحيـرة فان . ولعلنـا نخمن ان هذا التـوحيد السياسي كان الباعث عليه الخوف من الاعتداء الأشوري . وفي الواقع فقد هـاجم شلما نصر الثالث اورارتو في السنة الأولى من ملكه (حكم نحو ٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق . م .) . وكانت أشور الأكثر تنظيما واستعدادا من النـاحية العسكـرية ، ومـع ذلك فلم يتمكن الأشوريون من احتلال اورارتو . وكانت اورارتو لا تزال باقية على الخـارطة السيـاسية لجنوب غرب آسية في سنة ٦١٢ ق. م . وهي السنة التي سقطت فيها نينوى ، عاصمة أشور .

والجغرافية الـطبيعية تفسـر لنا لمـاذا لم تخضع اورارتـو للدولة التي تمكنت ، قبـل زوالها، من التوسع جنوبا في غرب حتى مصر، وجنوبا في شرق حتى عيلام . إن اورارتو

معقل طبيعي . إن المسافة الى توشبا حتى من أشور ، وهي أقدم عواصم الأشوريين وأبعدها جنوبا ، هي أقصر قليلا من المسافة بين أشور وبابل ، على نحو ما تطير الطائرة . ولكن إذا نحن أردنا السير برا من أشور إلى بابل، استطعنا ذلك على أقصر خط بين المكانين ، إلا أن السير على خط مستقيم من أشور إلى توشبا متعذر تماماً .

فالجيش الأشوري الذي كان يقصد توشبا لم يكن بإمكانه ان يصعد في الوادي الأعلى لنهر الزاب الكبير ذلك لأن هذا هو معقل طبيعي مثله مثل حوض بحيرة فان بالذات . كما أنه يتعذر عليه ان يجتاز سلسلة الجبال المرتفعة التي تكّون سطح تجمع المياه الجنوبي لحوض بحيرة فان . ومن ثم فإن المهاجمين الأشوريين لأورارتو كان عليهم ان يتجهوا من الجزيرة الى وادي دجلة اولا ، لا شمالا ، بل شمالا في غرب عبر الجبال الأقل إعاقة . وبعدها كان عليهم ان يتجهوا شمالا في شرق ليتسلقوا الممر الطويل الشديد الانحدار الذي يؤدي عبر بتليس ، الى الزاوية الجنوبية الغربية لبحيرة فان . والطريق الذي يجاري شاطىء البحيرة الجنوبي كان يحتمل أن يكون أقصر طريق إلى توشبا . إلا أن هذا الطريق شاق طبيعيا ، حتى في أيامنا هذه ، وكان الخطر فيه كبيرا بحيث يصعب استعماله عندما يجابه المهاجم مقاومة عسكرية . وعند الزاوية الجنوبية الغربية لبحيرة فان لدى المهاجم الأشوري واحدا من خيارين عمليين وهما : إما أن يدور بالشواطىء الشمالية والشرقية للبحيرة أو أن يسير في دورة أطول عبر الريف المكشوف نسبياً في وادي الذراع الجنوبية للفرات الأعلى (المسمى هنا مرات سو) . وهذا يفسر لنا لماذا ندر أن تصل الجيوش الأشورية الى توشبا ولماذا فشلت دوما في البقاء هناك . ومن الجهة الثانية كان باستطاعة جيوش أورارتو - وقد كانت الجبال تسترها والشعوب المجاورة التي كانت تشارك الأورارتيين تقززهم من الخضوع لأشور ، ترحب بها - هذه الجيوش كان باستطاعتها ان تقاوم محاولات الأشوريين في أن يجتازوا الجبال ، سواء شمالا في شرق نحو أيران أم شمالا في غرب نحو آسية الصغرى .

ومن ثم فإن اورارتو كانت ، من الناحية الحربية ، أكبر خصوم اشور فعالية وثباتا في الألف الأخير قبل الميلاد . اما في الجهة الثانية فإن الأورارتيين قبسوا ، في القرن التاسع ق . م . ، حضارة الأشوريين طوعا ، في الوقت ذاته الذي ذاقوا الأمرين من الاعتداء الأشوري . وقد نقشوا نقوشهم بلغتهم الحورية لكن في الصورة الأشورية للشكل الأكدي للكتابة السومرية . لقد كانت أشور وريثة الحضارة السومرية الأكدية ،

وهذا التراث الغني القديم أضفى على أشور ثوبا حضاريا جذابا ، على رغم انها كانت هي منفردة بذاتها . ومع ذلك فإن الأورارتيين لم يكونوا مجرد متقبلين عادين سلبيين لحضارة غريبة عنهم . فقد بزوا معلميهم في واحد من الفنون العظمى على الأقل ـ فن البناء بالحجر ـ إذ أن البنائين الأورارتيين تفوقوا على معلميهم وكادوا أن يصلوا الى المستوى المصري ـ ليس في الضخامة ولكن في الدقة .

وبالنسبة الى الأشوري المعتدي فلم يكن يتبع الخط الأضعف في المقاومة بالسير في اتجاه شمالي أو شرقي ، بل بالسير في اتجاه غربي عبر الجزيرة الفراتية إلى سورية ، او في اتجاه جنوبي نحو بلاد بابل . وقد كان الوضع في القوى الحربية للبابليين والأشوريين قد انعكس تماما منذ القرن الثامن عشر ق . م . ، لما تمكن حمورابي من إخضاع أشور . ومنذ القرن الرابع عشر ق . م . أصبح البابليون عاجزين عن مجاراة الأشوريين عسكريا ؛ ولكن الأشوريين رغم حملاتهم المتعددة ضد بلاد بابل ، وحتى احتلالهم لها احتلالا موقتا (كما حدث في ايام الملك الأشوري توكلتي نينرتا الأول) كانوا يعاملون بابل ببعض الاحترام والكياسة باعتبارها موطن المدنية المشتركة للبلدين . وظل الأمر كذلك إلى أيام تغلات فلسر الثالث (تولى العرش سنة ٧٤٥ ق . م .) الذي أوصل آلة الحرب الأشورية الى المرحلة النهائية المفجعة .

وقد كان المجال الذي قامت فيه أشور باعتداءاتها بين سنتي ٩٣٢ و٧٤٥ ق . م . ، هو المناطق الواقعة غربيها . ففي الفترة الواقعة بين سنتي ٩٣٢ و٨٥٩ ق . م . احتلت أشور الجماعات الأرامية التي كانت قد أقامت لنفسها كيانات شرقي الفرات وحتى مداخل موطن الأشوريين . وفي سني ٨٥٨ و٨٥٦ ق . م . استولى شلما نصر الثالث على بيت عديني ، الدولة الأرامية التي كانت تقتعد انحناءة الفرات الغربية ، وبذلك ضمن لأشور مدخلا إلى سورية . إلا أن الخطر المشترك الذي أحاق الآن بالدويلات السورية حملها على أن تنحي خصوماتها جانبا ، مؤقتا . وقد كسر شلما نصر الثالث في سنة ٨٥٣ ق . م . في معركة قرقر على نهر العاصي الى الشمال من مدينة حماة ، اذ انتصر عليه التحالف السوري . وقد كرر حملاته في ٨٤٩ و ٨٤٨ و ٨٤٥ ق . م . ، الى ان تمكن ، بسبب انفصام عرى التحالف السوري ، من احتلال دمشق سنة ٨٤١ ق. م . وفرض السيادة الأشورية على أحلاف دمشق السابقين . وعلى كل فقد لقي شلما نصر الثالث ، في سنة ٨٣١ ق. م. صدمة في اورارتو ، وفي سنة ٨٢٧ ق.

م . قامت عليه ثورة داخلية جمدته كما جمدت خليفته شمشي ـ أدد الخامس ، الى سنة ٨٢٢ ق. م . وقد نجح الأورارتيون ، إذ توحدوا في دولة منافسة قوية تحت امرة ملكهم ارجيشتس الأول (٧٨٥ ـ ٧٥٣ ق. م.) في أن يزاحموا الأشوريين للسيطرة على شمال سورية وشرق كيليكيا . وقد كانت هذه المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة تحت النفوذ الأورارتي لا النفوذ الأشوري .

وكان معنى هذا ان المحاولة التي بدأها شلما نصر الثالث لجعل أشور الدولة السيدة في المشرق قد باءت بالفشل . ولكن ، حتى مع هذا ، فإن القوة الحربية التي كان باستطاعة أشور أن تعدها في المنطقة ، بين سنتي ٩٣٤ و ٨٥٣ ق . م . ، كانت مدعاة للأعجاب . والأساس الاقتصادي الذي ترتكز إليه كان منطقة زراعية غنية في موطن الأشوريين تقع بين شاطىء دجلة الأيسر والنهاية الجنوبية الغربية لسلسلة جبال زغروس . وهذا الجزء الخصب لأشور كان أكبر مساحة من الأرض الزراعية حول بنتا ، التي كانت المرتكز الاقتصادي لقوة كوش الحربية ، إلا أنها كانت أصغر بكثير من المنطقة الصالحة للاستغلال في بلاد بابل . وعلى العكس من كل من بابل وكوش ، كانت اشور تعتمد ، على العموم ، لا على الري بل على الأمطار للحصول على الماء اللازم لمزروعاتها . وقد كانت بعض المواقع التي تعود إلى العصر الحجري الحديث والتي قامت فيها زراعة تعتمد على الأمطار ، قبل أن يشق الغرين في الوادي الأدنى لدجلة والفرات تقع في الجزء الذي أصبح في ما بعد بلاد الأشوريين . وهذه الحقيقة التاريخية تثير السؤال التالي : هل كان انتقال مركز القوة في حوض دجلة والفرات صعدا ـ من سومر الى أكد أولا ، ثم من أكد الى أشور ـ يعود سببه ، ولو جزئيا ، الى تدهور في نظام الري الذي يعود إليه الفضل أصلا في استصلاح الحقول الخصبة من أراضي المستنقعات والصحارى السابقة .

من الممكن ان يعود تدمير أنظمة الري إلى الإنسان أو إلى الطبيعة . فقد تُوقفها عن العمل المنازعات التي تقوم بين الجماعات المحلية ، او الفتوح الخارجية . وفي الجهة الثانية قد يؤدي عمل الطبيعة الى ان تصبح الحقول التي ينشئها الإنسان مجدبة ، إما عن طريق ترسيب الأملاح التي تحملها مياه الري ، او عن طريق امتصاص الملح من طبقات التراب السفلى . وهذا العمل المؤذي للطبيعة قد أبطل ، ولو جزئيا ، بعض منشئات الري الحديثة ـ مثلا في البنجاب والمكسيك . أما عمل الإنسان الضار فهناك أدلة كثيرة عليه في تاريخ سومر وأكد منذ البداية .

وقد كانت الطبيعة أكرم في وادي النيل منها في وادي دجلة والفرات . فقد كان فيضان النيل يرسب في مصر كل سنة طبقة طازجة من الغرين المخصب ، ولم يكن باستطاعة الطبيعة أو الإنسان ان يمنع هذه الهبة ـ وقد استمر ذلك الى سنة ١٩٠٢ لما بنى السد الأول في اسوان . فهل من الممكن أن يعود السبب في سقوط سومر وأكد وقيام أشور إلى أن الري في الوادي الأدنى لدجلة والفرات كان مصطنعا ، ومن ثم معرضا للتلف ؟

من المؤكد أن نظام الري في العراق توقف تماما في الوقت الذي تم فيه هجوم المغول على تلك البلاد سنة ١٢٥٨ م ، ولم تبدأ الأعمال الجديدة لإعادته إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ولكن هل من الممكن أن يكون الخراب المفاجىء الذي تم على يد الإنسان سنة ١٢٥٨ م قد سبقه جدب تدريجي لتربة العراق بسبب قوى طبيعية ؟ ليس لدينا من المعلومات ما يمكننا من الإجابة عن هذا السؤال مباشرة ، إلا أن الإجابة غير المباشرة عنه واردة في أن بلاد البابليين ظلت بعد سقوط أشور ، خصبة بما فيه الكفاية لتزود سلسلة طويلة من الإمبراطوريات بمرتكز اقتصادي ، بدءاً بدولة الكلدانيين التي خلفت أشور ، وختاما بالخلافة العباسية التي كانت اراضيها الخصبة خارج حدود بلاد البابليين أقل مما كانت داخل الحدود .

١٧ ـ المدنية السورية نحو ١١٩١ ـ ٧٤٥ ق . م .

كل حضارة بشرية من تلك التي أتيح لها أن تتكون ، استمرت تؤثر في ما تبعها من مسير القضايا البشرية . وقد يكون أثر الحضارات المنقرضة فعالا بعد . والأثر المستمر للمدنيات السومرية الأكدية والفرعونية المصرية يوضح هذه النقطة . وعلى كل فإن أثر الحضارات المنقرضة غير مباشر . ومن بين المدنيات التي كتب لها البقاء ثمة واحدة ، وهي المدنية الصينية ، التي ظهرت نحو منتصف الألف الثاني ق . م . وأخرى ، وهي المدنية الهندية ، ولعلها هي التي دمرت مدنية السند السابقة وحلت محلها ، وذلك في التاريخ نفسه تقريبا . ومن المدنيات الحديثة التي قامت على انقاض الخراب الذي خلّفه انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق . م . فان واحدة منها ، وهي الهلينية قد انقرضت الآن ، لكن معاصرتها التي قامت في سورية ، بأوسع معنى جغرافي للتسمية ، لا تزال تمثلها الى اليوم جماعتان : اليهود والسامريون .

إن اليهود لم يستمروا في البقاء فحسب، بل لقد انتجوا أدبا وحفظوه ، على نحو ما تم للصينيين وللهنود . ويعتقد أن أقدم أجزاء هذا الأدب قد دونت في القرن العاشر ق . م . ومجموعة هذا الأدب اليهودي هي ، بدون جدال ، أضخم مصادرنا وأشهرها للتاريخ الديني والاجتماعي والسياسي لا ليهودا واسرائيل فحسب ، ولكن للمدنية السورية بكاملها . وقد ظهرت مؤخرا دلالات مستقلة عن الأسفار اليهودية (وهي التي يسميها المسيحيون العهد القديم) وذلك عن طريق علم الآثار ، لكن هذه الدلالات ، رغم انها موضحة ، فهي قليلة وغير مترابطة . أما الأسفار فهي نسبيا ظرفية وشاملة . والباحث في تاريخ المدنية السورية يجد نفسه ، بدون هذه الأسفار ، وكأنه يتحسس طريقه في الظلام . على أن هذا المصدر الذي لا غنى عنه يؤدي الى الضلال لو أنه قبل على علاته ، وذلك لسببين : إن الاسفار تروي القصة من زاوية جماعتين فقط من الجماعات التي تنتظمها المدنية السورية ، كما أنها لا تروي حتى هذه القصة المغرضة في

صيغتها الأصلية . فمنذ الوقت الذي دونت فيه أقدم كتب العهد القديم ، مرت بالدين اليهودي تبدلات كانت ، إذا أخذت بشكلها التراكمي ، ثورروية . وقد عدلت المتون المرة بعد المرة بحيث تتفق مع الفكرة القائلة بأن هذه التبدلات لم تكن تجديدات بل كانت عودة إلى الإيمان والطقس الأصليين .

وهكذا فإن الأسفار ، على النحو الذي هو بين أيدينا ، تعطي ليهودا واسرائيل صورة بعيدة عن واقع الحياة ، وبالتبعية ، تعطي مثل هذه الصورة لجيرانهم . ومن الممكن تصحيح هذه الصورة جزئيا فقط عن طريق فحص الدلائل الداخلية للأسفار اليهودية ، ومقابلتها بجماع المعلومات التي يزودنا بها التنقيب الأثري ، وهي معلومات ضئيلة لكنها آخذة في التزايد . والفئة التي استمرت في البقاء والتي تحتكر رواية قصة ما هي موضع جدل ـ هذه الفئة يكون لها تفوق كبير على الفئات التي انقرضت دون أن تترك حتى صيغة مناظرة لتلك القصة بحيث يمكنها ان تدحض الأولى . فلو كان ثمة أسفار فينيقية أو فلسطينية لكانت اختلفت بشكل درامي عن الأسفار اليهودية .

وهذه الأسفار التي بين أيدينا الآن تحتوي على عدد من الأفكار التي ما كان معاصرو اسرائيل ويهودا في سورية ليتقبلوها لا في الوقت الذي استقرت فيه هاتان الجماعتان هناك ولا في الزمن الذي تلا ذلك . وهذه الأفكار يقبلها الآن اما اليهود الأرثوذكس وإما أتباع واحد من الدينين اللذين ورثا اليهودية أي المسيحية والإسلام . والفكرة الأولى هي أنَّ إله اليهود يهوه هو قائم وهو الأله الحق الأوحد ، وهو خالق الكون وسيده . والفكرة الثانية هي أن يهوه اختار الإسرائيليين ليكونوا ، بمعنى خاص ، شعبه الخاص . وقد أكد يهوه هذا الاختيار بواسطة عهد ، أو سلسلة من العهود ، مع الإسرائيليين . وأنهم هم وآباؤهم الأبعدون كانوا ، من وجهة نظرهم ، موحدين من أيام ابراهيم (ربما في القرن الثامن عشر ق . م .) ، مع أن يهوه لم يظهر بنفسه لهم إلا في أيام موسى (ربما في القرن الثالث عشر ق . م .) .

لا تاريخ المدنية السورية ، ولا تاريخ البشرية والكون يمكن أن يفسره مؤرخ في حدود هذه الأفكار ، إلا إذا كان المؤرخ أرثوذكسيا في أتباعه لواحد من الأديان المذكورة . إلا ان المؤرخ غير المتدين يتحتم عليه أيضا أن يستعمل العهد القديم على أنه مصدره الرئيس لتاريخ المدنية السورية . ولن تسلم لا الصيغة اللادينية ولا الصيغة الارثوذكسية لهذه الفترة من جدل عنيف حولها ـ وهذا الأمر مدعاة للأسف - لأن هذا

الفصل من تاريخ سورية كان له أثر عميق على التاريخ اللاحق لنصف الجنس البشري تقريبا .

إن مثل هذا التحذير هو تمهيد ضروري لوصف تاريخ المدنية السورية الذي يقدمه مؤرخ غير متدين؛ إنه لا يستطيع أن يقبل الأفكار الارثوذكسية، ويجب عليه أن يبذل جهده لينظر في مسيرة الأحداث نظرة موضوعية ، ويجب عليه أن يعرض صيغته الخاصة للقصة دون جدل عنيف .

لقد نكبت سورية ، بسبب انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق. م . بدرجة القسوة نفسها التي نكبت بها آسية الصغرى وحوض البحر الأيجي . فالكارثة من حيث الدمار المادي والتبديل في تركيب السكان لم تكن هناك أخف منها هنا . وعلى كل فقد عادت الحياة إلى سورية من الخراب المشترك الذي ألم بالجميع بأسرع مما حدث في تينك المنطقتين . فقد كانت المدنية ضربت جذورا أعمق في سورية قبل أن يصيبها انسياح الشعوب . إذ أن كلتا المدنيتين السومرية الأكدية والمصرية كان قد مر عليهما قرابة الفين من السنين وهما تتسربان إلى سورية ، وكانت هاتان المدنيتان الأجنبيتان متغلبتين إلى حد أنهما لم تمكنا سورية من خلق مدنية أصيلة خاصة بها ، حتى فقدت كل من مصر وبلاد بابل الكثير من الحيوية . إلا أن سورية كانت ، حتى قبل الثوران الذي عم المشرق نحو سنة ١٢٥٠ ق . م . ، قد بدأت تظهر قدرتها الوطنية على الخلق . فقد خطت خطواتها الأولى لاختراع حروف الهجاء ، وقد أصبحت هذه الآن بأشكالها المختلفة كتابة العالم بأكمله ، باستثناء اسية الشرقية .

نحو سنة ١٥٠٠ ق . م . ، او حتى قبل ذلك ، كانت قد حفرت نقوش ، على الصخور القائمة في المناجم المصرية الموجودة في الجهة الغربية من شبه جزيرة سيناء في ما يسمى الكتابة السينمائية ؛ وهناك نقوش بالكتابة ذاتها عثر عليها في جنوب سورية . وقد قامت محاولات لحل رموز هذه المتون على افتراض ان الكتابة الفبائية وأن اللغة سامية . ولم تنل أي من هذه المحاولات لحل الرموز قبولا عاما بعد ، ولكن إذا ثبت أن هذه الكتابة هي الفبائية ، فقد ثبت أيضا أن هذه هي الأصل المشترك للألفبائية الفينيقية والألفبائية السامية الجنوبية التي عرفت في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية (اليمن) .

وتبدو بعض الحروف في الكتابة السينمائية وكأنها موحى بها من الهيروغليفية المصرية . وفي الثلث الأول من القرن الرابع عشر ق . م . ، صنف فينيقيو أوغاريت (رأس الشمرا) الواقعة على مقربة من الطرف الشمالي للساحل السوري ، اعمالا أدبية بلغتهم واستعملوا « الفباء » مؤلفه من بعض حروف انتقيت من المجموعة السومرية الأكدية الضخمة من الرموز والفونيم . وهذه التجربة الفينيقية الأولى لاختراع كتابة ألفبائية لم تقو على مقاومة انسياح الشعوب (نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠) . وأقدم النقوش المعروفة المدونة بالألفائية الفينيقية التي اخترعت في ما بعد ، والتي اشتقت منها كل الصيغ الألفبائية المعروفة اليوم ، قد لا تسبق القرن الحادي عشر ق . م . وهذه الألفبائية الفينيقية الثانية التي قيض لها النجاح، قد اوحت بها الهيروغليفية المصرية ، كما يبدو من اسماء عدد من الحروف ومن أشكالها الأصلية . وقد استعار الفينيقيون ، في ألفبائهم التاريخية ، وفي ألفبائهم السابقة الجهيضة ، حروفا من كتابة كانت مزيجا من رموز وفونيمات مقطعية . لكنهم ، في كل مرة ، كانوا يجعلون هذه الحروف صالحة للتعبير عن مجموعة من الأصوات التي شملت كل الحروف الصامتة الموجودة في لغتهم الخاصة بهم من اللغة السامية الكنعانية .

يمكننا ان نرى السبب في أن مخترعي الألفباء كانوا من المتكلمين بالسامية الذين رسخوا استقلالهم الحضاري عن المدنيتين القديمتين ، المدنية السومرية والمدنية المصرية ، وهما اللتان كانتا قد سيطرتا على الشعوب المتكلمة بالسامية من سكان الهلال الخصيب من قبل . إن الشعب المتكلم بالسامية الذي أصبح « ألفبائيا » أولا هم الأكديون ، وقد فرض عليهم موقعهم الجغرافي ان يقتبسوا الكتابة السومرية وأن يستعملوها على الطريقة السومرية. إلا أن الكتابة المكونة من مزيج من الرموز والفونيم لا يتفق تركيبها مع تركيب لغة سامية . فجذر الكلمة السامية يتكون من ثلاثة حروف صامتة ، وهي التي تحتفظ بهويتها وترتيبها خلال ما يطرأ عليها من تعديل في المعنى الذي ينشأ من وضع بادئة أو لاحقة للكلمة ، او بإضافة حروف علة أو حذفها . فتركيب أي لغة سامية يقتضي اختراع كتابة بحيث تمثل الحروف كل الحروف الصامتة في اللغة والتي يكون مجموع الحروف فيها محدودا بالعدد الذي تحتاجه هذه المجموعة المحدودة من الحروف الصامتة لتصويرها .

لسنا نعرف أي لغة كان يتكلمها سكان المغاور في جبل الكرمل في العصر

الحجري القديم ، أو مؤسسو اريحا من أهل العصر الحجري الحديث . لكن لم تترك اي لغة سابقة للغة السامية أي أثر في بلاد الشام . وكل الهجرات للشعوب غير المتكلمة بالسامية ـ الحوريين في القرن الثامن عشر ق . م . والفلسطينيين واللاجئين الحثيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ـ وازنها دخول جماعات جديدة ضخمة من المتكلمين بالسامية ـ على سبيل المثال كان هناك العموريون الذين وصلوا في أواخر الألف الثالث ق . م . والعبرانيون والأراميون الذين جاءوا في القرن الثالث عشر ق. م. . والكنعانية ، التي كانت أقدم لغة سامية في بلاد الشام ، كانت تنتقل بالعدوى . فقد تقبلها المهاجرون الذين لم تكن لغة الأم عندهم لغة سامية ـ مثل الفلسطينيين ـ كما تقبلتها الشعوب التي كانت لغتها سامية لكنها لم تكن كنعانية . فالعموريون ، وبعدهم العبرانيون (في مؤاب وعمون وإسرائيل ويهودا وأدوم) أصبحوا جميعا يتكلمون الكنعانية ، مع أن المفروض أن العبرانيين كانوا أصلا يتكلمون لغة سامية مختلفة ولكنها قريبة من اللغة التي تكلمها الأراميون ، الذين دخلوا بلاد الشام في زمن انسياح الشعوب ذاته . والأراميون وحدهم ، وهم الذين استوطنوا في اواسط بلاد الشام وشمالها وفي الجزيرة الفراتية ، لم يقبلوا اللغة الكنعانية . وقد قبسوا الألفباء بسرعة ـ ويقدر تاريخ أقدم نقوش ارامية معروفة نحو سنة ٨٥٠ ق . م . ـ لكنهم لم يستعملوها لكتابة اللغة الكنعانية ، وهي التي اخترعت الألفباء اصلا لاستعمالها ؛ لقد قبسوا الألفباء لاستعمالها للغتهم الأرامية السامية الخاصة بهم .

وهكذا فإن احدى الصفات المشتركة للمدنية التي ظهرت في بلاد الشام بعد انسياح الشعوب (نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق . م .) كانت استعمال الألفباء لكتابة اللغات السامية المحلية . ومن بين هذه اللغات الوطنية احتفظت اللغة الكنعانية بسيطرتها في الفترة الواقعة نحو ٩٥٠ ـ ٧٥٠ ق . م . وكانت ثمة صفة أخرى مشتركة للمدنية السورية هي ديانتها . فقد أصبحت بلاد الشام بلادا زراعية قبل القرون الأخيرة من الألف الثاني ق . م . بوقت طويل ، وقد أصبح المهاجرون من البدو والرعاة زراعا بسرعة حين استقروا في الأرض السورية . والأعياد الخاصة بالسنة الطقسية اليهودية يفترض فيها الآن أنها تحيي ذكرى أحداث (صحيحة كانت أم أسطورية) في تاريخ الإسرائيليين ؛ إلا أن هذه الأعياد تحمل في طياتها أنها كانت أصلا احتفالات لمواسم تتكرر سنويا ، وكانت مرتبطة بحياة جماعة زراعية وعملها .

وقد كانت الزراعة أصلا نشاطا دينيا كما كانت نشاطا اقتصاديا . فالغاية الرئيسة للديانة الزراعية هي أن ترعى خصب النباتات والحيوانات المدجنة ومثلها خصب الكائنات البشرية التي كانت تحصل على قوتها بالعيش في تكامل مع أصناف الحياة الأخرى هذه . وفي اكثر الجماعات الزراعية الموجودة حول العالم نجد أن أحد الوصفات لأثارة الخصب كانت من السحر المرتبط بالجنس . وقد كان هذا الأمر لا يزال استعماله شائعا في بلاد الشام في الألف الاخير ق . م . وثمة تعبير آخر عن الديانة الزراعية ، التي شاركت فيه بلاد الشام مناطق أخرى في المشرق ، هو الأسطورة والطقس المتعلقان بالأله الذي يموت عند الحصاد لكنه يعود الى الحياة عندما تطلع نباتات السنة التالية براعمها . والأله الذي كان يموت ليبعث ثانية كان يسمى تموز في سومر وأكد ، وأتيس في آسية الصغرى ، وأوزيريس في مصر الفرعونية ، وأدوناي (سيدي) في بلاد الشام ، واسمه الآخر بعل (ومعناه ايضا السيد) وذلك في أوغاريت القرن الرابع عشر ق. م. ولا بد أن أسطورة الإله الذي يموت وقصة الطقس المرتبط بذلك كان لهما أصل مشترك . فأوجه الشبه بين الصيغ الإقليمية المتعددة متقاربة إلى حد لا يسمح لها بأن تكون وليدة المصادفة .

كان تقديم الضحايا البشرية ، في كل المدنيات وحتى يومنا هذا ، يتم عن طريق الحرب . ومنذ أن اخترع الطيران لم تعد ضحايا العمليات الحربية تقتصر على الجنود الذين يسقطون في ميدان المعركة وعلى سكان المدن المدنيين الذين يقتلون بسبب الهجوم الصاعق . لكن كثيرا من الشعوب التي كانت تفخر بالحروب التي تشنها ، كانت ، والأمر يبدو غير منطقي ، تصاب بصدمة بسبب الضحايا التي يجهز عليها في أيام السلم ، سواء كانت الضحايا خداما للملك الذين كانوا يحملون على مرافقته إلى عالم الموتى القصي ، أم كانت بواكير أبناء مؤمن متحمس كان يأمل أن يحمل إلها ما ان يستجيب لصلاته ، بسبب أنه قدم لهذا الإله أثمن ما يمكن من التضحية . ويبدو أنه ليس ثمة ما يدل على أن أيا من شكلي التضحية البشرية اللاحربية هذه قد عرف في مصر الفرعونية ، كما أن قتل خدم الملك المتوفى قد تخلى القوم عنه في سومر بعد الأسرة الأولى في أور . ويبدو أن عملية حرق الأطفال أحياء كانت امرا خاصا ببلاد الشام والجاليات التي كانت تابعة لها في ما وراء البحار ، وذلك في الألف الأخير ق . م . في العالم القديم. فقد قدم ملك ميشع المؤابي أحد أبنائه لما كانت عاصمة مملكته يحاصرها حلف من اعدائه نحو سنة ٨٥٠ ق . م . وقد قدم ملك يهودا أحاز ابنه محرقة ليهوه نحو سنة

٧٣٥ ق . م . في ظروف مشابهة لتلك ، وقد فعل ذلك أحد خلفائه واسمه منسى (حكم ٦٨٧ ـ ٦٤٢ ق . م .) .

وقد شاركت بلاد الشام ، في الألف نفسه ، ظاهرة دينية مع بعض المناطق المشرقية الأخرى ، وهي وجود النذير . (ان الكلمة اليونانية بروفيتس Prophetes التي تترجم بها الكلمة الكنعانية نبي ، تعني النذير لا المتنبىء ، مع أن رسالة النذير قد تكون إرشادا) . وقد كان النذير أصلا يتكلم وهو في حالة وجد . وأقدم مثل مدون بالنسبة إلى بلاد الشام كان ذلك الذي شاهده وينامون المصري في جبيل (بيبلوس) نحو سنة ١٠٦٠ ق . م . . ففيما كان ملك جبيل (بيبلوس) يقدم الضحية أصابت احد رجاله حالة وجد ، وبينما كان في هذه الحالة السيكولوجية تلفظ بأمر يتعلق بوينامون ، كان من نتيجته أن تبدل حظ هذا الأخير . وقد تلقفت شاوول ، في اليوم الأول من حياته السياسية ، وذلك قبل نهاية القرن الحادي عشر ق. م . فئة من النذر المصابين بالبُحران ، ولم يتمكن من التخلص من هذه الحالة النفسية التي أصابته في تلك المناسبة . وقد كانت هذه الحالات العنيفة تلازم شاوول بين الفينة والفينة في ما تبقى من عمره .

وهذه الظواهر التي عرفتها بلاد الشام كان لها نظائر في العالم الأغريقي . والنذير الذي كان في حاشية ملك جبيل (بيبلوس) هو نظير للبيثيا التي كانت تنطق بالوحي في دلفي وللعرافات التي قامت بمثل هذه الأدوار في المدن ـ الدول الهلينية الأخرى . وفئة النذر التي كانت تتجول وهي في هذيان يرافقه توقيع موسيقي ، والتي أصابت شاوول بعدوها ، تشبه فئة هلينية من الباخوسيين . وقد يكون المصدر المشترك لهذه الأمثلة من الظاهرات النفسية التي عرفتها بلاد الشام والعالم الإيجي هو أواسط آسية الصغرى . فقد كان المؤمنون من أتباع الآلهة سيبيل ، وهي أم أنيس وزوجته ، يمارسون هناك الارشاد الجماعي في حالة هذيان مصحوب بالموسيقى ، وذلك في العصر السابق للمسيحية .

كانت بلاد الشام يتقسمها سياسيا عدد من الإمارات الصغيرة لما ضمت إلى الإمبراطورية المصرية في القرن الخامس عشر ق . م . وقد كان أول أثر لانسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ هو حل هذا التضامن السياسي السطحي الذي وجد هناك تحت حكم دولة أجنبية . وقد فشلت عندها السيطرة السياسية المصرية في الجنوب

والسيطرة الحثية التي كانت قد حلت محل السيطرة المصرية في الشمال ، وعادت بلاد الشام إلى تمزق سياسي بحيث أن هذا تجاوز الانقسام الذي كان سائدا في العصر السابق لأيام الفاتح المصري تحطميس الثالث . والمهاجمون الذين استقروا في بلاد الشام اثناء انسياح الشعوب لم يؤسسوا دولا وطنية وحدودية هناك . فالفلسطينيون ، على سبيل المثال ، أقاموا خمس دول ـ مدن مستقلة في الجزء الجنوبي من الأراضي الساحلية ، والإسرائيليون ، الذين احتلوا المرتفعات ، كانوا مكونين من قبائل كانت تربط بينها عبادة إلههم القومي يهوه ، لكنها كانت معزولة جغرافيا واحدتها عن الأخرى بالمناطق التي لم تحتل ، والتي حافظ فيها الكنعانيون على استقلالهم . وقد استمرت الدول ـ المدن الفينيقية القديمة في الجزء الأوسط من الساحل وكانت حالتها أقل قلقا . وقد كانت سلسلة جبال لبنان التي لم تكن قد عريت بعد من أحراجها تحميهم من المهاجمين .

أما في شمال بلاد الشام فقد أنشأ اللاجئون الحثيون عددا من الإمارات المحلية المستقلة . والوحدة السياسية الحثية لم تقم لها قائمة بعد سقوط الإمبراطورية الحثية في آسية الصغرى . وهكذا فان المدنية السورية بدأت مسيرتها المدنية في حالة تمزق سياسي . وبعد ما أخذت الشعوب المهاجرة بالاستقرار ، قامت في القرنين الحادي عشر والعاشر ق . م . محاولتان متتاليتان ، من الجنوب ، لتوحيد بلاد الشام سياسيا ، لكن المحاولتين باءتا بالفشل .

في القرن الحادي عشر ق . م . قهر الفلسطينيون القبائل الإسرائيلية المقيمة في الأراضي الواقعة إلى الشرق منهم . وقد كان الفلسطينيون مزودين بالسلاح تزويدا جيدا، كما أن دويلاتهم الخمس عملت متحدة لكن نقص القوى البشرية عندهم جعل سيطرتهم على الإسرائيليين المقهورين صعبة ، ولذلك فإنهم حاولوا أن يجردوهم من سلاحهم ماديا وادبيا . وقد كان الرمز الذي يمثل عبادة يهوه عند الإسرائيليين بعامة ، والوعاء المادي الذي يحتضن القوة التي كان من المعتقد أن تظهر على أيدي هذا الإله ، كان صندوقا ينقل من مكان إلى آخر (وهو تابوت العهد) ، الذي كان بقية من المرحلة البدوية من حياة الإسرائيليين . وقد أسر الفلسطينيون التابوت وحملوه إلى بلادهم ، إلا أن وجوده بينهم أنزل بالمدن الفلسطينية مصائب كبرى ، بحيث ان الفلسطينيين أخرجوه من ديارهم . وقد جرد الفلسطينيون الإسرائيليين من سلاحهم ماديا بأن حرموهم من الحدادين . فقد سمحوا لهم بأن يحتفظوا بالأدوات الزراعية المعدنية (إذ لو أنهم

جردوهم من هذه الوسائل التي تمكنهم من استغلال اراضيهم الصخرية ، لما تمكنوا من الحصول على الضرائب المفروضة والتي كانت عينية) . لكنهم فرضوا على الإسرائيليين ان يشحذوا أدواتهم عند الحدادين الفلسطينيين ، وذلك كي يضمنوا ان لا يكون في اسرائيل حدادون يستطيعون ان يصنعوا أسلحة من الأدوات . وقد ردت القبائل الإسرائيلية على ذلك بان وضعت نفسها تحت قيادة موحدة بامرة ملك ، وكان هذا الملك هو شاوول ، من قبيلة بنيامين . وقد كان هذا ، بالنسبة للإسرائيليين ، تجديداً سياسياً أثار جدلا كبيراً ، ولم يوصلهم الى التحرير السريع . وقد سقط شاوول في أرض المعركة . وانتهى الأمر بالفلسطينيين إلى أن غلبوا وأجلوا عن الأرض الإسرائيلية على يد داود ، الذي كان من قبيلة يهودا وكان قائدا لشرذمة من المخربين . وقد حافظ الفلسطينيون على استقلالهم الى سنة ٧٣٤ ق . م . لما احتل الملك تغلات فليسر الثاني الأشوري بلادهم . وهكذا فقد اضاعوا فرصة توحيد سورية سياسيا تحت حكم فلسطيني .

وقد تمكنت قبيلة يهودا من توحيد جنوب سورية مؤقتا بقيادة داود ، باستثناء بلاد الفلسطينيين ، بحيث وصلوا شمالا في الداخل الى الطرف الشمالي لسلسلة لبنان الشرقية (انتيلبنان) وإلى شمالي دمشق . وقد أدى انتصار داود الحاسم على الفلسطينيين الى الحصول على ولاء كل القبائل الإسرائيلية (ذلك بأن الإسرائيليين بقبولهم شاوول ملكا عليهم ، كانوا قد قبلوا بتوحيدهم السياسي في ملكية) . وقد كسب داود ايضا ، بسبب انتصاره الحاسم على الفلسطينيين، صداقة صور. (ولم يكن الفينيقيون يحبون جيرانهم المهاجرين القاطنين الى الجنوب اي الفلسطينيين). وقد تغلب داود على بقية العبرانيين والأدوميين والمؤابيين والعمونيين . كما احتل أيضا إمارتين اراميتين هما دمشق وزوباح ، الأمر الذي اكسبه صداقة حماة ، وهي أقصى إمارة أقامها المهاجرون الحثيون في شمال سورية .

ترك داود إمبراطوريته لابنه سليمان . وقد امتد حكم الإثنين ، الأب والأبن ، من نحو سنة ١٠٠٠ الى سنة ٩٢٢ ق . م . لكن هذه الإمبراطورية التي أقامتها قبيلة يهودا كانت ، مثل إمبراطورية الفلسطينيين السابقة ، سريعة الزوال . فقد كانت يهودا (القدس) صغيرة رقعة ، ومتأخرة حضاريا ، وغير مناسبة من حيث موقعها الجغرافي ، بحيث تتمكن من الحفاظ على ما احتله داود . فقد ثارت دمشق وأدوم وتحرّرتا في حياة

سليمان ، وبعد وفاته انشقت القبائل الشمالية وانشأت مملكتها الخاصة بها (إسرائيل) . وقد كانت مملكة إسرائيل أقوى من مملكة يهودا ، لكنها لم تكن لها من القوة ما يحول دون استقلال عمون ومؤاب . وكل ما تبقى من إمبراطورية داود وسليمان ، إضافة الى أرض قبيلة يهودا بالذات ، هو الجزء الواقع في أقصى الجنوب من أرض قبيلة بينامين ، ومدينة القدس الكنعانية ، التي كان داود قد احتلها واتخذها عاصمة لمملكته .

والنتيجة الدائمة الهامة لإقامة امبراطورية على يد داود كانت ضم الجيوب الكنعانية ، التي كانت قد حافظت على استقلالها داخل اراضي القبائل الإسرائيلية ، إلى يهودا وإسرائيل ومزجها سياسيا وحضاريا . وقد كانت بين هذه الجيوب واهمها حضاريا القدس ، المدينة اليبوسية السابقة التي أصبحت عاصمة يهودا ، وأهمها اقتصاديا سهل مرج ابن عامر ، الذي اصبح المستودع الاقتصادي لمملكة إسرائيل . والكنعانيون الذين حافظوا على وجودهم داخل سورية لعلهم اتحدوا مع إسرائيل ضد الفلسطينيين ، او لعل داود قد تغلب عليهم بالقوة العسكرية التي انشأها . وعلى كل حال فإن استيلاء داود على السكان الكنعانيين واتفاقه مع المدن ـ الدول الفينيقية الكنعانية المستقلة، أدتا الى تمثل تام بين القبائل اليهودية والقبائل الاسرائيلية . فمنذ القرن العاشر ق . م . أصبحت يهودا وإسرائيل جزءاً أصيلا من المجتمع الذي ظهر عقب انسياح الشعوب والذي كان في طريقه لأن تكون له صيغة خاصة في سورية .

كان كل من إمبراطورية الفلسطينيين وإمبراطورية يهودا ظاهراً عابراً ؛ أما الإنجازات الحضارية والاقتصادية التي تمت على أيدي الكنعانيين فقد كانت ثابتة . ففيما كان الفلسطينيون ويهودا يقيمون إمبراطورية ويخسرونها كان الفينيقيون يخترعون الألفباء . كما كانوا ايضا يطورون فنا تجاريا مولدا ، مصري الأسلوب بعامة ، لإنتاج مصنوعات للتصدير . فقد قدم حيرام ملك صور إلى سليمان المساعدة الفنية والتكنولوجية التي كان بحاجة اليها لبناء هيكل ضخم ليهوه في القدس . وقد اشترك الملكان في تأسيس تجارة بحرية في المحيط الهندي ، كانت ميناء سليمان على رأس خليج العقبة منطلقها . وكان الجمل العربي قد دجن قبل ذلك . وقد تم هذا الإنجاز التاريخي بعد دخول العبرانيين والأراميين إلى سورية . لكن ثمة ما يدل على أن حملة بدوية قام بها جمّالون من الجزيرة العربية الى سورية ، وقد ورد ذكرها في وثائق تعود الى وقت مبكر في

القرن الحادي عشر ق . م . إن تدجين الجمل جعل بدو السهوب العربية أشد خطرا على جيرانهم المتحضرين من ذي قبل ، الا ان هذا الإنجاز في التدجين جعل اجتياز السهوب نفسها أيسر على الناس . وقد كان أحد آثار هذا الشيء ان انتشر أثر المدنية السورية ، عبر بلاد العرب الى المرتفعات الخصبة الواقعة في الزاوية الجنوبية من شبه الجزيرة .

وضم اليمن حضاريا الى سورية يؤكده العمل المشترك الذي قام به حيرام وسليمان لفتح الطريق البحري عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندي . لسنا ندري فيما إذا كانت ملكة سبأ قد زارت سليمان حقا ، وحتى فيما لو كانت القصة الشهيرة ليست تاريخا مؤكدا ، فإن القرن العاشر ق . م . هو الزمن المقبول لبدء العلاقات التجارية بين سورية واليمن . ويبدو من الواضح أن البحر الأحمر أصبح الآن بحيرة سورية بعدما كان بحيرة مصرية لنحو الفي سنة .

إن انقسام امبراطورية سليمان لم يمنع الدول التي خلفتها من الاتجار في ما بينها . وقد كانت دولتا دمشق واسرائيل متساويتين في القوة ، وكانت الحرب بينهما سجالا حول أرض تقع عبر الاردن ، وكانت موضع الخلاف . ولم تكن الحروب حاسمة ، ولكن الجزء الذي نتج عن تناوب الانتصارات الموقتة كان إقامة علاقات تجارية دائمة. فاذا قيض لدمشق أن تكون لها اليد العليا فانها كانت تفرض على إسرائيل ان تخصص حيا في عاصمتها السامرة للتجار الدمشقيين ، واذا أتيح لإسرائيل بالتالي أن تنتصر على دمشق ، كانت تجبر دمشق على تخصيص حي فيها للتجار الاسرائيليين. ومع ذلك فإن انقسام امبراطورية سليمان أدى الى أن أصبح طريق صور إلى رأس خليج العقبة معرضا للخطر ، ولعل هذا هو أحد الأسباب التي حملت الفينيقيين على البحث عن مجال آخر لتوسعهم البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

قبل نهاية القرن العاشر ق . م . كانت اسرائيل ويهودا قد أخذتا انفسهما بوضع أدب مكتوب باللغة الكنعانية وقد دوِّن بالالفباء الفينيقية . والكتابات اليهودية الدينية تتكون من أنواع مختلفة . فهناك الأسطورة والدعاء والشعر العامي والتاريخ والتشريع والأمثال الحكمية وأثار الأنبياء . ويبدو أن الأخبار التاريخية عن داود وسليمان معتمدة على قيود رسمية كانت تقريبا معاصرة للأحداث . وقد تكون آثار نبي من الأنبياء قد دونها تلاميذه ، وليس بالضرورة أن يكون النبيُّ نفسه قد فعل ذلك . وقد ينال أحد

كتّاب هذا النوع منزلة كبيرة، مثل اشعياء ـ وعندها قد تضاف إليه زيادات متتالية يقوم بها مؤلفون متأخرون مجهولون ، فيما يتسعملون اسم النبي الأصلي . فالأجزاء التاريخية من التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) وكتب الأنبياء هي أعمال أدبية إسرائيلية ويهودية اصيلة . لكن حتى الوثائق الموثوق بها التي تحوي آثار الأنبياء ، والتي هي اصلا شخصية وفردية ، ثبت أنها تحوي إشارات الى الأدب السابق للاسرائيليين، وقد اتضح هذا إذ ظهر بعض هذا الأدب الى الوجود .

إن بعض الأساطير الواردة في التوراة ـ مثل قصة الطوفان ـ هي ذات أصل سومري ، وقد انتقلت عن طريق الأكديين والكنعانيين . والشريعة المسماة شريعة موسى إنما هي نسخة من مدونة القانون السومري الأكدي ، وقد اكتشفت مؤخرا النسخ البابلية والأشورية والحثية منها . والنسخة البابلية هي القانون الذي جمعه حمورابي . وقد ظهر من اكتشاف النصوص الأدبية الفينيقية المدونة بالكتابة الأوغاريتية التي تعود إلى القرن الرابع عشر ق . م . ، ان المزامير إنما وضعت على نمط الترنيمة الكنعانية الأقدم عهدا ، وان الفصول (الإصحاحات) الثامن والتاسع من سفر الأمثال إنما هي ذات أصل كنعاني . وأمثال غيرها في هذا السفر هي نص يكاد يكون حرفياً للحكم الواردة في نصائح اينموب ، وهو كتاب مصري لعله صنف في القرن الرابع عشر ق . م . وقد وضع تحت تأثير أدب مصري من النوع نفسه ، ولكنه أقدم عهدا . ولنا أن نخمن أنّ الأمثال المصرية هذه وصلت الى الإسرائيليين بوساطة الفينيقيين .

ومعنى هذا أنه كان تبادل أدبي ، كما كان ثمة تبادل تجاري ، بين الدول السورية في الفترة التي تلت عصر سليمان . وقد كان مضمون جزء من الأدب الذي عبر الحدود السياسية دينيا ، ولا بدَّ أن هذا أدى إلى اتساق في الصلوات التي استعملت في عبادة الآلهة المحلية . لقد كان لكل جماعة محلية إلهها الخاص الذي كان المواطنون يشعرون بأنهم مدينون له بالولاء الأول . لكن هذا الولاء لم يكن بالضرورة على وجه الحصر. فكل جماعة كانت تؤمن بقوة آلهة الجيران ، على نحو ما كانت تعتقد بقوة إلهها الخاص بها . وقد كان ثمة اعتقاد عام بأن كل إله محلي كان أقوى من الآلهة الأخرى جميعها ، وذلك في حدود ملك الإله المحلي الخاص به . ففي اواسط القرن التاسع ق . م . ، إذ كانت إسرائيل ويهودا وأدوم تحاصر ميشع ملك مؤاب في عاصمة ملكه ، قدم ميشع ابنه الأكبر ضحية على أسوار المدينة لإله المؤابيين شموش ، وعندها فلك الحلفاء الحصار

وانسحبوا . لم يكن المهاجمون ممن يعبدون شموش ولكنهم كانوا يعتدون على ملك شموش ، ولم يعتقدوا بأن إلههم الخاص بهم يستطيع أن يحميهم إذا كان شموش، بسبب العمل الذي قام به ميشع ، قد يتقدم لمساعدة ميشع .

كانت إحدى الوسائل التي تمكن للآلهة الأجنبية من الدخول الى حمى الإله المحلي هي الزواج بين أعضاء البيت المالك وأميرات أجنبيات . هذه المعاهدات السياسية المتصلة بالزواج كانت تمهد للعلاقات الودية بين الدول . وقد تزوج سليمان عددا من النساء الأجنبيات املاً في دعم إمبراطوريته ، التي كانت في طريق الأنهيار . وقد كان من الحقوق المألوفة أن تأتي الزوجات الأجنبيات بآلهتهن الخاصة بهن ، وان يرافق الآلهة فريق من كهنة الألهة الأجنبية وانبيائها . وقد لام عباد يهوه في يهودا واسرائيل سليمان بعد وفاته لأنه أدخل إلهة زوجاته الأجنبيات ، الا ان معاصريه من هؤلاء العباد لم يثوروا عليه . لكن أخاب ملك إسرائيل (حكم نحو ٨٦٩ ـ ٨٥٠ ق. م.) لقي المتاعب لما أدخل الى السامرة إله زوجته ايزابل الصيدونية بعل (الرب) مع أنبياء بعل وكهنته . ومع أن العمل الذي أتبعه أخاب كان عرفا دوليًا مقبولا ، فقد قاومه النبي الإسرائيلي المقيم عبر الأردن إيليا ، وذلك نيابة عن يهوه . وقد تمكن خليفة إيليا الذي اختاره بنفسه وهو إليشع أن يدبر ثورة ضد الملك يحورام ابن أخاب بين أفراد الجيش الإسرائيلي الذي كان معسكرا في جلعاد ، على الحدود بين إسرائيل ودمشق . فقد أرسل إليشع أحد تلاميذه ليمسح ياهو ، القائد المحلي ، ملكا . ولما أصبح وجود ياهو شرعيا سار الى يزرعيل ، حيث كان يحورام يتعافى من جراحه ، وقتل ياهو يحورام نفسه والملكة الأم ايزابل وجميع الأفراد الباقين من أسرة الملك السابق أخاب وحاشيته وبعض الزوار من أسرة داود الملكية من يهودا وجميع الإسرائيليين الذين كانوا يعبدون بعل الصيدوني .

ان تصفية اسرة أخاب على ايدي ياهو ، وهي التي اثارها إليشع ، هي مثل على قوة الأنبياء السوريين . وقد كان هؤلاء الأنبياء يرعبون الملوك . وكانت النوبات التي تصيبهم تعتبر دلالة على أنهم يتلقون رسالة إلهية . ومن ثم فإن الملك الذي كان يتحدى نبيا منهم كان يجازف في احتمال أن يثير الرأي العام ضده. ولم يكن الأنبياء ، من جهة ثانية ، يخشون القيام بعمل سياسي . وقد نظم إليشع ثورة في دمشق قبل ان يدبر ثورة في إسرائيل . وأول نبي سوري حفظ لنا التاريخ اسمه ـ وهو الذي قابله وينامون في جبيل نحو سنة ١٠٦٠ ق . ـ تدخل في قضية وينامون . لقد فشل اخاب وايزابل في

السيطرة على أنبياء يهوه وبعل لأنهما كانا يحتفظان بجماعات منهم على حساب الدولة . إن الملك السوري ، أي ملك ، لم يكن يستطيع ان يضمن أن يكون كل نبي حي تحت السلطة الملكية .

إن نبي جبيل المذكور ، والذي عاش في القرن الحادي عشر ق . م . ، هو النبي السوري الوحيد الذي وصلتنا أخباره ، وذلك خارج أنبياء إسرائيل ويهودا ، وباستثناء الأنبياء الصيدونيين الذين كانوا في حاشية ايزابــل ، وهذه ثغرة في معرفتنا لتاريخ المدنية السورية . فلا شك ان الأنبياء قد استمروا بالظهور، بعد القرن الحادي عشر ق . م . بين الجماعات السوريـة الأخرى ، خـارج إسرائيـل ويهودا . فـالأنبياء ، مثـل التجار والعرائس الملكية وآلهة هذه العرائس ، كان باستطاعتهم ان يجتازوا الحدود السياسية . فقد عمل إيليا في أرض الصيدونيين في صرفند ، ولو أنه كان يمانع في أن يعمل الأنبياء الصيدونيون في اسرائيل . وقد دخل إليشع إلى دمشق . وكان عاموس من يهـودا لكنه عمل في إسرائيل .

من الـظاهر أن القضيـة بين إيليـا وأخاب كـانت دينيـة . هـل كـان ليهـوه ـ في اسرائيل ـ فقط التقدم على بقية الآلهة الأجنبية أم أن يعبد وحده حصرا ؟ ولكن كتابات انبياء القرن الثامن ق . م . تشير إلى أن قضايا اقتصادية واجتماعية كانت تثار في هذه الأحاديث الدينية . كانت إحدى النتائج المترتبة على تزايد الاتصالات النشطة بين دول العالم السوري ، وعلى عدد من المستويات المختلفة ، أن ظهرت توترات وانفعالات في الحياة الداخلية لهذه الدول السورية التي كانت « متخلفة » اقتصادياً واجتماعيـاً . ففي مثل هذه الدول ـ ولنأخذ مملكة إسرائيل نموذجاً على ذلك ـ جرّبت « المؤسسة » المحلية ان تقلد طريقة الفينيقيين في الحياة ، وهي حياة كانت تتغلب فيها التجارة على الزراعة ، وكـانت سلطة المـال تتفـوق على الحقـوق المعترف بهـا . فكـانت النتيجـة في بلد مثـل إسرائيل ، تبدلا كاد أن يكون ثورويا في توزيع الثورة بحيث وقـع الحيف على الكثـرة الفقيرة من السكان . ويبدو هذا واضحاً في ما كتبه النبي عاموس الذي كان يعمل في النصف الأول من القرن الثامن ق . م .

في أيام عاموس ازدادت حدة الأزمة الاجتماعية في العالم السوري بسبب الإنجاز الثـاني الكبير الـذي حققه الفينيقيـون . كان الفينيقيـون قد اختـرعوا حـروف الهجـاء (الالفباء) في القرن الحادي عشر . وفي الفتـرة التي خف فيها الهجـوم الأشوري بـين

سنتي ٨٢٧ و٧٤٥ ق . م . ، أقام الفينيقيون علاقات تجارية مع سردينية وشمال إفريقية وجنوب إسبانية ، وبدأوا بانشاء مستعمرات في الحوض الغربي للبحر المتوسط . ولعل هذا الإنجاز الاقتصادي كان مما أدى إلى اضطراب اجتماعي في الدويلات الفينيقية بالذات ؛ وكتابات عاموس هي دلالة واضحة على تأثير ذلك في إسرائيل . ولعل الشرور الاجتماعية التي كان عاموس ينكرها على الناس قد كانت مما أنكره إيليا على اخاب وايزابل . ولعله مما يلفت النظر هو أن إيليا كان من سكان عبر الأردن - وهي منطقة لم تكن الزراعة قد تغلبت فيها على حياة الراعي البدوي . ففي القرن التاسع ق . م . كان من الممكن أن تصعق الحياة في السامرة ويزرعيل رجلا تشبيا (اي من جلعاد) ، هذا دون الخوض في حياة صور وصيدون .

إن انبياء إسرائيل الذين وصلتنا أقوالهم مدونة كانوا معنيين بالديانة وقضايا العدل الاجتماعي الداخلية والعلاقات الدولية . وهذه الأمور جمعاء إنما هي ثلاثة مظاهر لقضية اساسية واحدة .

١٨ ـ المدنية الهلينية نحو ١٠٥٠ ـ ٧٥٠ق . م .

خلال القرون الثلاثة المنتهية بنحو سنة ٧٥٠ ق . م . كان السوريون قد اخترعوا الألفباء ، وكانوا قد اكتشفوا سواحل الحوض الغربي للبحر المتوسط واستعمروها ، وكانوا قد انتجوا أعمالاً أدبية ذات قيمة بما في ذلك أقدم ما دون من أقوال نبي . وإذا كان العبرانيون والأراميون كانوا أميين أيام استقرارهم في سورية ، فإنهم لم يلبثوا أن قبسوا الكتابة الجديدة التي كانت كتابة السكان الكنعانيين الذين استقروا في ما بينهم . وليس ثمة ما يدل على أن الكنعانيين لم يستمروا في الكتابة باللغة الأكدية والخط السومري إلى أن أخذوا أنفسهم بالكتابة بلغتهم مستعملين الخط الجديد ، الذي اخترعوه لأنفسهم . وعلى النقيض من ذلك فإن الإغريق ، على ما يبدو ، توقفوا عن استعمال الخط ب B بعد النكبة التي أصابتهم نحو سنة ١٢٠٠ ق . م . ؛ وهم لم يقتبسوا الألفباء من الفينيقيين إلا نحو سنة ٧٥٠ ق . م . وهكذا فإن الإغريق قد تأخروا نحو قرنين عن العبرانيين والأراميين في اقتباس الألفباء . فقد ظل الأغارقة أميين ما يقرب من ٤٥٠ سنة .

وهذه السنوات الأربع مئة والخمسون تمثل ، بالنسبة الى حوض البحر الأيجي ، عصراً مظلماً من ناحيتين : لم تنتج اي قيود مكتوبة ، والحضارة المادية كانت في الحضيض إذا ما قورنت بما سبقها من نتائج العصر المينوي الميكاني وما تلاها في العصر الهليني . ومع ذلك فإن الأغارقة كانوا، خلال هذه العصور المعترضة المظلمة ، يتلمسون طريقهم نحو ما يمكن أن يعد من أعظم إنجازاتهم المقبلة . فتطور أسلوب الفخار السابق للأسلوب الهندسي والأسلوب الهندسي نفسه ، كانا مقدمة للفنون الهلينية المتطورة على اختلاف أنواعها . وتطور الشعر الملحمي الإغريقي المروي كان مقدمة لإنتاج جماع الأدب الإغريقي الهليني ، والأدب اللاتيني الذي كان نتيجة وحي من الأول . إن تطور شكل المدينة ـ الدولة على أنها الشكل السياسي في العالم الإيجي في هذا

العصر المظلم ، لم يكن إنجازا خاصا بالإغريق . فقد ظهرت المدن ـ الدول في سومر قبل ذلك بنحو الفي سنة ، وقد كانت على الأقل واحدة من المدن ـ الدول الفينيقية أي جبيل ، قديمة كقدم نيبور وأروك وأور . وعلى كل فإن الشكل الخاص من المدينة ـ الدولة الذي طوره الأغارقة في حوض البحر الإيجي بعد سقوط امارات العصر الميكاني ، أصبح تدريجاً النموذج المعترف به لحوض البحر المتوسط بكامله ، وكذلك في مناطق تقع شرقي نهر الفرات .

إن حل رموز الوثائق المدونة بالخط ب أظهرت لنا الفرجة في الأنظمة السياسية الأغريقية بين العصر الميكاني والعصر الهليني . إن الإمارات الأغريقية الميكانية كانت نماذج مصغرة لامبراطورية سومر وأكد ومصر الفرعونية . وكانت إدارتها تقوم على تسلسل وظائفي تشرف عليه « مؤسسة » مهنية تعرف الكتابة . لكن هذه المدن ـ الدول لم تكن لا كبيرة ولا غنية بما فيه الكفاية لتتحمل بيسرٍ عبء هذه البنية الإدارية العملاقة ، ومن ثم فإن الثقل في الوظائف العليا كان أحد أسباب سقوطها . والمدن ـ الدول التي قامت من بين انقاضها كانت أقدر على مواجهة الواقع الاقتصادي الإقليمي . فالمدينة ـ الدولة الهلينية النموذجية كانت ، واستمرت على ذلك عبر التاريخ الإغريقي الروماني ، جماعة زراعية صغيرة . وقد كانت اراضيها يحدها نصف قطر يمكن اجتيازه مشيا في نصف يوم من السوق أو القلعة ، اللذين كانا نواتها . وهذه الجماعة كادت أن تكون ، من الناحية الاقتصادية ، مكتفية ذاتيا . وكانت تجارتها ، التي لا بد من امتدادها خارج حدودها ، على أدنى حد ، وكانت حكومتها الداخلية بسيطة . ولم تكن ثمة مرتبات للوظائف العامة أصلا ، فترتب على ذلك أن النفوذ السياسي كان حِكراً على الموسرين من أصحاب الأراضي .

ان الفرق بين الإمارة الميكانية والمدينة ـ الدولة الهلينية القديمة هو أمر بارز تماماً ، إلا أنه ليس ثمة ما يدل على انقطاع مقصود عن الماضي بالنسبة الى المستوى السياسي . وتبدو الإدارة العامة الإغريقية في العصر الميكاني كأنها تقليد واعٍ للإدارة البابلية والحثية والمصرية الفرعونية ؛ فيما تبدو الإدارة العامة الإغريقية في العصر الهليني وكأنها تطوير غير واعٍ للسياسة الإقليمية النموذج للأحوال الاقتصادية للمنطقة . ومن جهة ثانية فإن الأخذ بالأسلوب السابق للنموذج الهندسي للفخار يبدو وكأنه انطلاق جديد مقصود . فان الأخذ بالنماذج الزخرفية المجردة كان انقطاعا تاماً عن التقليد المينوي الميكاني الذي

كان الموضوع الغالب فيه هو رسم النبات والحيوان . وقد بدأ هذا الأسلوب السابق للهندسي فجأة نحو سنة ١٠٥٠ ق . م . وفي مكان واحد هو أثينا . وانتشر من أثينا بسرعة ، مع العلم بأنه كان ثمة أجزاء من بلاد الأغريق قد تطورت فيها أنواع من الأسلوب السابق للهندسي ، ثم الهندسي في ما بعد ، وكان ذلك على ما يظهر ، مستقلاً . وقد رافق الأخذ الفجائي بالاسلوب السابق للهندسي في الفخار في اثينا نحو سنة ١٠٥٠ ق. م . الاستعاضة ، المفاجئة كذلك ، بالحرق عن الدفن ، على اعتبار أن ذلك هو القاعدة القياسية للتخلص من الموتى . وفي التاريخ نفسه استبدل البرونز بالحديد على أنه المعدن المقبول لصنع الأدوات والأسلحة . وهذا التعاصر في التبدل الفجائي في التكنولوجيا والفن هو أمر بارز تماماً . فهل يدل هذا على تبدل في السكان أو أنه كان تبدلا في الزي فقط ؟ إن معرفتنا الأثرية لم تزودنا إلى الآن ، بجواب قاطع لهذا السؤال الذي يدور حوله نقاش حاد .

ان خلق هذا الأسلوب الجديد ـ الأسلوب السابق للهندسي ـ في زخرفة الفخار كان ممكنا بسبب تجديد تكنولوجي وهو استعمال فراش متعددة مرتبطة بدوائر . ولعل هذا لم يكن اختراعاً أثينيا ، بل لعل الاثينيين تعلموه من القبارصة في وقت عاد فيه الاتصال بين قبرص وحوض البحر الإيجي . وعلى كل فإن الناحية التكنولوجية في الثورة السابقة للهندسي في الفن الفاخوري ليست هي اهم ما في الأمر. فقد كان ثمة ثورة جمالية هي أكبر شأنا . فإن صناع المزهريات ومزخرفيها من الإثينيين الذين استعملوا الأسلوب السابق للهندسي كانوا يوائمون بين زخرفة المزهرية وشكلها . فقد كان الاتساق من الأمور التي يعنون بها عند وضع تصميم للنموذج ؛ وقد كانوا يتوصلون إلى الأثر الفني عن طريق التعبير الأنيق للأفكار البسيطة : وهذه الهيئات الثلاث المميزة للفن الإغريقي السابق للهندسي والهندسي ، استمرت على أنها صفات خاصة بالفن الهليني في انواعه المختلفة وعبر المراحل التالية للتاريخ الهليني ، باستثناء المرحلة الأخيرة . ويتضح الاهتمام بالاتساق في موقف الفنان من استخدام صور الإنسان والخيل في زخرفة المزهريات الهندسية الأسلوب في الدور الأخير منه . ففي ذلك الزمان كان أثر الأعمال الفنية السورية ، والتي كانت مزخرفة بصور الناس والحيوانات ، قد أخذ يتحدى الأسلوب التجريدي الذي كان قد مر عليه ثلاثة قرون وهو الأصل المتبع في حوض بحر الأيجي . ومن البين أن الرسامين للمزهريات الذي أخذوا بالأسلوب الهندسي كانوا يترددون في أن يعرضوا الاتساق في صنع النماذج للخطر ، وذلك عن طريق استعمال

صور الأشياء الحية بقطع النظر عن شكلها ؛ ولما قبلوا بذلك أخيرا ، فانهم هندسوا هذه الأشكال بجعلها تتسق مع النماذج التي استعملت فيها . إن رسم الأشكال الجامد الذي لا حياة فيه هو دليل على اهتمام الفنان بالاتساق ؛ إنه ليس دليلا على العجز لدى الفنان .

لقد كان ثمة انقطاع في الفن المتطور وفي النظم السياسية بين العصر المظلم التالي للعصر الميكاني وبين الماضي الميكاني في حوض البحر الإيجي ، ويبدو كأن الفاخوري ومصور المزهرية قد انفصلا عن هذا الماضي الميكاني عمدا . والشاعر الراوية كان ايضا يعي الماضي الميكاني ؛ لكن الذي كان يعنى به لا الانقطاع عنه بل الاحتفاظ به على أنه المجال الذي ينظم فيه شعره ، بقدر ما يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يعرض هذا الشعر لأن يكون غير مفهوم لمجتمع كان يتغير تغيرا بطيئاً ، ولكنه تغير مستمر من جيل إلى جيل . ففي الأجيال التي كان واحدها يتلو الآخر كان المستمعون للشاعر يتطلبون كلا الأمرين : القديم والمفهوم ، وكان على الشاعر أن يفي بالمطلبين معا . والعالم الذي كان يستحضره كان مزيجا خيالياً من سلسلة من العوالم الحقيقية . فقد انتظمت لدى الشاعر المراحل المتتالية للحياة الميكانية في صورة موحدة خداعة ، وقد مزج بين هذا التعبير المضلل جزئيا للماضي الميكاني وبين مظاهر الحياة في الأجيال المتعاقبة لخلفاء العصر الميكاني المظلم . وقد كان الفعل دالا على الالمعية ، وكان الفاعل يجب ان يتمتع بالقدرة الخاصة كي ينتج من هذه المادة المتغايرة في خواصها ، عملا فنيا متسقا يمكن أن يجد فيه المستمعون شيئاً مقنعاً ومقبولا .

وقد كان المتطلب من قدرات الشاعر الفنية والسيكولوجية شيئاً ضخماً ، وكان مما يزيد في صعوبة المهمة مشكلة تقنية دقيقة وهي نظم الشعر في وزن محكم . وقد حل الشعراء هذه المشكلة التقنية عن طريق وضع مجموعة كبيرة من صيغ البحور الشعرية وحفظها . فقد كان هناك صيغة لاسم كل من أبطال الملحمة ، مزاوجة مع النعوت المتعددة لكل بطل ، وكل هذا مع العناية بحالات الإعراب الخمس التي يتعرض لها الأسم في اللغة الإغريقية . وهذه الوسيلة التقنية مكنت الشاعر من عرض شخصياته المسرحية في شعر سداسي التفاعيل صحيح ، وفي عدد كبير من تنوع الأوضاع . وكان الشعر يرتجل في كل تأدية ، لكن أكثر الصيغ التي كان الشعر ينظم بها كانت مهيأة مسبقا . ولا ريب في أن صيغا جديدة كانت تصنع بين الفينة والفينة اثناء القيام

بالتأدية ، وكانت هذه تضاف الى جماع ما كان عند جماعة القائمين بالعمل . الا ان صنع الصيغة كان أندر من صنع قصائد مروية على صيغ وعتها ذاكرة الشاعر ، وكان الشاعر قد نظمها قلادة أدبية .

إن التطور التدريجي الذي تم عند الإغريق الهلينيين في الشعر المروي والفن المتطور والنظم السياسية في القرون الثلاثة المنتهية نحو سنة ٧٥٠ ق . م . يبدو وكأنه لا أهمية له إذا قورن بالإنجازات التي تمت في الفترة ذاتها على أيدي معاصري الهلينيين من السوريين . إن أهمية الإنجازات الإغريقية التي تمت في فترة العهد المظلم مما تلا العصر الميكاني ، يمكن أن يدرك مداها فقط على أساس النظرة الخلفية عندما ننظر الى ما تلاها . ففي اواسط القرن الثامن ق . م . ، وقبل أن تقضي أشور بآلتها الحربية وفي حملتها الأخيرة والمباشرة على السوريين ، وضع هؤلاء بين أيدي الهلينيين حافزا ثوريا مفاجئاً لما نقلوا إليهم الألفباء الفينيقية . وقد تلا هذه الهبة نقل الفن التجاري الفينيقي - وهو معدن خسيس حوله الهلينيون والأترسكيون إلى ذهب .

١٩ ـ المدنية الهندوية ١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق . م .

ذكرنا من قبل أن معرفتنا عن مدنية السند مستقاة أصلا من المصنوعات البشرية التي كشف عنها التنقيب الأثري ، وأن تأريخها يعتمد على ما عثر عليه من مصنوعات المدنية السندية في العراق في طبقات من البقايا الخاصة بالمدنية السومرية الأكدية والمعروف تأريخها . وسيظل الأمر كذلك إلى أن تحل رموز كتابة المدنية السندية . ومعنى هذا أن أحدث تاريخ يدلنا على أن المدنية السندية كانت لا تزال قائمة هو نحو سنة ١٥٠٠ ق . م . ، إلا أن هذا التاريخ الختامي ليس له ما يؤكده ، وليس لدينا ما يؤكد لنا التاريخ الأول الذي بدأت فيه المدنية الهندية (أي الهندوية) وهي المدنية التي جاءت في أعقاب السندية . وتاريخ الهند السياسي ، قبل الجزء الأخير من القرن السادس ق . م . ، ليس مدونا ، والموثق منه في حياة البوذا سدهارتا غوتاما (لعل ذلك كان نحو ٥٦٧ ـ ٤٨٧ ق . م .) لا يعدو كونه مصادفة بالنسبة إلى حياة بوذا ، وذلك لأن الأمر كله تعتمه الأسطورة . والفترة التي لعلها امتدت الف سنة ، بين سقوط المدنية السندية وعصر النور البوذي ، ليس ثمة ما يمثلها إلا القليل من المصنوعات البشرية التي عثر عليها في الآثار. والدليل الأثري لهذا الألف من التاريخ العلماني للهند يكاد يكون محصورا في تسلسل ضئيل من البقايا الفخارية .

وفي مقابل ذلك نجد أن الدلائل على الفترة السابقة لبوذا في تاريخ المدنية الهندية هي كثيرة ومفيدة في مجال التاريخ الديني . والديانة هي أكبر التجارب والنشاطات البشرية أهمية ، والكتب المقدسة للهندوية لا يمكن وضع تاريخ لها . فقد وضعت وانتقلت عبر الزمان شفويا لمدة من الزمن لا سبيل الى تحديد طولها ، قبل أن تدون . إلا أن انتقالها الشفوي عبر هذه المدة يبدو وكأنه كان صحيحا ، لأنه كان من المعتقد أن فعالية الأدعية كانت تعتمد على أن تعاد كلماتها إعادة صحيحة . يضاف الى ذلك أننا نستطيع ان نتلمس الترتيب الذي لحقت فيه أنواع الأدب الديني الهندي واحدها الآخر،

مع أننا لا نستطيع ان نتأكد من الزمن الذي استغرقه هذا التطور ، ومن ثم فليس باستطاعتنا ان نخمن الزمن الذي وضعت فيه أقدم هذه الأنواع .

وأقدم هذه الأنواع هو الفيدا : وهي مجموعة من الترانيم الروحية والرقى التي كانت تقرأ في الأدعية التي كانت أفعالا وشعارات طقسية كما كانت صيغا مروية . والنوع الذي يتلو ذلك هو مجموعة من الأبحاث حول التمارين الدعائية والمسماة براهمانا . وهذان النوعان وهما الأقدم من الأدب الهندوي ، ليسا متميزين ، إذ أنه ثمة ما يوازيهما في الأدب الديني ، المروي والمدون ، عند الجماعات القديمة .

في هذه المرحلة كان اهتمام الهندويين منصبا قبل كل شيء على إقناع الآلهة أو أرغامها على الاستجابة إلى رغبات الذين يعبدونها. والآلهة الهندوية، مثل الآلهة الحثية واليونانية والأسكندنافية ، كانت تحشر في مجمع . ولعل المجمعات الخاصة بالشعوب المتكلمة باللغات الهندية الأوروبية ، مشتقة ، في خاتمة المطاف ، من النموذج السومري . فعبادة فريق من الآلهة ، على أساس الطقس الصحيح ، هي ، بالنسبة الى عدد من الشعوب ، خاتمة تاريخهم الديني ، كما قد تكون بداءته . لكن الهندويين ذهبوا ، في مجموعات الأرانياكا والاوبانيشاد ، الى محاولة اكتناف سر الكون، وهي حال ينتقل الكائن البشري فيها إلى الوعي . فقد تساءلوا عن طبيعة الحقيقة النهائية ، وعن طبيعة النفس البشرية ، ومن ثم عن العلاقة بين النفس والحقيقة النهائية . وقد انتهوا إلى أن النفس (اتمان) هي مطابقة تماماً للحقيقة النهائية (براهمان) في الكون وما وراءه ، وأنه من الممكن التوصل الى الحدس بهذه المطابقة عن طريق الفحص الداخلي للمشاعر الإنسانية . وهذا الحدس تفسره ثلاث كلمات سنسكريتية ، تات توام أسي : أي « ذلك ما هو أنت » أو « أنت ذلك » ـ و « أنت » هي النفس البشرية و « ذلك » هي الحقيقة النهائية .

والدور الثاني في الديانة الهندوية هي نتيجة مستغربة للدور الأول . ففي الدور الأول كان الهندويون معنيين بالناحية الخارجية للديانة ، وفي الدور الثاني انتقلوا من الطقس الى التأمل ، وقد قطعوا شوطا بعيداً في اكتشافهم للبعد البسيكي للكون .

بامكننا ان نتتبع تطور الديانة الهندوية في مراحلها المتتابعة عبر ما تركه كل من هذه المراحل من أدب مقدس للخلف. وتطور تركيب المجتمع الهندوي يمكن استخراجه من

مصادر ليست معاصرة له . فالمؤسسة الهندوية الاجتماعية المميزة هي « الطبقة » ؛ وكلمة فرنا ، وهي الكلمة السنسكريتية التي ترجمت حديثا بكلمة طبقة ، معناها أصلا « اللون » . وهذا معناه ان الطبقية هذه تعود جذورها الى محاولة قام بها المهاجمون للبلاد الذين قهروهم ، والذين كانوا يختلفون عن المهاجمين في لون بشرتهم ، كما كانوا يختلفون عنهم في سلوكهم وعاداتهم . وقد كان النظام العنصري هذا صارما ، ولنا أن نحسب أن السبب في ذلك يعود إلى أن أهل البلاد كانوا أكبر عددا من المهاجمين ، كما كان اولئك يتفوقون على هؤلاء مدنية . فأهل البلاد كانوا ورثة المدنية السندية ، والمهاجمون الأريون كانوا « برابرة » .

وهذه المحاولة التي كان قوامها الحفاظ على عزلة الفاتحين عزلة عنصرية صارمة عن المغلوبين ، كان لها أثر على التركيب الطبقي الداخلي للجماعة الأرية المتسلطة . فقد انقسم الأريون ، كما حدث لشعوب أخرى في اماكن مختلفة متعددة في أجزاء العالم ، الى ثلاث طبقات هي : المحاربون والكهنة والعامة ، وقد كانت هذه الطبقات وراثية عند الأريين ، كما كانت عند شعوب أخرى . لكن الآريين بعد أن أقاموا أنفسهم الطبقة الحاكمة في الهند ، أصبح الانقسام الطبقي الداخلي عندهم لا يقل صرامة عن الفصل بين الآريين وأهل البلاد . وقد انتزع الكهنة (البراهمون) مع الوقت من المحاربين (الكشاتريين) ما كانوا يتمتعون به من كونهم أرفع الطبقات ـ وهو عمل فيه براعة ، إذا تذكرنا ان الثورة والنفوذ السياسي بقيا في أيدي طبقة المحاربين . وهكذا فقد أصبح الانقسام الطبقي بين الجماعة الآرية المسيطرة صارما كما كان في الطبقية بين الآريين وابناء البلاد . ومن ثم فقد انقسم المجتمع الهندي إلى أربع طبقات ، وليس الى طبقتين اثنتين ، يتصدرها الكهنة لا المحاربون . وقد تقسمت كل من هذه الطبقات الأربع في ما بعد الى طبقات تحتيّة ، وذلك تبعا لتضخم المجتمع الهندي نفسه عن طريق الفتوح الجديدة ، أو بسبب تمثل أهل البلاد عن طريق دمجهم في واحدة من هذه الطبقات الأربع الأساسية .

بما أن الآريين كانوا قد هبطوا الهند اصلا من السهوب الأوراسية ، فإن الموطىء الأول الذي استقروا فيه في الهند كان في حوض السند . والدلالة الجغرافية التي نحصل عليها من أدب الفيدا ، بقدر ما فيه من دلالة ، يشير إلى أن هذا كان موطن الآريين في الوقت الذي وضع فيه هذا الأدب . وفي أيام بوذا كان قلب العالم الهندوي قد أصبح

الجزء الأوسط من حوض جمنا - الكنجز . وفي القرن الثاني للميلاد كان العالم الهندوي قد امتدّ جنوبا الى شبه الجزيرة الهندية وجنوبا في شرق إلى ما هو الآن فيتنام الجنوبية، واندونيسيا . وليس ثمة قيود لهذا التوسع المتتابع للمدنية الهندوية ولكن ثمة شيء واحد بادٍ للعيان : كلما زاد هذا التوسع ، كان التمثل يكبر ، إذا قورن ذلك بالفتح والاستعمار . واللغة السنسكريتية وهي لغة الآريين ، وما اشتق منها ، لم تنتشر قط حتى في شبه القارة الهندية جمعاء . والمدنية الهندوية، بمؤسساتها الخاصة بها ، مثل نظام الطبقات واستعمال السنسكريتية كلغة مقدسة ، انتشرت في رقعة أوسع . ولما تجاهل بوذا نظام الطبقات ، وتحدى الاعتقاد القائل بأن النفس هي مطابقة للحقيقة النهائية ، ولدت في المدنية الهندوية ديانة تبشيرية هي التي أوقعت آسية بأجمعها في أسرها .

٢٠ - المدنية الصينية ١٠٢٧ - ٥٠٦ ق . م .

لعل العالم الصيني كان ، خلال الـربع الأول من الألف سنـة التي حكمت فيها اسرة تشو ، اكـثر استقرارا مما كان عليه في أيام شانغ ، ومن المؤكـد أنه كـان أكثر استقرارا مما كان عليه في القرون الخمسة التي انتهت في سنة ٢٢١ ق . م . وهي السنة التي تم فيها توحيد الصين سياسيا وبشكـل فعال عـلى يد شي هـوانغ - تي من اسـرة تشين . ويبدو أنه خلال الربع الأول من الألف سنة التي حكمت فيها اسرة تشو ، كان إشرافها المتقلقل على اتباعها الأمراء، البالغ عددهم سبعين أو تسعين ، فعّالاً بقد مـا كانت الأحوال تسمح بذلك . فقد كان نحو ثلثي هؤلاء الأتباع من أسرة تشو ، ولعل جميع فروع الأسرة كانت تشعر بالحاجة إلى التضـامن معا للحفـاظ على سيطرتهـا على الشانغ وغيرها من الجماعات التي لم تكن تشوية ولكن كانت أسرة تشو قد قهرتها . إلا أن الباعث على هذا الولاء لأسرة تشو قـد تآكـل مع مـرور الزمن . وبعـد النكبة التي اصابت الأسرة سنة ٧٧١ ق . م . خرج هؤلاء الأتباع عن الطوق .

كان عدد هؤلاء الأتباع ، في هذا الوقت [سنة ٧٧١ ق . م .] ، قد زاد بحيث أصبح نحو ثلاثمئة ، وذلك بسبب تقسيم القطائع تدريجا . وترتب على فقدان السلطة والنفـوذ في أسرة تشـو أن أخذ هؤلاء الأتبـاع ، الذين كـانوا مـوجـودين اسـما فقط ، يتصرفون وكأنهم أصحاب سيادة في الواقع ، الى حدّ أنهم كانوا يشنون الحروب واحدهم ضـد الآخر . وهـذه الحروب بـين الدول بـدأت قبـل نهايـة القـرن الثـامن ق . م . واستمرت عبر القرون الخمسة التالية . واستمرار القتال والحروب خلال هذه الفترة من التاريخ الصيني يميزها عن فترتي السلام نسبيا ، سواء في ذلك الفترة التي سبقتها والفترة التي تلتها . إلا أن النصف الأول من فترة القرون الخمسة الـواقعة بـين فترتي السـلام يختلف اختلافا بينا عن نصفها الثاني .

خلال القرنين المنتهيين في سنة ٥٠٦ ق . م . كانت الحروب مستمرة . وبسبب

ان الدول الظافرة كانت تضم الدول المقهورة إليها ، فقد نقص عدد الدويلات المحلية من نحو ثلاثمئة الى أقل من عشرين ، بما في ذلـك ما تبقى من رقعـة الأرض المحيطة بلويانغ التي بقيت تحت السلطة المباشرة لأسرة تشو التي كانت صاحبة السيطرة رسميا . ومع ذلك فقد ظلت الحياة ، في هذه الفترة من الحروب الأهلية ، وباستثناء أقلية ضئيلة من السكان ، مستقرة . وفي هذه المرحلة كـان المقاتلون من الجمـاعة الأرستقـراطية . وكانوا يقاتلون وهم في المركبات ، وقد كانت الظروف والتغيرات التي تعرضوا لها بسبب أفعالهم هذه تخفف من حـدتها روح الفـروسية التي كـانت تتحكم في مسيرة القتـال . والفلاحون ، وهم الطبقة الاجتماعية الأخرى إلى جانب النبـلاء ، لم يكونـوا بعد قـد فرض عليهم التجنيد لخدمة العلم . ولما كانت الفرص التي تسمح لهم بـالوصـول الى المستوى الاجتماعي الذي يجعل الحياة قلقة ، فقد كانوا يشعرون بالكثير من الطمأنينة في اقامتهم في الأرض التي كانت تدر عليهم ما يكفيهم ويكفي سادتهم المقاتلين . وقد كان تركيب المجتمع الصيني يقوم إلى هذا الوقت ، على معطيات تقليدية . والمنافسة الوحيدة كـانت ، إلى ذلك الـوقت ، هي المنافسـة العسكريـة بين النبـلاء . ولم تكن المنـافسـة الاقتصادية قد ظهرت . وبشكل خاص فإن الأرض لم تصبح بعد متاعاً يتاجر به .

وخـلال القرنـين الخامس والـرابع ق . م . أصبـح المجتمع الصيني متحـركا ، وفقدت الحياة الصينية عنصر الاطمئنان ، لا بالنسبة إلى النبلاء فحسب ، بل بالنسبة الى الشعب بأجمعه . وقد عاش كونفوشيوس (نحو ٥٥١ ـ ٤٧٩ ق . م) بحيـث ادرك بدء هذا التبدل . وقد كانت فلسفته والتعاليم التي لجأ اليها لنقل فلسفته إلى أخوة التلاميذ أقدم ردود الفعل الروحية التي أثارها التبدل الاجتماعي في الصين .

لقد كان أهم فرق بين الصين في عهد شانغ والصين في العصر الكونفوشي فرقاً جغرافياً . ففي عصر شانغ كانت رقعـة العالم الصيني تقتصـر على الحـوض الأدنى للنهر الأصفـر في سهل الصـين الشماليـة مضافـا الى ذلك حـوض رافده الأيمن نهرواي « في الأراضي الواقعة في ما وراء الممرات » . وفي سنة ٥٠٠ ق . م . كان العالم الصيني قد امتـد جنوبـا وشمالا . ففي الجنـوب شمل حـوضي نهري هواي وهـان والمنخفضـات الواقعة في حوض نهر يانغستي الأدنى . إن السكان الأصليين في هذا الامتداد الجنوبي لم يكونوا جزءا أصيلا من المجتمع الصيني، لكنهم كانوا قريبين من الصينيين عنصريا . ولغة الأم عندهم كانت وثيقة الصلة باللغة الصينية ، وكانوا قد اخذوا انفسهم باقتباس

اساليب الحياة الصينية بسبب انخراطهم المتزايد في سياسة العالم الصيني الواقعية . وامتداد العالم الصيني المعاصر زمنيا شمالا وشمالا في غرب حمل الصينيين على الاحتكام المباشر مع البدو الرعاة الأوراسيين ؛ وقد وجد الصينيون انفسهم هنا وجها لوجه مع غرباء لا يستسيغون التمثل . فالبدو هؤلاء لم يكونوا يتكلمون لغة لا صينية فحسب ، بل كانت لهم طريقة عيش ليست صينية . وفي الوقت الذي اصطدم فيه الفلاحون الصينيون بالبدو الأوراسيين ، كانت طرق الحياة في المجتمعين المتضاربين قد اتخذت شكلها المحدد .

٢١ ـ مدنية اميركة الوسطى والأنديز
٨٠٠ ـ ٤٠٠ ق . م .

إن تاريخ مدنية اولمك في أميركة الوسطى ، على ما عرفت في أقدم موقع معروف لها في سان لورونزو، قد أشير اليها في الفصل الخامس عشر من هذا لكتاب . ولما تعرضت هذه المدنية الى نوازل عنيفة بحيث امحت سان لورونزو من الوجود، استمر وجودها في مكانين اقرب إلى شاطىء خليج المكسيك : في لافِنتا وهي جزيرة تقوم في مستنقع، وفي ترس زابورتس الواقعة في فسحة من الأرض في غابة مدارية . وفي هذين المكانين تعود آثار معمار سان لورونزو الضخم وفنها الى الظهور .

وقد دمرت لافنتا ، كما دمرت سان لورونزو من قبل، بشكل عنيف. فمن الواضح ان الأولمك كانوا فاتحين عنيفين بحيث انهم كانوا يثيرون ، في نهاية الأمر ، ضربات همجية توجه ضدهم . وعلى عكس ما كان عليه الأمر في سان لورونزو، فإن مركز الطقوس في كل من لافنتا وترس زابورتس لم يكن مرتبطاً ارتباطاً دائماً بمكان تجمع سكاني ؛ إلا أنه في ترس زابورتس، التي استمر وجودها بعد دمار لافنتا، عثر على أقدم نموذج معروف لكتابة في أميركا الوسطى . وهي صور رمزية نافرة مثل النوع الذي حفره ، في أزمان لاحقة ، المايا في غواتيمالا ويوكاتان . وبعض هذه الصور الرمزية النافرة ، بما في ذلك ما عثر عليه في ترس زابوتس ، هي تاريخية . وقد حلت القيم العددية لهذه الصور ، لكن ليس من المؤكد أن كل الصور الرمزية النافرة في اميركة الوسطى هي ذات قيمة تقويمية . فبعضها قد لا تعني ارقاما ، بل رموزا اوفونيم ، وهذه لا تزال تنتظر حل رموزها .

وأقدم ما نعرفه من المدنية الأندية كان ، على وجه التقريب ، معاصرا لدور لافنتا وترس زابوتس من مدنية اولمك . وقد تطورت هذه المدنية الأندية من الدور التكوني في الحضارة الأميركية في شافن ، في اتجاه الطرف الشمالي الغربي للمرتفعات الوسطى للعالم الأندي . والأشارات الظاهرة لمدنية شافن هي آثار معمارية ونحت على نحو ضخم .

ومن الواضح أنها ، مثل نظائرها الأولمكية ، هي المظاهر الخارجية لديانة ما . والرمز الموضوعي البارز لمدنية شافن ، مثل مدنية اولمك ، هو هولة بين النمر الأميركي الأستوائي المرقط يغور ، (وقد يكون يوما في البيرو) والكائن البشري . وتشترك المدنيتان في هذا الموضوع السنوري الفني ، كما ان المدنيتين انبثقتا (ويظهر ان ذلك كان مستقلا في الواحدة عنه في الأخرى) من الدور التكويني لحضارة النواة الأميركية التي كانت شائعة ايضا في البيرو وميزو ـ اميركة والمناطق المعترضة بينهما في اميركة الوسطى والجنوبية . وعلى كل فإن المناطق المعترضة لم تنتج مدنيات محلية خاصة بها . ومدنية اولمك وشافن لم تكونا بعيدتين واحدتهما عن الأخرى جغرافيا فحسب ؛ بل إن أساليبهما كانت تختلف في المدنية الواحدة عنها في الأخرى ، ومثل ذلك يقال في إنجازاتهما .

فقد اخترع الأولمك كتابة كانت تحمل في طياتها ، ولا شك ، تواريخ بل لعلها كانت تحتوي على افكار وكلمات . ولكننا لا نجد اي اشارة يختلف في تفسيرها والتي قد يستدل منها على انها قد تكون حتى أبسط انواع الكتابة التي يمكن ان تكون قد اخترعت في اي مكان أو أي وقت سابق للبزاران العالم الأندي . وفي الناحية الأخرى كانت الشعوب الأندية ، في عصر شافن ، قد حذقت استعمال معدن واحد على الأقل ، هو الذهب ، بينما يبدو أن شعوب ميزو ـ اميركة لم تخترع التعدين اختراعا مستقلا . فقد تعلمت هذه الصناعة من العالم الأندي في دور لاحق من تاريخ ميزو ـ اميركة .

وفي حدود ما نعرف فان مدنية شافن ومدنية اولمك لم يتم بينهما أي اتصال قط ، ولكن كلا منهما انتشرت من موطنها إلى أجزاء اخرى من « عالمها » ، مع أن أيا منهما لم تنتشر انتشارا واسعاً حتى في حدود عالمها الخاص بها . فمدنية اولمك انتشرت غربا إلى هضبة المكسيك ، وجنوبا الى السهل الساحلي للمحيط الهادي والمرتفعات الواقعة في ما يسمى الآن غواتيمالا . ومدنية شافن انتشرت جنوبا في غرب من المرتفعات الأندية الى السهل الساحلي للمحيط الهادي المجاور لها ، ومن هناك في اتجاه جنوبي شرقي من واحد من أحواض انهار ساحل المحيط الهادي الى الحوض الآخر . وقد تم انتشار مدنية اولمك ، جزئيا على الأقل ، عن طريق الفتح العسكري . ويبدو أن انتشار مدنية شافن كان سلميا .

وقد كان انتشار كل من هاتين المدنيتين ، حتى ضمن هذه الحدود، إنجازا هاما ـ كما كان ، في واقع الأمر ، الانتشار المبكر والأوسع للحضارة الأميركية التكوينية . وثمة

سبب واحد يعزى إليه قيام مدنيات في ميزو ـ اميركة والمناطق الأندية من اميركة وهو الوجود المتكامل، في اميركة بأجمعها ، في هذه المناطق بشكل خاص ، لأشكال من الأرض طبيعية متجاورة ، إلا أنها تختلف عن بعضها اختلافا تاما في السطح والارتفاع والمناخ .

أن مناخ ميزو ـ اميركة هو مداري في المنخفضات الساحلية على المحيطين الأطلسي والهادي كليهما ، إلا أنه معتدل في المرتفعات . وعلى جهة المحيط الأطلسي ، حول شاطىء خليج المكسيك وفي المنخفضات الممتدة الى الداخل ، تقع شبه جزيرة يوكاتان العطشى والتي تجاورها جنوبا الغابات المدارية في شمال غواتيمالا ، وفي ولايتي تبسكو وفيراكروز (في المكسيك) إلى الغرب والشمال الغربي . وهذه المنطقة الساحلية الضيقة من الغابات المدارية تجاورها في الشمال منطقة صحراوية ضيقة تعزلها عن المنطقة الساحلية الخضراء في تكساس . والصحراء الميزو ـ اميركة هذه تمتد من الساحل الى الساحل عبر المرتفعات المعترضة بينهما ، باستثناء رقعة ضيقة من الأرض الصالحة للزراعة تقع في اقصى الغرب من المنطقة التي تحميها سلسلة الجبال من جهة الشرق . والجزء المرتفع من هذه الصحراء يجاور المرتفعات الصالحة للزراعة التي تمتد جنوبا من جنوب المكسيك الى داخل اميركة الوسطى .

والفروق في المنطقة الأندية هي بعد أكثر تطرفا . فالهضبة والجبال التي ترتفع عنها هي بعد اعلى من تلك . والأودية العريضة في المرتفعات اشد عزلة بطبيعتها واحدها عن الآخر ، منها في نظائرها الميزو ـ اميركية والسهل الساحلي في البيرو ، هو معتدل وذلك بسبب تيار هو مبولت البارد الذي يتجه شمالا في موازاة الشاطىء ، والذي يجعل من الساحل منطقة تكاد تكون معدومة المطر . وقد ترتب على هذا أن السهل الساحلي هو صحراء رملية تتخللها ، على أبعاد ، أشرطة من المناطق النباتية تقع في مجاري الأنهار التي تنحدر من الأندز الى الشاطىء ـ واكثرها قصيرة وذات كمية محدودة من المياه الجارية . وأودية الأنهار هذه يمكن ان تستغل بشكل مكثف بواسطة الري . ومن الناحية الأخرى ، فان الأجزاء الصحراوية التي لا تصلح للاستغلال من ساحل المحيط الهادي تزود الصيادين وجامعي المحار بحاجتهم من الغذاء .

هذه البيئات الطبيعية المتنوعة على ما هي عليه من تجاوز في المكان اتاحت للجماعات البشرية الفرصة لاكتشاف طرق متباينة تحول فيها الطبيعة غير البشرية الى

المصلحة البشرية . وهذه العناصر الاقتصادية المتنوعة أدت الى قيام طرق مختلفة في الحياة . وقد انتهى ذلك الى قيام علاقات تجارية وحضارية بين جماعات متباينة واحدتها عن الأخرى ؛ على ان الوصول من الواحدة الى الأخرى لم يكن بعيدا ، وقد كانت هذه العلاقات حافزا حضاريا هاماً . ولكنها كانت، على كل حال ، صعبة طبيعيا ، ومن ثم فقد كان تاريخ المدنية السابقة لكولمبوس ، في كل من ميزو- اميركة والعالم الأندي ، تناوباً بين فترات يعيش فيها سكان كل من الأقسام الطبيعية للمنطقة معزولين نسبيا ، وبين فترات أخرى كانت فيها المدنية التي تنشأ في قسم واحد تنتشر الى غيره . ومدنيتا الأولمك وشافن هما أقدم الأمثلة المعروفة للانتشار الحضاري . وكان تكرر الانتشار في العالم الأندي أدى الى انتشار اوسع من الانتشار المماثل لها في الميزو- اميركة . وهذا امر لافت للنظر ، اذا اخذنا في الاعتبار بأن الحواجز الطبيعية التي تعوق التساوق الحضاري والاتحاد السياسي هي أقوى في العالم الاندي .

٢٢ ـ الجولة الاخيرة للعسكرية الأشورية

٧٤٥ ـ ٦٠٥ ق . م .

بعد أن تخلصت أشور من خضوعها لميتاني عادت الى الظهور في القرن الرابع عشر ق . م . ، كدولة حربية . وخلال القرون الأربعة التي تلت ذلك كانت قوتها العسكرية تصرف في حملات لم يكن القصد منها احتلالاً دائماً، كما أنها لم تحقق شيئا من هذا . وقد كانت ، على الأقل خلال المراحل المتأخرة من انسياح السكان (نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق. م.)، تتعرض في جانبها الغربي ، لضغط الأراميين الذين استقروا في ما كان من قبل بلاد ميتاني ، في ما بين النهرين (الجزيرة) . ولم تبدأ حروب أشور التوسعية الا حول ٩٣٢ ق. م . ، وكان الأراميون المستوطنون في الجزيرة اول فريسة لها . وقد مر بنا أن أشور انتصرت على الأراميين في الجزيرة وضمتهم اليها بين ٩٣٢ و٨٥٩ ق. م. وبعد ذلك ، في أيام شلمانصر الثالث ، احتلت موطىء قدم لها على شاطىء الفرات الغربي عند تقوسه غربا، ووطدت النفس على احتلال سورية وضمها الى أملاكها . وقد انتهت هذه المرحلة الثانية من محاولة بناء إمبراطورية بالفشل . وللمرة الثانية كانت البلاد التي احتلتها أشور غربا حتى سنة ٧٤٥ ق. م. مقصورة على الجزيرة . وكان شمال سورية ، وهو منقلب رئيس في شبكة المواصلات في العالم القديم ، تحت سيطرة إمبراطورية اورارتو الحورية ، منافسة أشور .

كان أسلوب الأشوريين في بناء الإمبراطورية اشد قسوة وأكثر تخريباً من أسلوب المصريين. لقد كان تحتميس الثالث وخلفاؤه يكتفون بأن يفرضوا سيادتهم على الدول التي احتلوا بلادها . وقد سمحوا لهذه الدول بأن يستمر وجودها تحت نفوذهم . إلا أن الأشوريين سبوا نخبة السكان من الدول المفتوحة ونقلوهم الى بقعة نائية من الأملاك الأشورية . وقد كان بين الذين نقلوهم مهرة العمال كما كان بينهم كبار رجال السياسية والمجتمع. وقد ترك الفلاحون الأميون في اماكنهم ، إلا أن فئات من الذين نقلوا من مناطق اخرى اسكنوا في ما بينهم ، وأزيلت حدود الدول المغلوبة وأراضيها . وأعيد

توزيع المنطقة التي ضمت بحيث أصبحت خارطتها فسيفساء تمثل باخاتي (ولايات) ذات حدود مصطنعة ، يشرف على إدارتها موظفون أشوريون إشرافاً مباشراً . وكان الغرض من الأخذ بهذه الخطوات الجذرية مجتمعة تجزئة الجماعات المحتلة بلادها ومحو ذكرى أيام الاستقلال من نفوس المواطنين السابقين . وقد كانت هذه السياسة الأشورية ناجحة الى درجة كبيرة . وعلى سبيل المثال فإن دمشق التي ضمت سنة ٧٣٢ وإسرائيل التي ضمت سنة ٧٢٢ ق. م . لم تعد إليهما حياتهما الأولى أبداً ، مع أن سكان كل من الدولتين كانوا يتمتعون بوعي وطني حي ، قبل ان يخضعوا لأشور على نحو ما يظهر من الحروب التي تبادل الفريقان شنها واحدهما ضد الآخر .

وعلى كل حال فان الأشوريين انفسهم ورعاياهم الغربيين عنهم ، أصبحوا فريسة النشاط الأشوري الذي بذل لبناء الإمبراطورية . فقد نقص السكان في موطن الأشوريين الأصلي ، بسبب الذين سقطوا قتلى في الحروب ، وبسبب ما فرضته إقامة المستعمرات والحاميات الأشورية في البلاد المفتوحة من نزيف في القوى البشرية (وهو نوع من نقل السكان في الاتجاه المعاكس) . والثغرة التي حدثت في أرض الوطن الأشوري عبئت عن طريق استيراد أقوام غريبة ، حتى ان سكان النواة الأشورية أصبحوا شبه ارامين . يضاف الى ذلك ان التوتر الاجتماعي الذي فرضه على الشعب الأشوري تجنيده المستمر للحملات العسكرية البعيدة ، والتي كانت تتزايد ، أثار اضطرابات سياسية داخلية .

توفي شلمانصر الثالث سنة ٨٢٤ ق. م . اثناء ثورة امتدت من سنة ٨٢٧ الى سنة ٨٢٢ ق. م. وفي هذه الموجة من الثوران قامت المدن الأشورية - أشور ونينوى وإربل - بالإضافة الى بعض الولايات ، بالثورة . وفي سنة ٧٤٦ ق. م . ثارت كلخو (كاله) التي كانت العاصمة يومها ، وقتل الملك أشور نيراري الخامس ، واستولى على العرش الأشوري ، في سنة ٧٤٥ ق. م. ، رجل مجهول الأصل ، اتخذ ثغلت فيلسر الثالث اسما له . وكان خليفته المباشر شلمانصر الخامس الذي خلفه على العرش ، في سنة ٧٢٢، ملك من أسرة مختلفة، الذي كان اسمه ، او لعله اتخذ لنفسه اسماً مشهوراً ، هو سرجون - الذي كان اسم مؤسس اسرة أغاد قبل ذلك بما يزيد عن ستة عشر قرنا. وليس ثمة ما يدل على قيام ثورة عنيفة في هذه المناسبة ، لكن عندنا وثيقة من يهوذا بأن سنحاريب (ابن سرجون) قد اغتاله اثنان من أبنائه ، وان ابنا آخر من أبنائه ، وهو

أسرحدون ، قد خاض غمار حرب أهلية ليضمن لنفسه وراثة العرش. وقد اقتتل اثنان من أحفاد سرجون في ما بينهما (٦٥٤ ـ ٦٥٢ ق. م.) هما أشور بانيبال وأخوه شمش شوم ـ اوكين ، الذي كان قد نصب ملكا على بابل . وفي هذا القتال قاد هذا الاخير ، وهو امير من الدم الملكي الأشوري ، حلفا من جماعات الرعايا العصاة . وبعد أشور بانيبال في سنة ٦٢٦ ق. م . كان الملوك يتناوبون على العرش الأشوري بالقوة الى سنة ٦٠٥ ق. م . حين زالت ابقية الباقية من أشور .

وفي هذه الجولة الأخيرة للعسكرية الأشورية حاول تغلت ـ فليسر الثالث وخلفاؤه حتى أشور بانيبال بالذات ، ان يفتحوا ، ويضموا الى امبراطوريتهم ، ما استطاعت ان تصل اليه أيديهم من الأويكومين . وقد أحبطت مقاومة اورارتو في الشمال ومقاومة القبائل الكلدية والأرامية في بابل مسعاهم . وقد انتصروا اكثر من مرة على هؤلاء الخصوم ، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم . وفي الوقت ذاته زاد الصدام بين أشور وخصومها من الجيران تعقيدا تفجر سكاني قوامه العرب الذين جاؤوا من الجزيرة وشعبان من البدو والرعاة (لعلهم كانوا من المتكلمين بالإيرانية) هما الكمريون والسكيثيون الذين خرجوا من السهوب الأوراسية . وقد جاء هؤلاء جميعهم في وقت واحد .

كان العمل الأول الذي قام به تغلت ـ فيلسر الثالث لإعادة النشاط والتوسع للإمبراطورية الأشورية هو مهاجمة اورارتو. ففي سنة ٧٧٤ ق. م . هاجم الولايات التابعة لأورارتو في الشرق ، وفي السنة التالية هاجم الولايات التابعة لها في الغرب . وقد تمكن من الانتصار على الملك سردوريس الثاني انتصاراً ساحقا في الحملة الثانية وبين سنتي ٧٤٢ و٧٤٠ ق. م. اخضع تغلت ـ فيلسر الثالث ارباد (على مقربة من حلب) التي كانت أقوى دولة في شمال سورية . وقد أدى سقوطها الى اعتراف عدد من الدول الأخرى في سورية وكيليكيا الشرقية بالسيادة الأشورية اعترافاً مؤقتاً . وقد وصل تغلت ـ فيلسر الثالث توشبا ، عاصمة أورارتو ، في سنة ٧٣٥ وحاصرها إلا أنه عجز عن احتلالها ، ولم يستطع ان يحتل ايا من بلاد أورارتو احتلالا دائماً . وقد ترتب على احتلال شمال سورية ثانية (ولعل ذلك تم في أيام شلمانصر الخامس بين ٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق. م.) فرض السيادة الأشورية على حزام من الإمارات في شرق آسية الصغرى ، الواقعة الى الشمال من سلسلة جبال طوروس والى الغرب من أعالي الفرات. وقد عزل هذا أورارتو عن كيليكيا

وسورية عزلا فعالا . لكن الجهد الذي صرف في سبيل الحفاظ على السلطة الأشورية في الولايات البعيدة كان شديد الأثـر . يضاف الى ذلـك أن هذا الأمـر فرض عـلى اشور الدخول في حروب مع الفريجيين (المسكي) القـاطنين الى الغـرب من حدها الشمالي الغربي الجديد ، وأدى الى تقارب بين هؤلاء الخصوم الجدد وبين اورارتو .

وفي سنة ٧١٤ ق. م . سار سرجون في الاتجاه المعاكس أي شمالا في شرق دون أن يلقى مقاومة ، وتخطى سلسلة جبال زغروس ثم دار حول شاطىء بحيرة اورمية الشرقي وشاطىء بحيرة فان الشمالي . وقد عاد سالماً من هذا المسار الدائري عبر حوض دجلة الأعلى ، لكنه ، مثل تغلت ـ فيلسر الثالث ، فشل في الحصول على موطىء قدم ثابت في اورارتو ، وابتعد عن توشبا . وقد كانت مملكة اورارتو لا تزال قائمة في سنة ٦٠٥ ق. م . ، لما تم القضاء على أشور في معركة كـركميش على أيـدي البابليـين (الكلديين) والمصريين .

وقد عزل تغلت ـ فيلسر الثالث سورية عن مصر في سنة ٧٣٤ ق. م. لما هاجم فلسطيا (بلاد الفلسطينيين) واحتل غزة . ولم يكن ثمة دول مستقلة في سورية في سنة ٦٧٥ ق. م. سوى جزيرتين فينيقيتين هما أرواد وصور وثلاث إمارات برية هي جبيل وعسقلان ويهوذا . وقد حاصر الأشوريون صور سنة ٦٧٣ ق. م. ، وفي سنة ٦٧٥ ق. م. هاجم اسر حدون مصر (وقد كان هذا المشروع في تخطيط سنحاريب سنة ٧٠٠ ق. م . لما هاجم مملكة يهودا لكنه لم يحتلها) .

كان من السّهل على الأشوريين ان يتغلبوا على منافسيهم النَبتين (الكوشيّين) في سبيل الاستيلاء على مصر . فقد كان ملوك نبتا قد هاجموا مصـر سنة ٧٣٠ ق. م . ، ولبسوا التاج المزدوج اعتبارا من سنـة ٧١١ ق. م . وفي سنة ٦٦١ ق. م . تخلّوا عن الكفاح ، ذلك بأن حكمهم لمصر كان ممقوتا. ولما جاء الأشوريون الى الدلتا وسـاندوا حركة المقاومة التي قـادها الامـراء المحليون هنـاك ، لم يكن ملوك نبتا في مستـوى هذا التحالف . وقد تتبعهم الاشوريون جنوباً سنة ٦٦٣ ق. م . ونهبوا طيبة ، الا ان اشور بانيبال ولى ، في تلك السنة أحد امراء الدّلتا المصريين بساما تيخوس (بسامتك) الأوّل حكم كل ما كان تحت سلطة أشور من أراضي مصر . وقد لقب بساما تيخـوس نفسه الفرعون في سنة ٦٦١/٦٦٠ ف. م. ، وفي سنة ٦٥٥ ق. م . ركز سلطته في طيبة . وبين سنتي ٦٥٧ و٦٥١ ق. م. أخرج الحاميات الأشورية من مصر ، وقد وافق أشور

بانيبال على ذلك ضمنا . فقد كانت مصر أبعد عن نينوى منها عن نبتا . وقد اقنعت التجربة الأشوريين ، كما اقنعت الكوشيّين ، أنّ احتلال مصر باستمرار بقواهم الخاصّة كان قضية عسكرية ليس من اليسير عليهم ان يحلوها . وكان الرابحون في خاتمة المطاف ، من هذا التصادم بين قوتين أجنبيتين بعيدتين على ارض مصر، هم المصريون انفسهم ، وقد ظلّت مصر قرنا وربع القرن المنتهي سنة ٥٢٥ ق. م . مستقلة سياسيا .

كان احتلال أشور العسكري لمصر ، جهدا لا طائل تحته بالنسبة إلى قوتها . ولم ينتج عن خروجها من مصر أي تهديد لأمنها ، كما أنه لم يؤذ مقَامها في جنوب غرب آسية . لكنّ الاختبار المرير للسياسة الأشورية جاء من علاقتها مع بابل .

فمنذ ان احتل حمورابي العموري البابليّ الذي قام ببناء إمبراطوريته ، أشور احتلالا موقتا ، قبل ايام تغلت ـ فيلسر الثالث بما يزيد عن الف سنة ، كان ثمة تبدّل في تناسب القوى بين الدولتين الرئيسيتين في العالم السومري الأكدي . إذ أنه منذ القرن الرابع عشر ق. م . كان التفوق في جنوب ارض الرافدين (بابل) بسبب استقرار القبائل الكلدية في الجنوب الغربي وبعض القبائل الأرامية في الجنوب الشرقي . وهؤلاء المقتحمون على أطراف بابل لا هم اخرجوا ، كما أصاب الغوتيان ، ولا هم تمثلوا في السكان كما حدث للكاشيّين . لقد ظلوا أجانب يحدوهم الشعور بالعصبية القبلية والروح الحربية الخاصة بهم .

ولم يرحب سكان بابل المستقرون الفلاحون منهم وسكان المدن على السواء ، بوجود هؤلاء الذي كانوا أصلا بدوا رعاة من بلاد العرب . وقد كان من المنتظر ان يسهل مثل هذا الأمر ، اي وجود هؤلاء البدو التقارب بين سكان بابل وأشور . فأشور كانت جماعة مستقِّرة وكانت تشترك مع بابل في مدنية مستقاة من مصدر سومري أكديّ . وأشور كانت الحامي الطبيعي لبابل . إذ انها كانت المدافع عن حدود العالم السومري الأكدي ضد سكان الجبال في زغروس . وعلى كل حال فقد كان لا بد من استكمال شرطين فيها اذا كان ثمة مجال لاتفاق بين بابل وأشور هما : أن يكون تصرف الأشوريين نحو البابليين بارعا لَبقا ، وأن لا يسمح للقبائل المقيمة في بابل ان تخرج عن الطوق . فاذا أتيح للقبائل ان تسيطر على المدن البابلية وعلى بابل بالذات قبل غيرها ـ فان الأشوريين يجدون أنفسهم أمام مأزق حرج ، اذ يترتب عليهم واحد من أمرين ، إما ان يقبلوا بخسارة سيطرتهم على بابل ، أو أن يسترجعوا سيطرتهم على بابل بالقوة ،

وفي ذلك خطر الأساءة الى بابل ماديا ، وجرح كبرياء البابليين . وعندها قد يحمل البابليون على الاتفاق مع القبائل الجامعة ضد الأشوريين بسبب موقفهم من إعادة فرض القانون والنظام .

وقد قضى تغلت ـ فيلسر موسم الحملات العسكرية الأول في سنة ٧٤٥ ق. م. في تأديب القبائل مع موافقة « المؤسسة » البابلية . لكن في سنة ٧٣٤ ق. م. خرج الأمر من يد « المؤسسة » البابلية ، وعندها استولى زعيم القبيلة الكلدية ، بت ـ اموكاني ، على العرش . وفي سنة ٧٣١ ق. م. وهي السنة التي تلت سقوط دمشق اجتاح تغلت ـ فيلسر الثالث بابل وقضى على رجال القبائل هناك ، لكن الفراغ السياسي في بابل لم يملأ . وقد ملأ تغلب ـ فيلسر الثالث هذا الفراغ بنفسه إذ « قبض على يدي بعل » ـ اي تولى السلطة على بابل ـ في سنة ٧٢٩ ومرّة ثانية في سنة ٧٢٨ ق. م . لكن في سنة ٧٢١ ق. م. ـ وهي السنة التي تلت سقوط السامرة - احتذى زعيم القبيلة الكلدية بت ـ ياكين ، مروداخ ـ بلدان (مردوك ـ ابا ليدينا) حذو تغلت ـ فيلسر الثالث بعد ما ضمن القبائل الارامية في بابل ومعهم العيلاميين . وقد فشل سرجون في التغلب على هذا التحالف في سنة ٧٢٠ ق. م. ومن ثم فقد حكم مروداخ ـ بلدان في بابل اثنتي عشرة سنة . وقد تمكن سرجون من طرده سنة ٧١٠ ق. م. وفي سنة ٧٠٩ ق. م . أخذ يدي بعل ، بدوره ، إلا أن سرجون ترك مروداخ ـ بلدان مالكا للأرض التابعة لقبيلته الكلدّية .

وهكذا كان البابليون خصوما للكلديين وأصدقاء للأشوريين ، وظل الأمر كذلك الى سنة ٧٠٣ ق. م . حين عاد مروداخ ـ بلدان إلى احتلال بابل ثانية . وقد أعانه على ذلك العيلاميون للمرة الثانية . وقد طرده الأشوريون للمرة الثانية في السنة ذاتها . ثم تمكن الأشوريون من الانتصار على القبائل ، لكنهم لم يتمكنوا من اخضاعها. وقد نقل سنحاريب، في ٦٩٤ ق. م . سفنا وبحارة فينيقيين الى المياه البابلية ، إلا أن قبيلة بت ـ ياكين نجت من حملتين ، برية وبحرية ، وذلك بعون من العيلاميين . ونتج عن ذلك ان انتقل حكم بابل إلى حاكم بابلي هو حليف للكلديين . وقد احتل سنحاريب بابل ثانية سنة ٧٨٩ ق. م . ونهبها ؛ وهذه الوحشية الخرقاء اكدت التبدل الذي قام به البابليون . وقد ذكرنا من قبل انه حتى ملك بابل الأشوري، شمش ـ شوم ـ اوكين ، شن في سنوات ٦٥٢ ـ ٦٤٨ ق. م . ، حربا ضد أخيه أشور ـ بانيبال ملك أشور ،

وكان على رأس تحالف شمل ليس الكلديين والأراميين البابليين فحسب بل العيلاميين والعرب والمصريين وبعض الامارات السورية . ويبدو ان الهزيمة الساحقة التي انزلها أشور بانيبال بعيلام سنة ٦٥٥ ق. م . لم تكن حاسمة . فقد دمر أشور بانيبال مملكة عيلام بين سنتي ٦٤٦ و٦٣٩ ق. م . لكنه لم يقض على الأمة العيلامية . إلّا أنّ الرابحين من سقوط عيلام لم يكونوا الأشوريين ؛ لقد كان الرابحون الشعوب الأيرانية في الأرض الداخلية المصاقبة لعيلام .

فبعيد وفاة أشور ـ بانيبال، وفي سنة ٦٢٦ ق. م .، وقعت بابل تحت سلطان نابوبولاصّر الكلداني . ولم يكن ليتسنى لمثل هذه الحركة المخاصمة لأشور ان تلقى عونا من عيلام : فقد كانت عيلام منهكة . إلا أن نابوبولاصّر لقي حليفا شرقيا أقوى وأشد رهبة هو ميديا . ذلك أن الخطر الأشوري أوجد في ايران في القرن السابع ق. م. الأثر السياسي واساسه التماسك ، كالذي اوجده مثل هذا الخطر في اورارتو في القرن التاسع ق. م . وقد كانت القبائل الميديّة قد أقامت مملكة متحدة ، ولعلّ مظهر عيلام وهي محطمة هو الذي حمل القبائل على اتخاذ هذه الخطوة . ولما ردّ نابوبولاصّر ، بعد ما قام بالمبادرة الأولى ضدّ أشور ، عن مدينة أشور سنة ٦١٥ ق. م . ، تدخل كياكسارس، ملك ميديا ، لمصلحة البابليين ، فاحتل أشور ودمرها سنة ٦١٤ ق. م . واذ تقدم السكيثيّون لمساعدة الميديين والبابليين ، تمكن هؤلاء من احتلال نينوي وتدميرها سنة ٦١٢ ق. م . وهكذا فقد امحت أول وآخر عاصمة لأشور كلية . وقد صمد الأشوريون لآخر مرة في حران ـ وهي موقع قديم للحضارة السومرية ـ الأكدية في ما بين النهرين. فقد تقدم الفرعون نخو الثاني، وهو ابن بساما تيخوس الأول الفرعون الذي كان تابعا لأشور بانيبال، والذي كان قد تولى الحكم بعد ابيه ، الى نصرة الأشوريين ؛ الا ان الهزيمة الساحقة التي الحقها نبوخذنصرّ ، ابن نابوبولاصّر ، بنخو الثاني في معركة كركميش سنة ٦٠٥ ق. م . ، كانت ايذانا بزوال أشور .

لم يكن الورثة الحقيقيّون للأمبراطورية الأشورية الدول الوريثة للامبراطورية المحطمة ؛ بل كان هؤلاء النسخة الأرامية للألفباء الفينيقية واللغة الأرامية التي كانت لملك الالفاء آلتها . فالكتابة بالالفباء واللغة الأراميتين على ورق البردي كانت أيسر أسرع انجازا من الضغط على لوح من الطين باللغة الأكدية وبالشكل الأكدي للكتابة لطورة عن الكتابة السومرية . وثمة نقش بارز من قصر سنحاريب في نينوى يصور

كاتبين يقفان واحدهما جنب الآخر : الواحد ينقش على لوح من الطين بالقلم المعدني ؛ والآخر يكتب بالآرامية على لفة من ورق البردي مستعملا القلم لذلك . فقد أصبح هذا الخط « الموجة الطليعية » .

كان ثمة قبائل رعوية من الجزيرة العربية والسهوب الأوراسية قد أخذت تشترك في الخصومات بين أشور وجاراتها ، وذلك قبل نهاية القرن الثامن ق. م . ففي السنة التي احتل فيها الأشوريون دمشق (٧٣٢ ق. م) قاتلوا العرب ايضا . وفي سنة ٧١٠ ق. م . قاد الأشوريون حملة هجومية في الجزيرة العربية ، وقد توغلوا في الجزيرة ، حسب الرواية الأشورية ، بحيث أن السبأيين ، وكانت مملكتهم في الزاوية الجنوبية الغربية ، دفعوا الجزية لهم . وفي سنة ٧٠٣ ق. م . كان عرب يقاتلون مع حلف مرادوخ ـ بلدان الذي كان موجها ضد أشور . وقد كان ثمة حملة اشورية أخرى في الجزيرة العربية سنة ٦٧٦ ق. م . ويظهر البدو الأوراسيون لأول مرة في القيود الأشورية في سنة ٧٠٧ ق. م . حيث يروى ان الكمريين انتصورا على ملك اورارتو ارغشتِش الثاني .

ان التفجر السكاني من السهوب الأوراسية حمل بدوها غربا في موجتين اتخذت كل منها مجرى خاصاً بها . لقد تعقب السكيثيون الكمريين وانتهى الامر بالجماعتين ان هاجرتا غربا ، الى شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الاسود وجنوبيهما . ففي الجنوب وصل الكمريون الى ساحل اسية الصغرى الغربي ؛ وفي الشمال وصل الاودريساي (الأثرزوي) الى منطقة الْفولد في هنغاريا والى حوض نهر ماريكا في تراقيا . ويبدو ان الكمريين لم يلقوا من النجاح أكثر مما لقيه الأشوريون في الاستقرار في أورارتو ، إلا انهم تركوا اسمهم على شرق اسية الصغرى ـ وعلى غرب اسية الصغرى ايضا ، هذا فيما اذا كان السباردوي ، وهم الذي اعطوا اسمهم (سباردا) للولاية الفارسية هناك في ما بعد ، هم أحلاف الكمريين . اما السكيثيون ، وهم خصوم الكمريين ، فقد اصبحوا حلفاء الأشوريين . ولعل هذه المحالفة توضح ، جزئيا ، استمرار الامبراطورية الأشورية الى القرن السابع ق. م . كما توضح سقوطها بين سنتي ٦١٢ و٦٠٥ ق. م . ففي سنة ٦١٢ ق. م . انضم السكيثيون الى الميديين والبابليين في هجوم ناجح ضد نينوى .

كان بدو الجزيرة العربية في القرنين الثامن والسابع ق. م يستعملون الأبل ، اذ

كانوا قد أصبحوا على هذه الحال في القرن الحادي عشر ق. م . في واحدة من آخر موجة من انسياح السكان بين ١٢٥٠ و٩٥٠ ق. م .. إن البدو الأوراسيين كانوا في الانسياح السكاني في القرن الثامن عشر ق. م . يستعملون المركبات ، ولم يكونوا يركبون الحيوانات ، ذلك بان الحيوان الذي دجنوه لاستعماله في التنقل لم يكن الجمل ، بل كان الحصان ، ولم يكن هذا الحصان ، في ذلك الدور من إنساله ، قد اصبح حيوانا كبيرا وقويا بحيث يحمل ثقل رجل . وخلال الالف سنة التي تلي القرن الثامن عشر قبل الميلاد تم انسال الحصان الركوب . وقد كان في الجيش الأشوري في الانطلاقة العسكرية الاشورية الاخيرة (٧٤٥ ـ ٦٠٥ ق. م.) فرسان ، كما كان فيه قادة المركبات ، كما كان الكمريون والسكيثيون فرسانا يمتطون الجياد . ولسنا نعرف تاريخ تدجين الجمل ذي السنامين (البكتري ، من أسية الوسطى) . فالآثار الأشورية تظهر فيها صور للجمل العربي فقط . وأقدم إشارة الى أن الجمل الآتي من اسية الوسطى قد دجن يتضمنها اسم النبي القادم من شمال شرق إيران ، زاراتهوسترا (زرادشت) ، اذا صح ان اسمه يعني « مع الأبل الذهبية » .

إن الأشارة الى الهجوم الذي قام به البدو الأوراسيون الى جنوب غرب آسية في القرنين الثامن والسابع ق. م . هي إشارة متعاصرة مع الأحداث ، وهي ترد في المصادر اليهودية واليونانية كما ترد في المصادر الأشورية . أما الأشارة الى هجرة هؤلاء البدو الأوراسيين في جهات اخرى ، فهي متأخرة عن تلك الاحداث . فقد ذكر هيرودوتس بانهم كانوا شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الاسود . وهيرودوتس دوّن أخباره في القرن الخامس قبل الميلاد . ووجودهم في حوض نهر السند تتضمنه الأوصاف والأسماء التي تعود الى بعض الشعوب التي قابلها الاسكندر هناك بين سنتي ٣٢٧ و٣٢٥ ق. م .. فهل هاجم البدو الأوراسيون الصين ، ايضا ، في القرن الثامن قبل الميلاد ؟

لقد ألمحنا من قبل إلى أن أسرة تشو أصابتها كارثة في سنة ٧٧١ ق. م . في الصين . فقد هاجم الأسرة في تلك السنة برابرة ، ولقيت على أيديهم انكساراً ساحقاً ، بحيث انها اضطرت الى نقل عاصمتها من حوض نهرواي ، رافد النهر الأصفر ، إلى لويانغ في السهل الشرقي . وحوض نهرواي هو منطقة الدفاع الصينية ، في الجهة الشمالية الغربية ، عن الحظيرة ، ضد البرابرة. وطالما كان التشو يقومون بالدفاع عن هذه المنطقة ، فان خدماتهم للعالم الصيني بمجمله كانت كبيرة القيمة . فلما عجزوا عن

القيام بدور المدافع ، انحطت قوتهم وتدنى مقامهم . وقد جاء في أعقابهم ، للقيام بدور المدافع في حوض واي ، تشين . وللمرة الثانيـة ترتب عليهم للقيـام بهذا الـدور ، ان يسيطروا على العالم الصيني بأكمله . وعلى كل ليس لدينا ما يدل تماما على ان البرابـرة الـذين أجلوا التشو من حـوض واي سنة ٧٧١ ق. م. هـم بـدو رعـاة أوراسيـون . فلعلهم كانوا برابرة محليين مستقرين . والأمر الذي يدل دلالة قاطعة على قيام اتصـال مباشر بين الصين والبدو الأوراسيين يعود الى وثيقة من القرن الرابع قبل الميلاد تقول ان « ين » ، وهي اقصى دولة صينية في الجهة الشمالية الشرقيـة في ذلك الـزمن ، قلدت البدو إذ نظمت قوة فرسان على الطريقة البدوية . وليس لدينا أيّ دليل على ان البرابرة الذين انتصروا على التشو ، في سنة ٧٧١ ق. م . ، كانوا جناحـا من البدو الفـرسان الذين هاجموا جنوب غرب آسية وجنوب شرق اوروبة قبل نهاية القرن الثامن .

ان القيود التي وصلتنا عن البدو الذين هاجموا جنوب غرب اسية في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، تصورهم بانهم كانوا متوحشين مخربين لا اكثر ولا اقل . وليس في هذا الأمر غرابة ، اذا اعتبرنا ان هذه القيود دونتهـا الفئات المستقـرةالتي كانت فـريسة الهجوم البدوي . وعلى كل فانه من المحتمل ان البدو ، في هذه المناسبـة ، قد اعـطوا بعض الشعوب المستقرة التي أعتـدوا عليها ، مجمـوعة مميـزة من العقائـد والممارسـات (الشعائر) .

لقد كان في كلا العالمين ، الأغريقي والهندي ، في القرن السـادس ق. م . فئة من البشر كانت تعتقد بان الموت ليس نهاية وجود الحي . كانوا يرون ان الروح تستمر حية للتقمص في كائن حي آخر ، وهو قد يكون من النوع ذاته او ارفع او ادنى . وفيما اذا كان التقمص التالي سيكون ترقية او تدنيـة ، فالأمـر يتوقف عـلى التصرف الخلقي للروح في التقمصات السابقة . وقد يكون عدد الولادات الجديدة لا نهاية له ، وقد كان هذا ينظر اليه على انه اكبر معنى من الميتات المتعاقبة المعترضة . والمؤمن بالتقمص كانت الغاية عنده ، على بعـدها عن فكـرة الخلود ، هي ان يبلغ بسلسلة الولادات الجـديدة نهايتها ، وكان يؤمن بأن مثل هذا كان يمكن تحقيقه عن طريق العيش بتقشّف وفضيلة .

ان التشابه بين صيغتي الاعتقاد بالتقمص عند الأغريق والهنود ، وما يترتب على ذلك من النتائج ، قريب الى حدّ انه يصعب القول بأنه كان عرضيا . ويبـدو أنه كـان نتيجة اتصال تاريخي . وقد تكون العقيدة قد انتقلت من الهند الى بلاد الأغريق او من

بلاد الأغريق الى الهند ، او لعلها وصلت إلى كل من بلاد الأغـريق والهند من مصـدر خارج عن كلا المنطقتين . ولعل الوسيط المحتمل للنقل المباشر في كل من الاتجاهين كان الامبراطورية الفارسيـة التي ضمت اجزاؤ هـا ، بعضها الى البعض الآخـر ، في القرن السادس قبل الميلاد ، والتي ضمت كلا من الطرف الغربي من الهند والطرف الشرقي من عالم الأغريق . وقد رافق قيام الامبراطورية الفارسية تحسن في وسائل الاتصال في هذه الرقعة الواسعة التي شملتها الامبراطورية . وعلى كل فان صانعي الأمبراطورية الفارسية وسـادتها من الايـرانيـين لم يشـاركـوا الهنـود والأغـريق عقيـدتهم في التقمص ، وهم (الايرانيون) الذين كان موطنهم في الألف الأخير قبل الميلاد يقع بين العالمين الهنـدي والاغريقي . ولذلـك يتوجب علينـا ان نعنى بالبحث عن احتمـال بديـل . فالاعتقـاد بالتناسخ قد يكون جاء الهنود والاغريق من البدو الأوراسيّن الذين هاجموا مناطقهم على التوالي في القرن السابع قبل الميلاد .

ان الاعتقاد بأمكان الروح مغادرة الجسم والعودة اليه لا يزال قائما الى يوم الناس هذا في شمال آسية . فروح الشامان [في سيبريا] تدخل ثانية الجسم الذي تكون قـد خرجت منه ؛ انها لن تدخل جسما مختلفا قد يكون من نوع آخر . ومع ذلك فان عقيدة الشامان [الشامانية] هي الحالة الأساسية المؤاتية للاعتقاد بالتناسخ . وهكذا فانه من المحتمل ، ولو أنه لا سبيل للتدليل على ذلك ، بان العقيدة المشتركة عند الفيثاغوريّين والأورفيّن الأغارقة ، وعند معاصريهم الهنود ، قد تكون ذات أصل بدويّ اوراسي .

٢٣ ـ اعقاب العسكرية الاشورية ٦٠٥ ـ ٥٢٢ ق . م .

لو أن الامبراطورية الأشورية استمرّت قائمة ، لعلها كانت دمجت جنوب غـرب اسية ومصر في وحدة سياسية ، كان من الممكن ان تؤدي الى قيام وحدة اجتماعية ودينية ايضا . وعندها لعله كان يتاح لهذا البناء الأمبراطوري أن يؤمن سلاما لمنطقة كانت قلب الاويكومين ، ولو ان مثل هذا يمكن ان يكون باهظ الثمن . وعلى كل ، فان وحشيـة العسكرية الأشورية حكمت على الأمبراطورية الأشـورية بـالموت المبكـر . لقد نضبت بسببها موارد أشور البشرية ، المحدودة أصلا ، وأثارت حركات مقاومة عنيفة ، تألّبت كلهـا عليها ، فـأصبحت اكبر ممـا تستطيـع القـوة الأشـوريـة الآخـذة في الانهيـار من مقاومتها . والخراب الذي اسفر عن فرض الحكم الأشوري وعن تقويضه في ما بعد ، زاد في حدّته هجمـات الكمرّيـين والسكيثيين . وهـذه المصيبة المزدوجة خلفت بعض الضحـايا خـائرة القـوى ، وحتى اولئك الـذين قاومـوا بنجاح انتهى الأمـر بهم الى أن أصابهم الوهن في قواهم على درجات متباينة . والنتيجة المباشرة لذلك كانت قيام توازن مضطرب في القوى بين الدول التي خلفت الاسبراطورية الأشورية . والحلفاء المنتصرون اختلفوا في ما بينهم بعد انتصارهـم المشترك الساحق على خصمهم العام . فقـد اقتتلوا عـلى توزيـع الأسلاب ، وخشي الضعفـاء منهم أن يصبحوا هم ، بـدورهم ، غنيمـة للأقوى .

كانت المناطق التي اصابها الوهن هي بلاد ما بين النهرين وسورية جمعاء (باستثناء صور وجنوب فلسـطين) وأورارتو وشـرق آسية الصغـرى ووسطهـا . أما الـدول التي استمرت قائمة فهي ميديا وبابل ومصر وليديا .

كانت ميديا ، بين هذه الدول الأربع ، اقواها وأكثرها ثقة بالنفس ـ ولكن حتى ميـديا لم تكن من المنعـة بالـدرجة التي بـدت فيها ، كـما ظهر ذلـك في السهـولـة التي استـطاعت بها واحـدة من الولايـات التابعـة لها ، وهي بـرسيس (فـارس) ان تضم

الامبراطورية الميدية اليها نحو سنة ٥٥٠ ق . م . وفي الوقت ذاته فان ميديا كانت ، خلال الستين سنة التي بدأت بتدمير نينوى سنة ٦١٢ ق . م . ، اكثر اعتداءً من اي من ورثة أشور . كان الميديون ، إذا قوبلوا بالبابليين والسوريين والمصريين ، متأخرين اقتصاديا وحضاريا ، وكان تأخرهم هذا درعا واقيا لهم ، اذ يسر لهم الانتعاش السريع ؛ وعلى كل حال فان الضرر الذي لحق بهم بسبب الأشوريين ، كانوا قد عوضوا عنه باكثر من فائدة بسبب الوحدة السياسية التي فرضتها الاحوال على قبائلهم بسبب الخطر الأشوري .

وكانت أولى الأنجازات التي تمت على يد ميديا ، بعد سنة ٦١٢ ق . م . خدمة مشتركة قدمتها للعالم المستقر . فقد قضت على البدو الذين هاجموا جنوب غرب اسية أو أخرجتهم من هناك أو أخضعتهم لنفوذها ـ وقد تمّ ذلك جزئيا باقتباسهم عن البدو عدتهم وتخطيطهم العسكريين . وقد حمل هذا الميديين على ضم اورارتو وشرق آسية الصغرى ووسطها . وأرارتو ، خسرت الآن استقلالها على ايدي الميديين بعدما كان الأشوريون قد هاجموها ، وتلاهم الكمريون دون ان يستتبع ذلك احتلال دائم . وهذا التوسع الميدي في اتجاه غربي جر ميديا إلى الاصطدام مع ليديا ، التي كانت تتوسع من الجهة الغربية في اتجاه المناطق المهجورة من آسية الصغرى . وبعد جولة من الحرب الشرسة اتفقت ميديا وليديا ، سنة ٥٨٥ ق . م . ، على اعتبار المجرى الأدنى لنهر هاليس (قزل إرمَق) الحد الفاصل بين دولتيهما . وقد تم هذا الاتفاق بناء على وساطة بابل وكيليكيا ، وهذه دولة وريثة للامبراطورية الأشورية في جنوب شرق آسية الصغرى .

كان المجرى الأدنى لنهر هاليس يعبر البلاد التي كانت تكّون مملكة فريجيا من قبل . وقد كانت هذه أقوى دولة في اسية الصغرى قبل أن يقضي عليها المهاجمون الكمرّيون . وقد أصاب ليديا بعض الشر ايضا . فنحو سنة ٦٦٣ ق . م . كانت قد تغلبت على الكمريين ـ وذلك بمساعدة الأشوريين ، بحسب رواية أشور بانيبال . إلا أن الكمريين احتلوا عاصمة ليديا ، مدينة سارديس في سنة ٦٥٢ ق . م . احتلالا موقتا . وفي سنة ٦٤٦ ق . م . احتُلت سارديس ثانية ، وكان ذلك على أيدي التريرِ ، وهم شعب جاء من تراقيا وهاجم أسية الصغرى . ولعلّ هذا كان بسبب الضغط الذي وقع عليهم من الشطر الآخر من الكمريين والسكيثيين الذين كانوا ينساحون غربا الى شمالي

بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود . الا ان ليديا ، على عكس ما أصاب فريجيا ، استطاعت ان تلتقط انفاسها ، وبذلك اتيح لها أن تقوم بدور فعال في الصراع نحو تقسيم الرقعة التي كانت تابعة للأمبراطورية الأشورية . وقبل أن تصطدم ليديا بميديا في القرن السادس قبل الميلاد ، كانت الأولى قد أرسلت ، في تاريخ سابق لسنة ٦٥٢ ق . م . ، قوات من جيشها إلى مصر لمساعدة بساما تيخوس الأول في طرد الأشوريين من مصر.

كان الكلدانيون ، الذين سيطروا على بابل ، يتمتعون بكثير من القوة ، في مقاومتهم لأشور . وقد وجد فيهم كل الشعبين ، المصري والسوري ، قوة وعنفا على نحو ما كان للأشوريين ، وذلك لما تمكن الكلدانيون من فرض انفسهم ، بقوة السلاح ، على الجزء السوري من أملاك الأشوريين السابقة . وقد كان الكلدانيون ، اذ توجهوا غربا ، اسودا مزمجرة ، اما لما توجهوا شرقا وشمالا ، في اتجاه ميديا ، كانوا حملانا مرتجفة . كان موطن الأشوريين الأصلي قد تقاسمته ميديا وبابل وكان نهر دجلة الحدّ الفاصل بينهما . أما في المناطق الأبعد جنوبا فان بابل لم تستعد حدودها التاريخية ، بما في ذلك الأرض البابلية الى الشرق من نهر دجلة، فحسب بل إنها استحوذت أيضا على الجزء المنخفض من عيلام ، بما في ذلك مدينة سوسة . وترتب على هذا التقسيم ان اضطرت بابل الى الاضطلاع بالقضاء على الجيش الآشوري في حران، في شمال ما بين النهرين ، الأمر الذي أتمته بين سنتي ٦٠٩ و٦٠٥ ق . م . ، وذلك على رغم الدعم العسكري الذي قدمته مصر للأشوريين في وقفتهم الأخيرة . وتلا ذلك ، على كل ، أن وقعت حران في أيدي الميديين الذين احتفظوا بها حتى أتم الفارسيون القضاء عليهم نحو سنة ٥٥٠ ق . م .

ويبدو أن أحتلال الميديين لحران كان خرقاً لاتفاق سابق بين الميديين والبابليين حول توزع الأسلاب الأشورية .وعلى كل فان مثل هذا العمل كان ، بالنسبة للبابليين ، مظلمةً كما كان خطرا . وقد اضطر البابليون ، بسبب عجزهم عن طرد الميديين من حران ، إلى الاعتراف بأنهم لم يكونوا صنوا لحلفائهم السابقين . وكانت الحامية الميدية في حران خطرا يهدد ، وعلى مسافة قريبة ، خطوط المواصلات البابلية مع املاكهم في سورية ، عبر مجرى الفرات .

كانت الولايات الأشورية السابقة في سورية موضع نزاع بين البابليين والمصريين

في السنوات ٦٠٩ ـ ٦٠٥ ق . م . وقد تقرر قدر سورية لما انكسر المصريون في معركة كركميش سنة ٦٠٥ ق . م . . فمغامرة نخو الثاني (حكم ٦١٠ ـ ٥٩٥ ق . م .) في الشمال انتهت بالفشل . إلا أن هذا كان فصلا بالـغ الشـؤم في الفترة التي انتزعت مصر استقـلالها ثـانية . فقـد كانت هـذه الفترة ، بـالنسبة لمصـر على وجـه العمـوم ، فتـرة انجازات . فالقرن السابع قبل الميلاد هو الزمن الذي أخذ فيه المصريون أنفسهم بصنع ادواتهم من الحديد بدل النحاس . وقد كان ، على وجه التأكيد ، القرن الذي دخلت فيه مصر في علاقات نافعة للفريقين مـع اليونـان . والجنود الـذين بعث بهم غيغس ، ملك ليديا ، لمساعدة بساما تيخوس الأول في طرد الأشوريين كانوا مرتزقة من الأغريق والكاريين. وقـد انزل بـاسماتيخـوس هؤلاء الجنود في قضـائين ، كـل في واحد من الزاويتين الشماليتين للدلتا . وقد جاء التجار في أعقاب الجنود ، وقامت مستوطنة يونانية تجارية في نوكراتيس ، على فرع مريوط من النيل ، عـلى مقربـة من سايس ، عـاصمة بساماتيخوس .

وقد سمح لليونان ، بادىء الأمر ، أن يمارسوا التجـارة حيث شاءوا في مصـر . ولكن حول سنتي ٥٦٦ ـ ٥٦٥ ق . م . اجبروا على التمركـز في نيوكـراتيس ، وذلك نزولا عند رغبة قومية شعبية عارمة . لكن مصر استمرت فـي استخدام جنود مرتزقة من اليونان ، فيما استمر التجار اليونان على مبادلة الخمر وزيت الزيتون اليونانيين بالحبوب المصرية .

ورغبة منه في التعويض عن خذلانه العسكري في سورية ، أخذ نخو الثاني بحفر ترعة تصل اقصى فرع من النيل لجهة الشـرق ، برأس خليـج السويس ، عبـر وادي توميلات ؛ وقد أرسل ، من الساحل المصري على البحر الاحمر ، بعثةً بحرية فينيقية ، وهي التي تمكنت من الدوران حول افريقية .

بين سنة ٦٥١ ق . م . ، اذ طردت الحامية الأشوريـة من مصر ، وسنـة ٥٢٥ ق . م . ، لما احتل الأمبـراطور الفـارسي كمبيس مصر ، لم تقـع مصر تحت احتـلال عسكري أجنبي . وقد حمت الحامية اليونانية التي أقامها بساماتخيوس الأول في الـزاوية الشمالية الشـرقية من الـدلتا مصـر من السكيثيين . وانكسـار نخو الثـاني في كركميش وخسارته سورية لم يتبعها احتلال البابليين لمصر .

ومع ذلك فان المصريين لم يكونوا واثقين من أنفسهم تماما في الفترة بين سنتي ٦٥١

و٥٢٥ ق . م . . لقد تضعضعت ثقتهم بأنفسهم بسبب الانكسار السابق ، وقد حز هذا في نفوسهم إذا ما قوبلت حالتهم بالمجد الذي عرفوه في فترات مبكرة من تاريخهم . ففي عصر دولة سايس كان المصريون يصيخون السمع الى ذكريات فترة أقدم وأكثر الفترات مجدا، وهي فترة المملكة القديمة . وكان ثمة إحياء لما درس من أسلوب الفن المنظور والبروتوكول على عُرِفَ في زمن المملكة القديمة . وجدير بالذكر أنه في بابل المعاصرة كان آخر الملوك الذين حكَموا في فترة استعادة الاستقلال ، وهو نابونيدس (نابونائيد حكم من ٥٥٦ الى ٥٣٩ ق . م .) كان ايضامعنيّا بالدارس من الأمور . والاهتمام بالقديم مؤشر لنوع من التهيب . وقد كان البابليون ، في العصر اللاحق لأشور ، مثل المصريين يشعرون بالكبرياء بسبب قدم مدنيتهم ، كما كانوا يشعرون بالحرج نحو ذلك . ففي سنة ٦٠٠ ق . م . كان لا يزال امام المدنية الفرعونية المصرية مسيرة الف سنة اخرى ، وكان أمام المدنيّة الأكدية ـ السومرية ستة قرون من المسيرة . إلا أن كلا المدنيتين كانتا تحسان بخلجات الموت ؛ وفي واقع الأمر فان المستقبل كان يمتدّ امام مدنيات كانت احدث عهدا بنحو ألفي سنة من المدنيتين كليهما .

يبدو أن نبوخذنصر (حكم ٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق . م .) ، أبن نابوبولاصر مؤسس الأمبراطورية البابلية الجديدة [الكلدانيّة] لم يهاجم مصر . ومن الجهة الأخرى فانه لم يكتف بالاستيلاء على كل الولايات السورية التي كانت تابعة لأشور ، بل أنه اخضع دولتين سوريتين كانتا قد افلتتا من النير الأشوري . فقد أجبر نبوخذ نصر صور على التسليم بعد حصار دام ثلاث عشرة سنة (٥٨٦ ـ ٥٧٣ ق . م .) . وقد حاصر القدس واستولى عليها ثلاث مرات في ٥٩٧ و٥٨٧ و٥٨٢ ق . م . وقد كان كل احتلال يتبعه إجلاء السكان على الطريقة الأشورية . وحسب رواية النبي اليهودي ارميا المعاصر للاحداث فقد أجلى نبوخذنصر ٤,٦٠٠ شخصا . وهذا العدد يتفق مع الرقم الرسمي الأشوري (٢٧,٢٩٠) لعدد الأشخاص الذين أجلوا في سنة ٧٢١ ق . م . من المملكة الشمالية ، وهي الأكبر مساحة والأكبر ثروة . وثمة ارقام أخرى أكبر من الرقم الذي اورده ارميا ، عن عدد الذين أجلوا سنة ٥٩٧ وأعيدوا سنة ٥٣٩ ق . م . وهذه الأرقام وردت في مصادر متأخرة ، لكنها غير مقنعة .

كان الهدف من إجلاء مؤسسة الجماعة هو تحطيم هوية الجماعة ، وقد كانت هذه السياسة ناجحة في اكثر الحالات . فعلى سبيل المثال ان اجلاء ٢٧,٢٩٠ شخصا من

المملكة الشمالية في فلسطين سنة ٧٢١ ق . م . كان له هذا الأثر . إلا أن اليهود كانوا متميزين في اكتشاف السبل والوسائل للاحتفاظ بهويتهم واللجوء اليها في ظلّ المعاملة التي لقوها . فالسنوات بين ٥٩٧ و٥٨٢ ق . م . شهدت نهاية المملكة الجنوبية وبدء تاريخ اليهود واليهودية . وقد كانت المملكة الجنوبية ، مثل المملكة الشمالية [في فلسطين] ، تتمتّع بفترة استقلال لبضعة قرون في الالف الأخير قبل الميلاد ، شأنها في ذلك شأن عدد من الدول السورية . واليهود ، على عكس أسلافهم في المملكة الجنوبية ، كانوا ، في حقيقة الأمر ، الشعب الغريب الذي ادعوه . وكي نفهم كيف تمّ لهم هذا الأنجاز يتحتم علينا أن نعود القهقري في التعرف إلى تاريخ المملكة الجنوبية منذ نحو سنة ٩٢٢ ق . م . ، وهو التاريخ الذي انقسمت فيه امبراطورية المحارب داود ، بعد ما كانت تشمل جزءا من جنوب سورية . وفي فصول لاحقة سنبحث ردّ الفعل اليهودي لتحدي إجلاء السكان .

فاذا نظرنا الى تاريخ المملكة الجنوبية ، بين سنتي ٩٢٢ و٥٨٧ ق . م . ، تلمسنا مظاهره المميزة في هذا التاريخ ، فأولا تمكنت أسرة داود من التمسك بالعرش الجنوبي باستمرار مدة تجاوزت اربعة قرون ، اعتبارا من نحو سنة ١٠٠٠ ق. م. لما استولى داود على العرش . وهذا الحكم المستمر لأسرة واحدة تمكن مقارنته بالحكم غير المستقر للدولتين المجاورتين لها اي المملكة الشمالية ومملكة دمشق . ففي كل من هاتين الدولتين ما أكثر ما انتزع التاج باساليب عنيفة ممن كان يعتلي جباههم حينها . ولم تتمكن هاتان الدولتان من التخلص من الآثار الهدامة لأصلهما الثوري . إن سيرة داود كانت شبيهة بسيرة ريزون الأرامي ويربعام ملك المملكة الشمالية [في فلسطين] . إن داود ايضا انتزع التاج عن رأس حامله السابق ليضعه على رأسه هو ؛ ومع ذلك فان خلفاءه في المملكة الجنوبية احتفظوا بولاء من تبقى من رعاياهم بعد انهيار امبراطورية داود التي لم تعمر طويلا .

إن من تبقى من السكان شمل قبيلة يهودا ومدينة القدس الكنعانية الاصل والطرف الجنوبي للمنطقة التي كانت مساكن قبيلة بنيامين . ويبدو عجيبا ، في مثل هذه الأحوال ، أن تمنح الأسرة الداودية وعاصمتها نوعا من التقديس في تقدير اليهوداين .

ومن المستغرب أيضا أن تنجو المملكة الجنوبية أيضا من احتلال أشور لها ، إذا اخذنا في الاعتبار أن الملك حزقيا (حكم ٧١٥ ـ ٦٨٧/٦ ق . م .) كان ضالعا في

الحلف الكذاني ميروداخ - بلادان الموجه ضد أشور. وقد عاشت المملكة الجنوبية ١٣٤ سنة بعد المملكة الشمالية و١٤٥ سنة بعد مملكة دمشق . وفي ايام الملك حوزيا (حكم نحو ٦٣٧ - ٦٠٩ ق . م .) أسهمت المملكة الجنوبية في التكالب على اقتسام الأسلاب التي نشأت عن انحلال الامبراطورية الأشورية. وقد تمكن حوزيا من إحياء مملكة داود احياء موقتا ، وهي الدولة التي كانت قد تقسمت ، قبل ذلك بثلاثة قرون، بسبب الانقلاب الذي قام به ريزون في دمشق وانقلاب يربعام في المملكة الشمالية . وقد فقد حوزيا حياته ، وانتهى امر مملكته ، سنة ٦٠٩ ق . م . لما حاول التصدي ، بشيء من التسرّع ، لحملة الفرعون نخو الثاني ، حليف الأشوريين ، في طريقها من النيل الى الفرات . وأصبحت المملكة الجنوبية بعد ذلك تابعة لمصر اولا ، ثم بعد ٦٠٥ ق . م . لبابل . ومع ذلك فان الملكية الداودية تجاوزت حتى هذا الانحدار . ذلك بأنه لم يقض عليها الا في سنة ٥٨٧ ق . م .

وهذا الاستمرار المستغرب للمملكة الجنوبية اتاح الفرصة لظهور سلسلة طويلة من الانبياء اليهودايين · فأشعياء ، مستشار الملك حوزيا ، وارميا ، خصم الملك يهوياكيم ، كانا معنيين بالدرجة الأولى بالسياسة الخارجية . وقد نصح كلا هذين النبيين الملك بأن يتجنب تحدّي القوة الأمبراطورية التي كانت قائمة وقتها ؛ وقد اثبتت الأحداث بأن نظرة إرميا ، الذي عاش بعد القضاء على المملكة ، كانت صائبة .

لم يكن الأنبياء ظاهرة خاصة باليهودايين ؛ فعلى نحو ما ذكر قبلا كانوا ظاهرة من حياة المجتمع السوري إجمالا . ولم تكن نواحي الحياة الدينية الأخرى في المملكة الجنوبية خاصة بهذه الدولة السورية . فقد كان للمملكة الجنوبية ، مثل المملكة الشمالية ، ومثل بقية الفئات السورية ، إله قومي خاص بها ، لكن عبادة الأله القومي كانت تسير جنبا الى جنب مع طقوس دينية أخرى . إلا أن هذه الدلالة ، بالنسبة الى مجتمع المملكة الجنوبية ، فقد احتفظ بها حتى في الشكل المنقح من الأسفار اليهودية . فوصف الهيكل في القدس على نحو ما أعده سليمان وكما وجده حزقيا وحوزيا ، قد ينطبق في الغالب على بيت إيل في المملكة الشمالية وعلى هياكل ملكوم في عمون وشموش في موآب وريمون في دمشق . فلما قدم الملكان أحاز ومنسى ، من ملوك المملكة الجنوبية ، ابنيهما قربانا حيا تقربا من يهوه ، ليستمع الى طلباتهما ، كانا يقومان بطقس ديني سوري عام . ولما اكد حزقيا وحوزيا على امتيازات الأله القومي ، كانا يفعلان تماما ما فعله إيليا

واليشع وجحو من قبل. ولما دمر حوزيا مذبح يربعّام في بيت إيل، وذبح جميع كهنة يهوه في بيت إيل وغيرها من أماكن العبادة في بلاد المملكة الشمالية ، كان هذا انتقاما سياسيا لاحقا لخروج يربعام عن رحبعام ، جدّ حوزيا من بيت داود .

وقد كانت البدعة الأصيلة التي قام بها حوزيا هي طمس كل أماكن العبادة المحلية لا في البلاد التي استعادها فحسب ، ولكن حتى داخل الحدود السابقة للمملكة الجنوبية . فقد أصدر قرارا بأن يهوه هو الأله الوحيد الذي يعبد في مملكته ، وأن عبادته لا يمكن ان تتم إلا في القدس ، المدينة الكنعانية سابقا . وبعمله هذا فقد جعل حوزيا مملكته دولة ـ مدينة ، بما كان معاصروه من الاغريق يمكن ان يسموه سينولزم . بمعنى أنه لم كن تجميعاً ، بالمعنى الحرفي ، لكل السكان في مكان واحد ، بل كان يُشتَرطُ على أنَّ مكانا واحداً فقط كان الموضع المشروع لكل أعمال الدولة ، المدنية والدينية على السواء . وقد عضد حوزيا ثورته الدينية بأن أصدر ، في السنة الثامنة عشرة من حكمه ، سِفْرا قانونيا كان يحمل في طياته بعض العلاقة لسفر التثنية على ما هو معروف اليوم . ونتيجة لاستمرار المملكة الجنوبية فترة طويلة وبسبب أعمال الملك حوزيا في القرن السابع قبل الميلاد ، فان الذين كانوا قد أجلوا عن المملكة الجنوبية في سنوات ٥٩٧ و٥٨٧ و٥٨٢ ق . م . كانوا مهيئين سيكولوجيا ، لما نفوا ، أكثر ممن سبقهم من المنفيين ، للمحافظة على هويتهم الجماعية في أحوال قاسية .

قبل أن ينقضي القرن السادس قبل الميلاد ، كانت حظوظ خلفاء الأمبراطورية الأشورية قد تبدلت بسبب قيام سريع لأمبراطورية جديدة ، على أيدي بناة إمبراطورية جدد ، بحيث بدت الأمبراطورية الأشورية الى جانبها قزمة من حيث أبعادها ، كما أنها أظهرت عيب الأشوريين بسبب اعتدالها النسبي . وقد أشرنا الى أن الذين أفادوا من تدمير أشور بانيبال لمملكة عيلام هم الأيرانيين الجبليين الذين كانوا يقطنون ما وراء عيلام. والذين انتفعوا بذلك مباشرة هم الفرس الذين كانوا في المنطقة المعروفة اليوم باسم فارس ولورستان . وقورش الثاني ، مؤسس الأسرة الأخمينية، وهو الذي انشأ الامبراطورية الفارسية الأولى ، لقب نفسه ملك أنشان ، التي يبدو أنها كانت مدينة أو قضاء يقع في مكان ما من وادي نهر كارخا (خواسيس) ، فوق النقطة التي ينحدر فيها النهر من مرتفعات لورستان الى أراضي خوزستان المنخفضة .

نحو سنة ٥٥٠ ق . م . نصب قورش الثاني نفسه مكان أستياغس، ملك

ميديا ، واستولى على إمبراطورية بكاملها ، وكان هذا بلا شك بالتعاون مع جماعة من « المؤسسة » الميدية ، ونحو سنة ٥٤٧ ق . م . تغلب قورش على إمبراطورية ليديا وضمها إلى أملاكه ؛ وفي سنة ٥٣٩ انتصر على الأمبراطورية البابلية الجديدة [الكلدانية] وضمها إلى سلطنته ، بما في ذلك البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات . ولعله قام بعد هذا بالاستيلاء على البلاد الواقعة الى الجهة الشمالية الشرقية من ميديا وضمها إلى أملاكه (والبلاد المذكورة اخيرا هي المعروفة اليوم باسم خراسان وأواسط أسية السوفيتية وافغانستان) وهي المنطقة التي كان يقطنها قوم مستقرون من الناطقين باللغة الايرانية . وقد قتل قورش الثاني في محاولته للتغلب على المساغيتي ، وهم جماعة من البدو الرعاة كانوا يعيشون الى الشرق من بحر قزوين (الخزر) ويتكلمون اللغة الأيرانية . إلا أن هذا الفشل لم يوقف محاولة الفرس في بناء الأمبراطورية . ففي سنة ٥٢٥ ق . م . نجح قمبيس ، ابن قورش الثاني وخليفته ، باحتلال مصر .

توفى قمبيس في ظروف غامضة ، وخلفه على العرش امبراطور ادعى أنه أخو قمبيس واسمه سميرديس (بارديا) . وسواء أكان سميرديس حقيقيا أو مزورا ، فقد قتل على يد دارا الأول ، ممثل فرع آخر من الدوحة الأخمينية . وتصفية هذا الأمبراطور الأخير ، الذي كان يدعي انه ابن قورش الثاني ، كانت ايذانا بقيام ثورة عارمة في الولايات الواقعة الى الشرق من نهر الفرات (لقد ظلّت مصر وليديا هادئتين) . وكان أشد العصاة مقاومة البابليون والميديون والأرمن (وهم الذين كانوا قد استقروا حديثا في الجزء الغربي من مملكة أورارتو) وكذلك ، وهنا وجه الغرابة ، القبائل الفارسية القاطنة في أقصى المناطق الشرقية .

وفي نقش بهستون الواقع على الطريق الممتد من بابل في اتجاه شمالي شرقي ، يدعي دارا انه اخضع جميع اولئك الثوار في سنة واحدة (٥٢٢ ق. م) . ولعل إخضاع العصاة احتاج الى اكثر من اثني عشر شهرا ، لكن الخبر صحيح . وانتصار دارا يعود إلى الطاقة الهائلة التي بذلها هو وجنوده ، ولكنه يعود أيضاً الى رغبة عامة في السلام والأمن وهي التي كانت تراود نفوس الشعوب التي كانت قد عانت الكثير من تعنّت الأشوريين والبدو .

كان دارا الأول المؤسس الثاني للأمبراطورية الفارسية ، وقد وسع حدودها ايضا . فقد أخضع المساغيتي في الجهة الشمالية الشرقية ، وهم الذين تغلبوا على قورش

الثاني وقتلوه . وفي الشرق تغلب على حوض السند وضمه الى املاكه . وتمكن من احتلال موطىء قدم في الاتجاه الشمالي الغربي على الجهة الأوروبية من مضيق الدردنيل . وقد كان هذا الموطىء يمتد من الضفّة الجنوبية لمجرى الدانيوب الأدنى جنوبا في غرب إلى جبل أولمبوس . جاءت هذه الممتلكات الأوروبية نتيجة ثانوية لحملة تتصف بشيء من الرعونة ضد البدو السكيثيين المقيمين في السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود (وهنا كاد دارا الأول أن يلقى حتفه على نحو ما أصاب قورش الثاني) . وفي سنة ٤٩٠ ق . م . أرسل دارا حملة بحرية الى بلاد اليونان الأوروبية ، ولكنها باءت بالخذلان . وعلى كل فان دارا الأول كان ، على وجه العموم ، بنّاء امبراطورية ناجحا ، بقدر ما كان قورش الثاني . ولما توفى دارا الأول سنة ٤٨٦ ق . م . كانت الامبراطورية الفارسية الأولى تمتدّ ، من الشرق الى الغرب ، من نهر بيز ، رافد نهر السند ، الى الموطىء الشرقي لسلسلة جبال يندوس ؛ أما من الشمال الى الجنوب فكانت تمتدّ من الموطىء الجنوبي لجبال القفقاس إلى شمالي الشلال الاول على نهر النيل . وقد كانت هذه أوسع امبراطورية قامت ، كما كانت أقل الامبراطوريات ظلما .

٢٤ ـ المدنية الهلينية نحو ٧٥٠ ـ ٥٠٧ ق . م .

كانت المصائب التي أصابت حوض البحر الأيجي ، أثناء انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ ـ ٩٥٠ ق . م . ، أكبر من تلك التي أصيب بها أيٌّ من المناطق الأخرى التي تأثرت بهذا الانسياح . فقد سقطت المدنيتان المينوية والميكانية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ؛ وتناقص السكان في بلادهما السابقة ؛ وزالت الألفبائية منها . وكان ظهور المدنية الجديدة ، الهلينية ، منذ القرن الحادي عشر وما تلاه تدريجيا الى حد ان الشاعر هزيود ، الذي عاش نحو ٧٠٠ ق . م . ، لم يدرك معنى هذا الازدهار ، مع أن ذلك كان إبان ازدهار هذه المدنية الهلينية ومع العلم أن شعره بالذات كان أحد المنجزات الكبرى المبكرة لهذه المدنية الهلينية .

وعلى رغم هذا التعامي المقصود من هزيود ، فقد كان الأغارقة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد سعيدي الحظ ، كما كانوا قد جانبهم الحظ في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . ففي ذينك القرنين كان العالم الهليني، باستثناء المستوطنات الأغريقية على الساحل الغربي القاري لآسية الصغرى ، بعيدا عن متناول المدى التوسعي للجيوش الأشورية والجماعات البدوية الأوراسية الغازية . هذه المصائب ألمت بسورية ، وقضت على باكورة المدنية فيها ، في الوقت الذي كان فيه انتعاش العالم الأغريقي قد تم . وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد جاء المدنية الهلينية الوحي من التقدم الحضاري الذي كانت المدنية السورية قد اخذت تحققه منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وهو الزمن الذي كانت كل المظاهر تدل على أن العالم الأغريقي كان لا يزال يغط في سباته .

وقد ترتب على حسن حظ العالم الهليني ان نجا من الهجمات المدمرة الخارجية وان حظي بتفجر سكاني وهو الذي استمر الى القرن الثاني قبل الميلاد . وفي نحو سنة ٧٥٠ ق . م . وقع الهلينيون تحت الدَين الأول لسورية . فقد وصلتهم ، نحو هذا الوقت ، الألفباء الفينيقية . لقد كانت هذه الكتابة أصلح لتدوين اللغة اليونانية ، أو أي لغة

أخرى، من الخط «ب» المقطعي، الذي كان قد وضع ، في القرن الخامس عشر على الأرجح، تقليدا للخط «أ» المينويّ. ولما طوَّر الأغارقة الألفباء لحاجة لغتهم الخاصة ، باستعمالهم بعض الحروف الفينيقية الصامتة لتكون حروف علة ، فانهم وجدوا تحت تصرفهم كتابة كانت من البساطة بحيث يمكن للرجل العادي أن يكتبها ويقرأها ، فيما اذا قورنت بالخط ب ، الذي كان قد أصبح نسيا منسيا، شأنه شأن الخط أ ، ومثل الكتابات السومرية ـ الأكدية والمصرية والصينية ، التي كانت أدوات باطنية كان يقدر على الانتفاع بها حلقة صغيرة من أهل الاختصاص فقط .

لقد كان تقبل الأغارقة للألفباء الفينيقية وتطويرها ذا نتائج مذهلة بالنسبة للأدب والفكر الهلينيين . ففي فترة القرون الأربعة ونصف القرن ، التي سادت فيها الأمية ، كان كل انشاد لأي ملحمة شعرية عبارة عن خلق جديد ، يقوم به المنشد بداهة يرافقه إبداع غنيٌّ لأساليب عروضية كان المنشد يحفظها عن ظاهر قلب ويستعيدها عند الحاجة . فهل كانت الألياذة والأوديسي آخر نسخة للانشاد البدهي للعصر السابق للعمل الفني الأدبي ، ام كانتا الثمرات الأولى لاقتباس الكتابة الجديدة ؟ هذا اضافة الى كونهما اطول واعظم نتاج أدبي ! يبدو أنه من المؤكد ان مثل هذه النصوص الطويلة ، وهي لا تمت للطقوس الدينية بصلة ، ما كان لها أن تتخذ هذا الشكل النهائي لولا أنها دونت بعيد الأنشاد الأول لها . فالملحمة ، على خلاف النصّ الديني ، نوع من الأدب يصعب نقله بالرواية والحفظ كلمة فكلمة ؛ ذلك بأن فاعلية الملحمة لا تعتمد على الأعادة الدقيقة لجماع الكلمات بشكلها الخاص . على النقيض من ذلك فان استجابة السامعين للملحمة الشفوية إنما تعتمد على مخزون عقلي عميق لأساليب عروضية قصيرة ، بحيث ينتج عن ذلك عمل فني جديد في كلِّ مرة يعرض فيها ذلك الأثر الأدبي .

وتدوين الملحمة يضمن كلا الأمرين : حفظ القصيدة وموت النوع . فلم تلبث الألياذة والأوديسي أن دونتا ، حتى أخذ المؤلفون الأغارقة في اختراع سلسلة من الأنواع الجديدة: الشعر الرثائي والغنائي، والنثر القصصي، والحوار ؛ وقد كانت هذه الأنواع تستعمل للتعبير والنقاش كما استعملت للتسلية . فما كاد القرن السادس ان ينتهي حتى كان الكتاب الأغارقة يدونون نظرات علمية . وقد بدأوا يكتبون الرواية التمثيلية ـ وقد استعمل الحوار التمثيلي ، في نهاية المطاف ، واسطة للجدل الفلسفي .

وقد تبع تقبل الأغارقة للالفباء الفينيقية وتطويرها ، وهو الأمر الذي كانت له هذه الآثار الأدبية ، اقتباسهم دوافع أجنبية للفن المتطور . ففي نهاية القرن الثامن كان الأسلوب الهندسي المتبع في زخرفة الأواني الفخارية قد أفسح في المجال امام أسلوب جديد ، جاء من بلاد المشرق ، كان أساسه الاستعاضة عن الأشكال المجردة برسم أشكال المخلوقات الحية ـ الحيوانات اولا ، بقطع النظر عن كونها حقيقية أو خيالية ، ثم الكائنات البشرية كذلك . وقد كان مصدر الوحي لهذا الأسلوب الزخرفي الجديد للأواني الفخارية الفن التجاري الفينيقي المعاصر له . والمحاولات الأغريقية الأولى في تصوير الجسم البشري في أبعاده الثلاثة كانت مستوحاة من نماذج مصرية .

وما كان تقبل الأغارقة للآثار الفنية من المشرق في القرن السابع قبل الميلاد ، وتقبلهم للألفباء الفينيقية قبل ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد ليتم لو أنهم لم يستعيدوا اتصالهم بالمشرق ، ذلك الاتصال الذي تعثر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وقد كان هذا الاتصال ، في الغالب الأعم ، بحريا ، وكان ولا بدّ اتصالا تجاريا ؛ فالأغارقة ما كانوا ليستوردوا البضائع المشرقية بالمجان . ففي واقع الأمر كان ثمة مركز تجاري إغريقي يوبي قد أقيم ، ربما في القرن التاسع قبل الميلاد ، في المينا ، عند مصب نهر العاصي ، في الطرف الشمالي من الساحل السوري . فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد كانت الحاجة الاقتصادية الماسة ، بالنسبة الى الأغارقة ، هي الحصول على المواد الغذائية للعدد المتزايد من الافواه الجائعة في ذلك الحين . وقد كان ثمة سبيل واحد لزيادة المواد الغذائية لمنطقة لم تكن بطبيعتها غنية بالموارد الطبيعية وهو استيراد الحبوب من مناطق خارج العالم الهليني مقابل المنتوجات الهلينية ؛ أما أهون السبل فقد كان أقلها تعقيدا . ذلك هو توسيع رقعة العالم الهليني عن طريق فتح واستعمار البلاد التي تقطنها شعوب كانت ضعيفة بحيث لا سبيل لها لمقاومة الاعتداء الهليني .

في العقود الأخيرة من القرن الثامن قبل الميلاد أخذ الأغارقة بالتوسع عبر البحار غربا ، في ما وراء مضيق اوترانتو ، على السواحل الجنوبية والغربية لايطالية ، والسواحل الشرقية الشمالية لجزيرة صقلية . وفي القرن السابع قبل الميلاد أخذ الأغارقة ايضا بالتوسع في سواحل البحار الضيقة التي توصل حوض البحر الأيجي بالبحر الأسود . ولعل التجار الأغارقة سبقوا المستوطنين الأغارقة وارشدوهم الى المواقع التي استولوا عليها ؛ إلا أن الجاليات الأغريقية الهلينية المبكرة كانت نسخا طبق الأصل

للجماعات الأغريقية المعاصرة التي أنشأتها . لقد كانت تلك ، مثل هذه ، دولا ـ مدينية تعتمد أصلا على الزراعة في الحصول على حاجتها من الحاجات الحياتية : تنتج المواد اللازمة لعيش المنتج ، لا للتصدير الى الخارج . ولم يكن للأغارقة منافسون في المنافذ البحرية الى البحر الأسود . وقد ذكر من قبل أن إقامة دول ـ مدينية إغريقية على الساحل الغربي لاسية الصغرى وفي الجزر القريبة ، قد جعل من البحر الأيجي بحيرة إغريقية . وفي الجهة الثانية ، فقد لقي الأغارقة ، في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، منافسة قوية على أيدي الفينيقيين والأترسكيين (ويبدو ان هؤلاء كانوا شعبا ، مثل الفينيقيين والأغارقة ، أصله من شرق البحر المتوسط ، ولو أن هذا لم يثبت قطعيا بعد) .

وعندما ننظر الى المنافسة في سبيل السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، يتضح لنا ان الفينيقيين كانوا دون الأغارقة عددا ، لا ديموغرافيا فحسب ، بل ايضا بسبب الاعتداء الأشوري عليهم في بلادهم الاسيوية الأم . إن الجولة العسكرية الأشورية الأخيرة ، والتي كانت أكثر عنفا من سابقاتها ، بدأت سنة ٧٤٥ ق . م . ، وقد جاء هذا بسنوات قليلة بعد التاريخ الذي بدأ فيه الأغارقة بأقامة طوارئهم في الغرب . وعلى كل حال ، فقد كان للفينيقيين والاترسكيين نوع من التفوق الهام على الأغارقة ، وقد اتخذوا خطوات مقصودة ومؤثرة لمقاومة التفوق العددي للأغارقة ، وابتعادهم عن المصيبة الأشورية .

فقد اتخذ الفينيقيون مراكز ذات قيمة استراتيجية ، وبذلك سبقوا الهلينيين ، بحيث تمكنوا من وقف التوسع الهليني غربا في حدود معينة . فقد استولى الفينيقيون على شواطىء مضيق جبل طارق، الذي كان يسيطر على الطريق البحري الموصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي . واضافة الى ذلك فقد كانوا يسيطرون ايضا على كلا الشاطئين الواقعين بين النقطة الشمالية الشرقية من إفريقية الشمالية الغربية والطرف الغربي من جزيرة صقلية ، اضافة الى أنهم سيطروا على ساحل سردينية الجنوبي . وكان الاترسكيون يمتلكون الاحتياط المعدني في جزيرة إلبا وفي البر الأيطالي المصاقب لها . وقد كانت هذه من المغانم الاقتصادية الرئيسة في حوض البحر المتوسط الغربي ، لكن أقرب نقطة تمكن الأغارقة من الاستيلاء عليها كانت كومي ، وكانت على بعد كبير الى الجنوب على ساحل ايطالية الغربي . ولعل هذه كانت أقدم مستعمرة إغريقية قارية في الغرب ، إلا أن إقامتها جاءت متأخرة بحيث أنها عجزت عن سبق الأترسكيين في توطين جماعة

معدنٍّة في بوبولونيا. وقبل ان ينقضي القرن السادس كان الأترسكيون قد احتلوا المناطق الريفية (كامبانيا) الواقعة ما وراء كومي .

وقد قابل المستعمرون الفينيقيون والأترسكيون الأعداد الأكبر من الأغارقة عن طريق الوحدة السياسية . ففي اواخر القرن السادس قبل الميلاد كانت كل المستعمرات الفينيقية قد وضعت نفسها تحت القيادة الموحدة لأقواها ، وهي قرطاجة ؛ وقبل ذلك كان المستعمرون الفينيقيون قد التزموا بوحدة الهدف مع الدول ـ المدينية الترسكية . ومن ثم فان الأغارقة الأسيويين لما حاولوا الحصول على ملجأ في الغرب ، هربا من الحكم الليدي اولا ثم من الحكم الفارسي في ما بعد ، باؤ وا بالخيبة . وقبل سنة ٥٠٠ ق . م . توقف الاستعمار اليوناني في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وعند هذا التاريخ كانت الأجزاء الوحيدة التي استطاع الأغارقة احتلالها ، هي الريفييرا الفرنسية وكوستا برافا ، التي تقع على شواطىء البحر المتوسط الأوروبية في المنطقة الواقعة الى الشمال الغربي من كومي . وقد كانت المستوطنات الأغريقية هنا تحت القيادة الموحدة لواحدة منها هي مسيليا (مرسيليا) . وقد يسر لها موقعها ، عند مصب نهر الرون ، الاتصال مع قلب القارة الأوروبية ، وكذلك الاتصال بمناجم القصدير في كورنوال [في جنوب انكلترا] وذلك عبر مسيرة برية قصيرة ، بحيث كان من الممكن تجنب مضيق جبل طارق الذي كان يصعب على السفن الأغريقية اجتيازه بسبب وجود المستعمرين الفينيقيين هناك تحت قيادة قرطاجة . وعلى كل فان تجارة المسيليين مع الداخل الى الشمال تعرضت للتوقف نحو سنة ٥٠٠ ق . م . وذلك بسبب اضطراب قام بين الشعوب القاطنة هناك .

إن التوسع في المجال الحيوي الهليني ، في القرن السابع قبل الميلاد ، عن طريق إقامة دول ـ مدينية إغريقية التي كانت تعتمد في حياتها على الزراعة ، بذّه ، من حيث الأهمية الاقتصادية ، توسع على نطاق اوسع في المجال التجاري للعالم الهليني . إن غالبية الدول ـ المدن الهلينية ، في بلاد الأغريق الأصلية وفي ما وراء البحار ، ظلت أصلا جماعات صغيرة ، مكتفية ذاتيا اقتصاديا ، لكن اقلية منها اخذت نفسها بأنتاج مواد متخصصة للتصدير مقابل استيراد الحبوب المنتجة في الخارج . وهذا مكّن لهذه الدول ـ المدن أن تعيش من الاتّجار مع الشعوب التي لم تتمكن من احتلال بلادها واستعمارها . وقد كانت احدى هذه الصادرات المتخصّصة الجنود المرتزقة . وقد أشرنا

من قبل الى استيراد مصر لهؤلاء في القرن السابع قبل الميلاد . وفي القرن السادس قبل الميلاد كان أحد أبناء ميتيلين، وهو أخ للشاعر الكايوس ، من المرتزقة في جيش نبوخذنصر . والجماعات الأغريقية المتأخرّة اقتصاديا كان بامكانها ان تصدّر المرتزقة ، وقد فعلت ذلك . وثمّة جماعات ، وهي اصغر عددا ، كانت متقدمة اقتصاديا فكانت تصدر زيت الزيتون والخمور في أوعية مزخرفة بشكل جميل بحيث كانت هي بالذات ادوات لها قيمتها الخاصة . ومع ان هذه الآنية كانت هشّة ، فانها ، على كلٍ، كانت أقوى على البقاء من السوائل التي كانت تحويها .

في القرن السابع قبل الميلاد كان الأغارقة يحصلون على فائض المنتوج من الحبوب في منطقتين ـ مصر وأوكرانيا . وقد أشرنا من قبل الى التجارة الأغريقية مع مصر ، اما التجارة مع اوكرانيا فقد أصبحت ممكنة لما توقف انسياح السكيثيين البدو الرعاة في السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود . لقد كان البدو السكيثيون ، من بين البدو الأوراسيين ، فريدين في حصافتهم الاقتصادية إذ أنهم فرضوا على السكان الزراعيين في اوكرانيا ان يدفعوا الضريبة المطلوبة حبوبا ، وذلك بدل ان يدمروا الزراعة هناك عن طريق اقتناص العبيد . والمستمرات الأغريقية على الشواطىء الشمالية والغربية للبحر الاسود كانت عدة ، ولكنها كانت ، في غالبيتها ، مراكز تجارية صغيرة ، ولم تكن مستوطنات زراعية على غرار تلك التي قامت حول البحار الضيقة في الغرب .

وقد شجع التجارة اليونانية في ما بعد اختراع سكّ النقود ، الأمر المعزو إلى ملك ليديا ألياتس (حكم نحو ٦٠٨ ـ ٥٥٨ ق . م .) . لقد كان من المألوف ، قبل ذلك بزمن طويل ـ في واقع الأمر لعلّ ذلك بدأ مع نشوء الحياة المدنية في سومر ـ أن تستعمل سبائك الذهب أو قضبان الفضة أو قطع النحاس وسائل للتبادل الصرافي . وابتداءِ الياتِس لم يكن اختراع عملة معدنيّة ، بل كان يتمّ بختم قطع من المعدن بختم معين وإصدار مثل هذه القطع المختومة من قبل الدولة . ولم تكن النقود أسهل تناولا من السبائك فقط ؛ اذا كانت السلطة التي تصدر النقود ذات اعتبار اقتصادي سليم ، فان نقودها كانت تحمل محمل الثقة ، دون الحاجة الى وزنها كلما انتقلت من يد الى أخرى . ولم تلبث ان اخترعت النقود حتى شاع استعمالها . وانتشرت دور الضرب في كثير من المدن اليونانية حالا . ولما سكّ دارا الاول وخلفاؤه نقودا ذهبية ، انتشر الاختراع الجديد عبر الأمبراطورية الفارسية . ومع ذلك ، استمرت الغالبية غير التجارية من السكان

زمنا طويلا وهي تلجأ الى المقايضة في التبادل التجاري المحدود في الأسواق المحلية ، وذلك حتى في المشرق .

أن توسيع المجال الحياتي للأغارقة ، ثمّ توسيع مجالهم التجاري، اللذين رافقهما ثورة في النشاطات الاقتصادية لأقلية من الدول ـ المدن الأغريقية كانت بالنسبة لها مغامرة اقتصادية ـ كل هذا أحدث تبدّلات هامة في توازن القوى في العالم الهليني . في العصر المظلم وهو الزمن الذي كانت فيه المدنيّة الهلينية تبرز الى الوجود ، كانت أثينا هي الدولة ـ المدينة الهلينية الخلاقة ـ وهي القلعة الميكانية الوحيدة التي لم تتعرض للسلب في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وقد حافظت أثينا على مركزها المتميز عبر عصري الزخرفة السابقة للهندسية والزخرفة الهندسية ، إلا انها ، منذ نحو ٧٥٠ ق . م . إلى ما بعد بدء القرن السادس قبل الميلاد ، فقدت أثينا مركزها القياديّ موقتا . ولم يكن لأثينا دور لا في حركة الاستعمار ، ولا في الدور الأول للثورة الاقتصادية التي تلت ذلك .

إن التي صنعت هذه الثورة [الاقتصادية] كانت هي الدول ـ المدن الواقعة على الساحل الغربي لأسية الصغرى والبعيدة عنه قليلا (مثل ميلتوس وكيوس) وحول مضيق كورنث (مثل كورنث بالذات وسيكيون وميغارا) . وقد انتهى المطاف بالملحمة اليونانية التي تمثلت بالألياذة والأوديسي في منطقة ايونيا . وفي العصر الذي تلا ذلك لم يكن أي من الشعراء الحزنيين أو الغنائيين أثينياً ، والأساليب الجديدة لزخرفة الآنية التي عقبت الأسلوب الهندسي وجدت في رودس وكورنث وإسبارطة ، لا في اثينا . وحتى في القرن السادس قبل الميلاد ، إذ كانت أثينا تسير نحو المقدمة ثانية ـ أولا اقتصاديا ثم سياسيا ايضا ـ لم يكن آباء العلوم الطبيعية الأغارقة اثينيين ؛ فقد كان بينهم اثنان من ميلتوس (طاليس وأنكسمنْدر) وهرقليطس الأفسي . وقد تم على أيدي هؤلاء الأغارقة الأسيويّين اضخم الانجازات الهلينية الفكرية . لقد كان أسلافهم ينظرون الى سير الحياة في طبيعتها على أنها تعبيرات تشبيهية لما يسبق الخليقة . وعلماء الطبيعة الأيونيون من أهل القرن السادس قبل الميلاد أخذوا على عاتقهم تفسير الظواهر الموضوعية بحدود مجردة . ولم يقم أي مواطن اثيني بدور متميز في تطوير العلم الهليني ، لا في البدء ولا حتى في أي مرحلة تالية .

وقد شهد ربع الألف من السنين الذي بدأ نحو سنة ٧٥٠ ق . م . تفجرا عظيما للطاقة الأغريقية في عدد من المجالات المختلفة ، لكن هذا التفجر كانت له جوانبه

المظلمة كما كانت له الجوانب المنيرة . فقد هدر الكثير من هذه الطاقة في النزاع المدني بين دولة ـ مدينة وأخرى ، وفي النزاع بين الطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية المتنافسة . وفي الحقبة من التاريخ الأغريقي الممتدة من نحو ٧٥٠ ق . م . والتي استمرت حتى أوقف الرومان الدول الأغريقية عن التناحر في ما بينها ، انغمس الأغارقة في القسوة ضدّ بعضهم البعض على نحو لا يقلّ عما كانوا عليه في العصر الميكاني . وفي الدول الأغريقية التي مرت بها ثورات اقتصادية في القرن السابع قبل الميلاد كان النزاع الداخلي عنيفا وحادا بحيث ان هذه الدول انتهى الأمر بها الى قيام حكومات دكتاتورية موقتا . وقد كان هذا هو الجزاء الذي أصابها لأنها فشلت في الانتقال سلميا من شكل حكومة ملكي او ارستقراطي الى شكل تكون فيه الثروة ، لا شرف المحتد ، المؤهل لتولي الشؤون السياسية .

وقد كانت القضية البارزة في سوء المعاملة التي لقيها الأغريقيون على أيدي الأغارقة ، في هذه الحقبة ، احتلال خمسي البلاد في الجنوب الأقصى للبلوبونيز (نحو سنة ٧٥٠ ـ ٧١٥ ق . م .) على أيدي واحدة من الدول ـ المدن المحلية ، وهي إسبارطة . فقد كانت هذه دولة ـ مدينة محصورة برًا ، وقد كان احتلالها لجيرانها الأغارقة مقابلا لاحتلال الدول ـ المدن الأغريقية البحرية ، مثل كورنث وخلقيس ، للسكان من غير الأغارقة في إيطالية وصقلية .

لقد أوهم الأسبارطيون بعض الدول ـ المدن المجاورة بأن الاحتلال يحفظ لها الحكم الذاتي لقاء تعهدّها بان تقدم الى إسبارطة عونا عسكريا في حال قيام حرب . وقد تقبلت ، هذه الجماعات خسارتها لسيادتها على هذه الشروط ؛ لكن الأسبارطيين أذلوا هؤلاء السكان ، وأنزلوهم منزلة الأقنان . وقد فرض على هؤلاء الأقنان ان يدفعوا الضرائب عينا من غلة اراضيهم للمواطنين الأسبارطيين كي يعفى هؤلاء من العمل في الزراعة ، وبذلك يتمكنون من قضاء وقتهم كلّه في شنّ الحروب والتدريب العسكري . وهكذا فان اسبارطة ، باستغلالها السكان الأغارقة المستعبدين ، والذين كان عددهم اضعاف عدد سكان المواطنين الأسبارطيين انفسهم ، تمكنت من أن تيسر لهذه الأقلية المتميزة مساواة ديمقراطية في الحقوق السياسية في ما بين أفرادها ، دون أن تلغي الملكية ومجلسها الأرستقراطي ، وحتى دون ان تقع تحت نير الدكتاتورية . ودستور إسبارطة الديمقراطي ـ وهو الأقدم في العالم الهليني ـ دُشّن في تاريخ يقع في الجزء المتأخر

من القرن السابع قبل الميلاد .

وقد كان تركيز الأسبارطيين على التدريب العسكري والنظام قد جعل منهم أقوى جنود في العالم الهليني . وقد حاولوا بادىء الأمر أن يستغلوا قوتهم العسكرية في احتلال بلاد إغريقية أخرى ، كي ينزلوا أغارقة آخرين منزلة الأقنان ، إلا أنهم تنبهوا ، نحو سنة ٥٥٠ ق . م . ، الى أن قواهم البشرية ، مع ما كانت عليه من الشجاعة والدربة ، لم تكن كافية عدديا للأبقاء على الأقنان الحاليين خاضعين ، فضلا عن زيادة عددهم في الوقت ذاته عن طريق فتوح جديدة . ومن ثم فقد تخلّى الأسبارطيون عن سياسة الفتح ، واستعاضوا عنها بسياسة الاحلاف . فأيدوا القضاء على الدكتاتوريات في المدن المتقدمة اقتصاديا الواقعة حول مضيق كورنث ، وتحالفوا مع الأنظمة القائمة على الثروة ، التي جاءت في أعقاب القضاء على الدكتاتوريات هناك .

ونحو سنة ٥١١ ق . م . جرب الأسبارطيون توسيع مجال الأحلاف عن طريق القضاء على الدكتاتورية التي كانت لا تزال تتمتّع بالسلطان في أثينا ، وقد نجحوا في المحاولة الثانية ؛ لكن النتيجة في أثينا لم تأت كما جاءت في مغارا وكورنث وسيكيون . ففي أثينا فشلت الأوليغارية التي تسلمت الحكم من الدكتاتور المطرود ، في الصمود أمام حركة أكثر راديكالية . ولما جربت إسبارطة التدخل للمرة الثالثة لدعم أصدقائها المحافظين ، كسرت على يد ثورة شعبية .

وهكذا فقد نجت أثينا من السيطرة الأسبارطية ، وعندها (حول سنة ٥٠٧ ق . م .) أقام الأثينيون نظاما ديموقراطيا . وقد ساروا في ذلك على المثل الأسبارطي ، لكن في هذا الدور كان ثمة فرق أساسي بين البنية الاجتماعية للدولة الأثينية وتلك التي كانت في إسبارطة . ففي البلاد الأسبارطية كانت غالبية السكان من الأقنان . اما في أثينا فلم يكن ثمة أقنان ، كان ثمة بعض العبيد وكان هناك عدد متزايد من الأحرار الاجانب الذي لم يعتبروا مواطنين [لا يحق لهم التصويت أو الانتخاب] ، لكن غالبية السكان كانت من المواطنين [الذين يحق لهم التصويت والانتخاب] . ففي سنة ٤٨٠ ق . م . ، لما تعاونت إسبارطة وأثينا موقتا لصدّ الحملة الفارسية، كان في أثينا نحو ٣٠,٠٠٠ مواطن ، اما إسبارطة فكان فيها نحو ٨,٠٠٠ مواطن فقط . كان عدد سكان الأملاك الأسبارطة أكبر من عدد سكان اثينا ، ولكن فيها كانت غالبية السكان في أملاك إسبارطة ذخرا اقتصاديا لأسبارطة ، فقد كانت هذه الغالبية مسؤولية سياسية

وعسكرية ايضا ، إذ انها كانت تتألف من أقنان لم يتقبلوا وضعهم .

في السنوات الحاسمة (٥١١ ـ ٥٠٧ ق . م .) كان التعامل الأسبارطي مع أثينا قد اتخذ انعطافا كان في طبيعته مزعجا وغير منتظر بالنسبة للأسبارطيين . وسبب ذلك يعود الى أن أثينا كانت ، خلال القرن السادس قبل الميلاد ، قد بدأت تفيق من الخسارة في القيادة التي منيت بها موقتا. وقد كان التوتر الاجتماعي في اثينا في ذلك القرن حادا على نحو ما كان عليه في المملكة الشمالية [في فلسطين] في القرن الثامن قبل الميلاد . وقد بدا وكأن اثينا، كانت على وشك ان تصبح بلادا تكون الغالبية السكانية فيها من الأقنان ، على نحو ما آلت اليه أملاك إسبارطة . وقد انقذ اثينا من مثل هذا القدر الأصلاحات التي أدخلها (في سنة ٥٩٠ ق . م .) السياسي رجل الاعمال صولون . لكن إصلاحات صولون التي تقبلتها أثينا طواعية لم تكن جذرية بما فيه الكفاية بحيث تحول دون قيام طاغية في المدينة ، وهو بسستراتس ، الذي اتم العمل الذي بدأه صولون ؛ وكان من الضروري ان تتدخل إسبارطة عندئذ لتنقذ أثينا من الدكتاتورية لما أتمت هذه دورها . وعلى كل فان الفضل في إعادة الأزدهار الى اثينا يجب ان يعزى الى صولون لا إلى بسستراتس . فقد بدأ صولون صناعة إنتاج زيت الزيتون في اثينا من أجل التصدير ، كما شجعّ تطوير الصناعات . وقد منح المواطنة الأثينية الى كل تقني أجنبي إذا كان مستعدا لأن يلقي بحظه الى جانب المدينة التي اختراها ، وكان عليه ان يقدم ضمانة على ذلك بأن ينتقل مع اسرته إليها ؛ أو إذا كان قد نفي من مدينته ـ الدولة الأصلية . وكانت الصناعة الرئيسة التي كانت تدعمها أثينا هي صناعة الآنية وزخرفتها ، وهي الآنية التي كانت تستعمل للزيت والخمر . ونحو سنة ٥٥٠ ق . م . كانت المصنوعات الفخارية الأثينية قد سيطرت على السوق العالمية وحلت محل مصنوعات كورنث وأسبارطة .

كانت ايجينا، وهي إحدى حليفات إسبارطة ، قد تضرّرت اقتصاديا من جراء منافسة أثينا لها . فهذه الجزيرة ، التي كانت تُرى من اثينا ، كانت تعيش على التجارة . وقد كان للايجينيين دور رئيسي في المستوطنة البانهيلينية في نيوكراتيس بمصر . وكان الخصام بين إيجينا وأثينا عنيفا الى حد أن كليومينس الأوّل ، ملك إسبارطة ، وجد صعوبة كبيرة في وقف إيجينا من شنّ الحرب على اثينا .

وهكذا ففي الفترة الممتدة من نحو ٧٥٠ الى ٥٥٠ ق . م . ، كان الصراع عنيفا

بين المدن ـ الدول الهلينية على المستويين الدولي والداخلي . ومع ذلك ففي هـذه الفترة بالذات كان الأغارقة ، على رغم الخلافات السياسية والاقتصادية المتزايدة ، قـد سرى فيهم الوعي بوحدتهم الحضارية وبتضامنهم ، وهذا الوعي تمثل في عدد من المؤسسات البانهيلينيّة .

« فـالهلينيّون » ، وهـو الاسم الجديـد للأغـارقة انفسهم ، كـان يعني « سكـان هلّاس » . و « هلاس » كان اسما لمقاطعة صغيرة في وسط بلاد اليونان كان يقوم فيهـا معبد لأرتميس في أنتيلا على مقربة من ترمـوبولي ، كـما كان فيهـا معبد لـلألهة الأرض والألهين أبولو وديونيسيوس في دلفي وهو مكان الموحى الذي كان يتمتـع بالاحتـرام كما كان كثيرا ما يستوحى . وقد أصبح هـذان المعبدان يـداران من قبل اثنتي عشـرة دولة إغريقية متجاورة (أمفكتيونية) . وهذا المجمع الأمفكتيونيّ (مجلس الحـوار) نجح في أن يقيم لنفسه مكانة كبيرة في عالم الأغريق جملة ، بحيث أن الدول النافذة التي لم تكن اعضاء أصلية في هذه الأمفكتونية (المجلس) نجحت في الحصول على الحق في أن تمثل فيه . وهذا التوسع في الأمفكتيونية (المجلس) كان يصاحبه توسّع في استعمال كلمتي « هلّاس » و « هلينيين » بحيث أصبح هذان الأسمان يمثلان ، عـلى التوالي ، المنـطقة بكاملها وجميع الذين كانوا من أتباع هذه المـدنيّة الحـديثة التي قـامت في حوض البحـر الأيجيّ في القرن الحادي عشر قبل الميلاد والتي كانت آخذة في الانتشار والتوسع من هناك إلى القرن الثامن قبل الميلاد .

اضافة إلى الأمفكتيونية الهلينية (مجلس الحوار الهليني) كـان هناك للمؤسسـات البانهيلينية أربع احتفالات دورية في دلفي وكورنث ونيميا في الما وراء البلبونيسيّ ، وكان أقدمها وأكثرها إجلالا احتفال أوليمبيـا في الجهة الغـربية من البليـونيس . وقد كـانت أوليمبيا ، على نحو ما كانت عليه لافنتا وتريس زابـوتس الأولمكيتان المعـاصرتـان لها ، مركز للقيام بالطقوس الدينية ، ولم يكن حوله مستوطنة مدنية ثابتة . وهذه الاحتفالات كانت مناسبات للتنافس البـانهيلينيّ ، ولم تكن هذه ريـاضية حصـرا ؛ فقد كـان هناك منافسات في الشعر والموسيقى كذلك .

وفي واقع الأمر فان هذه المؤسسات البانهيلينية كانت سبل الوحدة الثقافية ومعناها التي كان الأسمان « هلّاس » و « هلينيّون » يعبران عنها . وعلى كل حال فان جوهر هذه الـوحدة لم يكن تنـظيميا ، بـل كان سيكـولوجيـا . فقد كـان الأساس السيكـولـوجي

للهلينية ، هو وجهة نظر مشتركة ، وآمال ومثل مشتركة ومعاناة مشتركة وعادات واداب مشتركة . فعلى سبيل المثال فان الشعر الذي كان ينـظم في مدينـة ـ دولة هلينيـة معينة باللهجة المحلية كان يصبـح ، بسرعـة ، ملكا مشتـركا لجميـع الهلينيين . فـالملحمتان الهومريتان، اللتان استوفيتا شكلهما النهائي في مكان ما من ايونيا ، شاعت تلاوتهما في انحاء العالم الهليـنـي ، وأخذ الشعراء أنفسهم بنظم الشعر بـاللهجة الهـوميريـة وعلى العروض الهومريّ ـ على نحو ما فعل الشاعر البيوتي هزيود ـ الذي كانت لغـات الأمم عنده لهجات إغريقية مختلفة . وهكذا فان اللهجات الأغريقية أصبحت أكـثر من مجرد لغـات محكية محليّـة ، فقد أصبحت آلات لأنـواع مخصّصة من الأدب البـانهيليني . إن الروابط الفكرية والعاطفية والروحية للهلينية أمور لا يمكن لمسها ، إلا أن هذه الروابط هي التي ربطت بين الهلينيين وذلك لأنها تجرّدت عن التخربات الاقتصادية والسياسية .

٢٥ ـ انطلاقات جديدة في الحياة الروحيـة نحو ٦٠٠ ـ ٤٨٠ ق . م .

في فترة زمنيّة لا تتجاوز المئة والعشرين من السنين ـ أي مدة أربعة أجيال أو خمسة ـ ظهر خمسة من كبار الحكماء في أويكومين العالم القديم .

كان أقدم هؤلاء الخمسة زرواستر (زرادشت) الأيراني . وزمانـه ومكانـه ليسا معروفين تمـاما ، لكن يبـدو من الممكن أن أفعالـه تمت في السنوات المبكـرة من القرن السادس قبل الميلاد ، وأن مجال نشـاطه كـان في حوض نهري إكسـوس ـ جاكسـارتس (سيحون وجيحون) في مناطق كان يقيم فيها شعب مستقرّ إلا أنه كان يتعرض لهجوم يقوم به بدو السهوب الأوراسيّة. وكان الحكيم الثاني هو أشعيا الثاني (أو المتأخر). فقد اختفى اسمه ـ إما أنه أخفاه هو بنفسه أو لعل الذي أخفاه هو محـرّر كتابـاته ، وذلـك بالصاق ما كتبه بكتاب النبي أشعياء من سبط يهـوذا الذي عاش في القرن الثامن قبـل الميلاد . إلا أن أشعياء الثاني (أو المتأخر) يحيّي قورش الثاني على أنه الملك الذي مسحه يهوه وهو المؤسس الأول للامبراطورية الفارسية الأولى؛ وقورش الثاني هو الذي تغلّب على الأمبراطورية البابلية الجديدة ، وسمح لليهود الذين كانوا قد نقلوا الى بابل بالعودة الى أرض المملكة الجنوبية [في فلسطين] ، وكان ذلك في سنة ٥٣٩ ق . م . . وليس ثمة أي إشارة في كتابات أشعياء الثاني (أو المتأخر) إلى المكان الذي كتبت فيه. وكلا المكانين ـ بابل وأرض المملكة الجنوبية ـ هما إمكانتان محتملتان .

وزمن البوذا يكاد يكون غير معيّن مثل زمن زرواسـتر . فلعلّه كان يعيش نحـو ٥٦٧ ـ ٤٨٧ ق . م . ولعله من الممكن أن البوذا ، سدهـارتا غـوتامـا ، وقد ولِـدَ في كابيلافاستو، وهي مدينة ـ دولة صغيرة تقـع في حدود مملكـة نيبال الحـالية ، وأن مجـال نشاطه كان بيهار الحالية . وقد كان كونفوشيوس اصغر سناً من معاصره البوذا ، إذا صح ان زمنه التقليدي (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق. م.) هو دقيق على وجه التقريب . وقد كان موطنه في الصين في ولاية لو ، وهي واحدة من أصغر الولايات وأضعفها ، التي انتهى

إليها أمر أملاك أسرة تشو لما كانت قد انحلّت في أيام كونفوشيوس . وكان فيثاغورس معاصراً للبوذا على وجه التقريب . فقد ولد في جزيرة ساموس القريبة من الشاطىء الأيونيّ ، إلا أن مجال عمله كان المستعمرات الأغريقية في جنوب إيطالية ، وقد استقر في المدينة ـ الدولة كروتون .

ان هؤلاء الحكماء من أهل القرن السادس قبل الميلاد ، مع امكان استثناء فيثاغورس ، لا يزالون حتى يومنا هذا يؤثرون في الأنسانية ، إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، أكثر من أيّ كائن بشري حيّ . فالبوذا يؤثر مباشرة في أكثر من نصف أهل الجيل الحاليّ ، وكونفوشيوس يمتدّ أثره إلى أكثر من الثلث . وتأثير أشعياء الثاني (أو المتأخر) يشمل المسيحيين اضافة الى اليهود . إن التأثير المباشر الحالي لزرواستر محدود في البارسيين ، وهم اليوم جماعة صغيرة عددا ، إلا أنهم ، مثل اليهود ، يقومون بدور في العالم الحاضر أكبر من نسبتهم العددية . وعلى كل حال فان زرواستر يؤثر ، في يومنا هذا ، بطريقة غير مباشرة في اليهود والمسيحيين والمسلمين . ذلك بأنه نتيجة للوفاق بين الفرس واليهود في عصر الإمبراطورية الفارسيّة الأولى ، منذ أن ضمت اليها الامبراطورية البابلية الجديدة في سنة ٥٣٩ ق. م، والى حين القضاء عليها سنة ٣٣٠ ق . م . ، وجدت الأفكار الزرواسترية الروحية القوية ـ مثل الخلود ويوم الدينونة وفعل الله بواسطة الروح القدس ـ طريقها إلى اليهودية ، ومنها الى الديانتين الأخريين ـ المسيحية والإسلام .

لعله كان ثمة بعض سنوات في القرن السادس قبل الميلاد حين كان جميع هؤلاء الحكماء يعيشون متجايلين ، لكنه من غير المحتمل ان يكون أي اثنين منهم قد التقيا ؛ والأمر الذي هو بعيد عن الأحتمال أن أيا منهم عرف بوجود الآخرين . إن العقائد والأهداف والممارسات على ما نعرفها عند اثنين منهما ـ البوذا وفيثاغورس ـ متشابهة الى حدّ كبير بحيث يكاد يفرض علينا القول بأنهما استقيا الوحي من مصدر مشترك ؛ إلا أنه ليس أقل مدعاة الى القول بأن لا البوذا في بيهار ولا فيثاغورس في ايطالية كان باستطاعته ان يتبادل الاتصال مع معاصره حول هذه المجموعة من المبادىء المشتركة التي كان يشاركه شأنها ، عبر هذه المسافة الجغرافية الطويلة .

وبسبب أهمية المعاصرة لهؤلاء الحكماء الخمسة ، فقد أطلق كارل جاسبّرز على الفترة التي تنتظم حياتهم العصر المحوريّ ، أي العصر الذي تَمَفْصَل عليه تاريخ البشرية . فقد كان ظهورهم، في حقيقة الأمر ، منعطفا هاما من حيث أنهم ، كما أشير إلى ذلك من قبل ، استمروا في التأثير على البشرية الى يوم الناس هذا ، ومن حيث أنهم

يستمرون في التأثير في الأحفاد ، بالمثل الذي قدموه ، حتى ولو أن حكمتهم فقدت قيمتها كوصايا ، ولو أن تعاليمهم فقدت أهميتها كقانون إيمان . وعلى كل فان كنّا ننوي أن ننظر إلى تاريخ العالم في حدود العصر المحوريّ - وهذا ، بحد ذاته ، رأي ثاقب - فأنه يتحتم علينا أن نوسع إطاره الزمني في كلتا الجهتين .

لقد كان اشعياء الثاني (المتأخر) نذيراً من المدرسة السورية ؛ وعندنا شهادة عن نذير سوري التقى به وينامون في بيبلوس (جبيل) نحو سنة ١٠٦٠ ق . م . - اي قبل اشعياء الثاني (المتأخر) بنحو خمسمئة سنة . ولا سبيل إلى فهم أشعياء هذا إذا لم نتعرف إلى أنه كان يتبع سبيل التقليد السوري سيرا واعيا . وقد وعى ذلك هو أو محرره فأشار الى هذا الأمر لما ألحق كتاباته بالكتاب الذي وضعه أشهر انبياء قبيلة يهوذا . وواضح أنّ زرواستر هو نذير من النموذج السوري ، مع أنه ليس ثمة دليل ، بالنسبة إليه ، على أنه تأثر بأيّ سلف ، سوريا كان أو إيرانيا . ولا شكّ في أنه مما يؤدّي الى الضّلال هو أن يحدد زمن محوري دون اعتبار هذين العملاقين وهما زرواستر وأشعياء الثاني (المتأخر) . ومن هنا فان الزمن المحوري يتسع من فترة تمتدّ نحو مئة وعشرين سنة إلى فترة تمتدّ عبر نحو سبعة عشر قرنا بدءا من سنة ١٠٦٠ ق . م . وحتى سنة ٦٣٢ م ، وهي سنة انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى . والقرون السبعة عشرة هذه تغطي نحوا من ثلث الامتداد الزمني ، إلى اليوم ، لنوع المجتمعات التي اسميناها «مدنيات» ؛ ومع ذلك فأن سبعة عشر قرنا هي طرفة عين اذا ما قيست بالزمن ، إلى اليوم ، الذي مرّ على البشرية ، وبالتالي ، على الأحياء قبل البشرية .

مع أن الحكماء الخمسة الذين ظهروا في القرن السادس قبل الميلاد قد وجدوا مستقلين واحدهم عن الآخر ، فاننا نتلمس بعض الصفات التي يشترك فيها الخمسة جميعهم ، ولو أن مثل هذه ليست صفاتٍ خاصة بهم وحدهم .

إن أبعد الخصائص المشتركة شأوا هو أن يصل الكائن الأنساني الفرد إلى علاقة شخصية مع الحقيقة الروحية النهائية ، في الكون وفي ما وراء الكون ، الذي يجد فيه المرء نفسه . فالأصل في هذه العلاقة أنها لم تكن فردية وشخصية ، بل جماعية وعلى مستوى المؤسسة . فالجماعات السابقة للمدنيّة كانت قد اقتربت من الحقيقة المطلقة عبر قوى طبيعية غير بشرية التي كانت، في هذه المرحلة، تضع الإنسان تحت رحمتها. بعد انجازات المدنيّة نقل الأنسان نقطة تقربه من الحقيقة المطلقة . فبدلا من تأليه الطبيعة

غير الأنسانية أخذ الأنسان نفسه بتأليه القوة الجماعية للجماعة البشرية . وتنظيم القوة البشرية الجماعية على نطاق واسع أمالت الميزان بشكل واضح لمصلحة الأنسان في صراع هذا الأنسان مع الطبيعة غير البشرية في طريق السيطرة . وهكذا فان الانسان ، إذ غير هدف العبادة كان منسجما مع نفسه في أنه كان دوما يعبد القوة ، في أي من الأشكال التي كان يجد القوة فيه أشدّ عنفا . ومن الناحية الروحية فان استبدال الطبيعة غير البشرية بالقوة الجماعية البشرية على أنها هدف العبادة كان ردة . فالانسان كان يبتعد عن الهدف ، بدلا من الاقتراب منه ، لما نقل ولاءه الروحي .

فكل من هؤلاء الحكماء الخمسة خرج عن تراثه في خضوعه الروحي للجماعة التي ولد فيها وترعرع . فانه بتحديه التقاليد ، رفض كلا العبادتين - عبادة الطبيعة وعبادة الأنسان ، وتمرّد على هذه الحجب المعيقة والمعتمة ، في سبيل أن ينال رؤ يا مباشرة للحقيقة الروحية وهي عارية . والقضية ظاهرة بالنسبة للأنبياء . فالنبي يعتقد ويصر على أن ما ينطق به مستوحى مباشرة من إلهه ، وليس عن طريق وساطة اجتماعية . فكونفوشيوس ، معتمدا مستوى عاطفيا أدنى ، كان يعتقد ويصرّ على أنه كان يعيد الحياة إلى القانون الخلقي الذي يعين التصرف الاجتماعي والذي فرضته « السماء » على مؤسسي المدنيّة الصينيّة . ويبدو أن السماء (تيين) ، كانت الصورة القائمة عنها أنها إله شخصي - أي شبيه بالأنسان ؛ ومن الممكن أن هذا الاسم الصينيّ للحقيقة الروحية المطلقة قد فقد ، في أيام كونفوشيوس ، معنى الشخصية ولعله أصبح يتصور على أنه روح أو قانون فوق الشخصي أو أنه لا شخصيّ . ومن المؤكد أن البوذا لم يتصور الحقيقة الروحية المطلقة على أنها شبيهة بالانسان . ولم يصنّفها لا مع جميع أعضاء المجمع الهندوي التقليدي ولا مع واحد فقط من هؤلاء الأعضاء . فبالنسبة للبوذا كانت الحقيقة المطلقة التي كانت الغاية من بحثه هي حال الفناء (النرفانا) ، وقد كان عليه أن يصل ، في الواقع فانه وصل ، إلى النور عن طريق الجهد الروحي الخاص ، دون احتمال الحصول على عون من قبل حقيقة مطلقة شبيهة بالأنسان الأمر الذي كان هدفه .

والصفة المشتركة الثانية للحكماء الخمسة هي أنهم دانوا وأنكروا الحال التي وجدوا أنفسهم فيها ، وحاولوا تبديلها . وثوراتهم الروحية التي توالت اختلفت واحدتها عن الأخرى اختلافا كبيرا في قوتها . فالبوذا ، الذي كان اسمى الخمسة ، كان ايضا أكثرهم

تطرفا. فالذي جرّب البوذا تبديله هو الحياة نفسها التي وجدها . فقد وجد أن كل كائن حساس كان يصيبه الألم ؛ كما أنه وجد أيضا أن كل كائن حيّ هو طماع ، وقد كان يرى أنه إذا كان لكائن حيّ ان ينجح في تطهير نفسه من طمعه ، فان هذا يمكنه من تحرير نفسه من حال الحياة المؤلمة التي يجد كلٌ كائن حيّ طماع نفسه داخلا فيها . وقد دان فيثاغورس أيضا الحياة على نحو ما نَخبْرها . وهو أيضا جرّب ان يغيّر الحياة على خط البوذا نفسه ، إلا أنه لم يكن مستعدا للسير في هذا المساق العنيف ، على نحو ما اعتمده البوذا من حماسة واندفاع . وقد حاول زرواستر ان يقلب الصيغة التقليدية للدين الذي كان سائدا في مجتمعه ، كما اهتم اشعياء الثاني (المتأخر) بأن يعدّل هذه الصيغة . وكونفوشيوس جرّب أن يرفع من مستوى التصرّف الاجتماعي الذي كان قائما في الصين في أيامه .

وكل من هؤلاء الحكماء الخمسة اهتم بأن يقود الناس الذين يتعامل معهم في الطريق الجديد الذي اكتشفه ذلك الحكيم نفسه . وقد دون زرواستر وأشعياء الثاني (المتأخر) رسائلهما كتابة . (وقد كانت الرسائل ، بحسب معتقدهما ، رسائل من الله أرسلت الى البشر عبر النبي ، على أنه رسول من الله) . وترانيم زرواستر (غاتا) وإضافات أشعيا الثاني (المتأخر) الى كتاب اشعياء الأصليّ ، يبدو أنها أعمال موثّقة من صنع هذين الحكيمين . وثمة كتابات تتمتع بصفة القدسية ، التي يفرض فيها ان بعضها أحاديث ألقاها البوذا وكونفوشيوس وان بعضها الآخر محاورات بين كل منهما وبين حواريه . ولا ندري الى أي حدّ تتّفق هذه المدونات المزعومة مع الكلمات الأصلية التي تفوه بها المعلم ، كما أننا ، بالمقابل ، لسنا واثقين من صحة الأقوال المعزوة الى فيثاغورس .

وقد اهتم أربعة من هؤلاء الحكماء الخمسة ، في استقطاب تلاميذ لهم ، أو على الأقل قبلوهم . وقد ترتب على ذلك قيام مجتمعات جديدة ، ذلك بأن العلاقات بين الكائنات البشرية لا بدّ من إخضاعها الى مؤسسات إذا كان المرجو لها أن تستمر إلى أكثر من جيل واحد ، وأن تضمّ من الناس عددا أكبر من العدد الصغير الذي يمكن اعتباره الحدّ الأقصى لجماعة أساسها التعارف الشخصي فقط . وقد انشأ البوذا فرقة رهبانية (سانغا) يدعمها مريدون علمانيّون ؛ وانشأ كونفوشيوس مدرسة فلسفية ؛ وانشأ فيثاغورس جمعية كانت أكثر من مدرسة ، ولو أنها لم تكن بفرقة رهبانية نظامية ؛ وقد

اكتفى اشعياء الثاني (المتأخر)، على ما نخمن ، بأن ينشر رسالته بين الجماعة اليهودية القائمة . وفي الجهة الثانية فقد أصبح زرواستر صاحب دين جديد ؛ ومثل هذه التتمّة ، بالنسبة الى التنوير البوذي ، كانت شيئا رائعا . فالبوذا كان يعتقد بأنه على كل أن يصل إلى التنور عن طريق جهوده الخاصة وأنه إذا حصل على ذلك ومتى تم له ذلك ، أصبح حرا في الأنطلاق نحو نرفانا . ومع ذلك فقد أجل البوذا انطلاقه هو بالذات ، وظل طواعية في الحال التي تمتزج فيها الحياة بالألم ، وذلك كي يري الكائنات الحساسة الأخرى طريق الخروج الذي اهتدى إليه .

ترفع البوذا عن السياسة وعن الحياة الاجتماعية في ما عدا حلقة تلاميذه . لقد كان ولي عهد المملكة وكان زوجا وأبا ايضا . لقد تنازل عن وراثته لعرش ابيه، وانفصل عن زوجه وابنه ، وذلك كي ينقطع إلى البحث في السبيل المؤدي الى الانعتاق من آلام الحياة . وبعد ما بان النور للبوذا ، ولما أصبح معلما مترحلا اعترف به الملوك المحليون على أنه مساوٍ لهم منزلة اجتماعية ، فلا هو تحاشى معاشرتهم ، ولا سعى إليها أيضا . فهو لم يعن بدفع تطوير طريقته الرهبانية عن طريق رعاية ملكية . وقد لقيت البوذية الرعاية الملكية في شخص الأمبراطور أشوكا ، بعد أكثر من قرنين من وفاة البوذا . وفي الجهة الثانية فان زرواستر سعى للحصول على رعاية ملكية ، وقد لقيها . وسعى كونفوشيوس للحصول على موظف ملكي ، ولم يعثر على أيّ ـ وقد كان في هذا زجرة شخصية هي التي حملت هذا الموظف المدني العاطل عن العمل على خلق عمل جديد لنفسه كمعلم للأخلاق . وأشعياء الثاني (المتأخر) لم يكن بحاجة إلى من يرعاه . وكل ما كان يحتاجه ـ وقد ناله ـ هو ان تقبل رسالته الجماعة اليهودية .

كان البوذا ، بين الحكماء الخمسة ، غير عادي في ترفعه عن السياسة . وكان كونفوشيوس يرحب بعمل سياسي لو أن ذلك أتيح له . وقد تحتم على أتباعه أن ينتظروا قرابة ٣٥٠ سنة بعد وفاة معلمهم حتى تصبح الفلسفة الكونفوشيّة جوازا للتعيين في وظيفة عامة . وكان زرواستر ، على الوجه المؤكد ، يرى أن رعاية الحاكم كانت شرطا أساسيا لنجاح مهمته . ولم يتمكن فيثاغورس ولا تلاميذه من تجنب دخول المعترك السياسيّ. ففي العالم الهليني في القرن السادس قبل الميلاد، كان لا بدّ لأي أخوة من الفلاسفة من أن تكون لها سيطرة في إحدى المدن ـ الدول إذا كانت تريد تجنب وقوعها ضحية . وقد سعى الفيثاغوريون لمثل هذه السيطرة لكنهم باءوا بالفشل . أما بالنسبة

إلى أشعياء الثاني (المتأخر) فقد أطلق العنان للكثير من الآمال السياسية العريضة . فقد حيّا قورش الثاني على أنه الملك الذي مسحه يهوه ، لأن قورش كان يسمح لليهود الذين أجلوا ، والذين كانوا في بابل ، بالعودة الى أرض المملكة الجنوبية [في فلسطين] ؛ إلا أنه يأمل بأن يتلو ذلك قيام إمبراطورية عالمية يكون فيها يهوه ، لا قورش ، الامبراطور ، ويكون فيها اليهود ، لا الفرس ، الشعب الأمبراطوري .

والشيء الجديد الذي انطلق منه أشعياء الثاني (المتأخر) كان على المستوى الروحي لا السياسي . فقد كان موحدا وقد تصارع مع قضية الألم . لقد كان أشعياء الثاني (المتأخر)، دون شك، أول موحد يهودي ، وأقدم الموحدين في أي مكان منذ المحاولة التوحيدية الفاشلة التي قام بها أخناتون قبل ذلك بثمانية قرون . لم يكن أشعياء الثاني (المتأخر) يعتقد بأن يهوه هو الهدف الشرعي الوحيد للعبادة بالنسبة لليهود فقط ، أو أن يهوه كان أكثر برا وأقوى من آلهة الشعوب الأخرى . لقد كان يعتقد بان يهوه هو الأله الوحيد ، وأن الآلهة الأخرى لا وجود لها . فقد كان تصور أشعياء الثاني (المتأخر) وموقفه من الألم على النقيض من موقف البوذا . لم يبحث أشعياء الثاني (المتأخر) عن سبيل للتخلص من الألم ؛ لقد قبل الألم على أنه تجربة قد تنتج ثمارا روحية إيجابية . ولسنا ندري فيما اذا كان « الخادم المتألم » هوّ ، كما يبدو ذلك واضحا ، على أنه شخصية تاريخية مجهولة الاسم، أم أنه تجسيد للجماعة اليهودية . والثاني من هذين التفسيرين المحتملين لهذا الشخص اللغز هو الأكثر اقناعا ؛ فهو أقرب الى تقليد النبوة الذي كان أشعياء الثاني (المتأخر) يلتصق به .

وعلى كل فانه من الواضح بأن أشعياء الثاني (المتأخر) كان يعتقد بأن الألم ، إذا تحمله المرء بالصبر ، يمكن أن يكون تجربة خلاقة لجميع المعنيين بذلك ، بما في ذلك المتألم نفسه في تحليل مأساته الخاصة به . ولعلّ كتابات أشعياء الثاني (المتأخر) هي الأقدم التي يمكن العثور فيها على هذا الموقف من الألم .

كان زرواستر يرى أن العالم هو أرض المعركة بين الخير والشر ، وفي نهاية المطاف سيتمكن الخير من كسب المعركة ؛ وفي الوقت الحاضر فان واجب الأنسان ان يكون مقاتلا فعالا إلى جانب الأله الصالح ضد الخصم الشرير لهذا الأله الصالح . ولعل رؤ يا زرواستر وحكمته يعكسان الوضع التاريخي الذي كان في المكان والزمان اللذين عاش النبي فيهما . ففي المنطقة الحدودية الواقعة بين البدو الرعاة الأوراسيين وجيرانهم

المستقرين ، كان ثمّة قتال مستمرّ في هذه المنطقة الحدودية وكان الفريق المستقرّ يأمل في أن يكسب في نهاية المطاف نصرا حاسما . وفي هذه الحروب التاريخية كان زرواستر ، ولا شكّ ، خصما عنيفا للبدو .

وكان كونفوشيوس مصلحا أخلاقيا وكان ينظر الى نفسه، بصدق وإخلاص ولا شكّ ، على أنه محافظ أمين . والجماعة التي ولد فيها كانت قد تخلت عن إطارها التقليدي وخسرت طريقة سلوكها . وقد اتجهت نيته نحو إحياء مؤسسات الآباء الثمينة التي كانت في خطر الأهمال ، لكن علاجه كان في الواقع تجديدا . فعلى سبيل المثال نجد أنه أخذ كلمة تشن تسو التي كانت تعني « الرجل الشريف المحتد » ، بالمعنى المطلق على الأنساب ، أي « ابن السيّد » ، على أنها تعني ، في الحقيقة ، « رجلا شريفا » ، بمعنى الرجل الذي يعيش على مستوى خلقي رفيع . ومثل هذا التفسير لم يكن إحياء لمعنى قديم ؛ لقد كان إضافة لمعنى جديد . و « تصفية الأسماء » التي قام بها كونفوشيوس منحت المجتمع الصيني مثالية جديدة .

انتهج البوذا سبيلا غايته القضاء على النزعة الفردية والطمع وهما خصلتان فطريتان في كل كائن بشري . كان يرى أن الروح الأنساني يستطيع التغلب على الطبيعة ؛ وقد كان له من الشجاعة ما يمكنه من نقل هذه الرؤ يا إلى فعل ؛ ولما تم له ذلك ورأى أن الفعل انتهى به إلى التنوّر الذاتي ، حمله تعاطفه مع الناس على توضيح السبيل للكائنات الحساسة التي يعايشها . وقد بلغ البوذا تنوره لما رأى أن ممارسة التقشف الجسماني المتطرف ليس هو السبيل إلى التنور . ومن ثم فقد سلك سبيلا وسطا بحيث أنه كان يبدو تقشفا بالنسبة إلى الناس العاديين ، بينما كان ، في نظر النساك المتطرفين المعاصرين له ، سلوكا متحللاً . وقد ثبت صحة هذا السبيل الوسط الذي أختطه البوذا ، بالمقابلة بين ما أصاب البوذية والجانية ـ وهو دين أسسه فردامانا ، المعاصر للبوذا ، والذي عرفه اتباعه باسم « الجينا » (أي المنصور) أو الماهافيرا (أي البطل العظيم) .

لقد أشرنا من قبل إلى أن البوذا وفيثاغورس كانا يشتركان في عقيدة وهدف . وعقيدتهما المشتركة هي أن الموت ليس نهاية الحياة ، بل إنه يتبعه عادة ولادة ثانية ، وأنّ هذه السلسلة من الوفاة بعد الأخرى والولادة الثانية بعد الأخرى ، تستمر إلى ما لا نهاية له ، ما لم يتخذ إجراء صارم لكسر هذا الطوق المحزن . وكسر هذا الطوق كان الهدف

المشترك الذي رمى إليه كل من هذين الحكيمين . والربط بين هذه العقيدة وهذا الهدف أمر غريب ؛ فمثل هذه العقيدة ، دون ارتباط بمثل هذا الهدف ، امر شائع . والفكرة القائلة بان التواتر هو أساس الأيقاع في الكون تظهرها الظاهرة الطبيعية المألوفة : توالي النهار والليل ؛ وتوالي الفصول في سلسلة معينة سنويا ؛ واستبدال جيل من الأحياء بآخر . والاعتقاد بأن دور الجيل تعتمد على الولادة الثانية يعبر عنها الناس بعادة تسمية الأطفال باسماء الجدود .

إن الأعتقاد الخاص بالولادة الثانية ، على أنه شيء يتميز عن الاعتقاد العام بالتكرّر ، بدأ في العالم الهليني على أنه من تعاليم فيثاغورس وتلاميذه ، ثم انتشر انتشارا واسعا بالرغم من النكبة السياسية التي تلقتها الأخوة الفيثاغورية . وفي الهند يبدو أن الاعتقاد بالولادة الثانية كان أمرا عاديا بالنسبة الى كلا الفريقين ، البوذا وخصومه . فقد كان هذا الاعتقاد المشترك في أسّ الخلاف في الرأي حول مسألة فيما إذا كان ثمة شيء اسمه الروح أم أنه ليس موجودا . فخصوم البوذا لم يعتقدوا فقط بأن الروح حقيقة ، بل بأن هذه الحقيقة هي مطابقة تماما للحقيقة المطلقة (تات توام آسي) . أما البوذا فكان يرى أن الذي يولد ثانية لم يكن الروح بل هو نسيج رقيق من حالات بسيكية متباينة ولا يربطها واحدها إلى الآخر ، من ولادة ثانية الى ولادة تالية ، سوى قوة الطمع الديناميكية . فاذا أمكن إزالة الطمع ، فان هذا الحطام الغيمي البسيكي يتبدد . هذا ما قال به البوذا ؛ ومثل هذا يفتح الطريق للخروج إلى حال « الفناء » (نرفانا) ، حيث يزول الألم .

ومن المحتمل أن البوذا وخصومه لم يكونوا على كبير خلاف الواحد مع الآخر على نحو ما حسبهما كلا الفريقين اللذين ايدا الخلاف . فقد صدر عن خصوم البوذا مقولة هي : « الروح منطبقة تماما مع الحقيقة المطلقة » . والبوذا كان يوصي : « أخرج الى الفناء بتبديد الحطام الغيمي البسيكيّ الذي يسميه خصومي الروح » ؛ ولعله من الممكن أن رؤ يا البوذا ، مثل رؤ يا خصومه ، حول طبيعة الحقيقة الروحية المطلقة لم تختلف واحدتهما عن الأخرى اختلافا لا يمكن التوفيق بينهما .

ثقة بقدرة النفس البشرية على التغلب على الطمع ؛ واعتقاد بقدرة الألم الخلاقة إذا احتمل بصبر ؛ ودعوة بالنفاذ الى « الفناء » ؛ والاعتقاد بوجود إله واحد فقط ؛ والدعوة إلى الوقوف الى جانب الخير محاربا الشر. وبسبب هذه الاعتقادات التي أعلنها

الحكماء الخمسة الكبار ، والوصايا التي أعطوها ، في القرن السادس قبل الميلاد ، فان رؤ يا الحقيقة المطلقة والوصايا التي تعين السلوك البشري تبدلت بشكل لا يمكن الرجوع عنه .

لقد ولد حكماء القرن السادس (قبل الميلاد) الخمسة وعاشوا وعملوا في أحوال اقليمية خمسة مختلفة . ولعله مما له دلالة ان أحدا من هؤلاء الخمسة لم يكن وريثا لأقدم مدنيتين ، وهما السومرية ـ الاكدية والمصرية الفرعونية . فقد كانت هاتان المدنيتان لا تزالان حيتين في القرن السادس قبل الميلاد ولكن الرؤ ى الجديدة والوصايا الجديدة جاءت من مناطق كانت مدنياتها ، في ذلك الوقت ، أقل تأثرا ولكنها كانت أكبر ديناميكية .

٢٦ ـ الامبراطورية الفارسية الأولى
٥٥٠ ـ ٣٣٠ ق . م .

إن العسكرية الأشورية ، وخصوصاً في مرحلتها الأخيرة (٧٤٥ ـ ٦٠٥ ق . م .) ، كانت شرا كبيرا على فرائسها بما في ذلك الأشوريون انفسهم . وقد زاد الخراب عنفا هجوم البدو الأوراسيين . وكان الأثر المباشر لسقوط الأمبراطورية الأشورية أن أصبح المشرق مقسما سياسيا فاقدا لأمنه . والدليل على حاجة هذه المنطقة المقسمة (المعذبة) للسلم والنظام هو السرعة التي تم توحيدها سياسيا على يد بناة الأمبراطورية من الفرس في حدود ربع قرن نحو ٥٥٠ ـ ٥٢٥ ق . م . وقد منحت الأمبراطورية الفارسية المشرق راحة كان بحاجة مؤلمة إليها . وقد كانت حروبها الاحتلالية أقل وحشية من حروب الأشوريين ؛ وكان التنظيم الأداري للبلاد الواسعة المحتلة أقل ظلما . وعلى عكس الأشوريين كان الفرس يقنعون بأن يكون الشعور بوجودهم في أدنى الحدود اللازمة لجعل سيادتهم فعالة . فقد سمحوا للأدارة المحلية القائمة بأن تكون فاعلة ؛ وقد كان دور حكام الولاية الأشراف على الأدارة المحلية لا أن يستولوا عليها . وفوق ذلك كله ، كان الفرس يعنون عناية خاصة باحترام أديان شعوبهم ورعايتها ـ وهي سياسة متفتحة كان من نتائجها قبول الحكم الفارسي ، باستثناء حالات نادرة لكنها مضايقة حيث تكون إحدى الجماعات الخاضعة تمزقها الخلافات الدينية بحيث كان يصعب على السلطات الفارسية أن تحافظ على الحياد .

وتسامح الحكومة الأمبراطورية الفارسية نحو الأديان الأجنبية أكثر تشريفا وروعة ، إذا نحن عرفنا أن « دارا » الأول وعلى الأقل خليفته إكسركسيس (أحشويرش) ، يبدوان ، في النقوش التي خلفاها بالذات ، أنهما قد قبلا دينا قريبا من دين زرواستر ـ وقد كانت المناجزة لا التسامح روح زرواستر . وعلى هذا النحو كان زرواستر قد رفض الديانة التقليدية للشعوب الناطقة بالأيرانية ، واستبدلها بواحدة جديدة . وقد كان زرواستر يعتقد أنه مكلف بالدعوة إلى الأيمان بأله واحد صالح ، هو

أهورا مزدا ، الذي كان قد منحه ولاءه كاملا . لسنا ندري المدى الذي ذهب إليه دارا الأول واكسركسيس في التزامهما بديانة زرواستر . أنهما لا يقران بأنهما كانا من اتباع زرواستر ؛ وفي واقع الحال فانهما لا يشيران إلى اسمه . ويبدو أن النبي نفسه قد ولد قبل دارا الأول بنحو قرن من الزمان ، وأن مجال نشر دعوته كان في الجزء الشمالي الشرقي من المنطقة التي تقطنها شعوب مستقرة ناطقة بالأيرانية (وهي اليوم خراسان وآسية الوسطى السوفيتية وأزبكستان الافغانية) .

كانت هذه المنطقة قد ضمت إلى الأمبراطورية الفارسية على يد قوش الثاني ، ولعل ذلك كان في زمن متأخر عن سنة ٥٣٩ ق . م . وقد كان والد دارا حاكم خراسان (فارثيا) الفارسي سنة ٥٢٢ ق . م . لما اغتال دارا نفسه سميرديس الذي لعله كان كاذبا أو حقيقيا ونصب نفسه مكانه . وقد لا يكون فرع دارا من البيت الأخميني قد أصبح أعضاؤه اشباه معتنقين لديانة زرواستر حتى سنة ٥٣٩ ق . م . ولسنا نعلم فيما إذا كان الشعب الفارسي والشعب الميدي وكذلك الاخمينيون قد تقبلوا حتى جرعة مخففة من الزرواسترية . ومن الواضح فأن دارا الأول لم يكن صديقا للماجيين ـ وهم كهنة الشعب الميدي الوراثيون ، وهم الذين قبلوا ، في النهاية ، ديانة زرواستر في صيغة ما كان المؤسس ليقبلها .

إن التسامح الديني والسياسي الذي اتبعه الأباطرة الفرس حمل شعوب سورية على تقبل الحكم الفارسي ، وهم الذين قاوموا بعنف محتليهم الأشوريين اولا ثم المحتلين البابليين . لقد كان الفرس في أعين الفينيقيين والسامريين واليهود محررين .

إن إدخال الفينيقيين في الأمبراطورية الفارسية أعطى التجار الفينيقيين مجالا ارضيا قاريّا واسعا ، فيما منحهم ، في البحر المتوسط دعما فارسيا في مزاحمتهم لمنافسيهم من الأغارقة . إن الأغارقة الأسيويين كانوا قد خضعوا للفرس ، مثلهم في ذلك مثل الفينيقيين ؛ لكنهم كانوا رعايا مشاكسين ، فيما كانت المدن ـ الدول الفينيقية تسير مع الفرس وتكسب رعايتها . وقد أعطيت ثلاث من هذه المدن ـ ارواد وصور وصيدا (صيدون) إمبراطوريات محلية صغيرة خاصة بها . لم يكن ثمة ما يغري الفينيقيين بعصيان الفرس ، ومن ثم فلم يكن ثمة ما يخيف الفرس من أن تتدخل المدن ـ الدول الفينيقية الاستعمارية في شؤون سورية . ولم يحاول الفرس أن يدخلوا الفينيقيين الليبيين في إمبراطوريتهم ، كما تم للفينيقيين السوريين . على العكس من ذلك فان الفرس

عقدوا حلفا ضد الأغارقة مع قرطاجة لما وحّدت المدن ـ الدول الفينيقية المستعمرة ، نحو نهاية القرن السادس قبل الميلاد ، جبهتها تحت قيادة قرطاجة .

وقد كانت الجماعة اليهودية البابلية حليفة طبيعية للفرس، ذلك بأن هؤلاء اليهود المنفيين لم يسامحوا البابليين لأنهم أجلوهم عن بلادهم . ومن ثم فقد كانوا اقلية محلية محبة للفرس ، وبهذا كانت لهم قيمة بالنسبة للفرس في بابل حيث لم تكن الغالبية الوطنية من السكان تتقبل الفرس ، على رغم ان قورش الثاني قام بعمل لبق جدا يشير إلى أنه كان ينوي أن يحترم كبرياء البابليين لما « أخذ يد البعل » . وقد سمح قورش الثاني لأي عدد من اليهود المجلين الراغبين في العودة الى أرض المملكة الجنوبية [في فلسطين] ان يفعلوا ذلك ، وأن يعيدوا بناء الهيكل في القدس . وقد عثر على مرسوم قورش الثاني في سجلات إكبتانا (همدان) ، وقد أكده دارا الأول . وقد سمح إما ارتكسرسيس الأول (سنة ٤٤٥ ق . م .) أو إرتكسرسيس الثاني (سنة ٣٨٤ ق . م .) لكبير خدمه نحميا ان يتغيب عن سوسه ، عاصمة الأمبراطورية الفارسية ، وكلفه بأعادة تحصين مدينة القدس . وقد خصص دارا الأول وارتكسرسيس كلاهما جزءا من الضريبة الأمبراطورية لليهود ، وأعطياهم المواد البنائية ، لتنفيذ المشاريع العامة في القدس ، وهي المشاريع التي كانا قد سمحا بها .

وقد أفاد الأراميون من الأمبراطورية الفارسية على نحو ما أفاد منها اليهود والفينيقيون . فانتشار الكتابة الأرامية واللغة الأرامية الذي كان قد بدأ في أيام الحكم الأشوري ، سار بخطى أوسع في ظل الحكم الفارسي . ففي سورية كانت اللغة الكنعانية تحل محلها اللغة الأرامية تدريجا . وقد استمرت اللغة الكنعانية في سورية كلغة للطقوس الدينية فقط . وقد عاشت كلغة للحياة اليومية في عالم المستعمرات الفينيقية في حوض البحر المتوسط الغربي . وفي الشرق استمر انتشار اللغة الأرامية جنبا الى جنب مع الألفباء الأرامية ـ وقد كانت هذه كتابة ايسر استعمالا من الكتابة المسمارية . وقد اخترع الفرس لأنفسهم كتابة الفبائية مكونة من حروف مختارة من المجموعة السومرية الأكدية ، على نحو ما فعل فينيقيو أوغاريت قبل ذلك بسبعة قرون أو ثمانية من الزمان . وقد نقش دارا الأول أخبار أعماله على صخر بهستون الثلاثي اللغة ، مستعملا نسخة فارسية بالألفباء الفارسية المسمارية ، جنبا الى جنب مع نسختين بالعيلامية والأكدية ، مستعملا الصور السومرية القبيحة التقليدية . وعلى كل

فان الكتابة الفارسية المسمارية كان حظها مثل حظ الكتابة الأوغاريتية . فقد جانبها الحظ في أن تحتفظ بنفسها أمام الفباء مستخرجة من كتابة كانت شائعة في فينيقيا في زمن مبكر من الألف الأول قبل الميلاد ، ومؤلفة من حروف أبسط وأوضح . ونحو سنة ٣٣٠ ق . م . كانت أكثر الأوراق الرسمية الخاصة بالأمبراطورية الفارسية تكتب باللغة والكتابة الأراميتين ؛ إلا أنه من المحتمل ان هذه الوثائق كانت تقرأ بالفارسية ـ فمجموعة الحروف المكونة لكلمة أرامية كانت تقرأ كما لو أنها كانت كلمة ارامية تعادل كلمة فارسية .

ومن ثم فان شعوب سورية الرئيسة كانت راضية بأن تكون رعايا فرسا . وقد أظهر الميديون ، أقارب الفرس ، أنهم كانوا أقل سعادة إذ ثاروا سنة ٥٢٢ ق . م . . لقد تذكروا أنهم هم أنفسهم كانوا من قبل شعبا إمبراطوريا ، وأن الفرس كانوا خاضعين لهم . وعلى كل فان الفرس أعادوا الميديين إلى الحظيرة على أنهم شركاء في إمبراطورية ميدية ـ فارسية ، وهي التي كانت أوسع وأعظم من الأمبراطورية الميدية السابقة . ولعل العيلاميين كانوا يشعرون بالزهو لأن عاصمتهم الوطنية ، سوسة ، ارتفعت درجتها الى مستوى عاصمة إمبراطورية . والشعوب الشمالية الشرقية الناطقة باللغة الأيرانية اظهرت ولاءها للامبراطورية الفارسية إذ استمر افرادها ثلاث سنوات في مقاومة الأغارقة المقدونيين الذين احتلوا الأمبراطورية الفارسية . والبدو السكيثيون الشرقيون (السا كاذوو البرنس المروّس) ، الذين كانوا قد قاوموا قورش الثاني ، يبدو وكأنهم أصبحوا موالين للأمبراطورية الفارسية بعد ما أخضعهم دارا الأول . ففي حملة اكسركسيس إلى بلاد الأغريق في اوروبة سنة ٤٨٠ ق . م . أعطي هؤلاء مراكز ثقة ، وفي ٣٣٠ ـ ٣٢٨ ق . م . اعانوا جيرانهم المستقرين في مقاومتهم للأسكندر الكبير .

وقد كان ثمة ثلاثة شعوب لم تتقبل الحكم الفارسي وهي البابليون والمصريون والأغارقة الآسيويون . فالبابليون ثاروا لا مرة واحدة بل مرتين في سنة ٥٢٢ ق . م . ثم ثاروا مرة أخرى في سنة ٤٨٤ ق . م . لكن في هذه المرة أخضع الفرس الثورة بشكل حاسم، بحيث ان البابليين ، منذ ذلك الحين ، لزموا حدهم إلى أن حررهم الاسكندر . فالفرس لم يكونوا في وضع يسمح لهم بأن يتفلت البابليون من قبضتهم . فقد كانت بابل اهراء ودار صناعة للأمبراطورية الفارسية ، وإلى ذلك كانت العقدة الرئيسة لشبكة المواصلات البرية الداخلية للأمبراطورية . وفي الجهة الثانية فان

احتلال مصر كان ، بالنسبة للأمبراطورية الفارسية امرا فيه إسراف ، كما كان لسابقتها الأمبراطورية الأشورية ؛ فقد كانت مصر حتى أبعد عن فارس منها عن أشور ؛ وفي حال الثورة ضد سيد أسيوي قارّي كانت مصر تعتمد على الحصول على العون من الأغارقة بحرا . ومع أن مصر ظلت هادئة سنة ٥٢٢ ق . م . فانها ثارت قبل نهاية حكم دارا الأول ؛ وقد استقلت بين سنتي ٤٦٤ و٤٥٥ ق . م . ، وللمرة الثانية من سنة ٤٠٤ أو ٣٩٥ الى ٣٤٣ ق . م . . وقد أعيد احتلال مصر من قبل الفرس قبل القضاء على الأمبراطورية الفارسية بنحو اثنتي عشرة سنة .

وحتى لو أن جميع رعايا الأمبراطورية الفارسية كانوا موالين مثل الفينيقيين واليهود ، فان مجرد حجم الأمبراطورية كان يجعل الاتصالات قضية مزعجة لحكومة الأمبراطورية . وقد حسنت الاتصالات البرية ببناء طرق رئيسة وتنظيم تبديلات من الخيل لرجال البريد الرسمي ، لكن دارا الأول رأى أنه من الضروري أن يربط أطراف إمبراطوريته بالطرق المائية . لذلك فقد أرسل بحارا من كاريا ، هو سكيلاكس ، بدءا من أقصى ولاية في شرق الأمبراطورية إلى أقرب طريق مائي صالح للملاحة في حوض نهر السند ، ومعه التعليمات بأن يبحر إلى الشاطىء المصريّ على البحر الأحمر عبر نهر السند والمحيد الهندي . ولما اتم سكيلاكس مهمته ، ضم دارا الأول حوض السند الى إمبراطوريته . واما بعد هذا ، أو استباقا له ، أتم حفر القناة التي كان الفرعون نخو الثاني قد بدأها ، وذلك من أقصى فرع للنيل في الدلتا شرقا إلى رأس خليج السويس . وقد جرب اكسركسيس أن يكرر عمل نخو الثاني الكبير وهو الدوران حول إفريقية . ولكن فرقة اكسركسيس البحرية التي لم تبدأ من البحر الأحمر ، بل من البحر المتوسط ، عادت أدراجها . والتفكير البحري الذي كان عند دارا الأول واكسركسيس لم يرثه خلفاؤهما .

كان عمر الأمبراطورية الفارسية الأولى قصيرا ، لكن سياستها في التسامح الديني كان لها أثر دائم . وقد أكدت هذه السياسة الاتجاه نحو التوفيق بين العقائد الدينية المختلفة ، وهو الاتجاه الذي بعثه الأشوريون والبابليون في سياسة إجلاء السكان . كان باستطاعة فاتح ما أن يجلي « المؤسسات » البشرية من البلد المفتوح ، لكنه لا يمكنه أن يجلي آلهته . فالفلاحون من أبناء البلد الذين يظلون فيه ، يستمرون في عبادتها ، ويترتب على الأجانب القادمين ان يحسبوا حساب هذه الآلهة . فعبادة يهوه في بيت إيل ، المعبد

الديني الرئيس في المملكة الشمالية [في فلسطين] التي قضي عليها ، حمل شرقا إلى بابل وجنوبا الى جزيرة الفِيَلَةْ (إلفنتين) ، الحصن الحدودي على مهبط الشلال الأول على النيل ، حيث كان الألهان ايشم بيت إيل وعنات بيت إيل يعبدان في القرن الخامس قبل الميلاد ، جنبا الى جنب مع يهوه ، من قبل حامية يهودية كانت في خدمة الفرس . وأفراد الحامية كانوا قد جندوا من أحفاد اليهودانيين الذين كانوا قد هربوا الى مصر تجنبا لاجلائهم الى بابل على يد نبوخذنصر .

وقد كانت الجماعة اليهودية في جزيرة الفيلة على اتصال ودي مع سنبلاط رئيس منطقة السامرة ، التي كانت تضم القدس اثناء الحكم الفارسي قبل بعثة نحميا . وقد كان سنبلاط من أحفاد شخص أجلي إلى بابل ، إذا نحن حكمنا عليه باسمه (سنبلاط) ؛ لكن اذا حكمنا عليه باسمي ولديه (دلاية وشمالاية) ، فقد كان الأب وابناه من عباد يهوه ، ولم يكونوا من عبدة القمر . (إن السامريين اليوم هم بالضبط موحدون وعباد يهوه ، الذين لا يقرون أي كتابة دينية بعد التوراة على أنها مقدسة ، ولا يعترفون بأي رواية دينية غير مدونة) . وعلى كل فان سنبلاط تخاصم مع نحميا لما وصل هذا الممثل للجماعة اليهودية البابلية الى القدس في بعثة من الأمبراطور الفارسي .

— لقد كان الفرس ينظرون الى عباد يهوه في بابل وجزيرة الفيلة والسامرة نظرة محايدة . لكن في أيام نحميا وأيام عزرا ، كان اليهود البابليون قد طوروا برنامجا دينيا مبنيا على التفرقة العنصرية ، دينيا واجتماعيا ، عن باقي الجماعات ، وقد نجحوا في فرض منهاجهم هذا ، على « أهل الأرض » ، (أي الفلاحين الذين لم يجلوا عن البلاد) . فقد تلا التداخل السكاني والديني بالزواج المختلط ـ وخصوصاً بين الأسر الرئيسة ، التي كان مجال علاقاتها الاجتماعية أوسع من مدى علاقات الفلاحين . وكان للزواج المختلط اثر انساني في إزالة الحواجز الاجتماعية بين الجماعات ، بعد ما دفعت هذه استقلالها ثمنا للعداوة التقليدية ، واحدتها نحو الأخرى . وقد منع نحميا وعزرا الزواج المختلط وفرض الحرمان الديني على اعضاء الجماعة اليهود في أرض المملكة الجنوبية بسبب أنهم اقترفوا ما اعتبرته الجماعة اليهودية البابلية جرما لا يغتفر .

في أيام نحميا وعزرا كان أحفاد المجلين في بابل قد حافظوا على هويتهم الجماعية لمدة لا تقل عن ١٥٠ سنة ، او لمدة ٢٠٠ سنة فيما إذا كان راعيهم ارتاكزسيس كان الثاني لا الأول من اباطرة الفرس الأخمينيين الذي تسمى بهذا الأسم . لقد كان مثل هذا

العمل فذا ؛ فقد كانت هذه المجموعة من المجلين التي نجحت في أن تسير في عكس التيار القائم في المشرق والذي كان يتجه بقوة نحو تجاوز القبلية التقليدية والاعتراف بأخوة الأنسان . فقد قاوم اليهود المجلون في بابل هذا التيار بنجاح في ما بينهم ، وقد تمكنوا الآن من تغيير وجهته في أرض المملكة الجنوبية السابقة أيضا ، ولكن ذلك كان ثمنه إحياء العداوة التقليدية بين يهود الجنوب [من فلسطين] وجيرانهم - بما في ذلك اولئك الجيران الذين كانوا عباد يهوه على شاكلة يهود الجنوب ويهود بابل .

كيف تمكن يهود بابل من الحفاظ على هويتهم الجماعية في الظروف المعاكسة لذلك في المنفى ؟ لقد توصلوا الى هذا الأنجاز الفريد بأيجاد مؤسسة فريدة هي الكنيس . لقد جعل الملك حوزيا ركنا من أركان الايمان اليهودي ان عبادة يهوه لا يجوز ان تتم شرعا في أي مكان آخر إلا في الهيكل في القدس . وتدمير الهيكل واجلاء « المؤسسة » اليهودية الى بابل جرّدا الكهنة الوراثيين من دورهم ، الى أن يعاد بناء الهيكل وتدشن العبادة فيه من جديد . وقد كان الكنيس « المؤسسة » الجديدة التي ملأت الفراغ ، ولولا هذه المؤسسة الجديدة لكان أحفاد المجلين من الجنوب [جنوب فلسطين] الى بابل ، والبالغ عددهم ٤,٦٠٠ ، قد فقدوا هويتهم الجماعية نهائيا ، على نحو ما أصاب المجلين الى ميديا من الشمال [شمال فلسطين] والبالغ عددهم ٢٧,٢٩٠ . فقد كان « الكنيس » اجتماعا اسبوعيا - انتهى به الأمر الى الاجتماع في مكان دائم - حيث كان ما يملكه المجلون مما يمكن نقله (كتب الشريعة- التوراة - وكتب الأنبياء) يقرأ ويبحث فيه . فتجديد حزقيا وحوزيا كان ثوريا قبل الأجلاء ، أصبح الأمر الشرعي بعد تلك الحادثة . وأصبحت التوراة الآن تتبع بحذافيرها ، وأُكرم الانبياء بعد مماتهم ، وذلك على أيدي المجلين وأحفادهم . وهذه الوصفة الملكية للحفاظ على الهوية الجماعية للفئة اليهودية في بابل ، والتي أتت أكلها في بابل ، فرضت الآن على الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين بموافقة الحكومة الأمبراطورية الفارسية .

وإذ مكنت الحكومة الأمبراطورية الفارسية لنحميا وعزرا القيام بهذا العمل الحاسم ، فانها كانت ، عن غير قصد ، تتجّه عكس سياسة التسامح العامة التي كانت لها . وهذه الموافقة الاستثنائية لخرق واحد من أهم قوانين الحكومة الفارسية الخاصة بها ، كان عملا سلبيا من اعمال الدولة . ومن سخرية القدر أن هذا العمل السلبي كان محفوفا بعواقب هامة أكبر من أي عمل بناء كانت الحكومة الفارسية قد التزمت به .

٢٧ ـ المجابهة بين الأمبراطورية الفارسية الأولى والعالم الهلينيّ

إن المؤسسة الميدية ـ الفارسية في الأمبراطورية الفارسية الأولى ، والمواطنة المعاصرة لها في المدن ـ الدول الأغريقية ، كان لكل منهما نظام سياسي مفتون به ، والفتنة كانت ثقيلة العبء لأنها كانت تكريسا طوعيا نابعا من الداخل . فالولاء السياسيّ الميدي والفارسي كان يتمركز في شخص الإمبراطور الأخمينيّ ؛ والولاء الاغريقيّ كان يتمركز حول تجريد مقدس ، هو المدن ـ الدول ذات السيادة . ولما اصطدم هذان الولاءان واحدهما بالآخر أصبح التعايش السلمي الدائم بين الفريقين امرا لا يمكن تحقيقه ـ فكان لا بدّ لواحد من الفريقين ، في نهاية الأمر ، من القضاء على الآخر واحتلال مكانه . ولما ثار رعايا الأمبراطورية الفارسية من الأغارقة الآسيويين في سنة ٤٩٩ ق . م . ، وتلقوا العون العسكري من دولتين إغريقيتين اوروبيتين ، اثينا وإرتريا ، بدا وكأن الأمبراطورية الفارسية أصبح من المتوجب عليها أن تحتل العالم الهليني بكامله وتلحقه باملاكها . وقد كانت الأمبراطورية الفارسية اوسع بناء سياسيّ أقيم ، وكان سكانها أكبر من سكان أي من سابقاتها . وكان خصومها من الأغارقة موزّعين بين مئات من المدن ـ الدول ذات السيادة ، وكان كثير من هذه في حالة حرب دائمة ، واحدتها مع الأخرى . وخلال فترة المواجهة الفارسية الأغريقية كان هناك فقط مدتان قصيرتان ـ سنتان (٤٨٠ ـ ٤٧٩) ، وثماني سنوات (٣٣٧ ـ ٣٣٠) أقامت فيهما بعض الدول الأغريقية جبهة موحدة ضد الأمبراطورية الفارسية . وفي الأولى من هاتين المناسبتين صدّ الأغارقة حملة فارسية قوية على بلاد اليونان الأوروبية ؛ وفي الثانية هاجم الأغارقة انفسهم الأمبراطورية الفارسية واحتلوها . وخلال الفسحة الطويلة بين هاتين المدتين من التعاون السياسي الأغريقي ، نالت الإمبراطورية الفارسية الأولى ، بسبب الخلاف السياسي الأغريقي ، مهلة ، ومن ثم اتيح لها الوقت الكافي لأن تنتج اثارا خالدة على المستويين الديني والثقافيّ .

نحو سنة ٥٤٦ ق . م . اذ كانت المدن ـ الدول الأغريقية الأسيوية القارّية قد خضعت لأول مرة لفارس ، كانت كلها ، باستثناء مليتوس ، قد خضعت من قبل لليديا ، وهي التي كانت فارس قد ضمتّها إليها . وعلى كلّ فقد كان الليديون جيران الأغارقة المعروفون لديهم ، وكانوا قد تقبلوا قبسا من المدنية الهلينية . وفي الجهة الثانية كان الفرس ، بنظر الأغارقة ، أجانب غريبين . والتوسّع التجاري في الداخل ، الذي نعم به الأغارقة الأسيويون ، بسبب دمجهم في الأمبراطورية الفارسية ، لم يحملهم على تقبّل التغيير في أسيادهم السياسيينّ .

لقد احتاج الفرس إلى ست سنوات (٤٩٩ ـ ٤٩٤ ق . م .) لاخماد ثورة الأغارقة الأسيويين ، وهذه علمّت الفرس درسا بأنهم لم يكونوا قد ضمنوا بعد حدود ثابتة في الجهة الشمالية الغربية . فحوض البحر الأيجيّ كان بحيرة إغريقية ؛ وما كان للفرس أن يحتفظوا بشاطئه الشرقيّ ما لم يحتلوا شاطئه الغربي أيضا ؛ ومعنى هذا التزامهم بضم ما تبقى من العالم الهليني . لقد أشرنا من قبل إلى أنه قبل قيام الرعايا الأغارقة الاسيويين بالثورة ضد دارا الأول في سنة ٤٩٩ ق . م . كان هذا قد أقام رأس جسر اوروبيا بين مجرى الدانوب الأدنى وجبل أولمبوس . وقد كان هذا يحتوي على مملكة إغريقية واحدة ، هي مقدونية ، إضافة الى المراكز التجارية الاستعمارية الاغريقية الواقعة على السواحل الأوروبية بين دلتا الدانوب وجبل أولمبوس . وقد كان رأس الجسر هذا أكبر خطرا على بقية الأغارقة الأوروبيين مما كان على السكيثيين . وكان دارا قد أرسل أيضا فرقة بحرية لاستكشاف الجزء الاستعماري من العالم الهليني الواقع إلى الغرب من مضيق اوترانتو .

في سنة ٤٩٠ ق . م . أرسل دارا حملة تأديبية بحرا لمعاقبة إرتريا وأثينا . وقد غلب الأرتريون على أمرهم وأجلوا عن بلادهم ، لكن الأثينيين تمكنوا وقتها منفردين من صدّ الفرس . وفي سنتي ٤٨٠ ـ ٤٧٩ ق . م . قام ابن دارا الأول وخليفته ، إكسركسيس ، بحملة برية ضد الاغارقة الأوروبيين ، آتيا نحوهم من الشمال . وكانت تقريبا كل المدن ـ الدول الأغريقية الأوروبية الواقعة الى الشرق من مضيق أو ترانتو ، باستثناء أثينا وإسبارطة مع حلفاء إسبارطة ، قد اعترفت بسلطان الأمبراطور الفارسي . وأرغوس ، التي كانت منافسة لأسبارطة والتي كانت إسبارطة قد كسرتها ، الأمر الذي ترك مرارة في نفسها ، وقفت على الحياد . في سنة ٤٨٠ ق. م. احتلت اثينا ونهبت .

إلا أن السكان كانوا قد أبعدوا ، كما أن أساطيل المدن ـ الدول الاغريقية المحاربة ظلّت سليمة . وفي سنة ٤٨٠ ق . م . ربحت هذه معركة فاصلة ضدّ الأرمادا الفارسية في سلاميس ، وهذه تلاها انتصار إغريقي حاسم مثل ذاك في معركة برية في يلاتيا في بيوتيا ، ثم تلا ذلك انتصار إغريقي بحري على مقربة من ميكالي ، على الشاطىء الغربي لآسية الصغرى . عندها ثار الأغارقة الأسيويون ثانية ، وخسرت الأمبراطورية الفارسية املاكها الأوروبية ، بما في ذلك مملكة مقدونية الأغريقية . ولما تم الصلح نهائيا بين أثينا والأمبراطورية الفارسية سنة ٤٤٩ ق . م . ، كانت فارس قد فشلت في استعادة الأغارقة الأسيويين القاريين ، كما كانت أثينا قد فشلت في انتزاع قبرص ومصر من الأمبراطورية الفارسية . وعلى كل فقد تمكنت فارس من فرض سلطتها ثانية (سنة ٣٨٦ ق . م .) على الأغارقة الأسيويين القاريين ، وذلك بالتواطوء مع إسبارطة . وعند ذلك التاريخ كانت عودة الأغارقة الأوروبيين إلى الحروب الداخلية المألوفة مما يسّر ذلك لفارس .

لقد عمي الأغارقة عن الدرس الذي مرّ بهم في سنتي ٤٨٠ ـ ٤٧٩ ق. م . . ففي هاتين السنتين تمكنت أقلية من الأغارقة من الأقلية التي لم تُخضع بعد من كسر الأمبراطورية الفارسية بسبب وقوفها مجتمعة . وفي سنة ٤٨٠ ق . م . نجحت كذلك أقلية من الأغارقة المستعمرين الغربيين اتحدت موقتا في كسر الأمبراطورية القرطاجية . وقد كانت هاتان الأمبراطوريتان مصدر خطر لاستقلال الدول الأغريقية وذلك بسبب التوحيد السياسي الذي تم في كل منهما على مقياس واسع ، وقد انتصر الأغارقة على كل منهما لأنهم اتحدوا اتحادا جزئيا في آخر لحظة . وقد كان على الأغارقة ان يعترفوا بالحقيقة الواضحة وهي ، أنه في السياسة ، الاتحاد قوّة . كان عليهم أن يجعلوا اتحادهم السياسي شيئا دائما وبانهيلينيا . كان العالم الهليني قد أصبح وحدة اقتصادية وذلك نتيجة للثورة التجارية والصناعية في القرن السابع قبل الميلاد . ولا سبيل لتعايش الوحدة الاقتصادية والتفرقة السياسية مدة طويلة دون نكبة ومع ذلك فلم يكد الخطر الآتي من فارس ومن قرطاجة ان ينتهي أمره ، حتى تخاصم الأغارقة ثانية . فالأمارة الأغريقية الصقلية التي تمركزت منذ نحو سنة ٤٨٤ ق. م . حول سيراكيوز والتي ، بتحالفها مع اكراغاس ، تغلبت على قرطاجة سنة ٤٨٠ ق. م ، آلت الى التمزّق سنة ٤٦٦ ق. م . . . وفي الوقت ذاته فان الحلف الأغريقي الأوروبي القاريّ ، الذي تمكن في ٤٨٠ ـ ٤٧٩ ق. م . من التغلب على فارس ، انقسم ، في سنة ٤٧٨ ق. م . الى عصبتين

متنافستين ، الواحدة قديمة مؤلفة من إسبارطة وحلفائها البلوبونيزين ، والأخرى حديثة : حلف ديلوس المؤلف من أثينا والمدن ـ الدول الأغريقية التي كانت قد حررت من الحكم الفارسيّ .

في سنة ٤٥٩ ق . م . دخلت اثينا في حرب ضد حلفاء إسبارطة في بلاد اليونان ، وكانت لا تزال في حرب مع فارس . وقد كانت أثينا قد التزمت التزاما أقوى وبكثير من المغامرة (سنة ٤٦٠ ق . م .) في نزاعها الدامي مع فارس إذ أرسلت أسطولا لنصرة مصر في ثورتها ضدّ فارس . وفي سنة ٤٥٤ ق . م . دمرّت الحملة الأثينية بعد أن خضع الثوار المصريون لحملة فارسية مضادّة . وكانت أثينا ، خلال ذلك ، قد فرضت سلطتها (سنة ٤٥٧ ق . م .) على كل الدول في أواسط بلاد اليونان في أوروبة باستثناء طيبة . وفي سنة ٤٤٧ ق . م . فقدت أثينا سيطرتها عليها . لقد حمّل الأثينيون أنفسهم ما لا طاقة به ، وبعد ما تصالحوا مع فارس سنة ٤٤٩ ق . م . كان عليهم أن يعقدوا صلحا مع إسبارطة وحلفائها وذلك سنة ٤٤٥ ق . م .

بعد سنة ٤٧٨ ق . م . قام الأثينيون بتطوير حلف ديلوس إلى إمبراطورية اثينية ، وقد عاشت هذه الأمبراطورية أربعين سنة بعد ٤٤٥ ق . م . ، وهي سنة عقد الصلح مع إسبارطة . وقد كانت صورة مكبرة لأمبراطورية إسبارطة التي كانت تشغل الخُمسين الجنوبيين من البلوبونيز . وقد كان أقنان اثينا هم سكان المدن ـ الدول الأغريقية التابعة لهم والتي كانت تجمع منها الضرائب . في سنة ٤٦١ ق . م . كان المواطنون الأثينيون كجماعة قد منحوا أنفسهم دستورا كانت فيه العناصر الديمقراطية بارزة على نحو ما كان للأسبارطيين . وقد أصبحت الديمقراطية الأثينية الآن تعيش ، على نحو ما كان يحدث في الديمقراطية الأسبارطية ، على الضرائب التي يدفعها الرعايا الأغريق ، والذين كانوا أكبر عددا بكثير من الأقلية السيدة . ومع أن أثينا كان لها مجموعة مواطنين أكبر عدد من أي مدينة ـ دولة إغريقية معاصرة لها ، فان معاهدتي الصلح (٤٤٩ ـ ٤٤٥ ق . م .) قد أظهرتا نقطة الضعف في أثينا وهي التباين بين قوتها البشرية ومطامحها . ومع ذلك فان الأثينيين صوّتوا (سنة ٤٥١ ق . م .) في الواقع على تقليص عدد المواطنين الذين يحقّ لهم الانتخاب وذلك بأسقاط هذا الحقّ عن كل مواطن يكون أحد ابويه غير مولود في أثينا . وهذا القرار ، الذي يشبه أعمال عزرا ، طبق سنة ٤٤٥/٤ ق . م . ـ والقرار كان إيذانا بانتهاء الأمبراطورية الأثينية . وقد كان القرار

معاسكا لأعمال صولون السياسية النافعة . فان صولون وسّع (سنة ٥٩٠ ق . م .) نطاق المواطنة الأثينية إذ أنه أعاد المدينينّ الأثينيين الذين عجزوا عن وفاء ديونهم ، ومن ثم بيعوا عبيدا خارج البلاد ، كما أنه ، على ما أشرنا إليه من قبل ، منح المواطنة الأثينية للصناع الأجانب الذين هاجروا الى أثينا .

في سنة ٤٣١ ق . م . جرت أثينا وإسبارطة الى حرب ثانية في ما بينهما ، وهي التي كانت ذات عواقب وخيمة لكليهما . فقد انتهى امر الأمبراطورية الأثينية سنة ٤٠٥ ق . م . ؛ وقد قامت مكانها إمبراطورية إسبارطية وقد قضي عليها سنة ٣٧١ ق . م . ؛ وبين ٣٥٩ و٣٣٨ ق . م . وقعت كل المدن ـ الدول الأغريقية في القارة الأوروبية ، باستثناء إسبارطة ، تدريجا تحت حكم جارهم في الشمال ، الملك فيليب الثاني المقدوني ، وأجبرت ، في النهاية ، ان تنضم كلها الى عصبة جديدة هي التي اتخذت من كورنث عاصمة لها ، وكان فيليب رئيسها . وعصبة كورنث كان بين الأعمال المدعوة إليها مهاجمة الأمبراطورية الفارسية بقوتها المتحدة . وقد كان ثمة فئة طليعية من الجيش قد وصلت آسية لما اغتيل فيليب (سنة ٣٣٦ ق . م .) وهو بعد في زهوة عمره وقد بلغ القمة في حياته . في سنة ٣٣٤ ق . م . اجتاز الاسكندر ابن فيليب مضيق الدردنيل ؛ وفي سنة ٣٣٠ ق . م . كان قد قضى على الأمبراطورية الفارسية ؛ وتوفى سنة ٣٢٣ ق . م .

لقد كان المقدونيون أغارقة ، لكنهم لم يصبحوا هلينيين ـ أي انهم لم يكونوا مواطنين في المدن ـ الدول ، ومن ثم ظلوا غرباء بالنسبة الى أسلوب الحياة الذي عرفته المدينة ـ الدولة . لقد كان أثر نظام المدينة ـ الدولة وعقليتها على مستوى العلاقات الدولية مدعاة للفوضى ، وهذا هو الذي أتاح لفيليب الثاني الفرصة . فالفشل المستمر الذي منيت به المدن ـ الدول دوليا (أثينا وإسبارطة وطيبة) تعهدته عبقرية فيليب الشخصية فنالت مقدونية بذلك حظها . وعلى كل فان أسلوب الحياة في المدينة ـ الدولة ، على رغم تمزقها دوليا وتحزباتها داخليا ، كان لها دافع حضاري مؤثر ، وهو موضوع الفصل التالي . إن الأغارقة المقدونيين لم يتعرضوا لهذا المؤثر الحضاري ؛ فقد كانوا ، في حياتهم الخاصة ، لا يخضعون للنظام ، ومن ثم فانهم لم يتهيأوا لتسلم القيادة التي فرضت عليهم بسبب الأفلاس السياسي الذي مني به جيرانهم أغارقة الجنوب .

كان فيليب الثاني ، مثل مواطنيه المقدونيين ، لا يخضع لنظام في حياته الخاصة ،

إلا أن فيليب لم يكن ، في حياته العامة ، مقدونيا تماما . لقد كان صبورا داهية مثل ثموستوكليس ، وهو الأثينيّ الذي أنقذ بلاد اليونان في سنتي ٤٨٠ ـ ٤٧٩ ق . م . ومثل الفرعون بساماتيخوس الأول الذي أخرج الأشوريين من مصر بالتحايل . ولو أنه أتيح لفيليب أو ابنه الاسكندر أن يعمّر طويلا كما عمرّ بساماتيخوس ، فان تاريخ العالم الهليني التالي ، أو حتى تاريخ الأويكومين بكامله ، كان يمكن أن يكون أقلّ تعاسة .

٢٨ ـ الانجـازات الحضاريـة للمدنيـة الهلينيـة ٤٧٨ ـ ٣٣٨ ق . م .

في الفترة الواقعة بين سنتي ٤٧٨ و٣٣٨ ق . م . هبط العالم الهليني سياسيًّـا إلى الحضيض ، كما انه بلغ سمت حضارته ، وثمة على الأقل ثلاثة أثينيّين هم الذين كان لهم ضلع في تعثره السياسي ، فضـلا عن أنهم أضافـوا الكثير الى مجـده الحضـاري . وهؤلاء الثلاثة هم الكاتب التمثيلي سوفوكليس (٤٩٥ ـ ٤٠٦ ق . م .) والسيـاسيّ بـركليس (نحـو ٤٩٠ ـ ٤٢٩ ق . م .) والفيلسـوف سقـراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق . م .) .

إن اسم بـركليس محترم بسبب ارتبـاطه بقمـة ما بلغتـه أثينا في فن البنـاء والفن المنظور الهلينيين ، وقد نفخ في مواطنيه الرغبة في تزيين الأكروبوليس في أثينا بأعمال فنية رائعة في جمالها ، بعد عقد الصلح مع فارس سنة ٤٤٩ ومـع إسبارطـة سنة ٤٤٥ ق . م . . وكان بركليس ايضـا هو الـذي حمل الأثينيـين على تمـويل هـذه الأعمال ـ وبهـذا التمويل ، إنمـا شجعهم بركليس عـلى عمل ذي مـردود لأنفسهم ـ والتمويـل كان عن طريق تحويـل الجزيـة السنويـة التي كانت تجمـع من رعايـا أثينا من الأغـريق الى هذا الغرض . لقد كان الهدف الأصلي من جمع هذه الجزية هو الدفاع المشترك ، لا تزيـين أثينا . كانت المبالغ تجمع لدفع مرتبات البحارة الأثينيين . ولما وضعت عودة السلام حدا للعمليات البحرية الأثينية ، كان من الواجب أن تعاد الأموال إلى أصحابها ، بـدل أن تخصص للأثينيين أنفسهم لدفعها مقابل واجباتهم المدنيـة الحديثـة كحجارين وعتـالين وبنائين . فالتبديل في هذا المال كان عملا فيه غش ؛ والمجال الوحيد الصحيح لأنفاقه كان القوة الأثينية المسلحة .

إن كلا من سوفوكليس وسقراط أثار قضية الضمير في حال طلبت فيها الدولة من مواطن ما القيام بعمل لا يمكن قبوله أخلاقيا . وقـد أثار سـوفوكليس هـذه القضية في إحدى تمثيلياته ؛ وأثارها سقراط بأن حمل الدولة على إصدار حكم بالموت عليه إكرامـا

لضميره . ويقال أن سوفوكليس كوفىء على تمثيلياته بأنه اختير واحدا من الجنرالات الذي عهد اليهم بالقضاء على محاولة قامت بها ساموس ، حليفة أثينا ، (٤٤٠ ق . م .) للتخلص من النير الأثيني . ومن الغريب ان هذه المهمة قبلها مؤلف انتيغون . وأشد من ذلك غرابة هو أن يتطوع سقراط (سنة ٤٣٢ ق . م .) في الحملة الأثينية التي أرسلت ضدّ حليف آخر ثائر على أثينا ، هي بوتيدايا . من الواضح أنه ، في نظر كل من سقراط وسوفوكليس ، كانت الدولة التي ينتسب المواطن اليها تعتبر إلها في نظره ، ومن ثم ففي أي نزاع مع الدول الأخرى كان يتحتم على المواطنين المنقطعين لها أن يخدموها « حقّا أو باطلا » ، حتى ولو أنه ، في مواقف أخرى قد يحسون بأن الضمير أولى أن يحسب حسابه من الولاء .

عشية الحرب الأثينية البلوبونسية الثانية ، شهر الكورنثيون بأثينا على أنها « مدينة طاغية » . وقد روي أن سياسيا أثينيا أخبر مواطنيه ان أثينا يجب أن لا تحجم عن ارتكاب الفظائع إذا كانت ترغب في الحفاظ على إمبراطوريتها . وبعد سقوط الأمبراطورية الأثينية هدم خصومها المنتصرون « أسوارها الطويلة » التي كانت تصل أثينا مع موانئها ، والتي جعلتها في مأمن من الهجوم البري . وقد رحب بهذا العمل ، في طول العالم الهليني وعرضه ، على أنه فعل تحرير . ومع ذلك فان المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث ـ وهو الضابط البحري الأثيني الذي كان منفيا واسمه ثوسيديدس ـ يروي أن سياسيا أثينيا آخر ، هو بركليس ، يصف أثينا على أنها « مصدر تهذيب هلاّس » . والوصفان ، وكلاهما لأثينا في القرن الخامس ، لهما ما يبررهما .

إن أثينا القرن الخامس كانت ، في حقيقة الأمر ، «هلاّس الهلاّس» ، بمعنى أن أثينا كانت قد قامت بمثل هذا الدور في العصر السابق للهندسي وفي العصر الهندسي من التاريخ الهليني . وللمرة الثانية كان النشاط الحضاري للعالم الهليني قد تمركز في هذه النقطة الجغرافية الخاصة . فالنحات الأثيني فيدياس ، الذي كان معاصرا لبركليس ، كلف لا بصنع تمثال الألهة أثينا لهيكلها الجديد على الأكروبوليس في أثينا فقط ، بل أيضا بصنع تمثال لزفس في أوليمبيا . وقد كان هذا اعترافا رائعا للمكانة الحضارية الممتازة لأثينا ؛ ذلك بان اوليمبيا ، مع أنها كانت مركزا دينيا بانهلينيا ، كانت تقع داخل حدود الحلف البلوبونسي الذي كانت إسبارطة على رأسه . وتجميل اوليمبيا احتفاء بصدّ الفرس سنة ٤٨٠ ـ ٤٧٩ ق . م . كان ، إلى درجة ما ، سابقة بلوبونيسية للتجميل

المعاصر لأثينا .

وبالطبع لم يكن، حتى في القرن الخامس قبل الميلاد، ثمة احتكار حضاري اثيني لانجازات الحضارة الهلينية . فلم يكن البارثنون في أثينا قد لقي ما يسامته في هيكل زفس في اوليمبيا ، بل إن الهياكل التي بنيت ، حتى قبل ذلك في العصر نفسه ، في المدن ـ الدول الأغريقية الصقلية اكراغاس وسلينوس ، فاقته اتساعا وحجما . وقد كان أبرز من كلف بنظم القصائد من قبل المنتصرين (بما في ذلك بعض المنتصرين الأثينيين) هو الشاعر بندار من طيبة (نحو ٥٢٢ ـ ٤٤٢ ق . م .) . وإيليا ، المدنية الأغريقية في إيطالية ، كانت مركز الحركة الفلسفية الأغريقية الأحدية ، التي كانت يمثلها باومينيدس (نحو ٥١٥ ـ ٤٤٥ ق . م .) وزينون (نحو ٤٩٠ ـ ٤٢٠ ق . م.) ؛ والعودة الى « التعددية » التي كانت مرتبطة بعقيدة الولادة الثانية الفيثاغورية كانت من صنع الفيلسوف ـ الطبيب ـ إمبيدوقليس (نحو ٤٩٢ ـ ٤٣٢ ق . م .) . إبان الحرب الأثينية البلوبونسية الثانية (نحو ٤٩٢ ـ ٤٣٢ ق . م .) كان جماعة سماهم خصومهم السفسطائين قد اتخذوا من اللغة وسيلة للوصول الى غايات عملية ، خلقية كانت أو غير ذلك ، وكانت تسميتهم يقصد بها النيل منهم . وقد كان أحد اوائل هؤلاء السفسطائين هو غورغياس (نحو ٤٨٠ ـ ٣٩٥ ق . م .) من ليوتيني وهي مدينة ـ دولة إغريقية في صقلية . ولم يلبث السفسطائيون ان انتشروا في العالم اليوناني ، وكثيرون منهم انتهى بهم المطاف الى أثينا ، لأن أثينا كانت ، يومها ، أقوى مدينة ـ دولة هلينية . ومع ذلك فلم يكن أي من مشاهير السفسطائيين من مواليد أثينا ـ اللهم إلا أذا قبلنا بالتهمة التي ألصقها ارستوفانس بسقراط بقصد التشنيع عليه .

إن الفضل الأول المميز لأثينا على الحضارة الهلينية في القرن الخامس قبل الميلاد جاء في الفن التمثيلي والفلسفة وزخرفة الأواني .

كانت الدراما الأثينية في القرن الخامس قبل الميلاد ، التراجيدي منها والكوميدي على حد السواء ، تختلف عن شعر الملحمة الهوميرية والشعر المأسوي والفنائي اللاحق بالعصر الهوميري ، في أن الأول كان طقسا دينيا ، إلا أنه ، على عكس الشعر الهوميري ، كان شخصيا وفرديا على نحو ما كان عليه الشعر المأساوي والفنائي . وقد كان هذا نتاجا ، فيه كثير من الغرابة ، باعتبار أن الطقس الأصلي فيه كان فيه جنس فاضح ونشوة ، وأنه لم يتخلص قطّ من جذوره . ولم يكن القصد الأصلي من هذا

الطقس المتحلل إثارة الجنس ؛ لقد رسم أصلا من أجل إثارة الأخصاب في الكائنات الحية وفي النباتات والحيوانات المدجنة ، عن طريق السحر التعاطفي . وعلى كل فقد كان ثمة نتاج آخر لذلك الطقس الديني وهو التهتك المنسوب الى باخوس الذي عرفه العالم الهليني ، والعبادة التهتكية للالهة سيبيل في آسية الصغرى ، وانتشار النبيّات والرقص الديني ، وهوج جماعة الأنبياء الذين أثروا في الملك شاول في سورية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد .

فالدراميون الاثينيون قد قاموا بعمل أكبر من المألوف لّما استطاعوا ان ينتزعوا من هذه المادة الدينية البدائية ، التي لم تكن توحي بالكثير ، دراما عرضت فيها مشاكل الحياة البشرية ومواكبها في تفاعل كان يقوم به كورس وفريق من الممثلين كانت أدوارهم على المسرح فردية كما كان يمثلها في الحياة العامة انبياء فلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد . وثمة أعمال أربعة من درامي أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ـ وهم كتاب التراجيديا أيخلس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق . م .) وسوفوكليس (٤٩٥ ـ ٤٠٦ ق . م .) وأوريبيدس (٤٨٠ ـ ٤٠٦ ق . م .) والكاتب الكوميدي ارستفانوس (نحو ٤٤٩ ـ ٣٨٠ ق . م .) ـ وهؤلاء تبدو في شعرهم الدرامي الألمعية والتنوع العبقري . لقد طوروا هذا النوع من الفن بحيث جعلوا منه وسيلة لشرح المشاكل السياسية الجدلية الآنية ، ولسبر الأغوار الروحية للطبيعة البشرية .

لم تكن أثينا القرن الخامس قبل الميلاد الموطن الأم للفلسفة الهلينية . فقد ولدت هذه في أيونيا في القرن السادس قبل الميلاد . لكن سقراط أعطى هذا النشاط العقلي انطلاقة جديدة لما نقل ، عامدا متعمّدا ، مجال بحثه من الكون الطبيعي الى الطبيعة البشرية . وقد كانت حياة سقراط وموته الموحيين الرئيسيين لتلميذه أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م .) ، مع أن افلاطون كان ايضا من تلاميذ الفيلسوف الكروتوني (أصلا من جزيرة ساموس) فيثاغورس ، وقد وجد أفلاطون في الدرامي السيراقوسي ايبيخارموس نموذجا لنهج المحاورة الذي اتبعه في صياغة أعماله الفلسفية . وقد كان الفضل الأكبر اصالة ، والأكثر جدلية ، لأفلاطون على الفكر الفلسفي الهليني ، هو نظرية المعرفة ، التي كانت ، في الوقت ذاته ، نظرية في بنية الكون . وقد جمع أفلاطون بين الثقة الفيثاغورية في النظرة الرياضية والميتافيزياقيات وحدس الشاعر من حيث حدود الفكر المنطقي وقدرة الشاعر على أن يحلق على أجنحة الأسطورة .

كان ارسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م .) الستاجيريّ (ستاجيــروس كانت مدينة ـ دولة مستعمرة إغريقية صغيرة على ساحل خلقيديس) تلميذا لأفلاطون وأصبح في ما بعد أحد نقاده . كان أرسطو مواطنا موقتا في أثينا ، كما كان باستطاعته ان يشعر أنه من أهل مقدونيـة ، لما قبـل دعوة من الملك فيليب ليكـون ، لبعض الوقت ، مؤدبـا لابن فيليب ، الأسكنـدر . لم يكن أرسطو لا شـاعرا ولا ريـاضيـا ؛ وإذا اخـذنـا بمستـوى أفلاطون فقد كان ارسطو شخصا عاديا ، ولعله كان أولى به أن يظل على الأرض . ورغم ذلك كان أرسطو مفكرا جبارا من درجة أفلاطون ؛ وفي حياته التي كانت أقصر من عمر افلاطون بثماني عشرة سنة ، تمكن ارسطو من القيام ببحوث في المنطق ونظرية المعرفة والميتافيزيقيات التي دخلت مجالات الفلسفة الهلينية المتأخرة وسيطرت على الفكر الغربي المسيحي من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر للميلاد . وكان أرسطو أيضا باحثا اصيلا في تقصيه الحقائق ومنظما ماهرا لما توصل اليه تلاميذه في حقول السياسة والعلوم الطبيعية . وفي السلسلة الذهبية للفلاسفة الهلينيين يفوق لمعان اسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو اسلافهم ، وخلفائهم ، وألمع الأسماء الثلاثة هو اسم سقراط .

لقد تمكن صانعـو الفخار ومزخرفـو الآنية من أهل أثينا (في القرن الخامس قبل الميلاد) من المحافظة على السوق التي كانوا قد انتزعوها من غيرهم في القـرن السادس قبل الميلاد أي من منافسيهم الكورنثيين والأسبارطيين ، بما في ذلك السوق الأتـرسكية المربحة . ولم يلق التفوق الأثيني في السوق الأيطالية اي تهديد حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، لما دهمها الانتاج الكبير الذي قام في أبوليا وكان تقليدا للأسلوب الأثيني الرائج يومها . وقد كان الأقدر من صانعي الآنية يضعون اسماءهم على الأشياء التي يصنعونها، ومعنى هذا أن هذه المصنوعات كانت تعتبر أعمالا فنية من قبل صانعيهـا انفسهم ومن قبل عملائهم (زبائنهم) . والآثار الباقية الى الآن من صناع الآنية اولئك تقدر تقديرا كبيرا حتى هذا اليوم . ومن الجهة الثانية يبدو ان معاصري صـانعي الآنية الأثينيين كانوا أقل حساسية، من الناحية الجمالية ، لما في هذا النوع من الفن الأثيني من جمال ، على رغم أهمية الدور الاقتصادي العادي لها كبضاعة للتصدير إذ كانت مربحة لأثينا في ميزان المدفوعات ، أو لعل الأمر كان بسبب هذا الدور الاقتصادي .

٢٩ ـ النتائج السياسية لقضاء الأسكندر على الأمبراطورية الفارسية الأولى

كان فيليب الثاني ملك مقدونية قد تمكن ، خلال الفترة من ٣٥٩ الى ٣٢٥ ق . م . ، من وضع كل الدول الأغريقية الاوروبية الواقعة الى الشرق من مضيق اوترانتو تحت سلطته ، باستثناء إبيروس وإسبارطة وبيزنطية . وخلال عشر سنوات ، من ٣٣٤ ـ ٣٢٥ تمكن ابنه وخليفته الاسكندر من احتلال الامبراطورية الفارسية كلها ، بما في ذلك كل البلاد التي كانت قد احتلتها في حوض السند ، دون ان يفقد الاشراف على البلاد التي ورثها عن ابيه . ولمدة سنتين (٣٢٤ ـ ٣٢٣ ق. م) كان الأسكندر يسيطر سيطرة تامة على كل هذا الجزء الأوسط من الأويكومين في العالم القديم . وفي سنة ٣٢٤ ق. م . اكدّ سلطته على بلاد اليونان لما أصدر أمره إلى المدن ـ الدول التابعة لعصبة كورنث بالسماح لمواطنيهم المنفيّين بوجوب العودة . لقد كان الاسكندر يخططّ لاحتلال ما تبقى من الأويكومين ، بدءاً من بلاد العرب . (ولم يكن لا هو ولا أي من معاصريه يدري مدى الجزء المأهول من برّ الكرة الأرضية) . إلا أنّ الاسكندر توفى سنة ٣٢٣ ق. م . قبل أوانه وعلى غير انتظار وفجأة ، ومن ثم فان إنجازه السياسي الواقعي كان ، مع ضخامته ، سلبيا . لقد عاش طويلا بحيث أنه تمكن من القضاء على الإمبراطورية الفارسية ، إلا انه لم يعمر طويلاً بحيث يستطيع تأسيس الإمبراطورية العالمية التي كان يأمل فيها . لقد وسع رقعة العالم الهليني بأن ضمّ إليه أملاك الامبراطورية الفارسية ماديا . لكن ، حين وفاته ، أصابت هذا العالم الهليني الموسع نكسة أعادته الى الفوضى التي كانت تعم العالم الهليني الأصغر ، السابق للأسكندر ، والذي كان يعيشها قبل سنة ٣٣٨ ق. م ، وهي السنة التي أنشأ فيها فيليب الثاني العصبة الكورنثية .

كان موت الأسكندر إيذانا ببدء النزاع لتقطيع ملكه غير القابل للدوام . فدول جنوب بلاد اليونان ، بما في ذلك إسبارطة ، حملت السلاح حالا ضدّ مقدونية . وقد أرْغِم الجميع ، عدا ايتوليا ، على التسليم سنة ٣٢٢ ق . م . ، ولكن في سنة ٣٢١

ق . م . شنّ كبار القادة العسكريين في الجيش المقدوني حروبا واحدهم ضدّ الآخر . وقد استمرت حروب خلافة الأسكندر اربعين سنة (٣٢١ ـ ٢٨١ ق . م .) ، والعمل السياسي الوحدويّ الذي قام به فيليب الثاني والأسكندر لم يلبث ان أصبح أثرا بعد عين . وقد أنفق الورثة المتنافسون على خصوماتهم من السبائك الذهبية التي كانت الحكومة الأمبراطورية الفارسية تنتزعها من رعاياها وتكنزها لمدة قرنين من الزمان ، لقد انفق هذا الكنز في المنافسة على منح الجنود المقدونيين مكافآت تشجيعية سخيّة ، وكان الجنود المقدونيون يعززون بمرتزقة أغارقة من غير المقدونيين الذي نجح المتنافسون في استخدامهم . وقد وجدت مرتبات الجنود طريقها ، بسرعة ، الى العالم الهليني الموسع ، وترتب على ذلك تضخم نقدي أصبحت ، على أساسه ، الأجور الحقيقية للعاملين المدنيين في مراكز التجارة والصناعة الهلينية منخفضة .

إن الحروب التي قامت بين خلفاء الأسكندر كانت أقل وحشية من الحروب التي شنتها المدن ـ الدول الأغريقية واحدتها ضدّ الأخرى قبل أن يفرض عليها فيليب الثاني السلم في سنة ٣٣٨ ق . م . لقد كان مواطنو المدن ـ الدول المؤلهة يقتتلون في ما بينهم بحقد عميق . وقد كان خلفاء الأسكندر أيضا يؤلهم رعاياهم ـ أو أنهم ألهوا هم أنفسهم ـ إلا أنهم لم ينظروا إلى هذا التأليه نظرة جدية ؛ وعلى كلّ فقد كان النهب غايتهم الرئيسة . كانت المدن ـ الدول الهلينية ، التي زالت عنها صفة السيادة في الواقع ، هي المطلب في لعبة حرب الخلفاء، وكان عصب الحرب هو الجندي المحترف لا المال الذي كان يدفع للجند . ومن ثم فبدلا من قتل الجنود التابعين للخصم ، كان المنتصر يدعوهم الى تبديل الجهة (أي الانضمام إليه) ، وبدلا من نهب المدن كانت هذه « تحرّر » ، الأمر الذي كان يعني انتزاع السيطرة على المدن من أحد أمراء الحرب ، ولكن الأمر صيغ بلهجة ملطفة . بين سنة ٣٣٥ ق . م . ، لما دمر الاسكندر طيبة وباع أهلها رقيقا ، وسنة ٢٢٣ ق . م . ، لما عامل انتيغونوس دوسون ، الوصيّ على مقدونية وحلفاؤه مدينة منتينيا بالقسوة ذاتها ، لم تدمر مدينة أغريقية بايدي الأغريق . (في الفترة ذاتها نهبت اكراغاس ومدن اغريقية أخرى غيرها واقعة الى الغرب من مضيق اوترانتو ، وبيع سكانها رقيقا ، على أيد غير أغريقية) .

ومع ذلك فان حروب الخلفاء والحروب التي تكررت بين خلفاء الخلفاء بعد ذلك ، وضعت العالم الهليني الواقع الى الشرق من مضيق اوترانتو في حال غليان .

وبالنسبة الى غالبية السكان في البلاد التي كانت من قبل تابعة للأمبراطورية الفارسية السابقة ، كان الانتقال من الحكم الفارسي الى الحكم الأغريقي انتقالا الى الأسوأ . ان الحكم الفارسي منح رعاياه فترة النقاهة التي كانوا بحاجة اليها ليعود اليهم نشاطهم بعد ما كابدوا من آثار مصيبة العسكرية الأشورية. وعلى العكس من الأمبراطورية الأشورية كانت الأمبراطورية الفارسية قليلة الترابط ، وفي أيامها الأخيرة كانت مفككة وكان يعوزها النظام . كانت مصر قد انفصلت عنها ؛ وكان الحكام الأقليميون قد ثاروا ؛ وكانت القبائل الجبلية قد خرجت عن سيطرة الحكومة الامبراطورية . والنير الفارسي كان خفيفا إذا قورن بالنير الأغريقي الذي حل الآن محله . في العالم الهليني بعد الأسكندر ، مثله قبل الاسكندر ، كانت الحروب مزمنة ، لأنها كانت حروبا ليس فيها معارك فاصلة .

إن البلد الذي أصابه من الضرّ أكثر من غيره بسبب الفتوحات المقدونية الواسعة كانت مقدونية نفسها . إن الأسلوب الذي لجأ اليه فيليب الثاني في احتلاله لبلاد اليونان ، والذي احتل به الأسكندر الامبراطورية الفارسية ، كان تجنيد المشاة من الفلاحين المقدونيين لدعم الفرسان من الأرستقراطية المقدونية . (استمر الفرسان في أن يكونوا الذراع الرئيس للجيش المقدوني ؛ إلا أن هذا السلاح لم يكن أفراده من العدد بحيث يمكنهم ان ينجحوا في الفتوح ، ويحتفظوا بها ، دون تعاون الفريق الفلاحي) . لما هاجم الاسكندر الأمبراطورية الفارسية كان عليه أن يترك خلفه نصف الجيش المقدوني في اوروبة للمحافظة على الأغارقة الجنوبيين ولصدّ البرابرة الشماليين . وكانت مقدونية قد نضب معين الرجال فيها بحيث أنها لم تتمكن من تلبية طلبات الأسكندر المستمرة . وبعد ذلك كان كل من خلفاء الأسكندر يحتفظ على الأقل بفريق من الحرس من الجنود المقدونيين ليكونوا نواة للجيش الخاص الذي كان يحتل بواسطته حصته من أسلاب البلاد من مملكة فيليب والأسكندر ويحافظ عليه . في ٢٨٠ ـ ٢٧٩ ق . م . ، اي مباشرة بعد انتهاء الحروب بين خلفاء الاسكندر ، هاجم مهاجرون كلتيّون من حوض الدانوب مقدونية ، وقد وجدت هذه نفسها ، بعد ما تخلصت من هؤلاء المهاجمين البرابرة ، عاجزة عن الحصول على القوى البشرية للقتال في جبهتين ضدّ البرابرة الشماليين الذين كانوا لا يزالون يتبعون طريق الحرب ضد الأغارقة الجنوبيين الذي تخلصوا من السيطرة المقدونية والذين كانوا الآن يقومون بالاعتداء عليها .

كان أشد خصوم مقدونية بين الأغارقة الجنوبيين الاتحاد الايتولي. وكان هذا واحدا من المدن الاغريقية الثائرة على مقدونية ، ولم يستسلم لها في سنة ٣٢٢ ق . م . . وفي نحو سنة ٣٠٠ ق . م . أقام الأيتوليون سلطانهم السياسي في دلفي ، وهو المعبد البانهليني الذي حافظ على أهميته التي كانت له قبل أيام الاسكندر . وقد تمكنت ايتوليا ، تدريجا ، من ضمّ المناطق (الكنتونات) الواقعة شمالها وشرقها . ولما حلّت سنة ٢٣٥ ق . م . كانت قد توسعت عبر بلاد اليونان القارية من الساحل الى الساحل ؛ وفي سنة ٣٢٦ ق . م . ، وهي فترة قصيرة كان فيها توسعها على انشطه ، تقدمت أيتوليا حتى بلغت حدود مقدونية الجنوبية . وقد تصرف الأيتوليون سياسيا على النحو الذي عرف عن الرومان في ما بعد ، فمنحوا المواطنة الأيتولية الى جميع الشعوب التي ضموها الى كيانهم السياسي .

وقد أخذ الاتحاد الآخائي بالتوسع في سنة ٢٥١ ق . م . ، وذلك على امتداد الشاطىء البلوبونيسي من خليج كورنث، لكن البلاد التي ضمها كانت أقل ترابطا من تلك التي كانت تابعة لأيتوليا، ولم تكن صنوا لأيتلويا من الناحية العسكرية. يضاف الى ذلك أن الإتحاد الأخائي كان له منافس عنيد هو إسبارطة، وهي قوة بلوبونسية قديمة وقد ظلت مستعصية ولو أن الطيبيين كانوا قد انتزعوا بعض أرضها في سنة ٣٦٩ ق. م. ، كما اقتطع فيليب الثاني قسماً آخر منها في سنة ٣٣٨ ق. م .

كانت الدولتان الرئيستان اللتان خلفتا الأمبراطورية الفارسية هما اللتان انشأهما اثنان من قواد الاسكندر ، بطليموس وسلوقس . وقد امتلك بطليموس مصر والنصف الجنوبي من سورية ؛ وكانت حصة سلوقس القسم الأكبر ، الذي كان ينقص كثيرا عن الكل ، مما تبقى من إرث الامبراطورية الفارسية الأسيوي . وفي شمال غرب آسية الصغرى أقامت بيثنيا دولتها المستقلة تحت زعامة أسرة محلية ؛ وكبادوكيا ، البحرية والداخلية وشمال ميديا (اتروباتين واذربيجان) أقامت دولا مستقلة تحت زعامة أسر إيرانية . وقد اضطر سلوقس ، في سنة ٣٠٢ ق . م . الى التنازل عن المناطق الشرقية من إيران الى بان جديد من بناة الأمبراطوريات ، وهو تشاندرا غوبتا موريا الهندي ، الذي كان قد حالفه النجاح سنة ٣٢٢ ق . م . أكثر مما حالف الدول الأغريقية الجنوبية . فقد نجح تشاندراغوبتا في طرد الحاميات المقدونية من حوض نهر السند ، ثم إنه وسع ممتلكاته بحيث بلغت مساحتها ما كان لسلوقس ، وذلك عن طريق احتلال

امبراطورية مـاغادا في حوض نهر الكنج ـ جمنا .

كانت الأمبراطورية السلوقية متسعة بحيث لا يمكن ضبطها وربطها . في آخر حروب الخلافة (سنة ٢٨١ ق . م .) كان سلوقس المنتصر اسما ؛ وكان قد عبر الدردنيل ثانية في طريقه الى مقدونية حين اغتيل . لكن المنتصرين الحقيقيين كانوا قبيلة من المهاجرين القلتيين الذين استقروا في قلب آسية الصغرى ، والذين قاموا بالغزو ، طولا وعرضا ، خلال نصف القرن التالي إلى أن اوقفتهم عند حدّهم دويلة كانت قد أنشئت سنة ٢٨١ ق . م . في برغامون في غرب آسية الصغرى على يد جندي كان قد ابتسم له الحظ إذ استولى على جزء من الكنوز الفارسية القديمة التي كانت قد خبئت في القلعة هناك . وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت مساحة الأمبراطورية السلوقية قد تقلّصت كثيرا ، إذ انفصل عنها حاكم ولاية حوض اكسس ـ جاكارتس (سيحون ـ جيحون) الأغريقي ، كما أن احتلال البارني ، وهم قوم بدو رعاة أصلهم من تركمنستان الحالية ، لفرثيا في الوقت ذاته ، زاد في هذا التقليص .

إن أعنف مظهر في الحروب التي شنت في الأرث الاسكندري المزعزع (بين ٣٢١ و٢٢١ ق . م .) هو أنها لم يكن فيها انتصار حاسم . فمقدونية لم تتمكن من احتلال جنوب بلاد اليونان . وجنوب بلاد اليونان لم يتمكن من ان يقصي النفوذ المقدوني عن الممرات الأغريقية الثلاثة : ديمترياس وخلقيس واكروبوليس كورنث . لقد حرّر الآخائيون كورنث من مقدونية سنة ٢٤٣ ق . م . ، لكنهم تنازلوا عن اكروبوليس كورنث لمقدونية سنة ٢٢٥ ق . م . مقابل تدخل مقدونية عسكريا ضدّ إسبارطة مساعدة للاتحاد الآخائي . وفي سنة ٢٢٢ ق . م . أنزل المقدونيون والأخائيون هزيمة كبيرة بالأسبارطيين ، وقد وقعت إسبارطة تحت احتلال أجنبي لأول مرة في تاريخها ؛ لكن إسبارطة لم تلبث ان استردّت استقلالها وعادت لها أهميتها كقوة عسكرية . وفي الوقت ذاته كانت السيطرة البحرية على الأرخبيل الأيجي قد انتزعت من يد ديمتريوس بوليكريتس على يد بطليموس الثاني ثم انتقلت من امبراطورية البطالمة الى مقدونية بسبب الانتصارين البحريين المقدونيين قرب جزيرة قوص نحو سنة ٢٥٧ ق . م . وقرب جزيرة اندروس نحو سنة ٢٤٦ ق . م . . وفي سنة ٢٢١ ق . م . قامت الحرب الرابعة بين البطالمة والسلوقيين لامتلاك جنوب سورية ، وانتهت بأن ظلّت هذه المنطقة المتكالب عليها تابعة لأمبراطورية البطالمة .

كان أهم حدث وقع في سنة ٢٢١ ق . م . في أويكومين العـالم القديم تـوحيد الصين على يدي دولة تشن التي افتتحت بلاد الدولة السادسة في منافستها ، وضمتها الى أملاكها . وهذا التوحيد السياسي للصين كان حاسما ونهائيا . وقد استمـر على مـا هو عليه إلا جزئيا وفي فترات موقتة ؛ وفي العقد الثامن من القرن الحالي تقوم الصين الموحدة بدور رئيس في القضايا العالمية . لكن في سنة ٢٢١ ق . م . كانت بقية أويكومين العالم القديم ، من الهند وغربا الى حوض البحر المتوسط الغربي ، على وشك الدخول في زمن الصـراع العنيف ، الذي لم يتخلّص منـه حوض البحـر المتوسط الا في سنـة ٣١ ق . م . ، اما الهند فلم تخرج منه إلا في سنة ٤٨ م .

٣٠ - تطور المدنية الهلينية وانتشارها
٣٣٤ - ٢٢١ ق . م .

لم تكن سنة ٣٣٤ ق . م . ، وهي السنة التي أجتاز فيها الاسكندر الدردنيل ، بالطبع ، نقطة ابتداء في تطور المدنية الهلينية وانتشارها . فقد كانت ، في ذلك الوقت ، قد مرت عليها أربعة قرون ويزيد وهي تنمو وتنتشر . لقد بدأت العملية في القرن الثامن قبل الميلاد ، لما تفتقت براعم المدنية الهلينية ازهارا ، بعد فترة حضانة طويلة . لكن لما هاجم الأغارقة الأمبراطورية الفارسية وقضوا عليها ، أخذوا انفسهم بنشر مدنيتهم على مقياس واسع وبشكل واع ؛ فقد كانوا يواجهون خيارات في سياسات مختلفة للتعامل مع رعاياهم الأجانب . وكانوا يوسعون المجالات في حياتهم ويبدلون الحالات فيها ، فجأة وبشكل جذري ، بحيث أنهم أصبحوا بحاجة الى فلسفات جديدة يمكنها ان ترشدهم وتدعمهم وهم يطأون ارضا مجهولة بالنسبة إليهم ، اجتماعيا وخلقيا .

وخلال القرون الأربعة التي سبقت اتجاه الاسكندر شرقا كانت أجيال مبكرة من الهلينيين قد مهدت السبيل له في تلك الأنحاء . لقد ترددوا كثيرا على سورية ومصر تجارا ، وكانوا قد خدموا مرتزقة في مصر وبابل وفي الامبراطورية الفارسية ، وكانوا حملوا مهجرين الى أماكن قصيّة حتى بلاد الصغد شمالا في شرق ، والى ما وراء النهر (نهر اكسوس ، جيحون) . وكانت نقود المدن ـ الدول الأغريقية ، مما قبل الأسكندر ، قد انتشرت في أسواق الامبراطورية الفارسية مزاحمة للنقود الامبراطورية ذاتها . وفي هذه الجهات كانت المستوطنات الأغريقية تجارية ، لا زراعية ، وكانت مقصورة على المينا (بوزيديون) في سورية ونيوكراتيس في دلتا النيل . لكن الأغارقة استعمروا ، بالقوة ، سواحل إيطالية الجنوبية الشرقية وصقلية وبرقة (سيرينايكا) ، كما استعمروا ، بالأسلوب ذاته ، المضايق المؤدية الى البحر الأسود ، وكانوا قد أقاموا مراكز تجارية حول جزء كبير من سواحل البحر الأسود . وفي سنة ٣٣٤ ق . م . كان أهل صقلية الذين ظلوا في داخل الجزيرة قد أخذوا انفسهم بالتكلم باللغة اليونانية والعيش في مدن ـ دول

على النسق الهليني ، كما ان الأترسكيين والايوليين وغيرهما من الشعوب غير الأغريقية في إيطالية كانوا قد اقتبسوا طراز الحياة الهلينية على درجات متفاوتة .

أما وقد اكتسح الأغارقة ، بقوة السلاح ، أراضي الأمبراطورية الفارسية المشعة ، فقد كان على الفاتحين ان يقرروا فيما إذا كانوا ينوون فرض أنفسهم على السكان المقهورين كجنس سيد ، أو انهم كانوا يرون وجوب العيش والتزاوج مع رفاقهم من غير الأغارقة على قدم المساواة . وقد تقدّم ارسطو ، معلم الأسكندر سابقا ، بالنظرية العنصرية غير الأنسانية وغير العلمية وهي أن الهلينيين ولدوا ليكونوا أسيادا ، وغير الهلينيين يجب ان يكونوا عبيدا ؛ اما الاسكندر نفسه وثيوفراستوس، تلميذ ارسطو ، فقد كانا الى جانب المساواة ، وقد كان الاسكندر ، قبل وفاته المبكرة ، قد بدأ يطبق سياسته الأسمح ، وذلك لمصلحة رعاياه الأيرانيين ، على أي حال . كان قد احتفل بعيد للتوفيق ، وقد دعم وكافأ أولئك الذين تزوجوا زواجا مختلطا ـ إغريقيا إيرانيا أو إغريقيا أسيويا . لكن يبدو أنه حتى الأسكندر نفسه كان مطمئنا الى أن الأطار الحضاري لهذا المزج العنصري المرتغب سيكون هلينيا ، وكان هذا الأساس الذي نفذت بموجبه سياسة الأسكندر على يد سلوقس الأول ، الخليفة الذي ضمن لنفسه أكبر جزء من الأرض من أسلاب الأمبراطورية الفارسية . ويبدو أن المزج بين الأغارقة والأيرانيين قد نفذ ، أوسع ما نفذ ، في حوض نهري اكسوس ـ جاكسارتس ، تحت حكم الأغارقة المحليين الذين انفصلوا من الدولة السلوقية ، خليفة الأمبراطورية الفارسية ، حول سنة ٢٥٠ ق . م . وفي الجهة الثانية فان الحكام البطالمة في مصر وأعوانهم من الأغارقة تصرفوا وكأنهم جنس سيد ، فقد احتفظ التاج هنا بكل الوظائف الادارية ، إلا أدناها ، في أيدي الأغارقة . وجميع الأغارقة الذين كانوا في مصر تعاونوا مع نظام البطالمة لاستغلال أهل مصر .

في سنة ٢٢١ ق . م . كانت هذه السياسة غير الليبرالية التي اتبعها الأغارقة في مصر لا تزال فعالة ، لكن غالبية السكان المصريين لم تتقبل أن تعامل على انها جنس أدنى ؛ وفي واقع الأمر فان المدنية المصرية كانت متفوقة على المدنية الهلينية على الأقل في أمرين هامين : كان للمرأة المصرية وضع قانوني أفضل من وضع المرأة الأغريقية ، وكان الرق في مصر نادرا . كان الفلاحون المصريون المستغَلون رجالا احرارا ، ومع أن أفرادا من الجماعة الأغريقية الذين كانت أحوالهم جيدة كانوا يملكون العبيد ، فان حكومة

البطالمة اتخذت الاحتياط اللازم لمنع استرقاق رعاياها .

ان المهاجرين كان باستطاعتهم أن يحملوا معهم أموالهم المنقولة فقط ، سواء في ذلك المهاجرون الذين جاؤوا كفاتحين ، مثل الأغارقة الذين ساروا على درب الأسكندر ، والمهجرون ، مثل اليهود الذين نقلوا أسرى من جنوب فلسطين الى بابل قبل ذلك بنحو ربع الألف من السنين . وإذا كان للمهاجرين رغبة في الحفاظ على هويتهم الاجتماعية والثقافية في محيطهم الجديد بين أجانب يفوقونهم عددا ، فان الاموال المنقولة التي يحملونها معهم يجب أن تكون ثمينة ، في نظرهم بالذات، بحيث تكون وازعا لهم ليتغلبوا على التجربة المرضية التي قد تؤدي الى التخلي عن العناصر العميقة الجذور في تربة الأجداد من تراثهم الحضاري . فقد كان على المهجر اليهودي ان يتخلى عن الطقس الديني الذي لم يكن ليتم حكما إلا في الهيكل في القدس ؛ والمهاجر الأغريقي كان عليه أن يتخلى عن الولاء للأله الخاص بالمدينة ـ الدولة الآتي منها . وقد نجح الأغارقة في سنة ٣٣٤ ق . م . وما بعدها في حلّ هذه المشكلة السيكولوجية ، كما فعل اليهود في القرن السادس ق . م . . ان العبيد الذين كانوا ملك يمين المهاجر اليوناني كانوا كسبا اقتصاديا منقولا وكانوا مسؤولية حضارية . وما كان للأغارقة ان يتم على يدهم ما تم لليهود في بلاد التشتت لو انه لم يكن لهم مكتسبات حضارية يمكن نقلها ، وان هذه كانت ذات قيم سيكولوجية عالية المستوى ، على نحو ما كان لليهود .

كان ثمة اثنان من المكتسبات الأثينية الهلينية ثبت انهما غير قابلين للنقل من اثينا وهما كتابة التمثيليات ومجمعات الأخوة الفلاسفة . كانت الفلسفة الأغريقية قد ظهرت اصلا في ايونيا ، وكانت قد طوفت الى ايطالية قبل ان تستقر في اثينا ، الا ان سقراط وافلاطون وارسطو كانوا قد القوا مراسيها في اثينا . اما في التأليف التمثيلي فان اثينا كادت ان تحتكر هذا الفن ، مع انه كان هناك مدارس للهزليات والمضحكات من التمثيل في صقلية وايطالية ، لكن الفلاسفة والمؤلفين التمثيليين الذين عاشوا وكتبوا في اثينا لم يكونوا بالضرورة اثينيين اصلا .

كان كتاب المأساة الثلاثة والمؤلف الهزلي ارستوفانس ، الذين عاشوا في اثينا القرن الخامس جميعهم من ابناء اثينا ، اما بين اشهر اربعة من المؤلفين الهزليين ، من اهل المدرسة الأينية « الجديدة »، لم يكن سوى واحد من ابناء اثينا وهو ميناندر (حول ٣٤٢ ـ ٢٩١ ق . م .) . وديفيلوس (عاش حول ٣١٨ ـ ٢٧٤ ق . م .) جاء اثينا من

سينوب ؛ وفيليمون (٣٦١ - ٢٦٣ ق . م .) جاء من سيراقوسة ؛ والكسيس (عاش حول ٣٧٥ - ٢٧٤ ق . م .) جاء من توري في طرف « اصبع قدم ايطالية » .

ومن بين اصحاب المدارس الفلسفية التي احتضنتها اثينا، كان افلاطون الوحيد من ابناء اثينا . فابيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق . م .) كان ابنا لمستوطنين اثينيين كانوا قد استقروا في ساموس ، لكنهم كانوا قد أجلوا عنها لما حررت ساموس سنة ١/٣٢٢ ق . م . . والحديقة التي اقامت فيها الأخوة الابيقورية في اثينا كان قد ابتاعها له ، في سنة ٣٠٦ ق . م . ، تلاميذه الأغنياء الذين كانوا قد تتلمذوا عليه في لامبساكوس . وكان ارسطو من ابناء ستاجيروس ، وقد وجد ، في نهاية المطاف ، ان اثينا اشد من ان تتحمله . واخوة ارسطو كانت تجتمع في الليسيوم في اثينا ، وقد انشئت بعد وفاته على يد تلميذه تيوفراستوس (٣٧٢ - ٧/٢٨٨ ق . م .) من ابناء ارسوس في جزيرة لسبوس . اما زينو (حول ٣٢٦ - ٢٦٤ ق . م .) ، وهو مؤسس الأخوة الرواقية ، فقد جاء الى اثينا بين سنتي ٣٢٠ و٣١٤ ق . م . من مدينته الأصلية كيتيوم في قبرص . وكانت كيتيوم مستعمرة فينيقية . وقد وجد فيها ، مما يعود الى القرن الرابع ق . م . ، نقوش بالكنعانية اكثر من النقوش باليونانية . وخلفاء المؤسسين الاربعة في رئاسة الأخوات المتتالية جاؤوا من كل انحاء العالم الهليني المتسع ، وحتى من خارجه . فعلى سبيل المثال كان هنيبال - كليتوماخوس ، الذي رأس اكاديمية افلاطون من ١٢٧ الى ١١٠ ق. م. ، كان ، مثل زينو ، فينيقيا مستعمرا ؛ وقد جاء من قرطاجة .

يضاف الى ذلك ان التمثيليات التي كانت تؤلف في اثينا كانت تمثل في اماكن اخرى ، كما ان الاخوات الفلسفية المتمركزة في اثينا ، كان ينتسب اليها الاتباع من كل مكان . وقد كان بين المؤسسات التي حافظت على العالم الهليني المتسع اتحاد الممثلين المتنقلين البانهليني (ديونيسو تكنيتاي) . فقد كان هؤلاء الممثلون المتنقلون يمثلون روايات اتيكية حيثما كانت ثمة مدينة أغريقية فيها مسرح ، وذلك تحت رعاية ديونيسوس ، وهو الأله الذي تعود ولادة الدراما الاتيكية الى طقوس عبادته في اثينا . وقد حافظت المأساويات التي وضعها اوروبيدس في القرن الخامس ق . م . على مكانها جنبا الى جنب مع الهزليات الاتيكية الاوروبيدية .

كان الاخوتان الفلسفيتان اللتان ضمتها اثينا في العصر السابق للاسكندر من نوع النخبة وكانتا متعاليتين ؛ وقيام المدرستين اللتين انشئتا بعد الاسكندر كان استجابة للحاجات الفكرية والاجتماعية الآنية . فابقور شجع اتباعه على ا ن يعتزلوا الحياة

العامة ، على نحو ما فعل معاصره الفيلسوف التاوستي الصيني تشوانغ تسو . وكان ابيقور يقيم وزنا خاصا للصداقات الشخصية . وكان زينون ، مثل كونفوشيوس ، يعلم اتباعه كيف يحتفظون بمستوى فردي عال في تصرفهم في اطار اجتماعي جديد يتعذر فيه على الفرد أن يعتمد على الدعم الخلقي - ولا على القيود الخلقية - للقيام بواجباته كمواطن في مدينة - دولة ذات سيادة . وكان ثمة فلسفات تقوم بالدعوة لنفسها . وعلى هذا المنوال ، وبدرجة اكبر ، كانت المدرسة « السينية » . كان مؤسسها أنتيثينس (حول ٤٤٥ - ٣٦٦ ق . م .) ، وهو شبه اثيني تراقي ، قد أقام في اثينا في جمنازيوم سينوسارغِس . وكان تلميذه ، ديوجينس السينوبي ، الذي يرجح أنه توفي في السنة ذاتها التي توفى فيها الأسكندر ، يرى ان الحرية الروحية ثمنها التخلي عن كل الممتلكات المادية ، على نحو ما ارتأى بوذا من قبل . وقد كان الفلاسفة السينائيون ، الذي جاءوا بعد الاسكندر ، يهيمون على وجوههم ، موجهين دعوتهم الى الجماهير . وقد كانوا ينشرون مذهبهم التقشفي بالعمل وبالقول .

وقد كان بين ما تيسر نقله من مكاسب الحضارة الهلينية للفترة التي تلت الاسكندر الكويني (الصيغة) العالمية للهجة الأتيكية من اللغة اليونانية . يبدو أن الكويني بدأت تتخذ شكلها الواقعي خلال نصف القرن الذي وجدت فيه الامبراطورية الأثينية (٤٥٤ - ٤٠٥ ق . م .) ، لكن اسهمها ارتفعت لما أقرّها الملك فيليب الثاني اللغة الرسمية للمملكة المقدونية ، مفضلا اياها على اللهجة اليونانية المقدونية المحلية . ومنذ ذلك الوقت قامت الكويني بخدمات جلى للعالم الهليني كلغة الدولة والأدب المنفعي والحياة اليومية . لقد كانت لغة حية وقد استمرت في التطور استجابة للمطالب المتغيرة في الحياة الهلينية . وفي الوقت ذاته انتشرت (اللغة) اليونانية الأتيكية في الصيغة « الجميلة » التي صنعها للتصدير الاديب ايسوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق . م .) .

كانت الكويني الاتيكية واسطة لنقل الأفكار والاحاسيس ؛ واتيكية ايسوقراط كانت مادة لغوية يستخدمها الفنان لابداع الزخارف الأدبية بحيث يخضع المحتوى الفكري لتنميق الكلام . كانت الكويني لغة العلم والبحث العلمي الهلينيين في الفترة التالية للاسكندر . ولم يتمركز هذا كله في اثينا ، بل في الاسكندرية (مصر) . وقد اكتشف العلماء هنا بضعة امور على غاية الأهمية . فاراتوستينس القيريني (٢٧٦ - ١٩٤ أو ٢٦٤ - ٢٠٢ ق . م .) ، الذي كان امين مكتبة المتحف في الاسكندرية ، قدر طول

محيط الأرض تقديراً يكاد يكون صحيحا عن طريق الملاحظة العبقرية والقياس ؛ وأرسطرخس الساموسي (برز حول سنة ٢٨٠ ق . م .) جعل الشمس ، بدل الأرض ، مركز الكون الشمسي . وعلى كل فقد أعاد هيبارخوس النيقي (حول ١٩٠ - ١١٢ ق . م .) الارض الى موقعها التقليدي الخاطىء ؛ وفي سيراقوس اعتذر ارخميدس عن اسلوبه الخشن في تطبيق النظرية العلمية على التكنولوجيا المدنية والعسكرية .

وقد كانت « الهلينية » ، التي كان حظها ان تملأ بلاد الأمبراطورية الفارسية المحطمة ، ايضا بحاجة الى وعاء اجتماعي يمكن نقله ، وقد وجد الاسكندر وخلفاؤه بغيتهم في المؤسسة الرئيسة التي اوجدتها المدنية الهلينية قبل ايام الاسكندر وهي المدينة ـ الدولة . ان قلة من المدن ـ الدول الأغريقية التي تعود الى ايام قبل الاسكندر ، استطاعت ان تحافظ على استقلالها وسيادتها . وتلك التي نجحت بشكل غريب هي رودس . في ٣٠٥ ـ ٣٠٤ ق . م . نجت رودس ، بمساعدة بطليموس الأول سوتر (المنقذ) ، في صد هجوم شنه عليها ديمتريوس بوليوكرتيس (الذي يحتل المدن) . وتوسع العالم الهليني شرقا اتاح لرودس ان تكون مركزا رئيسا لشبكة المواصلات البحرية . فقد سيطرت رودس على الطرق البحرية التي تصل البحر الأيجي بالاسكندرية ، عاصمة البطالمة ؛ وبسلوقية البيرية ، ميناء انطاكية (على العاصي) التي كانت العاصمة الغربية لامبراطورية السلوقيين . ومع ان فيليب والاسكندر وخلفاؤهما جردوا اكثر المدن ـ الدول الاغريقية القديمة من سيادتها ، فقد اسسوا ٣٢٩ مدينة جديدة بحسب احصاء جديد ؛ ولم يقتصر الامر عليهم ، فان البدو البارنيين الايرانيين ايضا ، وهم الذين احتلوا بارثيا وغيرها من اراضي الدولة السلوقية ، كانوا ، في العادة، ينظرون الى المدن الأغريقية نظرة احترام وتقدير . وقد كان تدمير فيليب لاولنثوس (٣٤٨ ق . م .) وتدمير الاسكندر لطيبة (٣٣٥ ق . م .) من الأعمال الوحشية القليلة . وقد اعاد كاسندر بناء طيبة (٣١٦ ق . م .) . وهو واحد من اكبر القتلة من الجيل الثاني من خلفاء الاسكندر . وقد مدّت مدن ـ دول اغريقية اخرى يد العون لتعمير طيبة . ولما دمرّ زلزال مدينة رودس (٢٢٧ ق . م .) ، ارسل الملوك والمدن ـ الدول في كل انحاء العالم الهليني هبات سخيّة لاسعافها .

ان المدينة التي لا سيادة لها كانت اداة طيعة لقبول توكيل سلطات ادارية ؛ واذا

كانت مدينة مؤسسة حديثا ، دون ان تقع نهب ذكريات مجد غابر من استقلال وسيادة ، بل انها تجابهها ، عند أبواب المدينة ، جماعات غير إغريقية من السكان الخاضعين للدولة ـ مثل هذه المدينة كان من المحتمل ان يكون ولاؤ ها لمؤسسها من البيت المالك مضمونا أو شبه مضمون . كانت اول منشأة ملكية هي فيليبي التي أسسها فيليب الثاني ، وكانت تقوم على حراسة مناجم الذهب التابعة له . وأشهر ما انشىء كانت الاسكندرية ، في مصر (وهي الأولى ، بين كثيرات غيرها ، اطلق عليها هذا الأسم) . وكان اكثر المؤسسين للمدن الاغريقية الجديدة دؤ وبا من خلفاء الاسكندر السلوقيين والحكام الأغارقة لحوض اكسوس ـ جاكسارتس (سيحون وجيحون) الذين انفصلوا عن السلوقيين والذين انتهى بهم الأمر الى احتلال شمال غرب الهند . وكل مدينة اغريقية ، القديم منها والحديث ، كان لها سوق (أغورا) ومسرح وعلى الأقل دار واحدة للالعاب الرياضية (جمنازيوم) . وقد كان المسرح والسوق مكانين للاجتماع لمآرب متنوعة . واما الجمنازيوم فهو ، بالنسبة الى الاغارقة في بلاد التوسع ، كالكنيس بالنسبة لليهود . ولما نزعت عن المدن صفتها العسكرية ، اصبح الجمنازيوم ناديا للأمور الفكرية وللالعاب الرياضية على السواء .

لم تكن المدن الوعاء الوحيد الذين احتوى « الهلينيّة » وبثها . فقد كان هناك مستوطنات لقدماء المحاربين المقدونيين واحفادهم ، وهي التي كان لها دساتير اوليّة ، والجنود والتجار والصناع من الاغارقة وغيرهم كانوا ، في فترة الانتشار ، قد جُمعوا وضموا في جماعات غير مرتبطة بالارض سميت « بوليتايمتا » .

بسبب انتشار هذه الأوعية المختلفة التي امكن نقلها ، أتيح للمدنية الهلينية ، لما حلت سنة **٢٢١** ق . م . ، ان تنتشر في كل البلاد التي كانت تابعة للامبراطورية الفارسية باستثناء مصر . ذلك بان البطالمة فضلوا ، على نحو ما فعل معاصروهم في تشين ، سبيل الادارة المباشرة ، فأنشأوا مدينة واحدة جديدة هي بطولمايس في منطقة طيبة ، اضافة الى المدينتين اللتين ورثوهما وهما الاسكندرية ونوكراتس . في سنة **٣٣٤** ق . م . كانت المستوطنات الاغريقية الوحيدة ، داخل حدود الامبراطورية الفارسية ، تكوّن خطا من المدن ـ الدول على الساحل الغربي لآسية الصغرى ، ورقعا على ساحلي اسية الصغرى الشمالي والجنوبي ، وفي برقة ونوكراتس وهناك بعض الجاليات المهجّرة من الأغارقة في الجزء القصي في المشال الشرقي . اما التوسع الذي تم في القرن التالي

فكان ضخما لكنه كان سطحيا ايضا . فالمدن المستعمرات الاغريقية الجديدة، مع انها كـانت كبيرة في عـددها ، فقـد كانت جـزرا اغريقيـة منتشرة في بحـر من سكان غـير اغريقيين . فارباض هذه المدن وريفها كان السكان فيها من غير الاغارقة ، وقد كان ثمة احياء غير اغريقية حتى داخل اسوار تلك المدن . وقد حققت اللغة (الكويني) الأرامية نجاحا اكبر من نجاح اللغة (الكويني) اليونانية في تفوقها على الكنعانية (العبرية) على انها اللغة اليومية . وقد اتيح للكويني اليونانية ان تحل محـل اللغة (الكـويني) الارامية موقتا كلغة الادارة في كل مكان . وفي شمال ايران استعملت الالفباء اليونانية في بعض النقوش باللغة الايرانية المحلية . وعـلى كل فقـد انتشرت الالفبـاء الارامية ، في نهايـة الأمر ، في كل الأراضي التي كانت تابعة للامبراطورية الفارسية ، والتي تقع الى الشرق من نهر الفرات .

٣١ - الدول المتحاربة في الصين ٥٠٦ - ٢٢١ ق . م .

بين سنتي ٧٧١ و٥٠٦ ق . م . كان وجه الصين السياسي قد تبدل بسبب حروب داخلية استمرت قرنين. لقد اشرنا من قبل الى انه قبل ان تدْهم المصيبة اسرة تشو في سنة ٧٧١ ق . م . كانت الصين تتألف من نحو ثلاثمئة « اقطاعة » صغيرة كانت تدين بالولاء لأسرة تشو. وفي سنة ٥٠٦ ق . م . كان هناك نطاق خارجي مكون من سبع دول كبرى تحيط بعدد من الدول الصغيرة ، كانت احداها مكونة من رقعة صغيرة من الارض تقع تحت سلطان اسرة تشو مباشرة حول مدينة لويانغ ، وهي المدينة التي اتخذتها اسرة تشو ملجأ لها لما هجرت من حوض الواي بعد سنة ٧٧١ ق . م . وكانت اسرة تشو قد حلت محل اسرة شانغ في القرن الحادي عشر على انها القوة الكبرى في المنطقة . وحري بالذكر ان اربعا من الدول الهامشية السبع وهي : يَن الواقعة عند مصب النهر الاصفر وفي وادي هو ، وتشو ووُو ويوه ، الواقعة في اودية هَواي وهان ويانكتسي على التوالي - هذه الدول الاربع كانت خارج البلاد التي خضعت لاسرة تشو كما ذكر . وثمة دولة كبيرة خامسة وهي تشن كانت (اي في سنة ٥٠٦ ق . م .) تحتل الاملاك الاصلية التي كانت لدولة تشو في وادي الواي . الا ان تشن في سنة ٥٠٦ ق . م . ، كانت ، مثل تشو قبل القرن الحادي عشر ق . م . ، دولة متأخرة حضاريا . ومن بين الدول الهامشية السبع الكبرى كانت دلوتا تشن وتشي داخلتين في النطاق الأصلي للمدنية الصينية الذي انتزعته تشو من شانغ .

كانت كل من الدول السبع الهامشية تتعرض لخطر قد يأتيها من أي منها ، وهذا ما حمل حكومة كل من هذه الدول على أن تكون فعالة قوية عسكريا ، ومن ثم اداريا واقتصاديا كذلك . ومفتاح الفعالية كان الحكم المطلق . فاذا كانت أي من الدول الكبرى تود ان تجتاز محنة المنافسة التي تتعرض لها من جاراتها ، يتحتم على صاحب السلطان فيها ان يتجنب الانحدار الى العجز الذي اصاب اسرة تشو الحاكمة. وحيثما

كان ذلك ممكنا كان على الحاكم ان يتمتع بسيطرة قوية على رجال البلاد وعلى مواردها . وكان هذا يقتضي تبديلا جذريا في التركيب التقليدي للمجتمع الصيني . ففي هذا المجتمع كان الحكام المحليون، حتى عندما كانوا يستقلون ، استقلالا واقعا ، عن سيادة اسرة تشو لم يكونوا ، في المناطق التي يحكمونها سوى الأوائل بين الأقران ، بالنسبة الى الارستقراطية الموروثة ، التي كان اعضاؤها يزاحمون البيت المحلي الحاكم على المناصب العامة وينافسونه على نتائج الأرض .

كانت هذه المشكلة الخاصة هي معضلة حكام اسرتي تشي وتشن ، حيث كانت البنية الارستقراطية التقليدية للمجتمع الصيني تحصنها الممارسة والعادة . وقد كانت هذه ايضا مشكلة للقوة القابعة في الجنوب ، تشو ، الا ان المشكلة الكبرى في الجنوب ، عند مختتم القرن السادس ق . م . ، كانت العلاقة بين القوى المحلية في ما بينها . ففي الجنوب كانت عملية التصيين تنتشر بسرعة في الاراضي التي كانت همجية من قبل. فتقبل نمط الحياة الصنية حمل معه ازدياداً في القوة العسكرية والسياسية ؛ ومن ثم فان كل دولة جنوبية عندما تنضم الى المجتمع الصيني كانت تتعرض للخطر من الخلف على يد دولة ، وتكون هذه ابعد من مركز العالم الصيني ، او تتصين وتتصين بدورها .

وفي سنة ٥٠٦ ق . م . تعرضت تشو - وهي دولة همجية سابقا كانت تقتعد اواسط حوض نهر يانكتسي ، والتي كانت ذات نشاط قيادي في النزاع السياسي الصيني منذ أن اخذت اسرة تشو بالاضمحلال - لهجوم قامت به وو واحتلتها . وهي كانت دولة همجية سابقا ، لكنها احدث عهدا وكانت قد قامت في الحوضين الادنيين لنهري يانكتسي وهواي . وقد هبت يووه لنصرة تشو ، ويووه كانت دولة حديثة لم تزل في طور التكون في المنطقة الواقعة الى الجنوب من تشو ووُو . وعندها فَرضت وُو سيطرتها على يوِوه ؛ لكن وُو تجاوزت امكاناتها اذ هاجمت تشي في سنوات ٤٧٩ - ٤٨٥ ق . م. كانت وُو ترمي الى الهيمنة على العالم الصيني باجمعه ، لكن قوتها لم تكن في مستوى طموحها ؛ فهجوم وُو على تشي باء بالفشل . وهذا التشتيت في طاقة وُو اتاح لتشو الفرصة لإعادة بناء نفسها في سنوات ٤٨٨ - ٤٨١ ق . م . ؛ وفي سنة ٤٧٣ ق . م . احتلت يوِوه وُو نفسها وضمتها الى املاكها .

لم تصد تشي هجوم وُو فحسب ، بل انها تغلبت على نزاع داخلي بين النبلاء والعرش . وقد كان العرش هو المنتصر في تشي . وفي الجهة الثانية شلّ العرش في تشن

في سنوات ٤٩٧ ـ ٤٩٠ ق . م . نتيجة حرب اهلية بين اضراب النبلاء المحليين . وفي حرب اهلية تالية ، في ٤٥٥ ـ ٤٥٣ ق . م . قضي نهائيا على واحد من البيوت الارستقراطية الاربعة المتنازعة ؛ وعندها اقتسمت البيوت الثلاثة الباقية دولة تشن في ما بينها واقعيا ؛ وقد اعترف بالدول الثلاث التي خلفت تشن ، وهي واي وهان وتشاو ، قانونيا في سنة ٤٥٣ ق . م . . منذ سنة ٤٥٣ ق . م . كانت كل من الدول التي خلفت تشن تحاول ان تقوم بدور الدولة الكبرى ولحسابها الخاص . الا انها جميعها كانت ، مثل وُو في سنوات ٤٨٩ ـ ٤٧٣ ق . م . ، تحاول عملا كانت قواتها دونه بكثير . وقد زاد في ضعف الدول التي خلفت تشن التداخل الجغرافي في تقسيم المملكة . فبعض اجزاء الارض التي ورثتها « واي وهان » كانت اراضي داخلية معزولة جغرافيا عن جسم الدولة التي ضمت اليها . وكان الذي افاد من تقسيم تشن ، في نهاية الامر ، الجارة الشرقية للدول التي خلفت تشن وهي دولة تشأن .

ومنذ سنة ٤٥٣ ق . م . كان هناك ثماني دول كبرى متنافسة . فكيف كان حاكم دولة كبرى يتصرف بحيث يجني اكبر فائدة من امكانات دولته العسكرية ؟ كانت احدى الوسائل لزيادة الفعالية العسكرية للدولة ان يستبدل اصحاب المناصب الموروثة برجال اثبتوا جدارتهم الشخصية ، حتى ولو لم يكونوا من البيت المالك او الارستقراطية . وكانت الخطوة الثانية ، وهي استبقت الاولى ، استبدال القطائع الموروثة بمحافظات (تشون) ، وهذه كانت بدورها مقسمة الى وحدات ادارية أصغر (هسين) . وكانت هذه المحافظات يديرها موظفو التاج الذي كانت مدة خدماتهم تنتهي بناء على رغبة صاحب العرش .

بعد تقسيم تشن قام حاكم احدى الدول التي خلفت تشن ، وهي دولة واي ، وكان بعيد الهمة طموحا ، (وهو الأمير وِن امير واي ٤٤٦ ـ ٣٩٧ ق . م .) بتجربة القصد منها التعويض عن رقعة دولته الصغيرة وقلة سكانها ونزرة مواردها ، بان وظف في الادارة رجالا قديرين من اصل اجتماعي وضيع . والزيادة في القدرة العسكرية لدولة واي اغرت الأمير وِن بالسعي للهيمنة ، وذلك في سنة ٤١٩ ق . م . ودولة واي ، مثل دولة وُو التي جربت ذلك من قبل في القرن نفسه ، فشلت في الوصول الى هذا الهدف . فأوقفت واي عند حدها جزئيا في سنوات ٤١٩ ـ ٣٧٠ ق . م . ، ثم نهائيا في سنوات ٣٥٤ ـ ٣٤٠ ق . م . وكان الرابح من فشل واي جارتها الغربية تشأن .

بعد وفاة ون ، امير واي ، سنة ٣٩٧ ق . م . استأجر ملك تشو احد موظفي الأمير المتوفى القديرين ليقوم في تشو بالعمل الذي تم في واي . وعلى كل فان هذا الاصلاح الجذري قلب رأسا على عقب بعد وفاة الملك الذي بدأه . واستعادت الارستقراطية سيطرتها على المناصب العامة في بلاد دولة تشو . ومع ذلك فان الرأي المقبول هو ان تشو كانت اول دولة استبدلت المحافظات والأقضية في البلاد التي ضمتها اليها . وقد ضمت تشو ، بين سنتي ٤٧٩ و٤٤٥ ق . م . ، ثلاثا من الدول الصغرى في مركز العالم الصيني .

وقد كانت ادق التنظيمات الادارية التي ادخلت في تلك المنطقة تلك التي تمت في دولة تشأن اثناء حكم الامير هين (٣٨٤ ـ ٣٦١ ق . م .) وابنه وخليفته الأمير هياو (٣٦١ ـ ٣٣٨ ق . م .) . وقد كان المنظم الفعال في تشأن شانغ يانغ وهو ضابط من بيت امارة في واحدة من الدول المركزية الصغرى ، وكان قد استخدم اولا في دولة واي ، خليفة تشن . وقد انتقل سنة ٣٥٦ الى خدمة الامير هياو ، وظل يعمل في تشأن حتى وفاة الامير ، سنة ـ ٣٣٨ ق . م . . في تشأن ازال شانغ يانغ بنية المجتمع القائمة على المنزلة الموروثة ؛ وفتح المجال امام القدرة العسكرية للتقدم . وفي سبيل تقوية القدرة العسكرية لدولة تشأن صرف عنايته الى الزراعة ؛ وفي سبيل تقوية الزراعة جعل الأرض ملكا خاصا بحيث اصبحت سلعة للبيع . وقد اتاحت تجديدات شانغ يانغ الفرصة للفلاحين لأن يصلوا الى اعلى المناصب في الدولة ، الا ان هذه التجديدات اخضعت الفلاحين للتجنيد الاجباري ولدفع الضرائب ؛ وعرّضتهم ، فيما اذا احاقت بهم ضائقة اقتصادية ، الى خطر بيع ارضهم . وبذلك اصبح امام فلاحي تشأن بدّيلان متطرفان : اما ان يثروا أو ان يفقروا .

كان حكم الامير هياو وعمل السيد شانغ يانغ في خدمة الامير هياو في تشأن معاصرين لحكم فيليب الثاني في مقدونيا (٣٥٩ ـ ٣٣٦ ق . م .) . كانت تشأن في الصين نظيرة مقدونيا في بلاد اليونان . وسياسة تقوية الدولة عن طريق اخضاع الفلاحين للجندية ، كانَ يتبعها في الوقت ذاته فيليب وشانغ يانغ . والصلة بين تشأن ومقدونيا وبين المجتمع الذي كانت كل منهما ترتبط به كانت متشابهة في الناحيتين الجغرافية والاجتماعية . كانت كلتا الدولتين تجاور منافسيها مجاورة تامة ، لكنهما محصورتين من الناحية الطبيعية بحلقة من الجبال التي تحجزهما . وكان الشعبان كلاهما

متأخرين اجتماعيا ، ومن ثم فقد كانا قابلين للتبدل ، لما قلبت الحياة فيهما رأسا على عقب ، في القرن الرابع ق . م . ، بسبب امر حتمي من الحاكم .

وقد عاش فيليب الثاني حتى رأى بام عينيه ثمرة اصلاحه ممثلا في توحيد بلاد اليونان عسكريا وسياسيا تحت هيمنته . وقد توفى الأمير هياو سنة ٣٣٨ ق . م . ، وهي السنة التي انتصر فيها فيليب . ولم تتمكن تشأن من توحيد العالم الصيني الا في العقد ٢٣٠ - ٢٢١ ق . م . لكن توحيد الصين على يد تشأن ، على عكس ما تم على يد فيليب ، كان نهائيا . فالعالم الهليني لم يتم توحيده في نهاية الأمر لا على يد مقدونيا ولا على يد الدول الاغريقية الوريثة لمقدونيا ومنافسيها ، بل تم ذلك على يد دولة غير اغريقية ، لكنها تهلينت وهي رومه . وكان على تشأن ان تتنافس مع دول صينية اخرى ، وبين هذه الدول اثبتت واي اولا ثم تشاو انها الأعند ؛ لكن ، في نهاية الأمر ، كانت تشأن هي التي وحدت الصين ، وقد كانت تشأن دولة صينية ، ولو انها لم تكن دولة على المستوى الاعلى بالنسبة للحضارة الصينية .

ان التغييرات الجذرية الادارية التي عرفها العالم الصيني في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، صاحبتها تغييرات اقتصادية واجتماعية ، كما رافقها تبديلات تكنولوجية ايضا ، عسكرية ومدنية على السواء . وبعض هذه التغييرات ، في المجالات الأخرى للحياة ، بدأها المحدثون الاداريون ؛ وكان غيرها نتائج جانبية للأعمال التي تمت على ايديهم ؛ وثمة غيرها التي تمت (في حدود ما نعرف) كانت معاصرة لها بالمصادفة . وكانت النتيجة التراكمية لهذه التغييرات المتعاصرة ذوبان البنية التقليدية للمجتمع الصيني . وكان هذا قد اصابه الوهن بسبب الدور الأول من الحروب الداخلية التي مرت بالبلاد خلال القرنين المنتهيين بسنة ٥٠٦ ق . م . وقد تم القضاء عليها بسبب الدور الثاني الذي انتهى سنة ٢٢١ ق . م .

ان التبدل الاقتصادي الرئيس قد اشرنا اليه من قبل لمناسبة الكلام عن التجديدات الادارية . فقد أصبحت ملكية الأرض قابلة للانتقال ، كما اصبحت الارض سلعة تسوق . ومع ان هذا كانت الغاية الهامة له زيادة الانتاج الزراعي ، فقد أدى الى اتساع الهوة بين الاغنياء والفقراء وخلق فئة من البروليتاريا التي لا تملك ارضا . والتبدل الاجتماعي الرئيس كان فتح مجال العمل في الناحيتين الادارية والعسكرية لاصحاب الكفايات ، دون الالتفاف الى الفروق الطبقية الموروثة . وقد نشأ عن ذلك

طبقة اخرى جديدة من المدرسين الذين كانوا على استعداد لتقديم التدريب المهني لأولئك الطامحين في الحصول على مناصب في خدمة الدولة . وقد اصبح كونفوشيوس مدرسا ناجحا بعد ما فشل في ان يكون اداريا . وهو أول ممثل في الصين ، وصلنا خبره ، لمهنة كان لها نظيرها في العالم الهليني في القرن السادس قبل الميلاد ، وهم السفسطائيون . وكان كونفوشيوس ايضا اول مؤسس لمدرسة فلسفية في الصين .

ان الحكام الاوتقراطيين الجدد لم يقوموا عمدا بتشجيع طبقة المدرسين ، الا انهم كانوا يتحملونهم وكانوا ، على العموم يعاملونهم باحترام . كان الحكام يميلون الى الازورار بالتجار ـ وهم طبقة جديدة اخرى ظهرت تلقائيا في العصر نفسه ـ لكن التجار تمكنوا من الاستمرار في عملهم ومن جمع الثروة على رغم استنكار الحكومة لوجودهم . ويبدو أن التجار وجدوا الفرصة السانحة عن طريق تعهدهم بتوفير الحاجات الاجتماعية . فقد كان ثمة حاجة للتجارة في مجتمع كان يتوسع جغرافيا الى مناطق تنتج اصنافا منوعة من المنتوجات الطبيعية والمصنوعات ، وكانت هذه كلها تتطلبها الدول المتخاصمة في ما بينها بازدياد ؛ ومع ان الحرب بين الدول كانت تجعل التجارة امرا شديد الخطورة ، فان الادارة المحلية الفعالة يسرت السبل الآمنة نسبيا للتجارة الداخلية ، وبخاصة في الدول الكبرى . فالتجارة والصناعة واخراج الفلاحين من اراضيهم التي كانت تخص الاجداد ، كل ذلك ادى الى قيام المدن .

كان حفر القني وسك النقود المعدنية بين التجديدات التكنولوجية المدنية . وقد ادخل الأثنان في القرن الخامس قبل الميلاد ، وكانا كلاهما من عمل الدولة . وقد كانت الدولة الرائدة في حفر القني دولة وُو ، التي كانت املاكها تخترقها المجاري الدنيا لنهري يانكتسي وهواي . كانت الغاية الآنية لحكومة وُو من حفر القني تيسير النقل العسكري ، لكن القني كان لها نتيجة جانبية وهي توسيع الزراعة وتكثيفها بسبب تجفيف الاراضي المستنقعات ذات الامكانات الانتاجية ـ وقد شهد القرن الرابع قبل الميلاد ادخال المحراث الذي يجره الثور الى العالم الصيني، واستبدال البرونز بالحديد كمادة تصنع منها الآلات الزراعية والادوات والسلاح . هذه التجديدات التكنولوجية التي تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد كانت تخدم ، بالتأكيد ، اغراض الحكومات الصينية يومها ، الا اننا لا نعرف الطرق التي سلكتها للوصول الى الصين من المناطق المتوسطة في اويكومين العالم القديم ، حيث كان الحديد والمحراث كلاهما قد شاع استعمالهما مدة

طويلة قبل ذلك .

التجديد التكنولوجي العسكري الرئيس كان اقتباس الاسلحة الخاصة بالفرسان في دولة تشاو سنة ٣٠٧ ق . م . . وقد كانت تشاو مجاورة للسهوب الأوراسية ، وقد اقتبس فرسانها اسلحة البدو ولباسهم ، كما فعل الفرسان الميديون في ايران قبل ذلك بثلاثة قرون . وعند مختتم القرن الرابع قبل الميلاد كانت حرب المركبات ، التي كانت من قبل السلاح الصيني الرئيس ، او لعلهاكانت السلاح الوحيد ، قد اقصيت جانبيا ، وقد فضل عليها ، قوى المشاة المتراصة ، التي كانت تجمع بواسطة التجنيد الاجباري . وقد يكون هذا التغيير قد بدأ في الدول الجنوبية حيث تعرقل المجاري المائية والمستنقعات استعمال الدولاب ، ولكن التغيير انتشر بسرعة ـ مثلا في دولة تشأن في الطرف المقابل من العالم الصيني .

والدور الثاني من الحروب التي انتهت بتوحيد الصين سياسيا ، بدأ سنة ٣٣٣ ق . م . . ففي تلك السنة قضت تشو على يووه وضمت اليها وُو ، التي كانت يووه قد استحوذت عليها سنة ٤٧٣ ق . م . وقد عقدت في السنة ذاتها ، ٣٣٣ ق . م . ، معاهدة دفاعية بين الدول الست التي كانت لا تزال قائمة ، ضد تشأن . والفضل يرجع الى اصلاحات شانغ يانغ في ان تشأن كانت قد قامت بدور هائل في حروب ٣٥٤ ـ ٣٤٠ ق . م . ، وهي الحروب التي اوقفت محاولة واي في الهيمنة نهائيا . وفي سنة ٣١٨ ق . م . تمكنت تشأن بشكل بارز من الانتصار على قوى الدول الست المشتركة ، مع ان هذه قد قويت بمرتزقة من البدو الاوراسيين . وفي سنة ٣١٦ ق . م . توسعت تشأن عبر خط المياه الفاصل بين واي ، احد روافد النهر الأصفر وحوض نهر يانكتسي ، وهو الآن ولاية سيتشوان ، ثم هاجمت تشو من الجهة الغربية . وفي سنة ٢٧٨ ق . م . احتلت تشأن عاصمة تشو ؛ وفي سنة ٢٧٢ ق . م . اتمت تشأن ضرب الطوق حول ما تبقى من تشو . وفي الوقت ذاته كانت تشأن تقوم بهجوم ضد الدول الشمالية . وبدا وكأن تشأن كانت على وشك توحيد العالم الصيني عن طريق الفتح ، لما كسرتها تشاو سنة ٢٧٠ ق . م . . وقد انتصرت تشاو على تشأن ثانية سنة ٢٥٨ ق . م . ثم في سنة ٢٤٧ ق . م . وكان على تشأن ان تقبل سلما موقتا. ان الحروب التي بين سنتي ٣٣٣ و٢٤٧ ق . م . كانت شرسة وقتالة ، لكنها لم تكن فاصلة .

وعلى كل ففي السنوات العشر بين ٢٣٠ و٢٢١ ق . م . هاجمت تشأن الدول

الست الباقية والمنافسة لها ، واحتلتها ، الواحدة بعد الأخرى . وفي هذه المرة لم تتجمع هذه الدول للدفاع عن نفسها ؛ وتشاو وحدها هي التي قاومت بعناد .

لقد فرضت الوحدة السياسية على الصين سنة ٢٢١ ق . م . بالقوة العسكرية ، لكن ثبت انها كانت دائمة . ان العمل الذي قام به الموحد الأول كثيرا ما تعرض للخرق خلال ما يقرب من اثنين وعشرين قرنا . فقد خرق اول مرة في السنة التي تلت وفاة الموحد الأول ، الا ان النكسات الموقتة التي اصابت الصين وادت الى تصدع وحدتها تم التغلب عليها دوما . ان التوحيد السياسي للصين بالقوة ثبت انه عملي لأن توحيدها الحضاري الاختياري كان قد اصبح حقيقة واقعة قبل ان تبدأ دولة تشأن بعملها العسكري . والى هذا يرجع السبب في ان انجاز تشأن ، اي توحيدها للصين ، استمر بعد الزوال السريع لتشأن نفسها .

ففي واقع الأمر كانت المدنية الصينية قد انتشرت ، قبل سنة ٢٢١ ق . م . ، الى ما وراء حدود المنطقة التي وحدها شيه هوانغ - تي ، صاحب تشأن ، في سنة ٢٢١ ق . م . وما بعدها . فعلى سبيل المثال يبدو ان الزراعة والتعدين كانتا قد ادخلتا الى كوريا في القرن الرابع ق . م . ، كما ادخلت الى اليابان بعد ذلك بقرن او نحو ذلك - ولعل بعض ذلك قد تم عن طريق كوريا ، كما تم بعضه الآخر مباشرة من حوض نهر يانكتسي الذي كان قد تصين قبل ذلك . وكان سكان كوريا واليابان قد ظلوا ، قبل ذلك ، يعيشون في دور جمع الغذاء وفي مرحلة العصر الحجري المتوسط حضاريا ، مع ان فن الفخار كان قد عرف في كل من كوريا واليابان قبل وصول الزراعة اليهما . ليس ثمة قرب بين لغتي كوريا واليابان من جهة وبين اسرة اللغات التي تنتمي اليها لغتا الصين - تاي والتبت - برما ، الا ان تقبل كوريا واليابان للمدنية الصينية ، ادخلهما في نطاق العالم المتصيّن في شرق آسية .

٣٢ ـ الفلسفات المتنافسة في الصين
٥٠٦ ـ ٢٢١ ق . م .

كان عصر الدول المتحاربة في الصين هو عصر « المئة مدرسة » الفلسفية ايضا . كانت الفلسفات الصينية المتنافسة تخيرات في الاستجابة العاطفية والعقلية للتجارب العامة المعاصرة التي كانت مؤلمة ومقلقة . وكانت البواعث الاجتماعية للتأملات والحكم الفلسفية هي الخصومات السياسية والعسكرية القاسية والهمجية المتزايدة التي كانت تقوم بين الدول الكبرى وتستمر بعد القتال ؛ ومنها الجهد الذي كان الحكام المحليون يبذلونه في سبيل تقوية نفوذهم عن طريق التخلص من الضوابط التقليدية وبخاصة استعاضتهم بالمقدرة عن المحتد على انها المقياس الذي يختار على اساسه الموظفون للاشراف على الشؤون العامة ؛ ومنها ان ما كان من قبل امرا خاصا بالاقلية الارستقراطية ، اي اتاحة الفرصة وانعدام الاستقرار ، وسع نطاق تطبيقه بحيث شمل الطبقات كلها .

كانت الفلسفة الصينية ، على اختلاف مدارسها تختلف عن الفلسفة الهلينية بانها كانت ، منذ البدء ، تعني اصلا بالحياة العملية ، وبدرجة ثانوية فقط ، كانت تهتم بالعلم والميتافيزيقيات . لقد مر على الفلسفة الهلينية اكثر من قرن وهي تجادل المسائل العلمية والميتافيزيقية قبل ان يوجهها سقراط نهائيا نحو درس الطبيعة البشرية . وحتى سقراط نفسه وخلفاؤه في اخوات الفلاسفة الهلينيين كانوا يعنون بدرس العقل البشري ـ في نظرية المعرفة ، على سبيل المثال ـ اضافة الى اهتمامهم بالاخلاق . وكونفوشيوس ، الذي كان النظير الصيني لسقراط ، لم يوجه الفلسفة الصينية ؛ لقد دشنها . وقد كان كونفوشيوس يهتم بالانسان على انه مسهم في المجتمع ، لا على انه عقل أو روح .

والتأمل في الطبيعة البشرية والحياة البشرية يثير ، بالطبع اسئلة ميتافيزيقية . ففي الهند كان تلاميذ البوذا يقعون في تجربة التهرب من التدريب الروحي العنيف الذي فرضه البوذا عليهم ، وذلك بالغوص في تأملات ميتافيزيقية ، كان هو يستنكرها . ومع ذلك فان البوذا نفسه كانت له اراء ميتافيزيقية تثير الجدل . وقد كانت العقول الصينية

اقل ميلا من العقول الهندية الى التأملات ؛ ومع ذلك فان مدرسة تاوست الفلسفية الصينية كانت تنخرط في الميتافيزيقيات . والنظريتان الصينيتان عن التبادل المنتظم بين حال ـ الينْ السكونية وحركة ـ اليانغ الديناميكية ، والعناصر الخمسة الداخلة في تركيب الكون الطبيعي كانتا تأملات ميتافيزيقية وعملية . وعلى كل حال ، فحتى الميتافيزيقيات التاوستية كانت عنصرا مساعدا لردة الفعل عندهم ضد الاحوال الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في الصين في زمنهم .

كانت تأملات اكثر المدارس الفلسفية الصينية تصوب على المستوى الاجتماعي والسياسي للقضايا الانسانية ؛ وكل المدارس اتفقت ، باطنا ولو ان ذلك لم يكن دوما ظاهرا ، على ان شرف المولد (المحتد) لا يمكن ان يستمر ، ولا يجوز ايضا ان يستمر ، كطريق للحصول على المناصب العامة . والفرق بين اتباع كونفوشيوس والمتمسكين بالقانون ، كان يدور حول سؤال : ماذا يجب ان تكون المواصفة البديلة لتولي المنصب . ولم يشترك لا الموهيون ولا التاوستيون في هذه الجدلية ، لانهم كانوا يثيرون الشكوك حول قيمة المؤسستين الاجتماعيتين الرئيسيتين القائمتين يومها ، اي الدول والأسر ، كما انهم تحدوا شرعية الحق الذي كان يطالب به بالنيابة عن السلطة الحكومية والابوية .

ان المدرسة القانونية في الفلسفة الصينية كانت ترى ان نوع الكفاءة التي يجب ان تكون الجواز الى المنصب الحكومي ، عوضا عن شرف المحتد ، هي المقدرة الادارية والعسكرية التي يمكن ان تخذم غاية حكام الدول المتحاربة ـ وكان الهدف الذي يرمي اليه كل من هؤلاء الحكام هو زيادة سلطته الى اقصى حد . فبالنسبة الى القانونيين كان « القانون » هو المعادل لأمر الحاكم ؛ وكانوا يرون ان للحاكم ما يبرر تصرفه في فرض اوامره بالقوة على رعاياه وعلى الذين يساوونه الى اقصى حد تجيزه له سلطته . وليس لضحاياه ، على ما كان يراه القانونيون ، اي حق مشروع في التذمر ؛ ذلك بانهم كانوا (اي القانونيون) يرون ان الطبيعة البشرية هي ذاتيا سيئة ، ومن ثم فان الحكم الذي يستطيع ان يفرض سلطانه لا بد ان يكون تحسينا لحالة الطبيعة . فمن المحتم ان كانت « القانونية » هي الفلسفة التي وضعها حكومات الدول المتحاربة جمعاء موضع التنفيد واقعيا ، على درجات متفاوتة من الانسجام والقسوة .

وطوال الوقت الذي كان فيه العالم الصيني مستمرا في الانقسام السياسي ، كان القانونيون يكادون يحتكرون مجال الوصول الى النفوذ السياسي . والفلاسفة القانونيون

الذين كانوا يتمتعون بالقدرة العملية ، كانوا يستخدمون بسرور في بلاطات الحكام كي يعيدوا تنظيم ادارة الدول ، ثم كي يسيروها . فقد وضعت دولة تشأن اثنين من مشاهير القانونيين على رأس ادارتها في الازمة ، الامر الذي اصبح منعطفاً في تاريخ تشأن وتاريخ الصين بأكمله . فالسيد شانغ يانغ اعاد كل التراتيب الادارية في تشأن في السنوات ٣٥٦ - ٣٣٨ ق . م . ثم دون في كتاب النظرية التي طبقها فعلا ؛ ولي سي (٢٨٠ - ٢٠٨ ق . م .) كان المستشار الخاص للحاكم الذي هو الملك تشنغ (ملك تشأن من ٢٤٧ الى ٢٢١) والذي اصبح في ما بعد اول امبراطور (شيه هوانغ - تي) للصين المتحدة من ٢٢١ الى حين وفاته سنة ٢١٠ ق . م . . وقد وضع لي سي حدا لاحتكار المدرسة القانونية للسلطة ، وذلك لأنه مكّن سيده ، الملك تشنغ من انهاء الانقسام السياسي ، وهو الوضع الذي يعود اليه نجاح المدرسة القانونية .

وقد اثارت نظرية المدرسة القانونية واعمالها نظريات مضادة . فالمفكرون الذين كانوا يتفقون مع القانونيين بان المؤهلات للحصول على منصب حكومي لم يعد يصلح ان يكون اساسها شرف المحتد ، بل ان ذلك لا يجوز ان يستمر ، لم يوافقوا القانونيين بان البديل الصحيح لذلك هو خدمة الحاكم في رغبته في السيطرة . فقد بحثوا عن طريقة (تاو) يمكن ان تكون اولى خلقيا وان تكون اسسها الميتافيزيقية اقوى من الخضوع لأوامر حاكم مستبد معني بمصلحته فقط .

ليس من الممكن الاهتداء الى طريق والسير فيه ان لم يكن له وجود سابق . لقد وجد كونفوشيوس طريقا سابقا في « درب السماء » (تئين) ، وهو حد يبدو انه كان يعني اصلا الها قويا شبه انسان ، الا انه كان ، في ايام كونفوشيوس ، قد تجرد من شخصه . فكما كان كونفوشيوس يرى ذلك ، « فدرب السماء » كان حالاً في الصورة الأولى ، اي بدائيا ، ومن ثم فانه لا بد ان يكون مطابقا ، بمعنى ما ، للطريقة الصينية في الحياة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتحسس سبيلها في جيل كونفوشيوس . وقد كان ثمة ناحية من سياسة كونفوشيوس لوقف انحلال المجتمع الصيني تقضي باحياء الطقس التقليدي (لي) الذي كان حارسا للاحتشام (إ) . ولكن ما هو المقياس الذي يمكن ان يقاس به الحكام ووزراؤ هم ؟ وكما كان كونفوشيوس يرى الأمر ، فان الاحتشام الحقيقي لم يكن في السير في شؤون الدولة على قواعد غير خلقية ؛ ان ذلك يتم بالافادة من « الانسانية » (جِن) . فالحاكم ووزراؤه ورعاياه يتم لهم السير على « درب السماء »

سيرا صحيحا ، ما دام واحدهم يتصرف تجاه الآخر باللطف والبر اللذين كان ينتظر من اعضاء الاسرة الواحدة ان يتصرفوا بهما في علاقتهم الواحد بالآخر، بحسب التقاليد .

لقد اشرنا في الفصل الخامس والعشرين الى ان كونفوشيوس اعاد تفسير حد تشون تسو، الذي كان يعني النبيل - اي ابن السيد الكبير ، بحيث اصبح يعني الرجل النبيل ، بالمعنى الخلقي . وقد استبدلت الدلالة الأصلية بالجديدة تدريجاً على أيدي تلاميذ كونفوشيوس . وقد شدّد منشيوس (٣٧١ - ٢٨٩ ق . م .) على فضيلة الانسانية على ما علمها كونفوشيوس . وهسون - تسو (لعله كان نحو ٣١٥ - ٢٣٦ ق . م .) شدد على اهتمام كونفوشيوس بموجب الحفاظ على الطقس التقليدي . وكان هسون تسو يعيش في اشد ادوار النزاع بين الدول المتحاربة ايلاما ، ولذلك مال الى نظرة القانونيين بان الطبيعة البشرية شريرة ، ومن ثم فانه ليس في مكنتها ان تستغني عن بعض من الضابط الخارجي ، نوعا ودرجة . على ان هسون - تسو اظهر انه كان اصيلا في تبعيته لكونفوشيوس في استعماله لكلمة تشون تسو الهامة . ففي كتاباته كانت هذه الكلمة ترد بالمعنى الخلقي الجديد ، الا في ما ندر حيث وردت بمعنى النسب .

ان المدرسة الفلسفية الصينية المسماة التاوستية على خير ما يقال ، طورت فكرة « الدرب » تطويرا ميتافيزيقيا افضل من الفكرة التي طرحها كونفوشيوس . وتلك الفكرة (التاوستية) موضحة في كتابين مشهورين حقا: تاوته تشنغ المعزو الى لاو - تسو والكتاب المعروف باسم مؤلفه تشوانغ - تسو ، الذي عاش نحو ٣٦٥ - ٢٩٠ ق . م . ، ومن ثم فقد كان معاصرا لمنشيوس وشانغ يانغ . فبالنسبة الى التاوستيين فان « الدرب » هو طريق الحقيقة المطلقة في الكون العجيب وخلفه وبعده. وطريق الحقيقة لا جهد فيه ولا مقاومة له وهو نافع . وهو، في هذه الصفات الثلاث ، النقيض لدرب الانسان، الذي ينغّص فيه الانسان نفسه بسبب فعاليته المحمومة التي تنتهي بالعنف الذي تزيده حدة العبقرية العقلية . وقد كانت التاوستية اقدم فلسفة ، في أي مكان في الأويكومين ، التي توصلت الى القول بان الانسان ، عندما يتوصل الى الانجازات المدنية ، قد يؤذي وضعه في الكون، وذلك اذ يخرج نفسه عن الاتساق مع روح الحقيقة المطلقة التي يعيش الانسان بموجبها ويتحرك ويحقق كيانه .

كان التاوستيون ينتقصون التقدم في التكنولوجيا وفي التقنية الاجتماعية للادارة المطلقة التي عرفتها الصين في القرن الرابع ق. م. (وهو القرن الذي اصبح فيه لكتابي

تاوته تشنغ وتشوانغ ـ تسو صيغة شبيهة بصيغتهـا الحاليـة) . وكانت النتيجـة العملية للميتافيزيقية التاوستية سياسة الباب المفتوح . فقد صرف التاوستيون النظر عن مثـالية الاجتماعية الخلقيـة ، وهي التي وصفها اتبـاع كونفـوشيوس كعـلاج لامراض المـدنية الصينية ، على انها سطحية . وكان العلاج الذي وصفه التاوستيون لدمل الجـراح التي خلفها عصر الدول المتحاربة ، هو التنصل من المدنية والعودة الى اسلوب الحياة البشرية التي اتبعته جماعة العصر الحجري الحديث ، التي كانت مكتفية بذاتها . وقد نقلنا ، في الفصل الثاني ، قطعا من كتاب تاوته تشنغ ، وفيه تتضح روح العصر التاوستية . وهذه الفلسفة الصينية ، التي تعود الى القرن الرابع ق . م . ، لا تتناسب مع زمانها ومكانها فحسب ، بل لكل الازمنة والامكنة وبخاصة الى الوضع العالمي للبشرية في العقد الثامن الحالي .

لم يكن للتاوستية اي اثر عملي معاصر في صين القرن الرابع ق . م . ، وقد وجه اليها النقد من المواقف المتعددة للفلسفات المنافسة لها من عصـر الدول المتحـاربة عـلى أساس انها تنقصها روح المسؤولية اجتماعيا ؛ ومع ذلك ، وبسبب انه كانت لها رؤ يا ، كان لها (للتاوستية) مستقبل في الصين . فقد كان لها مكان ، كما كانت لهـا حاجـة ، كمقابل للاتجاه العملي الغالب في العقل الصيني ، اذ ان الفلسفات التي كانت تعبر عن هذا الموقف الصيني الشائع ترك بعضا من العقول الصينية غير راضية روحيا .

وعلى كل لم يكن ثمة مكان دائم للفلسفة ذات الرؤ يا التي جاء بها مو ـ تسو (نحو ٤٧٩ ـ ٣٨٨ ق . م .) . كـان مو ـ تسـو يرى ان محبـة الآخرين لا يجـوز ان تكـون تدرجية ، بل يجب ان تمنح للجميع مساواة . وقد رد منشيوس بان المحبة العامة ليست عملية وبان الحـاح مو ـ تسـو على انـه لا يجوز ان ينقص الامـر عن ذلك معنـاه رفض الفضـائل الاجتمـاعية العمليـة المتمثلة باحتـرام الوالـدين والولاء السيـاسي . ولو ان منشيوس كان عارفا بالبوذية لكان اشار ، في هذه المناسبة ، الى ان بوذا تخلى عن زوجه وابنه وابيه ، الذي كان وريثا لعرشه ، ولكان (منشيوس) قارن هـذا الانتهاك لحـرمة الموجبات الاجتماعية المعترف بها ، بالحنان العميق الـذي كـان عنـده (بوذا) لجميـع الاحياء الحساسة .

وفي الواقع فان مو ـ تسو اساء الى مبادىء كونفوشيوس في جماعة تاوست اذ رفض السلطة ، واسـاء الى جماعـة القانـونيين اذ رفض التقليد . كـان مـو ـ تسـو يختلف عن

القانونيين بانه كان يرغب في استبدال التقليد بالبرهان ، لا بالقسر ؛ وكان يختلف عن التاوستيين في شعوره بالاهتمام والمسؤولية نحو جماعته . وقد كان مو ـ تسو ، في هاتين النقطتين ، اقرب الى كونفوشيوس فكريا من اتباع المدرستين الاخريين اللتين لم تكونا كونفوشيستين ، الا انه لم يكن كونفوشيا بما فيه الكفاية .

ان ظهور هذه المدارس المتباينة في الفلسفة الصينية ، وجديتها واحدتها مع الأخرى ، توضح مدى الارهاق العاطفي والباعث الفكري لعصر الدول المتحاربة .

٣٣ ـ المدنية الهندية نحو ٦٠٠ ـ ٢٠٠ ق . م .

ان معرفتنا عن الشؤون المدنية في الهند للقرون الاربعة المنتهية نحو سنة ٢٠٠ ق . م . اقل ضآلة عن معرفتنا للقرون الأربعة التي سبقت ذلك مباشرة ؛ ومع ذلك فان الاحداث الكبرى في تاريخ الهند التي قامت بين ٦٠٠ و٢٠٠ ق . م . ، كتلك التي قامت بين ١٠٠٠ و ٦٠٠ ق . م . ، كانت على المستوى الديني ، وبما ان معرفتنا عن الشؤون الهندية المدنية للفترة بين حول سنتي ٦٠٠ و٢٠٠ ق . م . مستقاة من المصادر الهندية ، فهي تابعة لاخبار الاحداث الدينية .

كانت الحادثة البارزة على المستوى الديني ، في الفترة الواقعة بين نحو سني ١٠٠٠ و٦٠٠ ق . م . ، هي انتقال الاهتمام من الطقوس الى التأمل . وقد تم هذا بسبب مبادرة قام بها اعضاء طبقة البراهمة . وزعامة البراهمة في الأضفاء على الهندوية هذا المنعطف الروحي امر غريب في بابه، إذا تذكرنا ان البراهمة كانوا يحتركون القدرة على القيام بالطقوس بفاعلية ، وان هذا الاحتكار كان وسيلة لكسب العيش . ويزيد في اهمية الأمر ايضا انه في العصر الذي كانت فيه الديانة الهندية تتجه اتجاها روحيا ، كان البراهمة يؤكدون بنجاح دعواهم ضد الكشاترية ، بانهم هم اعلى طبقة ، على رغم ان القوة العسكرية والسياسية كانت بايدي الكشاترية ، واستمرت على ذلك .

وفي الفترة بين نحو سني ٦٠٠ و٢٠٠ ق . م . كانت الحادثة الدينية البارزة هي تأسيس رهبنتين هما البوذيــة على يد البوذا سدهارتا غاوتاما والجانيــة على يد الماهافيرا فاردهامانا (عاش نحو ٥٠٠ ق . م .) . وقد كان كل من هذين المجددين كشاتريا ، وارستقراطياً. كان البوذا ابن ملك ووريثا لمملكة صغيرة اسمها كابلاڤاستو ، وهي دولة ـ مدينة كانت تقع داخل حدود مملكة نيبال الحالية ؛ وكان الماهافيرا (أوجينا ومعناها المنصور) ابنا لزعيم قبيلة كشاترية في مدينة فايسالي ، عاصمة مملكة فيدها في بيهار الشمالية . لم ينازع اي منهما البراهمة احتكارهم لأتمام الطقوس والآلهة ونظام

الطبقات نفسه . وقد جندوا الرهبان والراهبات والاتباع العلمانيين من كل الطبقات دون تمييز ، ولم يمنح البراهمة اي دور خاص في اسلوب الحياة البوذية والجانية او دستور الجماعات البوذية والجانية .

لقد كان البوذا والماهافيرا يضعان امام الناس سبيلا للتخلص من « دورة الولادة الثانية المحزنة » التي كانت ، في القرن السادس قبل الميلاد ، تعتبر انها لا نهاية لها ، على ما كان يقول به اكثر المدارس الفكرية في الهند، والفيثاغوريون والاورفيون في العالم الهليني. وقد يكون مصدر هذه العقيدة الأصلي ديانة الشعوب البدوية الرعوية الاوراسية التي تفجرت من السهوب وسارت في جهات مختلفة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وفي خروجهم غربا في ذلك العصر كان البدو قد بلغوا مكانا قريبا من بلاد اليونان هو الخليج الغربي الكبير للسهوب وحوض نهر هبروس (مريكا) الواقع الى الجنوب من مجرى الدانوب الأدنى . وفي الهند كانوا قد احتلوا حوض نهر السند .

هذه الغزوة الثانية لحوض نهر السند التي قامت بها شعوب مهاجرة ناطقة باللغة الهندية ـ الأوروبية هي الحادثة السياسية التي تفصل بين فترة التاريخ الهندي الأول (نحو ١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق. م.) وفترة التاريخ الهندي الثاني (نحو ٦٠٠ ـ ٢٠٠ ق. م.). والقسم من الهند الذي استقر فيه القادمون الجدد كان القسم الأول الذي احتله المهاجمون المبكرون من الهند الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية . وعلى كل فانه لم يتجاوز الهامش الشمالي الغربي من شبه القارة . وقد انتشرت المدنية السندية ، كما انتشرت خليفتها المدنية الهندوية ، التي انشأها المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية ، كل منهما بدورها ، جنوبا في شرق الى حوض نهري جمنا ـ الكنج . ويبدو ان حوض نهر السند كان لا يزال موطن المتكلمين بالسنسكريتية في الزمن الذي كانت تؤلف فيه الفيدا ؛ وان البدو الذين استقروا في القرن السابع قبل الميلاد في حوض نهر السند انتهى بهم الأمر الى انهم اتخذوا لغة سكان هذه المنطقة المتكلمين بالسنسكريتية ، كما اتخذوا اساليب عيشهم . فنحن نجد ان البدو السابقين الذين استقروا هنا يتكلمون لهجات محلية منتزعة من السنسكريتية ، ويتقبلون الديانة الهندوية والبنية الهندوية الاجتماعية المرتبطة بها .

وعلى كل حال ، اذ نصل الى عصر البوذا والماهافيرا نجد ان مركز ثقل المدنية الهندوية قد انتقل شرقا في جنوب من البنجاب الى منطقة تقع حول التقاء انهار الكنج

والفوغرا والصون ، كما نجد ان غالبية السكان الهندوية المقيمة في هذه المنطقة والمحافظة دينيا اصبحت الآن تنظر الى موطن اجدادها في حوض نهر السند نظرة استنكار واحتقار على انها بلاد شبه همجية . ويبدو ان هذا الشعور قد تقوى ، في ذلك العصر ، اذ ان استقرار البدو الأوراسيين في حوض نهر السند تبعه ضم ذلك الحوض الى الامبراطورية الفارسية الأولى . ومن المحتمل ان قورش الثاني ضم حوض نهر كابول ، وهو رافد من روافد نهر السند ، في تاريخ تال لاحتلاله للامبراطورية البابلية سنة ٥٣٩ ق . م . ؛ وان داريوس الأول ضم ما تبقى من حوض السند ، حتى دلتا النهر ، في تاريخ تال لقضائه على الثورة الكبرى سنة ٥٢٢ ق . م . التي قامت في قلب الامبراطورية .

ان الاحوال السياسية في المركز الجديد لثقل العالم الهندوي في حوض الكنج ، في ايام البوذا والماهافيرا ، كانت تشبه الاحوال السياسية في الصين في ايام معاصرهما كونفوشيوس . فحوض الكنج كان ، على ما كانت عليه الصين ، موزعا سياسيا بين عدد من الدول المحلية ذات السيادة التي كانت تختلف مساحة وقوة . وقد كانت دولة ـ مدينة البوذا صغيرة، وهي كابيلافاستو؛ اما دولة الماهافيرا، (وهي الجزء الذي يقع شمالي الكنج من بيهار الحالية) فقد كانت اكبر ؛ وكانت اكبرها كوسالا ، وهي جارة كابيلافاستو الجنوبية (في اوتاربرادش الحالية) ؛ اما الأقوى امكانات فهي ماغادا (وهي الجزء من بيهار الواقع جنوبي الكنج) .

وقد كانت المنافسة بين الدول الواقعة في المجموعة الهندية في اشتداد في عصر البوذا والماهافيرا . وعلى نحو ما جرى بين الدول المتحاربة في الصين ، فإن النزاع الحربي في حوض الكنج انتهى بتوحيد سياسي عن طريق زوال المتنافسين باجمعهم باستثناء الدولة المنتصرة . كانت كابيلافاستو ضحية مبكرة . وقد عاش البوذا ليشهد احتلالها على يد كوسالا ، وذبح افراد قبيلته «ساكيا» ومواطنيه . وكما حدث في الصين ، فإن المنتصر كان غريباً . ففي الهند لم تنتصر دولة كوسالا التي كانت نسبياً اكبر واكثر سكاناً ، إن التي انتصرت هي ماغادا .

وفي الهند ، ايضاً ، لم يؤد الصراع على البقاء بين حكومات الدول الى تمزيق الوحدة الاجتماعية والحضارية للمجتمع . كانت غايا ، حيث تلقى البوذا تنوره ، في ماغادا ، وحديقة الايل المقدسة في سارنات ، التي كانت الموضع الرئيس للوعظ والأرشاد الذي قام به البوذا . وقد كانت الحديقة مصاقبة للمدينة المقدسة

بنـارس التي كانت قـد اصبحت محجة . ولعـل الحديقـة استدعت انتبـاه البوذا بسبب احتمال العثور في تلك الجهة على مستمعين يأتون من كل انحاء العالم الهندي . ولم تكن لا غايا ولا سارنات في ولاية البوذا الخاصة به ، ومع ان البوذا صرف الكثير من وقته في الحديقة العامة في سارنات التي كان يتقاطر الزوار اليها كثيراً ، فقد كان هـو وتلاميـذه متنقلين ، باستثناء فصل الأمطار الموسمية ، إذ كان التنقل صعباً . إن الحدود السياسية كانت حواجز للجيوش وكانت عثرات في طريق الجواسيس، لكنهـا لم تحل دون تنقـل الوعاظ الدينيين والنساك. إن اصل البوذا الملكي كان ييسر له الوصول الى حاشية الملوك المحليين . لكن ليس ما يدل على إنه كان يفيـد من هذا الامتيـاز بشكل خـاص . إن الوعاظ والنساك الهنود كانوا يجتازون الحدود بين الدول المتحاربة بحرية، على نحو مـا كان يفعل معاصروهم من السوفسطائيين والفلاسفة الصينيين .

٣٤- التزاحم على السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط

كان القرنان الثامن والسابع ق.م فترة ميمونة بالنسبة لوجود الاغارقة في حوض البحر المتوسط الغربي . فقد اسسوا لانفسهم مواطن على الساحل الايطالي من تراس (تارنتوم) ، على الجهة الجنوبية الغربية « للعقب » (الإيطالي) دوراناً « باصابع القدم» واتجهوا شمالاً على الساحل الغربي الى جزيرة بثيقوزا (إسْقيا) وقومي (وهما اقدم المستعمرات الاغريقية وابعدها ، باستثناء مسيليا ، التي انشئت إلى الغرب من مضيق أترانتو) . وكان الاغارقة قد احتلوا أيضاً السواحل الشرقية والجنوبية لجزيرة صقلية . وهكذا فقد اتيح لهم ان يضمنوا السيطرة على المرور عبر مضيق مسينا ، من الحوض الشرقي للمتوسط إلى البحر التيراني . ونحو سنة ٦٠٠ق.م كانوا قد اقاموا مستعمرة مسيِّليا (مرسيليا) ، وهي نقطة انطلاق لطريق يجاري نهر الرون شمالا إلى أوروبة القارّية ومن ثم ، عبر القنال (الانكليزي) إلى مناجم القصدير في كورنوال . وعلى كل فإن أكراغاس (أغريغنتوم) التي اقيمت على ساحل صقلية الجنوبي سنة ٥٨٠ق.م كانت آخر مستوطنة هامة أقيمت في الغرب . وحتى سنة ٥٠٠ق.م كان الأغارقة قد فشلوا في محاولتهم انتزاع الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية من ايدي القرطاجيين وحلفائهم المحليين الايليمي . وكان القرطاجيون قد سيطروا على مضيق جبل طارق واقفلوه في وجه السفن الأغريقية ، كما كان القرطاجيون وبقية الفينيقيين في المستعمرات قد تعاونوا مع الاترسكيين بنجاح في الحيلولة دون الاغارقة وربط مستعمراتهم الصقلية والايطالية بمسيليا ، وذلك باستيلائهم (القرطاجيين وحلفائهم) على سردينيا وكورسيكا .

وفي القرن السابع ق.م كان الاغارقة الاسيويون الذين اسهموا في التوسع الاغريقي في الحوض الغربي للمتوسط قد اصابتهم نكسة مثل النكسة التي احاقت بمنافسي الاغارقة اي الفينيقيين في سورية منذ سنة ٧٤٥ق.م .فقد اعتدى على الفينيقيين

في لبنـان أولاً الامبراطـورية الاشـورية ثم خلفـاؤ ها البـابليون ، وهمـا دولتان بـريتان قويتان . ومنذ نحو سنـة ٦٦٠ق.م كان الاغـارقة الاسيـويون هـدف هجوم واحتـلال تدريجي أولاً على أيدي الليديين ثم على أيدي الفرس الـذين كانـوا قد اجتـاحوا بـلاد الليديين . ومجيء الفرس الذي زاد في بلية الاغارقة الاسيويـين ، اراح الفينيقيين منـذ سنة ٥٣٩ ق. م.على ان الاغارقة كـانوا ، في ذلـك الوقت ، قـد ربحوا جـولتين ضـد خصومهم : التفوق العددي وسيطرتهم الجغـرافية عـلى الخطوط الـداخلية . فقـد كان القرطاجيون مفصولين جغرافياً عن حلفائهم الاترسكيين وذلـك باستيـلاء اليونـان على سواحل صقلية وجنوب ايطالية . ومع ذلك فـإن الأغارقـة الغربيـين كانـوا قد وجـدوا انفسهم في موقف الدفاع عن كيانهم نحو سنة ٥٠٠ق.م وقد كان احد اسباب ضعفهم الاحتراب الانتحاري في ما بينهم . فنحو سنة ٥٥٠ق.م محيت المستعمرة المدينة ـ الدولة سيريس من الوجـود على ايـدي بعض الاغارقـة الايطاليـين ، الذين اعـادوا الكرة في ٥١١ ـ ٥١٠ق.م على سيباريس ومثلوا فيها الدور ذاته . وقد اسْتُعِيض عن سيباريس بتوري في ٤٤٤ ـ ٤٤٣ق.م ، واستعيض عن سيريس بهيراقليا في مـا بعد ، إلا ان الـدمار الـذي الحقه الاغـارقـة الغـربيـون بـانفسهم خـلال قـرن الازمـات ، القـرن السادس ق.م ،لم يُعَوَّض تماماً ، وقد ظل هؤلاء القوم واحدهم العدو الاكبر تـدميراً للآخر ، حتى اخضعتهم رومه وارغمتهم اخيراً على ان يتعايشوا بسلام .

وقد كان من الممكن ان يفرض حكم آخر على الاغارقة الغربيين قبل قرنين من الـزمان ـ لا على ايـدي الرومـان يومهـا ، ولكن على ايدي الحلفـاء القـرطـاجيين ـ الاترسكيين ـ لولا ان الاغارقة الصقليين نجحوا ، في الظرف الملائم تماماً ، في اقامة بُنىً سياسية على مستوى مدن ـ دول ضخم . وقد تم انجاز ذلـك على ايدي حكـام مستبدين لجأوا إلى الأساليب الاشورية ، أي نفي السكان وذلك لارغامهم على قبول حكمهم . فقد اقيمت ، بين سنتي ٥٠٥ و٤٩١ق.م . ، امارة اغريقية صقليـة ، في جنوب شرق صقلية ، وعاصمتها سيراقوسة ، واستخـدمت في ذلك اسـاليب وحشية كتلك التي استعملها الاسبارطيـون في البلوبنيز في القـرن الثامن ق . م . وبـين سنتي ٤٨٨ و٤٨٣ ق. م . امتدت امارة اغريقية صقلية ثانية عبر صقلية من الساحل الجنوبي إلى الساحل الشمالي وذلك بضم هيميرا إلى أكراغاس .

وقد ورد القرطاجيون على هذه النقلة الثانية للاغارقة الصقليين في سنـة ٤٨٠

ق.م . وذلك بالهجوم على صقلية عنوة . ليس ثمة دليل ثابت على أن هذه الحملة القرطاجية على الجزء الاغريقي من صقلية وُقِّتت بحيث تجيء في الوقت ذاته الذي قام به الفرس بحملتهم على بلاد اليونان الاوروبية الاصلية ، إلا أنه من غير المحتمل ان الحملتين لم تكونا مرسومتين . فالقرطاجيون في المستعمرات كانوا على اتصال وثيق بالفينيقيين في لبنان ، وهؤلاء كانوا رعايا فرساً . وقد كان هؤلاء ، مثل المستعمرين منهم ، منافسين تجاريين للاغارقة ، ومن ثم فقد كان في هزيمة الاغارقة نفع لهم . وعلى كل فقد كان انتصار الحلف السيراقوسي ـ الاغريغنتي على القرطاجيين لا يقل روعة عن انتصار الحلف الاسبارطي ـ الاثيني على الفرس في السنة ذاتها . فقد كان الانتصاران رائعين ، هذا اذا اخذنا بعين الاعتبار ان غالبية الدويلات الاغريقية ، في الغرب كما في بلاد اليونان الأوروبية ، لم تحمل السلاح ضد المهاجمين . وفي الواقع فان الحملة القرطاجية ضد الجزء الاغريقي من جزيرة صقلية كان الباعث عليها موقف حاكم هيميرا المستبد المطرود وسيلينوس وريغيون (الدويلة الاغريقية الايطالية التي كانت تتحكم في مضيق مسينا) ، إذ ان هؤلاء لم يعلنوا حال حرب ضد القرطاجيين .

وقد استمرت الدول الاغريقية الغربية مدة قرنين وهي تشن حروباً واحدتها ضد الأخرى ـ سيراقوسة ضد ريغيون وكروتون ، وهاتان ضد لوكري إبزفريان ، التي زج بها كالوتد بينهما . وقد كان للدول الاغريقية الغربية شركاء في التجارة من الاغارقة الشرقيين ، وقد انجرف هؤلاء الشركاء في النزاعات السياسية على جانبي مضيق أُترانتوا . فقد تحالفت ، قبل سنة ٤٥٠ ق.م. ببعض الوقت ، دول اغريقية صقلية واليمنيّة من خصوم سيراقوسة ، مع اثينا ، وترتب على ذلك ان انجرف الاغارقة الغربيون الى الدخول في الحرب الأثينية ـ البلوننزية (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق.م.) . وقد انتهى هذا التدخل بان شنت اثينا حملة ضد سيراقوسة (٤١٥ ـ ٤١٣ ق.م.). وقد آلت المجازفة إلى انكسار اثينا ، إلا أنها لم تكن اقل من ذلك اثراً بالنسبة الى الصقليين المنتصرين . وقد اتاح الاجهاد الذي مني به الاغارقة الصقليين الفرصة امام القرطاجيين للهجوم ثانية على صقلية سنة ٤٠٩ ق.م. ، ومنذ تلك السنة إلى سنة ٢٧٥ ق.م. كانت الحرب سجالا بين قرطاجة وسيراقوسة ، وكان النجاح والفشل يتعاقبان في تلك المعارك ، لكن لم يكتب لاي من الدولتين ان يحصل على نتيجة

حاسمة . وعلى سبيل المثال ففي حرب ٣١٢ ـ ٣٠٦ ق.م. ضرب القرطاجيون الحصار على سيراقوسة في ٣١١ ـ ٣١٠ ، ثم في سنة ٣٠٩ ، لكن الحصار فشل ، وفي ٣١٠ ـ ٣٠٧ هاجم السيراقوسيون بلاد القرطاجيين في افريقية ـ وقد كانت حركة جريئة قام بها طاغية سيراقوسة ، أغاثوكليس ، إلا أنها هي الأخرى انتهت بالفشل . وكان الاغارقة الصقيليون قد فشلوا من قبل ، تحت قيادة طاغية سابق لسيراقوسة ، ان يُقْصُوا القرطاجيين من الزاوية الشمالية الغربية لصقلية سنة ٣٩٨ ق.م. وقد فشلوا في مرة تالية بقيادة بِرُوس في ٢٧٨ ـ ٢٧٦ ق.م.

كان على الاغارقة الصقليين ان يختاروا بين الوحدة السياسية تحت حكم استبدادي وديمقراطية أو أوليغارْكيّة محلية يكون ثمنها تمزق سياسي . وقد كانوا يقبلون بالطغاة عندما كان يبدو امامهم خطرُ خضوعهم للقرطاجيين ، فإذا انحسر الخطر القرطاجي عنهم كانوا يخلعون الطغاة . لقد كان موقع صقلية يؤهلها لأن تكون قاعدة لسيطرة بحرية على مياه حوض البحر المتوسط ، ولكن ، حتى لو نجحت سيراقوسة في توحيد صقلية كلها تحت حكمها ، فإن صقلية متحدة ، وحدها فقط ، ما كان لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على البحر المتوسط كله والبلاد المحيطة به . ان مثل هذا الأمر ما كان ليتم الا لدولة بامكانها ان تجمع بين القيمة الاستراتيجية من السيطرة على صقلية مع الاستيلاء على الموارد البشرية والاقتصادية التي يمكن الحصول عليها اما من ايطالية أو من شمال غرب افريقية .

إن المستوطنين الاغارقة في صقلية نجحوا في توحيد صقلية على المستوى الحضاري عن طريق « هَلْيَنَة » الجزيرة باجمعها ، بما في ذلك الجماعات الصقلية غير الاغريقية ، التي كانت ، خصماً سياسياً للاغارقة من الناحية السياسية . وقبل نهاية القرن الخامس ق.م. لم يكن جميع سكان صقلية قد اصبحوا ناطقين باليونانية ، بل انهم قبسوا نظام المدينة ـ الدولة الاغريقي ، بحيث اصبحت مدن ـ دول صقلية ، ليست من اصل اغريقي ، تسك النقود وتشيد الهياكل على الاسلوب الهليني . وفي الجهة الأخرى لم تتمكن اللغة اليونانية من الانتشار في البر المصاقب للمستوطنات الاغريقية ، وحتى هذه المستوطنات نفسها انتهى بها الأمر إلى أن تغلب عليها ابناء البلاد . وقد حدث هذا في لكومي وبوزيدونوتيا (بايْستُم) قبل نهاية القرن

الخامس ق.م. وفي سنة ٢٨٩ ق.م. تمكن مواطنون من المرتزقة السابقين التابعين لطاغية سيراقوسة المعزول ، أغاثوكليس ، من الاستيلاء على مَسِّينا ، على الساحل الصقلي للمضيق .

وقد اقْتُبِس نظام المدن ـ الدول في شمال غرب شبه جزيرة ايطالية وفي اتروريا وأَمْبريا وفي الساحل الغربي جنوباً بما في ذلك كامبانيا . وقد اقْتُبس هذا النظام أيضاً في المنخفضات الجنوبية الشرقية من « العقب » وحتى « المهماز » . أما في المرتفعات القائمة بينهما ، فقد كان السكان المواطنون لا يزالون يتبعون تنظيمات قبلية ، مع أنهم لم يتمنعوا عن قبول الحضارة الهلينية (فقد قبلوا الأسلوب الاغريقي الغربي من الألفباء الفينيقية) . وقد ظلت إيطالية ، في الفترة الممتدة من نحو ٦٠٠ إلى ٢٢١ ق.م. اكثر تباينا من صقلية على مستويات الحياة جميعها . ومع ذلك ، كما حدث ، وحدت رومة ايطالية سياسياً بين نحو ٣٤٠ و٢٦٤ ق.م. ، وكان نجاح رومة في توحيد ايطالية قد فتح أمامها المجال لتوحيد البلاد المحيطة بالبحر المتوسط بأجمعها . وعلى كل فإن رومة لم تكن الدولة الأولى التي حاولت توحيد ايطالية سياسياً ، ومع أن رومة نجحت حيث فشل سابقوها ، فإن نجاحها لم يكن سهلاً .

جاءت المحاولة الأولى لتوحيد إيطالية سياسياً على يد الأترسكيين بين نحو ٤٢٣,٥٥٠ ق.م. ففي القرن السادس ق.م. استولى الأترسكيون على رأسي جسر ، عند فيديناي ورومة ، على الضفة اليمنى لنهر التيبر الأدنى ، ثم استولوا بعد ذلك على المنخفضات ، في الجنوب الشرقي ، حتى أرض كومي الخلفية . وانتزعوا ، في الجهة المعاكسة ، من سكان المرتفعات الليغوريين الممر المؤدي من فَيْصولي إلى فلسينا (بولونيا) . وقد أخذوا بتطوير إمكانات الثروة الزراعية في حوض نهر البو عن طريق تجفيفه ، وتعاونوا مع الأغارقة في إقامة ميناء تجاري في سبينا ، في المستنقعات الواقعة حول مصب نهر البو . وقد ساعدت الأحوال الأترسكيين إذ أنه نحو سنة ٥٠٠ ق.م. على ما أشرنا إلى ذلك قبلاً ، قامت اضطرابات في داخل اوروبة القارية أدت إلى تغيير التجارة من وادي الرون إلى حوض نهر البو عبر الممّرات الألبية .

وقد بدا ، نحو سنة ٥٢٥ ق.م. كما لو أن الأترسكيين كانوا على وشك توحيد حوض نهر البو ، لا شبه جزيرة ايطالية فقط ، وذلك تحت حكمهم . على أنهم

حاولوا سنة ٥٢٤ ق.م. ، أن يحتلوا كومي لكنهم فشلوا ، وبين نحو سنة ٥٠٩ وسنة ٤٧٤ ق.م. فقدوا سيطرتهم على لاتيوم وعلى رومة ، وفي سنة ٤٧٤ ق.م. غلبهم السيراقوسيون في معركة بحرية قبالة كومي ، وبين نحو سنة ٣٥٠,٤٥٠ ق.م. خسر الأترسكيون معظم مستوطناتهم في حوض نهر البو وذلك على أيدي برابرة قلتيّين (غاليّين) جاؤوا من الجهة القصوى لجبال الآلب . وفي سنة ٤٢٣ ق . م . انتزع الجبليون الأوسكان ، الذين جاؤوا من المرتفعات المصاقبة لكامبانيا « كابوا » من الأترسكيين ومن ثم في سنة ٤٢١ ق.م. انتزعوا هم أنفسهم كومي من الأغارقة . ومن ثم فقد يرجع فشل الاترسكيين سياسياً للسبب نفسه الذي أدّى بالأغارقة إلى الفشل . فالاترسكيون ، على عكس الفينيقيين المستعمرين ، لم يقبلوا بأن يضعوا أنفسهم تحت قيادة موحدة . فقد جاء توسعهم نتيجة للأعمال التي قامت بها دول - مدينة منفردة أو حتى التي تمت على أيدي قادة مقاتلين مغامرين منفردين . وانتهى الأمر بالدويلات الأترسكيّة بأن قبلت بأن تقع تحت سيادة رومة ، الواحدة تلو الأخرى .

كان الأترسكيون في موقع يمكنهم من توحيد إيطالية جمعاء من جبال الآلب إلى « أصابع القدم » ، ولو أنهم تكاتفوا في عملهم لكان النجاح رائدهم . والأغارقة الايطاليون لم ينظروا جدياً إلى توحيد حتى شبه الجزيرة الايطالية . لقد كانوا فئة صغيرة من حيث العدد ، وكانوا بعيدين عن موطنهم ، وفوق ذلك كله ، كانوا يتربصون الفرص لتدمير بعضهم البعض الآخر . (لقد فشل الأترسكيون في التكاتف ، إلا أنهم لم يدمروا بعضهم البعض على نحو ما تم على أيدي الدول - المدن الاغريقية) .

وقد كانت الدولية الأغريقية الايطالية التي كان موقعها الأكثر صلاحية للقيام بعمل توسعي هي المستعمرة الاسبارطية تَراس (تارنْتوم) التي انشئت نحو سنة ٧٠٧ ق.م. لكن التارنتيين انكسروا كسرة بشعة على أيدي أهل بلاد المنطقة الجنوبية الشرقية المنخفضة ، وذلك سنة ٤٧٣ ق.م.

لقد اشرف الأغارقة على توحيد صقلية وشبه الجزيرة الايطالية تحت سيادة سيراقوسة ، وذلك ايام حكم طاغية سيراقوسة ديونيسيوس الأول (٤٠٥ - ٣٦٧ ق.م) . بدأ ديونيسيوس عمله بأن أقام تحصينات حول مدينة سيراقوسة فاحاطها

بسور ، كان يتوج مرتفع الهضبة إلى الغرب من المنطقة المسكونة ، الأمر الذي جعل سيراقوسة أضخم وأقوى مدينة مسوّرة في حوض البحر المتوسط . واثناء الحرب الأولى مع قرطاجة (٣٩٨ ـ ٣٩٢ ق . م .) حشر ديونيسيوس القرطاجيين وحلفاءهم الأيليميّين في الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية . ثم عقد اتفاقاً مع دولتين اغريقيتين ايطاليتين هما لوكري وتراس ومع رجال القبائل اللوكانيين ، المقيمين في البلاد المتاخمة لأصابع قدم ايطالية . ومع القبائل القلتية التي كانت يومها تتغلب على المستوطنات الأترسكية في حوض نهر البو . وقد كانت الهدف الأساسي لديونيسيوس في جنوب إيطالية مدينة كايري ، اقصى مدينة جنوبية اترسكية تقع على الساحل . ولنا ان نخمّن ان نهب رومة ، وهي حليفة ، كايري ، على أيدي القلتيين سنة ٣٨٦ ق.م. ، تمّ بتشجيع من ديونيسيوس ، وإن هذه كانت الخطوة الأولى في حملاته ضد كايري . وقد هزم نهابو رومة من القلتيين على أيدي أهل كايري ، وقد تقدمت كايري ومشيليا لاسداء يد العون لرومة . ونحو سنة ٣٨٤ ق.م. جعل ديونيسيوس من البحر الادرياتيكي بحيرة سيراقوسية إذ أقام مراكز بحرية في الأماكن الاستراتيجية على سواحله وفي الأرخبيل الدلماستي. وقد مكّن له هذا من الاتصال المباشر مع القلتيين المقيمين شمال شرق جبال ابنين ، وتهديد الأترسكيين من الجهة الادرياتيكية . وفي الوقت ذاته ، ونحو سنة ٣٨٤ ق.م. أيضاً ، قام اسطول ديونيسيوس الموجود في البحر التيراني بنهب بيرجي ، التي كانت الميناء الرئيسي لكايري ، والذي كانت رومة تفيد منه أيضاً . كان ديونيسيوس ، في ذلك التاريخ ، يسير في سبيل بناء امبراطورية صقلية ـ ايطالية ، إلا أنه فشل في أن يتبع هجمته على بيرجي باحتلال مدينتي كايري وروما .

لقد اجترح ديونيسيوس غلطتين . فقد هاجم ، في سنة ٣٩٠ ق.م. المدن ـ الدول الاغريقية الايطالية التي كانت على خصومة معه ، ومع أنه نجح أخيراً في احتلال رغيون في سنة ٣٨٧ واستولى على كروتون ، فإن هذه الحرب الطاحنة التي شنها بعناد ومرارة كانت نتيجتها ارهاق سيراقوسة وفريستها من المدن الاغريقية الايطالية . وكانت غلطة ديونيسيوس الثانية الحملة الثانية ضد قرطاجة سنة ٣٨٣ ق.م. فقد كُسِرَ في هذه المرة ، وكان عليه ان يعقد صلحاً ، في سنة ٣٧٨ ق.م. كان ثمنه التنازل عن جزء من الأرض . وقد فتحت هاتان الغلطتان اللتان اجترحهما

ديونيسيوس الميدان الايطالي امام متنافسين آخرين . ولم يكن ابن ديونيسيوس الأول ديونيسيوس الثاني (في سيراقوسة ٣٦٧ - ٣٥٦ ، وفي لوكري ٣٥٦ - ٣٤٧ ثم في سيراقوسة ثانية ٣٤٧ - ٣٤٤ ق.م.) كفؤا لتحمل العبء الذي ورثه ، وقد بدأ انحطاط سيراقوسة في أيامه ، وهو الأمر الذي لم توقفه لا زيارتي افلاطون الثانية والثالثة لسيراقوسة في سنتي ٣٦٧ و٣٦١ ق.م. ولا عدالة الحكم الذي أقامه ارخيتاس في تَراس بين ٣٦٧ و٣٦٠ ق . م . وهو الحكم الذي قام مؤقتاً على أساس المثال السياسي الافلاطوني أي حكم الملك - الفيلسوف .

وكانت قد وصلت حال الأغارقة الغربيين درجة مؤلمة من اليأس في سنة ٣٣٤ ق.م. بحيث اخذوا يستصرخون اقاربهم المقيمين إلى الشرق من مضيق أوترانتو . وكان أول المنقذين الستة من الاغارقة الشرقيين الذين استجابوا لنداء الاستغاثة ، بين ٣٣٤ و٢٨٠ ق.م. ، هو أكبرهم قدراً وأنجحهم . فقد نجح تيموليون ، وهو مواطن من كورنث ، وهي أم سيراقوسة ، مع أن موارده كانت ضئيلة ، في القضاء على ديونيسيوس الثاني وعلى بقية الطغاة المحليين من الأغارقة الصقليين . ثم انتصر على القرطاجيين بعدما وضع نفسه على رأس الأغارقة الصقليين المتحدين . وفي الفترة التي مرت بين قدومه سنة ٣٤٤ وانسحابه الطوعي سنة ٣٣٧ ق.م. اقام حكومات ديمقراطية معتدلة في سيراقوسة وبقية الدول الاغريقية الصقلية ، وقد ضمها في اتحاد واحد ، ووحد بعضاً من المدن - الدول الاغريقية الصقلية مع سيراقوسة ، وذلك عن طريق منح رعاياها المواطنة السيراقوسة ، إضافة إلى مواطنهم الأصليّة . وهذه الدول لم تُجَرَّد من حكمها الذاتيّ المحليّ . وقد اقنع تيموليون الاغارقة الشرقيين بإرسال اعداد كبيرة من المستوطنين الجُدُد ، كما اقنع الاغارقة الصقليين بقبولهم . (إن التفجر السكاني الذي بدأ في العالم الهليني في القرن الثامن قبل الميلاد ، كان لا يزال بعد على نشاطه في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، بحيث انه زوَّد تيموليون في صقلية بهؤلاء المستوطنين ، كما زوّد الاسكندر وخلفاءه في آسية بأعداد أكبر) . ومما يؤسف له أن عمل تيموليون المستنير البناء لم يكتب له أن يعيش طويلاً بعده .

والخمسة الآخرون من الاغارقة الشرقيين الذين جاؤوا « لانقاذ » الأغارقة الغربيين كان فشلهم اسرع . لقد جاؤوا من دولتين : من اسبارطة ، التي كانت الأم -

الدولة لتراس ، ومن إبيروس ، التي كانت أقرب دولة اغريقية شرقية لمضيق أُتْرانتو
لقد كانت موارد كل من اسبارطة وأبيروس قريبة من موارد كورنث في ضآلتها بالنسبة
إلى إنقاذ الأغارقة الغربيين . ولم يتمكن خلفاء تيموليون (في المحاولة) من اسبارطة
وابيروس من حمل الأغارقة الغربيين على التعاون في سبيل انقاذ انفسهم ، على نحو
ما فعل تيموليون . فملك اسبارطة ، أرخِداموس الثالث ، الذي وصل سنة ٣٤٣
ق.م. ليساعد تراس ضد الحلف السمنيّ، في البلاد الواقعة خلفها ، قتل في معركة
سنة ٣٣٨ ق.م. و« المنقذ » الذي تلاه ، الاسكندر الأول ملك ابيروس ، وصل نحو
سنة ٣٣٤ ق.م. وقتل سنة ٣٣١ ق.م. والحملتان اللتان قادهما اميران اسبارطيان :
أكروتاتوس ضد سيراقوسة سنة ٣١٥ واخوه كليونيموس ضد ايطالية سنة ٣٠٣ ق.م. -
كانتا خائبتين .

وآخر « المنقذين » ، وأقلهم ضعف أثر ، كان بيرّوس ملك أبيروس ، الذي قاد
حملاته ضد الرومان في ايطالية بدعوة من التارنتيين ، وضد القرطاجيين في صقلية
بدعوة من الاغارقة الصقليين ، واستمرت حملاته من ٣٨٠ إلى ٣٧٥ ق.م. ،
وأصاب بعض النجاح بسبب تمنع القرطاجيين والرومان من مد يد المعونة ، الجماعة
الواحدة إلى الأخرى ، في المجالين العسكري والبحري ، ضد عدوهما المشترك
القوي . وقد كاد بيروس أن يقيم امبراطورية أبيروسيّة ، التي كان من المحتمل أن
تشمل كل صقلية وكذلك جنوب شرق ايطالية ، وربما تيراسينا في
الشمال الغربي . ويعود بعض فشله إلى ضآلة موارد أبيروس ، وبعضه الآخر سببه
تقلبه الشخصي - وهو أمر كان بيروس بسببه دون ثبات بناة الامبراطورية من الرومان
الذي كان يحاول احتواءهم . لقد وصل متأخراً زمنياً . وفي سنة ٢٧٢ ق . م . وقعت
تراس ، وإضافة إليها السمنيون في جنوب ايطالية ، اللذين كان يتكوّن منهما حلفا
لوكانيا وبروتيا ، في أيدي رومة . وقد تم توحيد شبه جزيرة ايطالية تحت حكم رومة
سنة ٢٦٤ ق . م .

كان موقع رومة ممتازاً لتوحيد شبه الجزيرة الايطالية . فقد كانت تسيطر
على أدنى جسر على نهر التيبر ، أكبر نهر في شبه الجزيرة الايطالية . ونهر التيبر كان
يصب في البحر التيراني في منتصف الأراضي شمال غرب شبه الجزيرة المنخفضة .
مع أن فاي ، جارة رومة الأترسكية في الداخل ، وهي التي احتلتها رومة ودمّرتها سنة
٣٩١ ق.م. وجارتها الأتريسكية البحرية كايري ، التي ضمتها رومة سنة ٢٧٤ ق.م.

كانتا في موقع له أيضاً صلاحية موقع رومة لبناء امبراطورية . وقد كانت رومة مدينة في نجاحها إلى الحنكة السياسية التي تمتع بهـا نبلاؤ هـا ، الذين احتفـظوا بالسلطة في أيدهم ، لكن هذه القدرة الأصلية ما كان لها أن تؤتي أكلها لو لم يتح لها ان تنضجها التربية الهلينية . فقد تَهَلْيَنَ الرومان بالواسـطة أولاً ، عن طريق الحكـام والمواطنين الأترسكيين ، ثم مباشرة بعد ذلك عن طريق الاتصال بكومي ، وهـو الاتصال الـذي اتسع تدريجاً حتى شمل بقية العالم الهليني .

كانت رومة من صنع الأترسكيين الذين كانوا قد توطنـوا هنـاك نحو سنـة ٥٥٠ ق.م. وانشأوا مجموعة من القرى اللاتينية التي تعتمد الرعاية مصدراً للقوت . وقـد جعلوا من هذه مدينة ـ دولة أترسكوية ، كثيفة السكان المزارعين في أملاكها الريفية . وقـد كانت المـدن ـ الدول وتجمعـات المـدن ـ الـدول الصيـغ الـوحيـدة المقبـولـة للتشكيلات السياسية في حوض البحر المتوسط في الألف الأخيـر السابق للميـلاد . وهذه المؤسسة ، السومريّة الأصل ، شاعت عند الفينيقيّين والأترسكيّين والأغارقة . وأي تشكيل سياسي لم يتسق مع نموذج المدينة ـ الدولة كـان يعتوره نقص شـديد . وقد كان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى فشل مقدونية وايتولية وسَمْنيوم وإلى نجاح رومة . فدستور رومة المبني على فكرة المدينة ـ الدولة وحضارتهـا كانـا يتركـان أثراً حسناً كما كانا يجذبان الشعوب التي كانت لا تزال في طور سابق للمدينة ـ الدولة من حيث تطورها السياسي . وقد كان هذا هبة من رومة اغرت شعوباً كثيرة متأخرة على أن تتقبل الانضمام إلى الكيان السياسي الروماني . وبخاصة فقد كان دستور رومة المبني على المدينة ـ الدولة عوناً لرومة في صراعها مع الحلف السَمْني ، إذ أن أكثر أعضائه كانوا بعد في الطور السـابق للمدينـة ـ الدولـة بين سـني ٣٤٣ و٢٧٢ ق.م. ، وهي الفترة التي دارت فيها رحى الحرب الرومانيّة السَمْنيّة .

بدءاً منذ نحو سنة ٥٥٠ ق.م. كان مصير رومة يتأثّر بشكل دقيق بالأحداث التي تجري في العالم غير الروماني المحيط بها . فخضـوع رومة للطغـاة الأترسكيين من نحو ٥٥٠ إلى ٥٠٩ ق.م. أو لعله الى نحو سنة ٤٧٤ ق.م. ، جعل منهـا مدينـة ـ دولة ، وامبراطورية مصغرة بالنسبة لاتباعها من اللاتين . وقد كان الثمن الذي دفعته رومة لتخلصها من الحكم الأترسكيّ هو تحرر اللاتين من حكمهـا . فاصبـح هؤلاء اتحاداً من المدن ـ الـدول وهذا انضم إلى دولـة ـ مدينـة جمهوريـة رومة على قـدم

المساواة . وعلى كل فإن تصفية النظام الأترسكي في رومة لم يقض على العلاقات بين رومة وقرطاجة . لسنا ندري في ما إذا كانت المعاهدة الرومانية ـ القرطاجية المعقودة نحو ٥٠٦ ـ ٥٠١ ق.م. الأولى في سلسلة من المعاهدات ، أم أنها عقدت بعد تدشين عهد الجمهورية في رومة أم قبله ، إلا أنه قد تكون ثمة معاهدات رومانية ـ قرطاجة تالية ، فقد تكون اربعاً ، تم عقدها قبل أن تقع الواقعة بين الدولتين في سنة ٢٦٤ ق.م. . وقد كانت هذه المعاهدات في مصلحة الفريقين .

إن احتلال رومة لفاي وتدميرها وضم بلادها بين نحو ٣٩٣ و٣٨٨ ق.م. أدى إلى ازدياد قوتها إلى ضعفي ما كانت عليه ، الأمر الذي أقلق اللاتين وحمل ديونيسيوس الأول على القيام بحملته ضد رومة وضد حليفتها كايري . ونهب رومة على أيدي القلت السينونيين في سنة ٣٨٦ مكّن للحلف اللاتيني من فك ارتباطه برومة . وبين سنتي ٣٨٦ و٣٥٦ ق.م. ، وفي ما كان ديونيسيوس وابنه يلي واحدهما الآخر في حكم سيراقوسة ، تعرضت رومة وأرضها لسلسلة من الهجمات الغالية التي بدأها ديونيسيوس من قاعدة في أبوليا . وهذه الحملات منعت رومة من حمل اللاتين على العودة إلى مشاركتها . وقد حدثت في سنة ٣٤٦ ق.م. غزوة غالية صاحبها انفصال جديد قام به اللاتين ، وهي السنة التي عاد فيها ديونيسيوس الثاني إلى سيراقوسة موقتاً . وكان ظهور أرخيدامُس الثالث في جنوب ايطالية من ٣٤٣ إلى ٣٣٨ ق.م.حافزاً للسينونيين على عقد صلح تسوية مع رومة ،على شرط تركت المدن ـ الدول في كامبانية تحت هيمنة رومة . وقد بدا واضحاً ان حملات بيروس في الغرب (٢٨٠ ـ ٢٧٥ ق.م.) أثرت في مصير رومة بطريقة مباشرة وبشكل حيويّ .

ومثل أكثر الدول الأخرى في أكثر الأزمنة والأمكنة الأخرى ، كانت رومة توسع أملاكها حينما تسنح لها الفرصة وحيثما تيسر ذلك . والمثل المبكر على ذلك هو هجومها المستمر بشدة على فاي الذي انتهى باحتلال فاي نحو ٣٩٣ ـ ٣٨٨ ق.م.

واحتلال رومة لما تبقى من شبه الجزيرة الايطالية واحتلال صقلية الذي تلا ذلك انطلقا من عملي اعتداء رومانيين ، وقد كان كل منهما مقصوداً ولو أنه من الممكن أن الحكومة الرومانية لم تكن تدرك ذلك ، ولعلها لم تتوقع العواقب التي ترتبت على ذلك ، في أي من الحالتين . في سنة ٣٤٠ أو ٣٣٩ ق.م. تحدّت رومة سَمْنيوم بوضعها المدن ـ الدول في كامبانيا تحت جناحها . وذلك كان مخالفاً لمعاهدة رومانيّة ـ سمينة كانت قد

عقدت سنة ٣٥٠ ق.م.. وفي سنة ٢٦٤ ق.م. تحدّت رومة قرطاجة بأن وضعت تحت حمايتها الايطاليين المامرتيينّ الذين كانوا يقيمون في مسينا (وهم مرتزقة أغاثوكليس القدامى) وذلك خلافاً لمعاهدة أو على الأقل لتفاهم بين رومة وقرطاجة .

في سنة ٢٦٤ ق.م. كانت رومة قد نجحت في مشروع كانت نتيجته فشل الأترسكيين أولاً ثم فشل طاغية سيراقوسة ديونيسيوس الأول . وقد تم لها الآن توحيد شبه الجزيرة الايطالية تحت حكمها ، فما هي الوسائل التي مكنت لها مثل هذا الإنجاز ؟

لقد أشرنا من قبل إلى واحد من أرصدة رومة . ذلك أنها كانت قد نُظِّمت تنظيماً فعالاً كمدينة ـ دولة وذلك على يد الطغاة الأترسكيين الذين مروا بها الماماً . ثانياً كانت روما قد تم لها أن تقيم تنسيقاً سياسياً داخلياً بعد قضائها على النظام المستبد وان تحافظ على هذا التنسيق . كان المألوف في المدن ـ الدول اليونانية ، في مثل هذه الحال ، أن يعقب ذلك نزاع على السلطة بين الاحزاب التي كانت مصالحها تتعارض . فعلى سبيل المثال هذا ما حدث في أثينا حيث قضي على البزستراتيينّ في الوقت ذاته تقريباً الذي اقصي فيه التركويّون في رومة . وفي رومة أيضاً تلا إقامة نظام ديمقراطي نزاع أهلي ، لكن في سنة ٣٦٤ ق. م. اتفق الارستقراط الرومان مع زعماء أكثرية المواطنين المهملين، وعلى حساب هذه الفئة بالذات . وهذا الاتفاق الشرير دام حتى سنة ١٣٣ ق.م. ، ولم تعكره سوى هزات عامة قليلة (مثلاً سنة ٣٣٩ وسنة ٢٨٧ ق.م.) . وهكذا فإن التغطية على الظلم الاجتماعي والسياسي داخلياً ، مكّن لرومة ان تبرز أمام جيرانها موحدة الجبهة .

كانت سياسة الاوليغاركية الرومانية المستمرة في تسيير شؤون رومة الخارجية هي دعم مناظريهم في الدول الأخرى . ومثل هذه السياسة الرومانية كانت تغري الاوليغاركية الأجنبية ـ عندما تحس بأن مركزها كان قلقاً ، في أن تضحي باستقلال الدولة في مقابل الحصول على دعم من الاوليغاركية الرومانية الثابتة القواعد . والمؤامرة بين الاوليغاركية الكابوية و« المؤسسة » الرومانية هي المثل الكلاسيكي على هذه المناورة الرومانية لجر الدول الأجنبية إلى احابيل رومة .

وقد توثقت اتفاقات المؤسسة الرومانية مع الأوليغاركيات الأجنبية بواسطة الصداقات الأسروية والزيجات المختلطة . وعلى العكس من ذلك فإن مواطني الجماعات

التي فرضت رومة عليها أن تكون من حلفائها على شروط رومة بالـذات ، حيل بينها وبين التعاون في ما بينها ضد رومة ، وذلك عن طريق منعها ، أحياناً ، من الزواج المختلط ومن المتاجرة بين هذه الدول . وكان على حلفاء رومة ، كما كان على حلفاء اسبارطة من قبل ، أن تزود جيوش رومة بفصائل من الجيش . ولم يكن لهم ، على عكس ما كان عليه حلفاء اسبارطة ، أي رأي في القرارات السياسية التي كانت تورطهم في حروب رومة . ولم يكن على حلفاء رومة ، على نحو ما كان عليه حلفاء اسبارطة ، وعلى عكس ما كان عليه حلفاء اثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ، أن يدفعوا أي معونة نقدية للقوة المسيطرة . لقد استُغِلّوا دون ان يُهانوا .

بعد أن كُسِرَ الحلفان اللاتيني والكمباني في سنة ٣٣٥ ق . م . وهما اللذان كانا قد انفصلا عن رومة في ٣٣٧ ق . م . حُلَّ الحلفان . وفي سنة ٣٣٤ ق . م . ضم عدد من المدن ـ الدول اللاتينية والكمبانية إلى الكيان السياسي الروماني ، دون ان تجرد من الحكم الذاتي المدني . وقد منح مواطنوها ، في بعض الحالات ، حقوق المواطنة الرومانية كاملة ، إلى جانب الواجبات المرتبطة بها التي القيت على عاتقهم ، وفي حالات أخرى فرضت عليهم الواجبات كلها دون أن يُمْنَحوا أيا من الحقوق . ولعل هذا النظام الروماني ذا « المواطنة المزدوجة » ، صيغ على الصلة التي أقامها تيموليون بين سيراقوسة وبعض المدن ـ الدول الصقلية بين ٣٤٤ و٣٣٧ ق . م . لقد أزعجت سيراقوسة رومة ازعاجاً كبيراً من سنة ٣٨٦ إلى ٣٤٦ ق . م . بحيث أن الحكومة الرومانية كانت تراقب شؤون سيراقوسة بمنتهى الدقة .

وفي سنة ٣٣٣ ق . م . قامت رومة بتجربة أخرى في « المواطنة المزدوجة » . فقد أقامت مستعمرة صغيرة في انتيوم لخفر السواحل مكونة من مواطنين رومانيين، ومنحتهم دستوراً لحكم مدني ذاتي دون ان تجردهم من مواطنتهم الرومانية . وقد نُظِّمت هذه وغيرها من مستعمرات خفر السواحل التالية على غرار المستعمرات اللاتينية التي كان اتحاد المدن اللاتينية قد انشأها ، وهو الاتحاد الذي حُلَّ . وقد منحت رومة هذه المستعمرات وضع حلفاء من الدرجة الأولى ، وقد زادت عددها مع توسعها في السيطرة على ايطالية . وأقامت رومة مستعمرات لاتينية جديدة في أماكن استراتيجية مختارة ، وعهدت إليها بأن تكون حاميات لضبط البلاد المفتوحة .

لقد كان اكتشاف الجغرافية الاستراتيجية لشبه الجزيرة الايطالية واستغلالها في

غاية المهارة . بين ٣١٨ و٣١٣ ق.م. احاطت رومة بسمنيوم وذلك بالاهتداء إلى طريق يجتاز جبال الابنين الوسطى ويعطي رومة موطىء قدم في ابوليا . وبين ٣٠٤ و٢٨٩ ق.م. عزلت جنوب شبه الجزيرة الايطالية عن الدول الايطالية المستقلة في الشمال وذلك عن طريق التغلب على بعض شعوب الجبال وإقامة سلسلة من المستعمرات اللاتينية ومستعمرات رومانية لخفر السواحل ومستوطنات لمواطنين رومانيين على أراض مصادرة ، دون ان يكون لهذه المستعمرات حكم ذاتي .

كانت سياسة رومة تقوم على أساس التفرد بالخصوم الذين تنوي القضاء عليهم . فبعد طرد ديونيسيوس الثاني من سيراقوسة في سنة ٣٥٦ ق.م. لم يبق منافس ذو بال لرومة سوى « الحلف السَمْني » . ومن ثم فقد ركزت رومة جهودها ، منذ سنة ٣٥٠ إلى ما بعد انسحاب بروس من ايطالية سنة ٢٧٤ ق.م. ، على التوسع جنوباً وعقدت مع الدول الأترسكية هدنة بعد هدنة (لم تعقد معاهدات دائمة) كي تظل هذه هادئة . بل أن رومة ذهبت إلى حد التزلف إلى القلتيين إلسينونيين ، الذين كانوا قد نهبوا رومة سنة ٣٨٦ ق.م. والذين كانوا قد استقروا على الساحل الادرياتيكي لشبه الجزيرة الايطالية تماماً إلى الشمال من مستعمرة انكونا السيراقوسة . في سنة ٣٣٠ ق.م. اقنعت رومة السينونيين ان يعقدوا هدنة معها ، مدتها ثلاثون سنة ، وقد حافظ هؤلاء على وعودهم . ومن ثم فإنه بعد انسحاب بيروس واستسلام السَمْنيين كان جيران رومة الشماليون تحت رحمتها ، إذ أطلق هذان الحادثان يدها لاخضاع آخر ما تبقى من الدول المستقلة في شبه الجزيرة .

وفي الحرب الرومانية القرطاجية ، بين ٢٦٤ و٢٤١ ق.م. جُنِّدت الاساطيل والجيوش على مستوى لم يعرف له مثيل في تاريخ الحرب في حوض البحر المتوسط ، كما أن الخسائر في الأرواح كانت مثل ذلك . وهذه الحرب الكبرى انتهت برومة إلى الاستيلاء على كل صقلية باستثناء املاك سيراقوسة ، وعلى كل شبه الجزيرة الايطالية . وأملاك سيراقوسة كانت في سلم في ما كانت بقية ايطالية منطقة حرب تعاني الأمرّين من ويلات الحرب . وقد أتيح لهذا الجزء من صقلية أن ينجو بنفسه بسبب ما كان يتمتع به هيرون من تعقل . وهيرون كان الأكثر اعتدالاً في سلسلة طغاة سيراقوسة . فقد غير هيرون ولاءه في سنة ٢٦٣ ق.م. ، وكأنه فعل ذلك بنوع من الرؤ يا المستقبلية ، ومن ثم فقد قضى السنوات الثماني والأربعين الأخيرة من حكمة ، وحتى وفاته سنة ٢١٥

ق.م. وهو عميل رومة الأمين . وقد كانت السنوات من ٢٦٣ إلى ٢١٥ سنوات سعيدة في تاريخ سيراقوسة المضطرب ، كما كانت السنوات ٣٤٤ ـ ٣٣٧ ق.م. ، وقد دام السلام الهيروني سبعة أضعاف المدة التي عرفها حكم تيموليون .

وبالنسبة إلى رومة فإن نتيجة حربها الأولى مع قرطاجة انتهت بأن أصبحت القوة البحرية النافذة في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وفي سنة ٢٣٨ ق.م. في ما كانت قرطاجة مشلولة الحركة بسبب ثورة قام بها المرتزقة في افريقية ـ وهؤلاء المرتزقة هم الذين اضطرت قرطاجة إلى اجلائهم عن صقلية وكانت قرطاجة تحاول التخلص منهم بايسر الشروط ـ اغتنمت رومة الفرصة فاستولت على سردينيا وارغمت قرطاجة على التخلي عنها لها . وعلى كل فإن ثورة المرتزقة أخمدها هملكار برقة (الصاعقة) ، في سنة ٢٣٧ ق.م. ، وهو بطل الحرب الحديثة مع رومة . وفي السنة نفسها قاد هملكار حملة الى اسبانية . وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان هملكار وصهره وخليفته هسدروبعل قد أقاما ، في شبه جزيرة ايبريا ، امبراطورية قرطاجية برية جديدة ، كانت أوسع وأهم بكثير من الرؤوس الساحلية التي خسرتها قرطاجة في الجزء الشمالي الغربي من صقلية . وفي سنة ٢٢١ خلف هنيبعل (هنيبال) ابن هملكار ، هسدروبعل في القيادة في ايبريا . وكان هنيبعل قد اعتزم منذ مدة طويلة ان ينتقم لانكسار قرطاجة على يد رومة في حرب ٢٦٤ ـ ٢٤١ ق.م. وأصبح الآن في وضع يمكنه من القيام بهذه المحاولة . وهكذا فإن الوضع في سنة ٢٢١ ق.م. كان ، في ما يتعلق بالحوض الغربي للبحر المتوسط ، غير حاسم ، على نحو ما كان عليه في الحوض الشرقي للبحر نفسه . وفي الدور التالي لتاريخ الطرف الغربي لايوكومين العالم القديم ، كان على هاتين المنطقتين أن تتحدا في ميدان واحد للحروب .

٣٥ ـ التشين والهان الغربية :
العهود الامبراطورية في الصين ٢٢١ ق.م ـ ٩م

لم تعرف السنة ٢٢١ ق.م. أي حادثة حاسمة ، وذلك في منطقة الاويكومين من العالم القديم ، الواقعة الى الغرب من الصين ، والممتدة من شبه القارة الهندية إلى مضيق جبل طارق . وعلى العكس من ذلك فإن هذه السنة بالذات كانت منطلق حقبة هامة بالنسبة للصين . فقد تم في هذه السنة توحيد الصين سياسياً ، وتاريخ تمام هذا التوحيد هو حد فاصل في التاريخ الصيني . فقبل ٢٢١ ق.م كانت وحدة حضارية لكنها لم تكن قط وحدة سياسية . ومنذ ذلك الحين كانت الصين تتعثر وحدتها السياسية فتتقسم سياسياً ، لكنها ، إلى تاريخ وضع هذا الكتاب ، كانت تعود دوماً فتتوحد سياسياً بعد فترة ، قد تطول وقد تقصر ، من الانقسام والفوضى .

وقد كان ثمة وحدة بين الصين قبل ٢٢١ ق.م. والصين بعد ٢٢١ ق.م. في أمر واحد . ذلك أنه منذ فجر التاريخ الصيني والعالم الصيني يتسع جغرافياً باستمرار . وفي سنة ٢٢١ ق . م . كان قد اتسع جنوباً ، إلى حوض نهر يَنْغتسي ، من موطنه الأصلي في الحوض الأدنى للنهر الأصفر ، وفي وادي نهر واي ، الذي هو رافد من روافد النهر الأصفر . وملك دولة تشين تشنغ ، الذي أصبح أول امبراطور (باسم شيه هوانغ ـ تي) للصين الموحدة سنة ٢٢١ ق.م. ضم ، قبل وفاته ، إلى امبراطوريته البلاد التي تشمل اليوم كوان تونغ وكوانسي وفيتنام الشمالية . وفي سنة ١١١ ق.م. فتح الامبراطور هان وو ـ تي هذه البلاد الجنوبية من جديد ، وهي البلاد التي كانت قد استعادت استقلالها بعد سقوط امبراطورية تشين . وفي سنة ١٠٨ ق.م. قضى هان وو ـ تي على دولة صينية مستقلة في كوريا كان قد أنشأها مستوطنون صينيون ، وضم شمال كوريا ، وانشأ فيها أربع قيادات عسكرية صينية .

كان من اليسير ضم كوريا والجنوب في الامبراطورية الصينية لانهما كانا صالحين للاستغلال الزراعي . وإلى شمال حدود العالم الصيني كانت ثمة أراض هامشية ، وهي

منغوليا الداخلية اليوم ، التي كانت تصلح أما لاستغلال زراعي فقير أو لتكون مراعي جيدة . إلا أن السهوب اليوراسية بالذات كانت ارضا تُعْجِزُ الفلاحين الصينيين والجيوش الصينية ورجال الادارة . فهنا كان الاقتصاد الرعائي البدوي والنَظم وأساليب القتال ، المرتبطة بالرعاية والبداوة ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية . وكان البدو ، في مناطقهم الخاصة بهم ، صعبين بالنسبة إلى جيرانهم المستقرين . فالبدو الهزيونغ ـ نو (الهون) هزموا المؤسس الثاني للامبراطورية الصينية هان ليوبانغ (كاو ـ تسو) في سنة ٢٠٠ ق.م. والامبروطور نفسه نجا بأعجوبة من مثل المصيبة التي أصابت كورش الثاني . وكان على الحكومة الامبراطورية الصينية أن تتنازل عن بعض الأرض إلى جماعة هز يونغ ـ نو ، وان تدفع لهم الجزية ، وقد هاجموا الصين سنة ١٧٧ ق.م. ثم مرة ثانية سنة ١٥٨ ق.م. وقد بدأ هجوم صيني مضاد سنة ١٢٨ ق.م. لكن الهزيونغ ـ نوكانوا مراوغين كما كان السكيثيون المقيمون في الطرف الغربي من السهوب ، لما هاجم داريوس الأول مراعيهم . ولم يكن من الممكن القضاء على الهزيونغ ـ نو ، كما انه لم يمكن القضاء على السكيثيين . وكما أن اخضاعهم أو ترحيلهم لم يكونا ممكنين عملياً .

ارسل هان وو ـ تي ، كمقدمة للهجوم الصيني المضاد ، رسولاً اسمه تشانغ تشين (سنة ١٣٩ ق.م.) للاتصال باليوهيتشين (المعروفين ايضاً بالطوخاروي) ، وهم شعب بدوي كان الهزيونغ ـ نو قد اجلوهم عن كانسو غربا . كانت مهمة تشان تشين اقناع اليوهيتشين ان يتعاونوا مع الصينيين كي يمسكوا بعدوهم المشترك ، الهز يونغ ـ نو في ما بين الفريقين ، كما لو كان الفريقان فكَي كماشة . في سنة ١٢٨ ق.م. وجد تشانغ ـ تشين اليوهيتشين في بلاد ما وراء النهر. وقد فشل في حملهم على العمل ضد الهز يونغ ـ نو ، لكنه عاد الى الصين في سنة ١٢٥ / ٦ ق.م. وفي سنة ١١٥ ق.م. بدأ برحلة في مهمة ثانية ، هذه المرة كانت الى فرغانة في حوض جيحون والى الصفد ، في بلاد ما وراء النهر . وقد احتل الصينيون فرغانة في سنوات ١٠٤ و١٠٢ و٤٢ ق. م وقد اشعرت رحلات تشانغ تشين الصينيين بوجود مدنيات الى الغرب من الصين ، وإلى الأهمية الحضارية لهذه المدنيّات . وقد كانت الصين ، بطبيعة الحال ، تتلقى الحوافز والمعرفة من الغرب ومن جهات أخرى ، الواقعة وراء حدود الصين منذ العصر الحجري الحديث على أقل تعديل . ومنذ الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد ، أخذت الصين تدرك صلاتها ببقية الاويكومين في العالم القديم .

إن حركة توسع العالم الصيني لم تتعثر في سنة ٢٢١ ق.م. لكن ، كان ثمة أمور أخرى متعددة ، حيث تخلت دولة تشين في مسيرتها عن ماضي الصين منذ سنة ٣٥٦ ق.م. حين بدأ الفيلسوف السياسي القانوني ، شان يانغ ، عمله الثوري في إعادة نظم تشين . فبين سنتي ٢٥٦ و٢٤٩ ق.م. قضى جد تشين شيه هوان ـ تي على بيت تشو ، الذي كان قد حافظ للمجتمع الصيني اثرا للوحدة على مستوى الطقس الديني . وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان شيه هوان ـ تي قد قضى على الدول الست المحلية جميعها التي كانت منافسة لتشين . لكن تشين شيه هوان ـ تي حكم على مملكته الاسروية بالفناء . وقد كانت نتيجة فعله عكس ما نواه تماماً ، ومما لا شك فيه أنه لم يكن يعي ما الذي كان يفعله . ومثل اشور قبل ذلك باربعمئة سنة ومقدونيا قبل ذلك بمئة سنة ، انتهى أمر تشين بسبب بناء امبراطورية . وقد نقص عدد سكانها بسبب خسائر الحرب وبسبب ارسال الحاميات إلى الخارج . وقد ملىء هذا الفراغ في بلاد تشين الأصلية ، على نحو ما تم في أشور ، بالمهجرين من مواطنهم . وبعد ٢٢١ ق.م. أجليت مؤسسات الدول الست المحلية المقهورة الى « البلاد الواقعة خلف الممرات » . إلا أن أمضى سلاح استعملته دولة تشين للانتحار كان في اتخاذها نظاماً لا تتحمله ضحاياه .

إن التوحيد السياسي على طريقة تشين شيه هوان ـ تي كان ، في واقع الأمر ، لا يمكن تحمّله إلى حدّ أن إمبراطورية تشين قضي عليها وتمزقت خلال السنوات الثلاث التي تلت موت مؤسسها في سنة ٢١٠ ق.م. ولكن التوحيد السياسي بحد ذاته اثبت أنه يمكن الرجوع عنه . فبعد تصفية امبراطورية تشين في سنة ٢٠٧ ق.م. ، قامت امبراطورية هان سنة ٢٠٢ ق.م. فالقرارات الامبراطورية التي تمت على يد تشين شيه هوان ـ تي جعلت الامرين ، التصفية والقيام من جديد ، شيئان لا مفر منهما .

لم يقتصر عمل شيه هوان ـ تي على تدمير التركيبة السياسية فقط في الدول التي احتلها عن طريق تهجير « المؤسسات » ، بل انه محا أثر الحدود إذ أنه أعاد رسم خارطة العالم الصيني عن طريق تقسيمه إلى قيادات عسكرية . وكانت هذه يديرها موظفون من تشين تملأهم الروح القانونية . كان الفلاحون يتحملون ظلم السخرة والضرائب . وقد حاول لي سي (نحو ٢٨٠ ـ ٢٠٨ ق.م.) وزير شيه هوان ـ تي المتقنن ، أن يعطل المدارس الفلسفية التي تخالفه قانوناً . ففي سنة ٢١٣ ق.م. شجع على « إحراق الكتب » ، واقترح أن يدفن نحو اربعمئة عالم احياء في العام الذي تلاه . وفي الوقت

ذاته أرضى شيه هوان ـ تي بعض أكثر الحجات الملحة في المجتمع الصيني .

واكبر هذه الحاجات ـ التوحيد السياسي ـ أُشير اليه من قبل ، وكانت الحاجة التالية هي جعل الأمور جميعها على شكل واحد . وقد سوى شيه هوان ـ تي الكتابة وخطوط سير العربات اذ حمل الصين الأصلية بإتباع نموذج تشين . (على الأرض الناعمة في الصين الأصلية ، يجب أن تسير الدواليب في أخدود ، واختلاف المقاييس لما بين الأخدودين المتوازين كان يعرقل تنقل العربات ، كما يحدث بالنسبة للقاطرات وعرباتها ، إذ ان اختلاف قياس الخط الحديدي يحد من حركة القطر في العصر الحديث) . وأكبر عمل في التسوية قام به شيه هوان ـ تي بالنسبة الى المستوى والتوحيد هو ضم الاسوار المختلفة التي كانت تبنى ضد البدو في دولته تشين وفي الدولتين المجاورتين لها في الشمال تشاو ويَن ، بحيث أصبح سوراً واحداً هو السور الكبير . وقد كان السور الكبير ، الذي اختطه شيه هوان ـ تي ، يصل إلى الشمال من الانحناءة الشمالية الغربية للنهر الأصفر . ومن ثم فانه كان يضم ما يعرف اليوم بمنطقة أوردُس في مغوليا ، وقد كان له تأثير عكسي . فإن بناء السور حمل الهزيونغ ـ نو على الاستجابة لهذا الدليل المرئي على توحيد الصين سياسياً ، بأن توحدوا في ما بينهم ، الأمر الذي كان له على الصين التأثير المار ذكره .

كانت الغاية من العصيان العام في سنة ٢٠٩ ق.م. إعادة النظام القديم . وتلا نجاح الثائرين في تصفية نظام تشين خلاف في ما بينهم على الأسلاب . وقد كان أقوى المطالبين هسيان يو ، وهو ارستقراطي من دولة تشو السابقة . وقد اقترح هسيان يو أن يولى حفيد من احفاد الاسرة المالكة لدولة تشو بحيث يكون امبراطوراً اسمياً للصين كلها ، على أن يكون هسيان يو القوة خلف العرش الامبراطوري ، لكن الفائز في الحرب الأهلية كان ليو بانغ (كاو ـ تسو) ، وهو جندي مغامر من الحوض الأدنى لنهر هواي .

كان يترتب على ليو بانغ أن يكافىء اعوانه رفقاء السلاح عن طريق منحهم قطائع ، وكان عليه ان يرضي الشعور العام باحياء بعض الممالك التي صُفِّيَت ، إلا أنه احتفظ بالأراضي القديمة لدولة تشين الواقعة « بين الممرات » تحت حكمه المباشر ، واتخذ عاصمة له في تشِنغ ـ تشاو . وهذه كانت على مقربة من الموقع الذي ستقوم عليه تشانغ ـ أن ، ولكن على ضفة نهر واي المقابلة للعاصمة الأخيرة لدولة تشين هسين ـ

يانغ . لقد تعلم ليو بانغ درساً من فشل كل من شيه هوان ـ تي وهسيان ـ يو . لقد أدرك هو وخلفاؤه انهم يجب ان يوحدوا الصين توحيداً أكثر فعالية من هسيان ـ يو ، على أن لا يكون في ذلك الاثارة التي ظهرت على يد شيه هوان ـ تي . ومن ثم فانهم إذ أعادوا الوحدة الفعالة التي توصل إليها شيه هوان ـ تي ، ساروا بتمهل !

وقد صارت القطائع ضعيفة بسبب الانتقال السريع والتوريث ، ثم جُزِّئت أقساماً صغيرة بتطبيق مرسوم صدر سنة ١٤٤ ق.م. ينص على أنه في المستقبل يتوجّب أن تقسم القطيعة بين جميع أبناء أصحابها ، ولا يجوز أن يرثها الابن الأكبر فقط . وهذه التجزئة المستمرة للوحدات السياسية والادارية المحلية من جميع الأنواع ، كانت الوسيلة الرئيسة التي اتبعتها أسرة هان لتشديد خناق الحكومة الامبراطورية على هذه الوحدات . لقد بدأت امبراطورية هان كحزمة من القيادات العسكرية يديرها موظفون امبراطوريون وعشر ممالك ذات استقلال ذاتي معترف بها . وفي سنة ١ ـ ٢م كان هناك ثلاث وثمانون قيادة عسكرية وعشرون مملكة . وقد تبدلت النسبة بين نوعي الوحدة المحلية ، كما ان الوحدات ، من كلا النوعين ، قد تضاءلت مساحتها كثيراً . فجميع الأراضي المفتوحة جعلت قيادات عسكرية . وقد قامت ثورة قوامها سبعة ملوك محليين في سنة ١٥٤ ق.م. حملت الحكومة الامبراطورية على توصيل الممالك الى درجة العجز ، فشرّعت في سنة ١٢٧ ق.م. بأنه عندما يموت ملك ، يتوجب على إبنه الأكبر أن يتنازل عن نصف مملكة الوالد المتوفي ، إلى أصغر أخوته .

وبسبب أن الحكومة الامبراطورية أخذت تتولى بنفسها تدريجاً الاشراف المباشر للادارة المحلية لرقعة واسعة ، فقد قامت مشكلة تتعلق بكيفية الحصول على موظفين للادارة الامبراطورية . فالعودة إلى الأسلوب الذي كان متبعاً في تشين مستحيل . ذلك بأن موظفي تشين شيه هوان ـ تي المقننين كانوا مسؤولين عن قيام عصيان سنة ٢٠٩ ق.م. بسبب سوء تصرفهم ، وقد أفناهم العصاة عن بكرة أبيهم . وقد كان رد الفعل ضد اتوقراطية شيه هوان ـ تي عنيفا ، وكانت ذكريات النظام القديم قوية ، بحيث أن إتجاه ليو بانغ الأول بعد أن أصبح امبراطوراً أن يقيس عملياً (وليو بَانغ لم يكن صاحب نظريات) السياسة التاوية أي السياسة الحرة . وعلى كل حال ، فالرواية تقول أن عالماً كونفوشيا أقنع ليو بانغ بأن مثل هذا التصرف المضاد لسياسة تشين ليس عملياً . وفي سنة ١٩٦ ق.م. أمر ليو بانغ بأن مثل هذا التصرف المضاد لسياسة تشين ليس عملياً .

وفي سنة ١٩٦ ق.م. أمر ليو بانغ السلطات في كل قيادة عسكرية وكل مملكة أن تبعث بالطلاب الصالحين للعمل في الإدارة المدنية الامبراطورية إلى تشنغ - تشاو لاختيار المناسبين بعد امتحان غير رسمي. وبعد سنة ١٩١ ق.م. أعاد العلماء الكونفوشيون وضع خمسة كتب كلاسيكية، كان المعروف أن كونفوشيوس نفسه قد حررها وأقرها. وقد رسم الامبراطور هان وو- تي (حكم ١٤٠ - ٨٧ ق.م.) أنه يتحتم على كل من يرغب في الحصول على منصب في الحكومة أن يتقن الكتابة بأسلوب الكتب الكونفوشية الكلاسيكية، وان يعرف كيف يفسر فلسفة كونفوشيوس، وأن يجيز ذلك علماء كونفوشيون.

من الناحية النظرية يبدو وو- تي وكأنه فتح باب الوظائف العامة على مصراعيه لأصحاب المواهب العقلية. لكن امتحان الموظفين المدنيين الصيني لم تكن قد وضعت له قواعده الدقيقة بعد، والتفوق العلمي لم يكن قد أصبح الطريق الوحيد للتعيين وللترقية ولم يصبح كذلك قط، والنفوذ الشخصي لم يفقد تأثيره ومكانته. وعلى كل فقد كان من العسير على أسرة فقيرة أن تتكفل بالنفقات اللازمة لتربية طويلة الأمد في موضوع صعب. يضاف إلى ذلك أن قبول فلسفة كونفوشيوس ودراستها أصبحت يومها أمراً صعباً، وهذه الفلسفة اصبحت تختلف كثيراً عما كانت عليه في أيام كونفوشيوس. فالأمر الذي كان يعتبر عقلانية ليست موحى بها في نظر كونفوشيوس قد داخله تديّن وتطيّر بسبب اختلاطه بتقاليد محلية كثيرة، التي كانت بدورها من مستويات ثقافية عديدة مختلفة. وقد تم هذا الاختلاط في امبراطورية صينية كانت تشمل يومها عدداً من الشعوب المتأخرة حضارياً في اطرافها.

كان كونفوشيوس قد جرب الحصول على منصب إداري في واحدة من الدول المتحاربة محلياً، وقد كان هدفه في عمل حياته كمعلم هو المحافظة على التكوين التقليدي للمجتمع الصيني. لم يكن قد تصور التوحيد السياسي للصين، ولعله كان يعترض عليه. والسياسيون الذين نجحوا في القيام به لم يكونوا كونفوشيين، لقد كانوا مقننين. ولعله من المحتمل أن كونفوشيوس ما كان يستطيع أن يتعرف على هذه الصيغة من الكونفوشية التي كانت معروفة في القرن الثاني قبل الميلاد. ومع ذلك فإن عمل الامبراطور وو- تي في «إقامة» هذا التفسير المخفف المختلط للكونفوشية كما كان معروفاً في أيامه، هو انتصار متأخر للتفسير الكونفوشي لمعنى الحد تشُنْ تزو Ch'un Tzu. وعلى

الأقل من الناحية الرسمية فإن الامبراطورية الصينية كانت سيقع عبء إدارتها من الآن فصاعداً على أكتاف رجال وصلوا الى هذه المناصب لا بحق المولد ، بل مكافأة على الاجادة الفردية .

وقد كانت النتيجة التي ترتبت على ذلك في غاية السخرية . ذلك أن الموظف الذي علا منصبه بفضل كونه « تشن تزو » بالمعنى الكونفوشي كانت أمامه الفرصة ، التي كثيراً ما كان يغتنمها ، والتي كان يتيحها له منصبه ، في أن يصبح « تشون تزو » بالمعنى الأصلي للكلمة . فقد كان بإستطاعته أن يصبح مالكاً لأرض وان يورث أملاكه لإبنه ، الذي يصبح بإمكانه عندئذٍ أن يدربه ليصبح بدوره موظفاً مدنياً كونفوشيا . ولم يلبث الموظفون الكونفوشيون أن أخذوا يشعرون بالولاء لأسرهم ولطبقتهم ، وهذا الولاء قد يتصادم ، وكثيراً ما تصادم ، مع الولاء للامبراطور ومع واجبهم نحو جمهرة الشعب من رعايا الامبراطورية الذين لا امتيازات لهم. وكان الموظفون الكونفوشيون يحكمونهم نيابة عن الامبراطور.

ولم يكن هذا الانقسام في الولاء يستوجب اللوم ، إذ أن منسيوس ، الكنفوشي الكبير ، كان يرى ، عكس ما كان يرى مو ـ تزو ، ان حب الرجل الفاضل لابناء جنسه يجب ان يتم على درجات . فأقرب الناس الى الرجل يجب ان يكون أعز الناس إليه أيضاً ، وأسرة الموظف وطبقته أقرب اليه من الامبراطور أو جمهرة الشعب . ففي امبراطورية حيث أكدت السلطة المركزية سيطرتها على رعاياها ، فإن واجب الموظف نحو الامبراطور هو أن يطبق النظام القانوني القاسي الذي كان قد أُدْخِلَ في دولة تشين في القرن الرابع قبل الميلاد والذي فرضه تشين شيه هوان ـ تي على بقية الصين بعد سنة ٢٢١ ق.م. ؛ وفي واقع الأمر فقد كان ثمة أصل شديد من القانونية تحت القشرة الكونفوشية . لقد كان سكان الصين الموحدة سياسياً يحسون بأن الامبراطورية الصينية تتفق حدودها مع حدود العالم المتمدن ، وان الفلسفة الصينية التي يمكن ان تحفز الموظفين المدنيين المسكونيين على القيام بواجبهم نحو البشرية بصدر رحب هي فلسفة مو ـ تزو ؛ لأن مو ـ تزو كان يرى بأن الرجل الفاضل يجب أن تكون مسؤوليته نحو الأفراد من أبناء جنسه متساوية . وعلى كل حال فإن مو ـ تزو لم يتح له ، بل أتيح ذلك لكونفوشيوس ، كما فسره منسيوس ، ان نال الجائزة ، متأخراً ، بأن اصبحت فلسفته

هي الرسمية على مستوى مسكوني .

وبالنسبة الى الموظف الكونفوشي كان حكم هان أرحب مجالاً وأفضل من حكم تشين . لقد كان السيد السياسي لرعايا الامبراطور الذين كان يحكمهم ، وكان السيد الاقتصادي ، كذلك ، بالنسبة إلى الفلاحين المقيمين على الأرض التي كان يملكها . وقد كان هو وزملاؤه بإمكانهم أن يصبحوا سادة الأسرة الامبراطورية . لقد وضع تونغ تشونغ - شو ، المستشار الكونفوشي للامبراطور وو - تي ، المبدأ القائل بأن الاسرة ، اية اسرة، إنما تحكم على أساس أنها منحت انتداباً من السماء، وان هذا الانتداب يمكن ان يلغى ، وان سحبه كان يستدل عليه بقيام اضطرابات اجتماعية وحدوث نكبات طبيعية . وترتب على هذا المبدأ ، ضمنا ، أن الموظف المدني الكونفوشي أصبح هو الذي يقضي في ما إذا كانت علامات الزمان كان معناها أن انتداب أسرة ما قد نضب معينه . وبالنسبة لجمهرة الشعب الذين لا يتمتعون بأي امتيازات أصبح الفرق بين الحكم الامبراطوري لتشين وهان يتناقص وضوحاً ، كلما أضاف العالم الاداري صاحب الأرض الكونفوشي حقلاً إلى حقل . ومن أول الأمر إلى آخره كان الفلاح الصيني دوماً قريباً من حدود قدرته على الصبر . ذلك أنه بالنسبة الى الفلاح الصيني كان قيام طبقة جديدة من ملاكي الأرض مسلحة بالسلطة العامة هو القشة الأخيرة .

كانت صيانة الامبراطورية ، تحت اي حكم كان ، تفرض اعباء ثقيلة على كاهل السكان - وهم الأغلبية الساحقة - الذين لم يكونوا يفيدون من الحكم . ففي ظل حكم الهان كان يتوجب على كل فلاح صيني ان يقوم بخدمة عسكرية شهر كامل في كل سنة ، وقد يجنّد ليخدم سنتين في الجيش . وإذا اعتبرنا سعة الرقعة التي كانت تشغلها الصين المتحدة فإن الخدمة التي يقوم بها المجند قد تنقله إلى اماكن ابعد كثيراً عن بيت أجداده الذين جُنّدوا على يد الحكومات المحلية في عصر الدول المتحاربة . وخطر الموت كان ، ولا ريب ، اقل . فالخدمة العسكرية الآن كان معناها العمل مع حامية على طول السور الكبير بدلاً من الاشتباك في معركة مهلكة في قلب العالم الصيني . لكن خطر الدمار الاقتصادي ، بالنسبة إلى المجند ، كان الآن اكبر ، وكان مما يرهق الفلاح نفسياً الفرصة التي تتاح لملاك الأرض الطموع . فهذه الفرصة كانت اكبر الآن عندما كان الفلاح المجند يحمل لا إلى السور الكبير فحسب ، بل إلى اماكن قصية في السهوب في ما وراء السور خلال حرب المئة سنة التي دارت رحاها بين الامبراطورية الصينية والهزيونغ - نو

(١٢٨ ـ ٣٦ ق.م.) .

والسخرة كان من الممكن ان تكون بشكل عمل في مناجم الحديد والفحم الامبراطورية أو بناء الطرق أو حفر القني أو صيانة الطرق والقني الموجودة أو نقل احمال الحبوب مع القني أو ضد مجرى النهر وذلك لتزويد البلاط والحكومة في عاصمة اسرة الهان تشنغ ـ تشاو ، في البلاد « الواقعة وراء الممرات » أو لتزويد الحاميات على طول السور الكبير الذي كان بعد ابعد مما كانت تشنغ ـ تشاو بالنسبة إلى الحقول الشرقية والجنوبية حيث كان الناس يزرعون القمح والأرز . فلم يكن من الممكن ان تُزَوَّد حاجة الحاميات من منتوج الحقول الواقعة في جوارهم ، لأن الأرض التي كان السور يجتازها كانت قاحلة .

لقد كان التركيب الجغرافي للعالم الصيني يختلف اختلافاً بيناً عن العالم الهليني . إذ لم يكن ارضاً تحيط ببحار داخلية ، لقد كان ارضاً صلدة متماسكة . وهذا ادى إلى تساوق اكبر في الحضارة والى استمرار اطول في الوحدة السياسية باعتبار ان قضية النقل يمكن حلها . لقد كان القسم الأكبر من العالم الهليني في متناول شاطىء البحر ، والانهار الصالحة للملاحة ، باستثناء البلاد المصاقبة للبحر الأسود ، والتي لم يكن لها دور هام . والعالم الصيني ، كالعالم الهليني ، كان يعتمد في مواصلاته على الطرق المائية ، وكانت فيه انهار كثيرة، ولكن لم يكن ثمة نهر صيني كبير يجري اما من الجنوب الى الشمال أو من الشرق الى الغرب. والمناطق التي تنتج المواد الغذائية في الامبراطورية كانت تقع الى الجنوب من السور الكبير وإلى الجنوب الشرقي من العاصمة .

فكان من الضروري ان تضاف القني الى الانهار . ففي الاجزاء الصالحة للاستعمال من الانهار ، كان لا بد من نقل الاحمال صعداً ضد مجرى النهر . والطريق المائي صعداً ضد مجرى النهر الاصفر يصعب السير فيه بشكل خاص عند النقطة التي ينعطف فيها النهر على زاوية قائمة من اتجاه جنوبي الى اتجاه شمالي شرقي ، إذ يجري عبر سلسلة جبال هي الحد الغربي لسهل الصين الشمالي . فالبضائع المتجهة نحو تشنغ ـ تشاو كان عليها ان تجابه الصعوبات الطبيعية في هذا الخانق ؛ والبضائع المتجهة نحو السور الكبير كان يجب عليها ان تجابه الصعوبات الطبيعية في هذا الخانق ؛ والبضائع المتجهة نحو السور الكبير كان يجب ان تحمل برا إلى اجزاء السور التي لم تكن مصاقبة للنهر الأصفر . فنقل المواد الغذائية لم تكن ترجى منه ارباح بالنسبة للقطاع الخاص ،

ومن ثم فقد كان التسخير هو الذي يعتمد عليه للقيام بهذا العمل العام .

وهكذا فإن امبراطورية الهان لم يكن لديها احتياط غير موظف من الطاقة الاقتصادية . لقد كان عليها ان تبذل اقصى الجهد في ما يتعلق بالقوى الاقتصادية كي تحصل على حاجاتها، وفي هذه الأحوال فان البيروقراطية الكونفوشية التي جعلت من نفسها طبقة جديدة من ملاك الأرض كانت عبئاً غاية في الثقل بالنسبة للاقتصاد الامبراطوري . لقد كان الحكم الهاني ناجحاً في العمل تدريجاً على تقليص حجم الاقسام الصغرى السياسية والادارية في الامبراطورية وحكمها الذاتي ، لكنه فشل في الحيلولة دون زيادة اعداد الممتلكات الخاصة الكبيرة واتساع احجامها . ان خطر هذه الأمور على المجتمع والامبراطورية كان قد وعاه ، في حكم هان وو ـ تي ، مستشاره الكونفوشي تونغ تشانغ ـ شو ، الذي وضع المبدأ القائل « بالانتداب من السماء » . وفي سنة ٦ ق . ب . صدر مرسوم امبراطوري وضع المبدأ القائل « بالانتداب من السماء» . وفي ٦ ق . م . صدر مرسوم امبراطوري وضع بموجبه حد لمساحة الأرض التي يمكن ان يملكها اي فرد . لكن وضع هذا المرسوم موضع التنفيذ كان بيد الاداريين ـ مالكي الأرض ، الذين كانت مصالحهم الخاصة تتعارض مع واجباتهم العامة . ومن ثم فقد ظل المرسوم حبراً على ورق . وفي سنة ٩م سقطت اسرة الهان الغربية .

وقد خلفها امبراطور اسمه وانغ مانغ الذي اعتبر ان انتدابه من السماء كان مهمة لحل مشكلة الأراضي ، وهي المشكلة التي منعت البيروقراطيّةُ الكونفشيةُ اسرة الهان الغربية من حلها . وقد فشِلَت البيروقراطية وانغ مانغ أيضاً . وفي سنة ١٨م ، قبل وفاة وانغ مانغ سنة ٢٣م ، قامت ثورة فلاحين في شانتونغ التي اعلنت فشل محاولة وانغ مانغ في ايصال الحق إلى الفلاحين وتحسين حالتهم . لكن الفلاحين الثائرين لم يرثوا الامبراطورية ومشاكلها . ففي سنة ٢٥م قام فرع من بيت هان ، اسرت هان الشرقية ، بانشاء دولته واتخذ لويانغ عاصمة له ، التي كانت سابقاً مركز الادارة لتشو الشرقية . وفي سنة ٣٦م كان مؤسس اسرة هان الشرقية، كوانغ ـ وو قد اخمد ثورة الفلاحين واعاد الى السلطة البيروقراطية الكونفوشية التي كانت في عهد اسرة هان الغربية المخلوعة .

إن اسرة هان الغربية والفلاحين كليهما كانا ضحيتي البيروقراطي ـ مالك الأرض الكونفوشي . لقد كانت هذه الطبقة الجديدة المونة التي تربط الامبراطورية ، لكنها كانت ايضاً « شراً على الصين » . ان المندرين كان المجرم الصحيح الذي كان يجب ان

يسحب منه « انتداب السماء » . فالكونفوشي في المنصب أصبح « القانوني » المتشدد روحاً ، والمصالح التي كان يخدمها بعنف كانت مصلحته الخاصة لا مصلحة العرش . في هذا الوقت كانت الطبقة الجديدة صاحبة الامتيازات قد قويت جذورها . لقد كانت العنصر الوحيد في المجتمع الصيني الامبراطوري الذي نجا من غضب السماء الذي جلبته هذه الطبقة السيدة نفسها على الصين خلال السنوات المأساوية من ٩ - ٣٦م .

٣٦ - حوض البحر المتوسط وجنوب غرب آسيا والهند ٢٢١ ق.م. - ٤٨م

عـانى الفـلاحـون الصينيـون الكثـير من الشـدة بين ٢٢١ ق . م . و٣٦ م . . فالنظام السياسي الشديد الذي أقامه تشين الذي وحّد الدولة دام اثنتي عشرة سنة فقط (٢٢١ - ٢١٠ ق.م.) ، وقد تلته ثماني سنوات من الفوضى والحروب الاهلية (٢٠٩ - ٢٠٢ ق.م.) . وحكم الهان الغربي الذي جاء في اعقاب ذلك تلته ثورة فلاحين كانت فاشلة (١٨ - ٣٦م) . ومع ذلك فإن حالة الفـلاحين الصينيـين في هذه الفـترة لم تبلغ درجـة السوء التي كـانت عليه في الفتـرة السابقـة من التاريـخ الصيني - عصـر الـدول المتحاربة ، ولم تبلغ درجة من السوء تعادل ما كانت عليه حـال الفلاحـين بين الصـين والمحيط الاطلسي خلال السنوات الممتدة من ٢٢١ ق.م. إلى ٤٨م .

ففي وسط اويكومين العالم القديم وفي طرفه الغربي شهد هذا الربع من الالف من السنين انقضاء خمس دول كبرى : الامبراطوريات الماوريانية والسلوقية والبـطلومية والقرطاجية ومملكة مقدونيا . ومن بين جميع الدول الكبرى التي كانت تقوم إلى الغرب من الصين في ٢٢١ ق.م. كانت واحدة فقط ، هي الامبراطورية الرومانيـة ، لا تزال قائمة سنة ٤٨م . . وفي سنة ٣١ق.م. كانت هذه الامبراطورية ، التي لم تتعدّ ، في سنة ٢٢١ ق.م. ، ايطالية والجزر المجاورة لها ، قد توسعت بحيث شملت حوض البحـر المتوسط بكامله ، لكنها لم تملأ الفـراغ في القوى السيـاسية الـذي كان يقـوم إلى الجهة الغربية من الصين بكامله . فـالمنطقـة الواقعـة شرقي نهر الفـرات ، والتي كانت تضم ارض الرافدين وايران ، كانت قـد احتلتها جمـاعات فـرثية بـدوية حـربية جـاءت من السهوب الأوراسية ، التي لم تكن ، في سنة ٢٢١ ق.م. ، قد اعتدت بعد عـلى العالم المتحضّر المستقرّ إلى أي نقطة غربي فرثية (وهي خراسان الحـالية) . وإلى الشـرق من الامبراطورية الفرثية انشأت جماعة حربية أخرى من بدو السهوب الاوراسية ، المعروفة بالكوشان ، وهم فريق من يوه - تشي (أو توخادوي) ، امبراطورية ، وذلـك في سنة

٤٨م ، اقتعدت الهندوكوش ووحدت حوضي سيحون وجيحون مع شمال غرب الهند .

إن هذه التبدلات في الخارطة السياسية لاويكومين العالم القديم الواقع إلى الغرب من الصين كانت نتيجة لنكبات حربية وثورات وانسياحات للشعوب . فالثورة الرومانية ابتلَعَت كل البلاد التي وقعت في ايدي الرومان ، وهجرة اليوه - تشي الولاية الصينية المعروفة اليوم باسم كانسو احدث موجة تنقل بين جميع السكان الرعاة الاوراسيين في الغرب . ومن ثم فقد دفعت نحو الجنوب تلك الجماعة منهم التي كان قد مر عليها خمسة قرون وهي تقيم في السهوب إلى الشرق من بحر قزوين . وفي الوقت ذاته فقد استمر تطور الهلينية وانتشارها ، على المستوى الثقافي ، أثناء هذا الغليان العنصري والحربي والسياسي والاقتصادي .

ولم تكن اي من الامبراطوريات الثلاث القائمة في سنة ٤٨م إلى الغرب من الصين تخضع لحكم الأغارقة ، وكل منها قامت على انقاض دولة اغريقية . ومع ذلك فالامبراطوريات الثلاث كانت « هلينية النزعة» بشكل واع وبشيء من الكِبْر . وقد تقبّلت كل منها، في اراضيها، المدنية الهيلينية وكانت تعمل على نشرها. فقد كانت اللغة الاغريقية يومئذٍ لغة المدنية من المجرى الاعلى لنهر جُمْنا ، في شمال غرب الهند ، باتجاه غربي حتى طرف صقلية الغربي . وكانت الهلينية تنشر ، متشحة رداء رومانيا وبوساطة اللغة اللاتينية ، من شبه الجزيرة الايطالية في القارة الاوروبية إلى خط الراين والدانوب ، وفي شمال غرب افريقية إلى الطرف الشمالي للصحراء الكبرى . وفي سنة ٤٨ م كان قد مر على الهلينية ثمانية قرون وهي تتسع ، وكلما اتسع مجالها ، كانت تتوثق صلاتها بالحضارات غير الهيلينية المختلفة التي كانت تتعدى على مواطنها ، ويعمق تأثر تلك بهذه . ومع ذلك ففي هذه الطبخة الحضارية المتجهة دوماً نحو النضج ، ظل الجزء الهليني هو العنصر المُهَيْمن في كل مكان .

وأول اعراض التململ الذي رافق تطور الهَلْيَنَة ظهرت في الهند ؛ فقد بدت هنا ، على الامبراطورية الماوريانية ، امارات التضعضع قبل وفاة الامبراطور اشوكا في سنة ٢٣٢ ق.م. ، إلا أن الاعصار الذي دمر ثلاثة ارباع الاويكومين من العالم القديم تولد في الطرف المقابل . كان الرومان والقرطاجيون قد اتفقوا ، سنة ٢٢٦ ق.م. ، على اعتبار نهر ابرو حدا بين منطقتي نفوذ كل من الفريقين ، وقد تم هذا باتفاق بين الحكومة

الرومانية وهسدروبال ، صهر هنيبعل ، وسلفه المباشر في زعامة الامبراطورية القرطاجية الجديدة في اسبانية ، وهي التي كان قد انشأها هملكار ، والد هنيبعل . وفي سنة ٢١٩ ق.م. هاجم هنيبعل مدينة ساغنتم ، الواقعة على ساحل المتوسط في اسبانية ، واحتلها ، وقد كانت محمية رومانية تقع جنوب نهر ابرو . في سنة ٢١٨ ق.م. سار هنيبعل (ومعه الأفيال) من الابرو عبر جبال البيرنيه ونهر الرون وجبال الالب الى حوض نهر البو ، وهو الذي كانت رومة تقوم يومها بضمه إلى املاكها . وقد تغلب هنيبعل على جيش روماني هناك ، واجتاز جبال الأبنين ، ودحر جيشاً رومانياً آخر عند بحيرة تراسيمين في إترووريا (سنة ٢١٧ ق.م.) ، ثم كسر جيشاً رومانياً ثالثاً ، وكان اكبر الجيوش الثلاثة ، في كاني في منطقة ابوليا سنة ٢١٦ ق.م. .

إن انتصار هنيبعل الذي توج حملته كان ايذاناً بوضع استراتيجيته موضع الاختبار . ففي الحرب الرومانية القرطاجية الأولى (٢٦٤ - ٢٤١ ق.م.) انتزعت رومة من قرطاجة سيطرتها البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وقد تفوقت القوة البشرية الحربية التي حصلت عليها رومة عن طريق التوحيد السياسي لشبه الجزيرة الايطالية على جماع مواطني قرطاجة وحلفائها الليبوفينيقيين ورعاياها الليبيين والاسبان . وقد عوَّضت قرطاجة عن ضآلة العدد (في جيشها) بالخبرة والروح الجماعية في جيشها الصغير المحترف الذي ورثه هنيبعل عن والده وصهره . وخسارة قرطاجة لقوتها البحرية استُعِيض عنها بالعمل التنظيمي الفريد لسوق الجيش الذي قام به هنيبعل بمهاجمته ايطالية براً عبر اسبانية . كان هنيبعل يعرف ان سيطرة رومة لم تكن محببة لدى غالبية الايطاليين ، وبخاصة بين اولئك الذين أثقلت كواهلهم واجبات المواطنة الرومانية التي فُرِضَت عليهم ، دون ان يمنحوا حقوق المواطن الروماني من الدرجة الاولى . كان هنيبعل قد خَمَّنَ انه إذا أنجز ما تم له إنجازه في الواقع في كاني سنة ٢١٦ ق.م. فإن حلفاء رومة في شبه الجزيرة الايطالية ومواطني الدرجة الثانية سينفصلون ، وان رومة ستخسر تفوقها في القوة البشرية ، وإنها لا بد ان تسَلِّم ضمن شروط سيترتب عليها ان تعود املاكها وقوتها البشرية الى الحدود المتواضعة التي كانت عليها قبل قفزة رومة الاولى الكبيرة في سنة ٣٤٠ ق.م.

وقد انفصل اغلب حلفاء رومة الايطاليين في الجنوب الشرقي ، بعد الانكسار الثالث والاسوأ ، الذي اصاب رومة على يد هنيبعل في كاني ، وكذلك انفصل عنها مواطنو الدرجة الثانية في كامبانيا . إلا أن الحكومة الرومانية ظلت تملك اواسط شبه

الجزيرة الايطالية وشمالها ، وكان جيش هنيبعل المحترف الذي لا يقهر أصغر من ان يتابع سلسلة انتصاراته الباهرة بحيث يقوم بحملة ضد قلب القوة الرومانية . وقد ظهر في هذا ضعف استراتيجية هنيبعل . فبَعد تغلّب رومة على نكبتها في كاني ، اصبح انكسار هنيبعل المقبل امراً وشيك الحدوث . ومن ذلك الحين لم تُتِح الحكومة الرومانية لهنيبعل الفرصة لأن ينتصر على اي من الجيوش الرومانية في معارك نظامية . لقد جندت الحكومة الرومانية قوتها البشرية التي كانت لا تزال وفيرة ، إلى أقصى حد للمحافظة على الجبهة في جنوب شرق ايطالية ولتزويد الحاميات بكثافة في الجزء الذي كان لا يزال على حاله من ممتلكات رومة في شبه الجزيرة الايطالية .

ولم تُمَسّ سيطرة رومة البحرية بأذى بحيث انها منعت الامدادات المرسلة إلى هنيبعل من الوصول إلى ايطالية الا في فئات قليلة ، كما أنها مكّنت رومة من الهجوم على الممتلكات القرطاجية في اسبانية . وفي سنة ٢٠٦ ق.م. كانت كل اسبانية القرطاجية قد سقطت في أيدي رومة . وفي سنة ٢٠٥ ق.م. هاجم بوبليوس كورنيليوس شيبيو ، القائد الروماني المنتصر في اسبانية ، البلاد القرطاجية في شمال غرب افريقية . وعلى العكس من الحملتين السابقتين اللتين قادهما اغاثوكليس في ٣١٠ - ٣٠٦ ق.م. وسلف شيبيو الروماني ماركوس اتيليوس ريغولوس في ٢٥٦ - ٢٢٥ ق.م. ، فإن حملة شيبيو كانت ناجحة . فاستُدعي هنيبعل من ايطالية الى افريقية سنة ٢٠٣ ق.م. وقد لقي هزيمة ساحقة في نَزّاغارا (٢٠٢ ق.م.) على يد شيبيو .

وقبل هذه الخاتمة الحاسمة كانت الحرب الهنيبعلية قد انتشرت من ايطالية ، لا إلى اسبانية وافريقية فحسب ، بل حتى الى صقلية وبلاد اليونان . ففي سنة ٢٢٠ ق.م. كان القتال قد احتدم بين ايتوليا وبين حلف من دول اخرى في بلاد اليونان ، تتزعمه مقدونيا . وكان الايتوليون يلقون الامرين من القتال . وفي سنة ٢١٧ ق.م. مكنتهم الاخبار الواردة من ايطالية من اقناع خصومهم الاغارقة بعقد صلح . وفي سنة ٢١٥ ق.م. عقد فيليب الخامس ، ملك مقدونيا ، معاهدة مع هنيبعل ، وقد تعرض الرومان لرسله ، الذين كان يرافقهم المفوضون القرطاجيون ، وقامت رومة بمحاربة مقدونيا . وفي سنة ٢١٢ ق.م. عقدت ايتوليا معاهدة مع رومة . وبذلك ورّطت نفسها ثانية في القتال مع مقدونيا وحلفائها في بلاد اليونان . وقد خسرت ايتوليا ، في هذه الحرب ، الكثير من ارضها في ثيساليا لمقدونيا ، بحيث انها عقدت صلحاً

منفرداً مع مقدونيا (٢٠٦ ق.م).وهذا حمل رومة على عقد صلح مع مقدونيا (٢٠٥ق.م.) . ومعاهدتا السلم كلتاهما كانتا في صالح مقدونيا لفترة قصيرة ، لكن الثمن كان قيام حرب انتقامية قريبة ، اذ انه في سنة ٢٠٥ ق.م. كان من الواضح بان رومة كانت ستحقق نصراً حاسماً ضد قرطاجة .

والحرب الانتقامية التي شنتها قرطاجة ضد رومة كانت قد فُشِلَت . فبدلاً من ان تنجح قرطاجة في قلب نتائج الحرب التي قامت بين ٢٦١ و٢٤٦ ق.م. فقدت قرطاجة مكانتها كدولة كبرى ، واصبحت الآن تحت رحمة رومة وقد كانت خسارة قرطاجة المادية ، على كل حال ، دون خسارة رومة في حروب هنيبعل . فقد حاربت قرطاجة في بلادها ثلاث سنوات فقط (٢٠٥ ـ ٢٠٢ ق.م.) ، فيما ظل هنيبعل يعيث في شبه الجزيرة الايطالية افساداً مدة خمس عشرة سنة (٢١٧ ـ ٢٠٣ ق.م.) والدمار الذي اصاب جنوب ايطالية وصقلية لم تُزَل آثاره ، فقد ترك آثاراً اقتصادية واجتماعية وسياسية تكاد تكون انتصاراً متأخراً لهنيبعل وكان هذا اكثر ايذاء لرومة من انتصار هنيبعل الحربي غير المجدي في كاني سنة ٢١٦ ق.م.

وقد كان ابلغ الأذى نتيجة لحرب هنيبعل هو الذي اصاب الاغارقة في ايطالية وصقلية . فقد ظل هيرون الثاني ملك سيراقوسة اميناً للمعاهدة التي عقدها مع رومة ، ولكن بعد وفاته (٢١٥ ق.م) انفصلت سيراقوسة وتراس (تارنتوم) وأكراغاس (اغريغنتوم) عن رومة ، وترتب على ذلك ان حملت عليها رومة حملة عاصفة ، فنهبت لونتيني ، اكبر مدينة اغريقية بعد سيراقوسة ، في مملكة هيرون . وفي بلاد اليونان تأذَّت حليفات مقدونيا بسبب شروط المعاهدة بين ايتوليا وروما . فقد تم الاتفاق على انه إذا احتل الحلفاء مدينة معادية نال الأيتوليون الأرض والابنية ونالت رومة الأموال المنقولة بما في ذلك من تبقى من السكان ، الذين كان للرومان ان يبيعوهم في سوق الرقيق ، وقد فعلوا ذلك في الواقع .

لقد كان فيليب الخامس ملك مقدونيا قصير النظر ، ومعاصره السلوقي الامبراطور انطيوخوس الثالث كان اعمى . بعدما اثار فيليب رومة ومرّغ جبين ايتوليا ، سار شرقاً في سنة ٢٠٢ ق.م. في الوقت الذي كانت فيه رومة على وشك قهر قرطاجة ، وبالتالي استعادة حريتها في التصرف . ففي سنة ٢٠٢ ق.م. هاجم فيليب ، وبدون اي استشارة ، خمس مدن اغريقية واحتلها ، وسار على طريقة الرومان

في الايقاع بالمقهورين بأن باع سكان ثلاث من هذه المدن الخمس غير المؤذية في سوق الرقيق . اما انطيوخوس فقد شن الحربْ السلوقية ـ البطلومية الرابعة للاستيلاء على جنوب سورية في سنة ٢٢١ ق.م. كما شن الحرب الخامسة في ٢١٩ ـ ٢١٧ ق.م. وفي سنة ٢١٧ ق.م. ـ وهي السنة التي وقعت فيها معركة بحيرة تراسيميني ـ كُسِرَ انطيوخوس الثالث على يد بطليموس الرابع في رافيا (رفح الحالية) . وفي ٢١٦ ـ ٢١٣ ق.م. كان انطيوخوس مشغولاً في غرب اسية الصغرى ، حيث كان يعمل على القضاء على ابن عمه أخايوس . وكان اخايوس هذا قد استرجع ، باسم انطيوخوس ، الاملاك السلوقية الواقعة إلى شمال غرب جبال طوروس ، وذلك من أتالوس الاول ملك برغامون . إلا أنّ أخايوس هذا عاد فانفصل عن انطيوخوس . وبين ٢١٢ و٢٠٥ ق.م. كان انطيوخوس يقود حملات الى الشرق من نهر الفرات . ففي سنة ٢٠٦ ق.م. كان في وادي نهر كابول (وهي قرنة من امبراطورية موريان المتزعزعة) . وقبل نهاية السنة ذاتها كان يقود حملات في الخليج العربي .

كانت المسافات التي قطعها انطيوخوس قريبة من تلك التي اجتازها الاسكندر ، لكن نتائجها السياسية كانت هوائية . لقد حصل انطيوخوس على اعتراف اسمي بسلطته على ارمينية وميديا الشمالية (أذَرْبيجان الحالية) وفرثية وبكتريا (الصغد في ما بعد)، لكن الحكام المحليين استعادوا استقلالهم عملياً حالما أدار ظهره . وفي سنة ٢٠٢ ق.م. شن انطيوخوس الثالث الحرب السلوقية ـ البطلومية السادسة ، ولما عُقِدَ الصلح سنة ١٩٨ ق.م. ظل جنوب سورية في يده . وفي ذلك الوقت كان فيليب الخامس يتجه نحو خسارة حربه الثانية مع رومة وايتوليا .

بين سنتي ٢٠٠ و١٦٨ ق.م. فرضت رومة هيمنتها على سواحل حوض البحر المتوسط الشرقي بأجمعها . في سنة ١٩٧ ق.م. انتصرت رومة على مقدونيا بشكل حاسم في كينوسيفالي في تساليا ، وبذلك اقصت المقدونيين عن كل ممتلكاتهم الاغريقية الواقعة إلى جنوب جبل أولمبوس وفي جنوب غرب آسية الصغرى . وفي سنة ١٩٥ ق.م. انتزعت حملة رومانية ، كانت تعمل في بلاد اليونان ، من اسبارطة كل سواحلها ، وبذلك شُلَّت عن الحركة . وهكذا عادت اسبارطة إلى ما كانت عليه قبل ان توسع رقعتها في النصف الثاني من القرن الثامن ق.م. ، اي دولة صغيرة محصورة برا . وفي سنة ١٩٢ ق.م. اتحد انطيوخوس الثالث وايتوليا في حرب ضد

رومة . وقد اضطر انطيوخوس إلى التسليم سنة ١٩٠ ق.م. وايتوليا سنة ١٨٩ ق.م. وكان على انطيوخوس ان يتخلّى عن كل الأراضي السلوقية الواقعة شمال غربي جبال طوروس ، وان يدفع تعويضاً حربياً كبير القيمة . وفي حرب ثالثة قامت بين مقدونيا ورومة (١٧١ ـ ١٦٨ ق.م.) صَفّت رومة مملكة مقدونيا ، وقسّمت ممتلكاتها الى أربع ولايات تحت سيطرة رومة .

كان باستطاعة انطيوخوس ان يتفادى صدامه مع رومة . ففي المفاوضات التي دارت قبل نشوب الحرب ، عرضت رومة عليه مجموعتين بديلتين من الشروط في سبيل التعايش السلمي . وكلاهما كانا معتدلين . كان بامكان انطيوخوس ان يقبل ايا منهما بدون صعوبة ، وبذلك يصبح التعايش السلمي ممكناً . ذلك أنه كان ثمة مجال للقوتين في العالم الهليني الذي يتسع باستمرار ، وكانت تطوراتهما الدستورية تسيران في خطين متوازيين . فقد كانت كل من الامبراطورية السلوقية والامبراطورية الرومانية تتطور نحو اتحاد لدول ـ مدينة ذات استقلال ذاتي . لكن الانكسار الشائن الذي جلبه انطيوخوس الثالث على نفسه قضى بأن تقسم الامبراطورية السلوقية بين رومة وفرثية .

لقد ضخم الرومان من شأن قوة الامبراطورية السلوقية وذلك بسبب اتساعها ، وبسبب انتصارات انطيوخوس الثالث السابقة الخادعة، وبسبب ان هنيبعل قد وضع نفسه تحت تصرف انطيوخوس في سنة ١٩٥ ق.م. وكان الرومان قد تعرفوا إلى قوة مقدونيا تعرفا صحيحاً في ٢١٥ ـ ٢٠٨ ق.م. وفي ٢٠٠ ـ ١٩٧ ق.م. ، ومن ثم فقد استصغروا شأنها في ١٧١ ـ ١٦٨ ق.م. وقد كان مقضياً على مقدونيا ان تخضع لرومة ، لأنها لم تنجح في توحيد بلاد اليونان سياسياً تحت سيادتها بشكل دائم ، على نحو ما نجحت رومة في توحيد ايطالية . ثم بسبب الفرق الكبير بين الدولتين في القوى البشرية الحربية . ففي الحرب الثالثة استطاعت مقدونيا ان تُلْقِي بقواها البشرية جمعاء في ميدان القتال ، اذ ان رومة قد جردتها ، في الحربين الرومانية ـ المقدونية السابقتين ، من الحصون الواقعة في الخارج ، حيث كان جزء كبير من القوات المقدونية قد حصرت فيها . ومن ثم فقد اضطر الرومان ، في هذه المرة ، إلى بذل جهد كبير في سبيل التغلب على المقدونيين لأن هؤلاء ، مع انهم كانوا دون الرومان عدة وتخطيطاً ، كما كانوا دونهم عدداً ، فقد كانوا بواسل ، وكانوا مصممين على ان يحتفظوا بالمجد الذي كان لسجلهم القومي الحربي . وعلى كل فقد كانت هذه المرة

الوحيدة التي جهدت رومة نفسها في سبيل فرض سلطانها على بلاد المشرق . فكلمة واحدة حملها رسول روماني ، نقل بها خبر الانتصار الروماني الحاسم على مقدونيا في معركة بِدْنا ، كانت كافية في سنة ١٦٨ق.م. لحمل انطيوخوس الرابع ، ابن انطوخيوس الثالث وخَليفته الثاني ، على التخلي عن مصر . وكان انطيوخوس الرابع قد احتلها فيما كان الرومان مشغولين في الحرب التي كلفتهم من الجهد اشده في حروبهم في بلاد اليونان .

لقد استخدمت « المؤسسة » الرومانية الدبلوماسية لمساندة حروبها ، وقد استعمل الرومان الفن الدبلوماسي ذاته في التسود على المشرق الذي استعملوه من قبل بنجاح في التسود على شبه الجزيرة الايطالية . فقد جندوا في الدول المعادية طابوراً خامساً ، عن طريق تغليب الأقليّة الثريّة من السكان على الغالبية الفقيرة . وبالنسبة إلى الدول الكبرى التي كانت تنافس رومة ، جند الرومان حلفاء لهم بين الجيران الضعفاء للدول الكبرى . ولم يلبثوا ان باغتوا هؤلاء الحلفاء بالتخلي عنهم حالما كان يتم لهم القضاء على دولة منافسة ، الأمر الذي كان يتم بمساعدة هؤلاء الحلفاء ، بحيث اظهروا ان مساعدة الحلفاء كانت غير ذات أثر . فقد ادارت رومة ظهرها لايتوليا بعد تغلبها على مقدونيا (١٩٧ ق. م.) وأدارت ظهرها لمقدونيا بعد ان اعانتها هذه (١٩٠ ـ ١٨٩ ق. م .) على التغلب على الأيتوليين . وأدارات ظهرها لبرغامون ورودس، وكانتا قد اعانتا رومة في ان تتغلب على انطيوخوس الثالث (١٩٢ ـ ١٩٠ ق. م.) ، ومع ان الايخائيين كانوا حلفاء مخلصين لرومة منذ ان تخلوا عن حليفتهم القديمة مقدونيا (١٩٨ ق. م.) . وأدارت رومة ظهرها لنوميديا بعد ما تغلبت على قرطاجة في حرب ٢١٨ ـ ٢٠١ ق. م. وقضت عليها نهائياً في حرب ١٥٠ ـ ١٤٦ ق. م. ، وكان ذلك بعون من نوميديا . وبعد انتصارها الحاسم في بلاد اليونان، فعلت رومة ما كان قد فعله تشن شيه هو ان ـ تي بعد انتصاره الحاسم في الصين سنة ٢٢١ ق. م . فقد نقل الرومان إلى ديارهم الخاصة الأعضاء البارزين من « المؤسسات » المقدونية والاخائيين وغير ذلك من المدن ـ الدول الاغريقية القارية . وقد اصاب إيبيري مولوسُسْ ، الذين لم يكونوا من المحاربين إلى جانب مقدونيا ، والايتوليين ، الذين كانوا حلفاء رومة الحذرين في الحرب المقدونية ـ الرومانية (١٧١ ـ ١٦٨ ق. م.) ـ اصابتهم ضربات بعد ما امعن في الأذى . فالمولوسيون نهبوا

واستُرِقّوا ، والايتوليون صُودِرَت ممتلكاتهم ، اضافة الى وجوب تقديم ما فُرِضَ عليهم من المهجَّرين .

كانت السنوات ٢٢١ ـ ١٦٨ ق.م. مؤلمة بالنسبة إلى سكان حوض البحر المتوسط ، اما السنوات ١٦٧ ـ ١٣١ ق.م فقد كانت طافحة بالالم بالنسبة لهم . فمحنة حرب هنيبعل اورثت الرومان الرعب من وجود دولة قوية في مدى يمكن ان تَضرِبَ ايطالية منه . ولعلّ الامبراطورية السلوقية البعيدة هي الوحيدة التي كانت « المؤسسة » الرومانية قد تسمح لها بالاستمرار في التعايش مع الامبراطورية الرومانية لو ان انطيوخوس الثالث كان اكثر حكمة في السنوات الحاسمة (١٩٦ ـ ١٩٢ ق.م.) . ومنذ سنة ١٩٠ ق.م. لم تهمل « المؤسسة » الرومانية أي مناسبة لتقليص قوة الامبراطورية السلوقية ، مع ان نتيجة حرب ١٩٢ ـ ١٩٠ ق.م كانت قد اظهرت للعيان العجز الحربي لهذه الامبراطورية المتسعة جغرافياً . وحتى قرطاجة ، التي أصبحت عاجزة منذ سنة ٢٠١ ق.م. هاجمتها رومة بدون مبرّر سنة ١٥٠ ق.م. ودمرتها سنة ١٤٦ ق.م. وقد دمرت كورنت في السنة ذاتها ، تماماً بعد مرور خمسين سنة على اراحة رومة اياها من الحامية المقدونية التي كانت تحتل قلعتها . وقد كانت اهداف « المؤسسة » الرومانية سلبيّة . فقد كانت ترغب فقط في ضرب اي دولة كانت تُظْهِر اي اشارة الى رغبتها في تأكيد استقلالها ، حتى ولو ان الدولة المزعجة كانت عاجزة عن القيام بمثل ما قام به هنيبعل .

إن عزوف « المؤسسة » الرومانية عن ملء الفراغ السياسي الذي اوجدته عامدة ، يتناقض مع عمل تشن شيه هو ان ـ تي الذي قام به بعد ما قضى ، في سنة ٢٢١ ق.م. على آخر دولة مستقلة باقية في العالم الصيني . فبدلاً من ان يترك تشن شيه هوان ـ تي أي فراغ سياسي ، قام حالا بضم ممتلكات الدول المتنافسة التي قضى عليها، وبذلك وحد العالم الصيني بأجمعه سياسياً في امبراطورية مركزية مكثفة كانت تُدار إدارة اوتوقراطية . فبعد سنة ١٦٨ ق.م. ، وهي السنة التي قضت رومة فيها على الدولة الوحيدة الباقية في إطار وجودها، حملت «المؤسسة» الرومانية عالم البحر المتوسط الممزق على الانتظار قروناً قبل ان تتخذ الخطوة الأولى في سبيل اعادة بنائه. ففي سنة ٦٧ ق.م. مُنِح سيد من سادات الحرب الروماني، وهو بومبي،

سلطات دكتاتورية لاعادة القانون والنظام في المشرق، وقد قام بالأمر بمقدرة كبيرة بين سنتي ٦٧ و٦٢ ق.م. ولكن احتواء عالم البحر المتوسط في سلطة واحدة لم يتم إلا سنة ٤٦ ق.م. وقد تم ذلك على يد سيد واحد من سادات الحرب الرومان وهو يوليوس قيصر منافس بومبي الناجح. وعندها أخذ يوليوس قيصر على نفسه القيام بعمل في البحر المتوسط شبيه بما قام به تشن شيه هوان ـ تي في الصين. فقد أخذ يوليوس قيصر ببناء امبراطورية مركزية اوتوقراطية الادارة، في الأرض اليباب التي خلفها أسلافه الرومان الجمهوريون خربة خالية. وقد كان على أهبة السير لتوسيع امبراطوريته الى المناطق الواقعة عبر الفرات من العالم الهليني لما توقف عمله إذ اغتيل سنة ٤٤ ق.م.

لقد كان لدى قيصر سنتان فقط من السلطة الأوتوقراطية، كان خلالهما حراً في التركيز على إعادة بناء عالمه، إذا قورن ذلك بالمدة التي كانت لشيه هوان ـ تي وهي اثنتا عشرة سنة. وحتى عمل قيصر البناء في سنتيه تعثر بسبب تحد عسكري ضد دكتاتوريته. فبالمقابلة مع شيه هوان ـ تي كان قيصر رحيماً بخصومه المكسورين، وقد كان اغتياله ثمناً لحلمه النسبي. (كان شيه هوان ـ تي قد نجا من محاولة لاغتياله، قام بها رجل من دولة ين، سنة ٢٢٤ ق.م.، ولم يكن يومها يعدو كونه الملك تشن لدولة تشين، ولم يكن قد أتم عمله وهو توحيد الصين بأكملها بالقوة). وعلى كل فان ما تلا وفاة شيه هوان ـ تي بالنسبة للصين، يدل على ان عمل قيصر، مثل عمل معاصره الصيني، ما كان ليعمّر كثيراً بعد موته حتى لو أنه أتيح له، مثل شيه هوان ـ تي، مدة اثنتي عشرة سنة للقيام به. ذلك بأن قيصر، ولو أنه كان يختلف عن شيه هوان ـ تي في انه كان حليماً مع خصومه، فقد كان يشبهه في قلة صبره وسوء تصرفه. وقد كان عالم البحر المتوسط بحاجة الى خلف لقيصر يقوم ببناء امبراطورية قيصر من جديد، وقد وجد ذلك الرجل في اغسطوس، كما ان ليوبانغ اعاد بناء امبراطورية شيه هوان ـ تي بصيغة أقل إثارة، ومن ثم كانت أكثر ديمومة.

وفي الوقت ذاته فان الانكسار الحربي للامبراطورية القرطاجية ومقدونيا والامبراطورية السلوقية على أيدي رومة بين سنتي ٢١٨ و١٩٠ ق.م. وانحطاط امبراطورية البطالمة والموريان المعاصر له زمنياً، فتح الطريق امام انتعاش الشعوب الاسيوية والأفريقية.

وحتى قبل ان تتدخل رومه في شؤون المشرق كان المصريون قد بدأوا بردة فعل ضد النظام الاغريقي البطلومي المستغِلّ. ان حكومة البطالمة كانت، اثناء الحرب السلوقية ـ البطلومية الخامسة (٢١٩ ـ ٢١٧ ق.م.)، قد سلّحت ودرّبت، على الطريقة المقدونية، فرقة من المشاة من المواطنين المصريين. وهؤلاء الجنود المصريون كانوا قد تغلبوا، في معركة رفح، على الجنود السلوقيين من العنصر الاغريقي. وهذا الانتصار الحربي المصري، على جنود من الجنس نفسه الذي كان ينتمي اليه سادة المصريين من الأغارقة المقدونيين، نفخ المصريين بثقة بالنفس جديدة. ومنذ سنة ٢١٧ ق.م. وما بعدها أصبح هؤلاء يزدادون صعوبة في الانقياد «المتسلط» الاغريقي، وأخذ الكهنة المصريون ـ وهم طائفة قوية ـ يتحينون الفرصة لينتزعوا الامتيازات المتلاحقة من الحكومة الغريبة التي أصبح ضعفها بادياً للعيان. وكان من الطبيعي ان يتزعم الكهنة الحركة الوطنية ضد الأغارقة. لكن ثورات الفلاحين كانت اجتماعية أصلاً ـ فقد كانت ثورات الفقراء ضد الاغنياء. «فالمؤسسة» الدينية المصرية، مثلها مثل المؤسسة السياسية الأغريقية، كانت هدف هذه الثورات، ووضع الكهنة كان مبهماً.

بعد سنة ٢٠١ ق.م. أخذت نوميديا، حليفة رومة في شمال غرب افريقية، تعتدي باستمرار على أراضي قرطاجة. وبعد سنة ١٩٠ ق.م. كان على الحكومة السلوقية أن تعتصر من رعاياها ما يمكنها من دفع تعويض الحرب لرومة. وقد أثار ضغطُ الحكومة المقاومةَ، إذ أن إنكسارها أمام الرومان كشف ضعف الامبراطورية الحربي. وقد كان أكبر ما اختُزِنَ من المعدن الثمين في الممتلكات السلوقية كان ما جمع في خزائن الهياكل. وقد قتل انطيوخوس الثالث في سنة ١٨٧ ق.م.، وقتل انطيوخوس الخامس في سنة ١٦٣ ق.م. وكان ذلك في محاولة كل منهما أن ينهب الهياكل في عيلام.

وقد كان الهيكل الذي لقي السلوقيون بسببه أكبر ما أزعجهم هو هيكل يهوه اليهودي في القدس. لم تصطدم الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين، لا تحت الحكم الفارسي ولا تحت حكم البطالمة الذي تلا ذلك، مع الحكومة الامبراطورية كما انها عاشت ايضا في سلام، ولو انها، منذ ايام عزرا، لم تكن علاقتها مع جيرانها ودية. لكن الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين كانت منقسمة، على نحو ما

كـان الشعب المصري منقسماً ، نتيجة لتـوتر داخلي بين الأقليـة الغنيـة والأكثـريـة الفقيرة . فالأغنياء كانوا يملكون الأرض ويسيطرون على الكنز المخزون في الهيكل في القدس . وكان الفقراء هم الفلاحون وصناع المدن والكتبة الذين يعلمون الشريعة اليهودية ، التي كانت الحكومة السلوقية تعترف بها ، كما اعترفت بها حكومة البطالمة قبل ذلك ، على أنها صالحة لتنظيم شؤون الجماعة اليهودية في جنـوب فلسطين . وفي صميم الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين كـان ثمة منـافسة أدت إلى انقسـام الأقلية الثرية بين أسرتين من النبلاء ، أسرة طوبيا وأسـرة عونيـا ، وبين ممثلي هذين البيتين المتنافسين . واثناء الحرب السلوقية ـ البطلومية السادسة ، التي انتهت بانتقال السيـادة على جنوب سـورية ، بمـا في ذلـك جنـوب فلسـطين ، من البـطالمـة الى السلوقيين ، اشتبك هذا النزاع المحلي بخصومة يهودية جديدة بين حزبين هما انصار البطالمة وانصار السلوقيين . وهذه الخصومة تشابكت ، بدورها ، بخصومـة أمر بين فريقين هما حزب يهودي غني يدعو إلى الهَلْيَنَة وحزب يهودي فقير هو ضد الهلينية . والحزب الداعي الى الهلينة كان يرى وجوب السير إلى أبعد مما ذهبت اليه الجماعة اليهودية التي نشـأت في الاسكندريـة (بمصر) خـلال القرن الـذي كان فيـه جنوب فلسـطين تحت حكم البطالمـة . فاليهـود الـذين هـاجـروا من جنـوب فلسـطين إلى الاسكندرية كانوا قـد اتخذوا اللغـة اليونـانية لغـة تخاطب بـدل الآرامية ، لكنهم لم يتخلوا عن دين الآبـاء . واليهود المُتَهَلْينـون في جنوب فلسـطين الذين كـانـوا تحت الحكم السلوقي الذي جاء في أعقاب حكم البطالمة ، جذبتهم طريقة الحياة الهلينية بكل نواحيها .

بعد تسلم انطيوخوس الرابع العرش سنة ١٧٥ ق. م. تقدم الفريق اليهودي المُتَهَلْيِن في جنوب فلسطين الى الامبراطور السلوقي الجديد يطلب العون منه ، وقد لبى طلبهم ودعم قيام دولة الهيكل اليهودية ، على الطريقة الهلينية ، وسميت انطاكية . ولم يكن هذا العمل استثنائياً . ذلك بأن سياسة الأسرة السلوقية كانت ، منذ البدء ، تقوم على أساس تبديل تركيب الامبراطورية بحيث تصبـح ، تدريجـاً ، اتحاداً لـدول ـ مدن هلينية أو مُتَهَلْيِنة ، يربط بعضها بالبعض الآخر ولاء مشترك للتاج الامبراطوري . وبعد انكسار الامبراطورية على أيدي الرومان سنة ١٩٠ ق.م. كثفت الامبراطورية سيـاسة الهَلْيَنَة التقليدية . وقد رأت الحكومة الامبراطورية في الهلينية رباطاً حضارياً قـد يكون من شأنه أن يوقف التفسّخ الذي كان يهدّد الأمبراطوريّة السلوقية نتيجة نكبتها الشائنة

في حرب كبرى .

وقد كان المتنافسون المتهلينون من اليهود يزايد واحدهم على الآخر للحصول على دعم انطيوخوس الرابع بالرشاوى ، التي كان يدفعها المستولي موقتاً على الهيكل وكنوزه من الكهنة المتقدمين . ففي سنة ١٦٩ ق.م. فيما كان انطيوخوس في طريق عودته من حملته الأولى من مصر ، نهب هيكل القدس بموافقة من المستولي عليه وقتها . في سنة ١٦٨ ق.م. بعد ما انسحب انطيوخوس من مصر بأمر صدر عن لسان رسول روماني ، واجه عصيانا قامت به الاكثرية المضادة للهَلْيَنَة من يهود جنوب فلسطين . كانت هذه الثورة موجهة ضد الأقلية المُهَلْيَنَة من الجماعة اليهودية هناك ، إلا أن انطيوخوس اعتبرها عصياناً موجهاً ضده ، ولذلك فقد كان رده صارماً . فقد بنى حصناً في القدس وأقام حامية هناك ، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٦٧ ق.م. هَلْيَنَ العبادة في الهيكل ومنع اليهود في جنوب فلسطين ، من إقامة شعائر اليهودية بالطريقة التقليدية . ويبدو أن يهوه أصبح الآن مقابل زفس الاولمبي ، ولعله أقيم له تمثال في الهيكل الذي كان من الممكن أن يكون تمثالاً لانطيوخوس نفسه على أنه « الآله الظاهر » (إيبفانوس) .

لقد تم هذا كله على يد انطيوخوس بالاتفاق مع اليهود المُتَهَلْينين في جنوب فلسطين . ولما كان هؤلاء يبدون وكأنهم المسيطرون في جنوب فلسطين ، فقد أصيب انطيوخوس بمفاجأة كبيرة لما وجد (١٦٦ ق.م.) أن مقاومة التقليديين من يهود جنوب فلسطين اتخذت شكلاً عسكرياً قوياً بقيادة الأسرة الهشمونية . وقد تغلّب التقليديّون على المُتَهَلْينين ، فاحتلوا القدس ، باستثناء الحصن ، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٦٤ ق.م. ازالوا الآثار الهلينية من الهيكل . وفي سنة ١٦١ ق.م. عقدت الحكومة الرومانية معاهدة مع الحكم الثوري ضد السلوقيين في جنوب فلسطين . وقد استسلمت حامية الحصن السلوقية سنة ١٤١ ق.م. وفي السنة ذاتها انتزعت بارني (ويشار اليهم عادة ، ولو أنه خطأ ، باسم الفرثيين) ، من الامبراطورية السلوقية ليس ميديا فحسب ، بل أيضاً بابل (جنوب العراق) وهو مخزن القوة الاقتصادية للامبراطورية .

في سنة ١٣٩ ق.م. حالو الامبراطور السلوقي ديمتريوس الثاني ان يسترد الأرض التي فقدت ، ولكنه فشِل . فقد تغلب الفرثيون ، وأُخِذَ أسيراً . ونحو سنة ١٢٣

ق.م. أرغم أخوه ، انطيوخوس السابع سيدتِس ، القدس على التسليم ، وحمل الحكومة الهشمونية على الاعتراف بسيادته . وفي سنة ١٣٠ ق.م. أرغم ممثل الأسرة الحاكم ، يوحنا هركانوس ، أن يرافقه ، على رأس فرقة يهودية ، في حملة كان يأمل انطيوخوس منها أن يعوض عن فشل أخيه الأسير . وقد استرد انطيوخوس السابع بابل وميديا في سنة ١٣٠ ق.م. إلا أن جيشه ، الذي كان قد توزع في مناطق شتوية في ميديا ، قضى عليه الفرثيون جماعة بعد الأخرى . وقد قتل انطيوخوس السابع ، إلا أن البارثيين سمحوا ليوحنا هركانوس أن يعود الى جنوب فلسطين على رأسه فرقته اليهودية دون أن يمسوا بأذى .

بين سنتي ١٢٩ و٦٣ ق.م. كان جنوب فلسطين دولة مستقلة تحت سيادة الهشمونيين ، وقد افتتحت وضمت بضعة أجزاء من سورية الجنوبية ، بما في ذلك أكثر المدن الاغريقية أو المُتَهَلْيَنة على الساحل وفي الداخل . وعلى كل حال ، ففي ٦٤ - ٦٣ ق.م. حرر بومبي المدن المحتلة وفرض سيطرة رومة على جنوب فلسطين بالذات .

إن الحركة الوطنية اليهودية كانت ، على شاكلة مثيلتها المصرية ، موجهة ضد حكومة امبراطورية اغريقية ، وقد توسعت مملكة نوميديا على حساب قرطاجة السياسي . إلا أنه ايسر ان تقلب حكماً سياسياً من أن تقاوم اغراءات مدينة ما . وحتى بعد محو قرطاجة نهائياً ، ظلت المدنية السورية ، في المدن الليبوفينيقية الباقية على ساحل شمال غرب افريقية، تسير قدماً في نوميديا، وكذلك في جنوب فلسطين ، إذ سرعان ما استقر الهشمونيون مكان السلوقيين في جنوب فلسطين ، وفي الأقضية المصاقبة في جنوب سورية ، حتى خضعوا للهَلْيَنَة شأن مقابليهم في دول وطنية خلفت الامبراطورية السلوقية مثل كوماغن .

كان الهشمونيون قد أصبحوا ملوكاً على اعتبار انهم انصار الصيغة التقليدية من اليهود ، ولذلك فإن مجاراتهم اللاحقة للهَلْيَنَة أدت إلى انشقاق بينهم وبين الحاسيديم - ممثلي اليهودية التقليدية الذين كانوا ، تحت القيادة الهشمونية ، قد شنوا حرباً ضد اليهود المُتَهَلْيِنين وضد الحكومة السلوقية ، وهي الحرب التي ربحوها . كان الكتبة يدخلون في عداد الحاسيديم ، وهم مفسرو الشريعة ، وكان هؤلاء قد حملوا السلاح تدفعهم الى ذلك بواعث متعددة . فبالنسبة اليهم لم يكن احياء الشريعة يعني احياء اليهودية في اطارها التقليدي فقط ، بل انه كان يعني ايضاً استعادة مركز الكتبة السابق

ومخصصاتهم . إلا أن السلطة قد وصلت لا إلى الكتبة ، بل إلى الأسرة الهشمونية ـ وهم اليهود الذين خلفوا الاغارقة المقدونيين وقد حكموا ـ كما كان يحكم المقدونيون ، على أنهم ملوك مُطْلَقُون . واثناء حكم الملك الهشموني الاسكندر يانوس (١٠٢ ـ ٧٦/٥ ق. م.) قامت حرب أهلية بين « المؤسسة » الهشمونية والفريسيين (الانفصاليين) وهو الاسم الذي اصبح يطلق على الحاسيديم اليوم ، وقد قُتِلَ منهم ستة الاف في القدس ، داخل اسوار الهيكل ، على ايدي حرس الملك الذين كانوا مرتزقة غير يهودية .

وحتى البدو السابقون الفرثيون ، أو على الأقل حكامهم ، الارساسيون ، اقتبسوا صباغا من الهلينية إذ أنهم ، بعد ما ضموا بابل (جنوب العراق) ، نقلوا عاصمتهم الى اكتسفون ، وهي الضاحية الواقعة على الضفة الشرقية لمدينة سلوقية الدجلية . وفي المدة الواقعة بين ٢٢١ و٣٠ ق.م. إذ زالت الدول اليونانية التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى ، أتِيح للهلينية أن تسجل نصراً لنفسها الى الشرق من فرتية ـ في الحوضين الأعلبين لنهري سيحون وجيحون (بكتريا والصغد) وفي شمال غرب الهند . وهنا ، كما حدث في كل مكان آخر ، استمر الأثر الحضاري للهلّينية بعد اختفائها سياسياً .

لقد كانت المقاومة العسكرية للاسكندر الكبير اعنف ، في بكتريا والصغد ، منها في اي جزء آخر من ممتلكات الامبراطورية الفارسية . ومع ذلك فإن أكثر التكافل ودية بين الايرانيين والاغارقة كان الذي تم هنا في ما بعد . وهذا الاتفاق الاغريقي ـ الايراني المحلي استمر بعد انفصال حاكم الصغد وبكتريا الاغريقي عن الامبراطورية السلوقية نحو ٢٥٠ ق.م. (وقد كان هذا التاريخ ذاته تقريباً الذي تم فيه احتلال فرتية على يد بارني البدو) . وقد اغرى الاغارقة البكتيريين على ملء الفراغ في المنطقة الواقعة جنوب هندوكوش امور هي : ضعف الحملة الشرقية (٢١٢ ـ ٢٠٥ ق.م.) التي قادها امبراطور سلوقية انطيوخوس الثالث ، وانكساره الكبير على ايدي الرومان الذي عقب ذلك (١٩٠ ق.م.) وانحطاط امبراطورية مَوْرِيان بعد موت أشوكا (٢٣٢ ق.م.) .

ويبدو أن أحد الاميرين البكتريين المسمى ديمترويوس قد احتل بعيد ٢٠٠ ق.م. الأراضي التي كان سلوقس الأول قد منحها لشَنْدرا غبتامَوْريا، وهي التي تقع في ما هو اليوم جنوب غرب افغانستان . فقد حكم الملك الاغريقي مينانُدَر (نحو ١٦٠ ـ ١٣٠

ق.م.) في الهند منطقة تمتد جنوباً في الشرق حتى مصبي السند ونَرْبَدا . ولعله في ايام مِيناَنْدَر حدث أن الأغارقة الذين كـانوا قـد استقروا في الهنـد وقتاً احتلوا بـاتاليبُتـرا ، العاصمة السابقة للاسرة الماوريانية المنقرضة . فقد عثر على نقود لتسعة وثلاثين ملكـاً بكتريا وهنديا اغريقيين وللملكتين إغريقيتين . وهي جميلة جمال النقود السيراقـوسية التي تعود إلى القرن الخامس ق.م. ، والنقود السيراقوسية ، والكثير من النقوش عليها غاية في الروعة . ولكن عدد الاغارقة الذين حكموا هذه المنطقة في مدة تقل عن قرنين يؤكد ما ورد عنهم في الدلائل المدونة . لقد كانوا يحكمون اجزاء صغيرة ، وقد دمروا بعضهم البعض بوساطة الحروب بين الأخوان ، وهي الرذيلة السياسية الاغريقية التي لا انفكاك منها . فهؤلاء الملوك الاغارقة ، البكتريون منهم والهنود ، كانوا دوماً يتخاصمون في ما بينهم ، على غرار ما كان يجري في المدن ـ الـدول الاغريقيـة قبل ايـام فيليب الثاني ، وخلفاء الاسكندر . وفي حال الأوائل كانوا يختلفون على اجزاء صغيرة من الأرض على جانبي هندوكوش ولم يحاولوا قط أن ينشئوا جبهة متحدة كي توقف انسياح الشعوب التي هبطت عليها من السهوب الأوراسية .

كـانت جـارتـا بكتـريـا وفـرثيـة المبـاشـرتـين الى الشمـال شعبـين من السكـا (الاسكيثيين) : أحدهما كان يسكن في ما يعرف اليوم باسم كازاخستان الى الشرق من بحر قزوين ، والآخـر في فرغـانة ، في الحـوض الأعلى لنهـر سرداريـا . وقد كـان كلا الشعبين تحت السيادة الفارسية قبل أن تنحط الامبراطـورية الفـارسية الأولى وتسقط . ونحو سنة ١٤٠ ق.م. كان الشعبان يضغط عليهـما اليو ـ تشيـه للاتجـاه جنوبـاً ، لأن هؤلاء كانوا يهاجرون جنوباً في غرب ليهربوا امام الهز يونغ ـ نو . وقد تغلب السَّكا على الاغارقة في بكتريا ، لكن فرثيه ـ وكانت قد تقوَّت باحتلالها جنـوب ارض الرافـدين ـ دفعت السَّكا من نحو سنة ١٣٨ إلى ١٢٤ ق.م. وحملتهم على تغيير اتجاههم الى حوض نهر الهَلْمَنْد الأدنى (الذي عرف من وقتها باسم بلاد السَّكا ، سيستان أو سجستان) . ومن هناك دخل السكا وادي السند واحتلوا الامارات الاغريقية في الهند ، الواحدة بعد الأخرى . وقد تبعت مجموعة من الفرثيين السَّكا على أعقابهم وفرضت حكمها عليهم . وفي الوقت ذاته ، نحو سنة ١٠٠ ق.م. ، تمكن اليوه ـ تشي من اجتياز نهر اموداريا الى بكتريا وتغلبوا على رعاياهم من السكا ، الذين كانوا قد احتلوا بكتريا قبل ذلك . لقد ذكر من قبل أن تشانغ ـ تشين ، رسول الامبراطور الصيني هان وو ـ تي ، كان قد وجد

أن اليوه ـ تشي كانوا قد استقروا في ما وراء النهر نحو سنة ١٢٨ ق.م. وفي سنة ٤٨م اجتازت الجماعة المتغلبة من اليوه ـ تشي ، وهم الكوشان ، جبال هندوكوش إلى حوض السند وفرضوا سلطانهم على الفرثيين ـ السَّكا هناك ، وعلى السَّكا المستقلين الذين كان الفرثيون ـ السَّكا قد اخرجوهم من ديارهم الى الجنوب الشرقي وإلى الجنوب . وهكذا فقد وحد الكوشان بكتريا مع شمال غرب الهند في امبراطورية اقتعدت هندوكوش .

ان البارني (الفرثيين) والسَّكا واليوه ـ تشي (توخاروي) كانوا جميعاً بدواً رعاة أصلهم من أوراسية . وكان البارني والسَّكا شعوباً تتكلم الايرانية ، الذين كانوا قد احتكوا بالفرس أولاً ثم بالأغريق قبل ان يخرجوا من السهوب الى مناطق يسكنها قوم زراع مستقرون . أما اليوه ـ تشي فقد جاؤ وا من أرض قاصية ، لم تصل اليها لا مدنية الفرس ولا الاغريق ولا الصين ، ولغة اجدادهم ، الهندية ـ الأوروبية التوخارية ، لم تكن إيرانية . ومع ذلك فهؤلاء الشعوب الثلاثة البدوية المهاجرة قد اقتبست المدنية الهلينيَّة التي كانت في المنطقة التي احتلوها ، ولم يكن الكوشان وهم فرع من اليوه ـ تشي ، أقلهم اقتباساً لها . فالنقود التي سكوها كانت تقليداً لنقود اسلافهم الاغارقة ، ان لم يكن هي بذاتها وقد سكت فوق الشعار السابق . وقد خضع الارساسيون والكوشان للهَلْيَنة بنفس الاستعداد الذي بدا على الهشمويني والرومان .

ان هرمايوس ، آخر ملك إغريقي في المنطقة التي هي افغانستان اليوم وزوجة هرمايوس الملكة كاليوب ، ماتا ، ولعلّ ذلك تم على أيدي الفرثيين ـ السَّكا ، نحو سنة ٣٠ ق.م. وهو التاريخ الذي انتحرت فيه آخر ملكة إغريقية لمصر ، كليوباترة السابعة . وكان آخر مقاومة حربية إغريقية جادة لرومة هو العصيان المقدوني (١٤٩ ـ ١٤٨) وحرب الحلف الأخائي مع رومة في سنة ١٤٦ ق.م. ، بعد القضاء على العصيان المقدوني ، كانت املا ضائعاً أمام الصعوبات المخيفة . وبعد ذلك جاءت التحديات لرومة ، لا على أيدي أي من الحكومات الاغريقية القائمة ، بل على أيدي العبيد الأغارقة أو المهلينين وعلى أيدي حكام ايرانيين ، لا أغارقة ، كانوا اسياد الدول التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى .

لقد أضعفت الحروب الأهلية (العائلية) التي قامت بين المتنافسين على العرش ، بيت سلوقس بدءاً من سنة ٢٤١ ق.م. وقد كانت الحروب الأهلية أمراً مزمناً في الأملاك السلوقية المتقلصة تدريجاً ، وذلك منذ موت الامبراطور انطيوخوس السابع سيد

يتس في ميديا ، حتى خبا آخر شعاع من الامبراطورية السلوقية سنة ٦٤ ق.م. وقد ترتب على ذلك أن أصبحت سورية ارضاً يتطلع اليها تجار الرقيق . قبل سنة ١٦٨ ق.م. كان اسطول رودس يقوم بدور الشرطي في المشرق ، لكن بعد تصفية مملكة مقدونيا ، خربت رومة رودس إذ منحت أثينا جزيرة ديلوس ، شرط أن تكون ميناء حراً . ولم يعد باستطاعة رودس أن تحتفظ باسطولها ، ومن ثم فقد كان القرصان ، لمدة قرن من الزمان ، يسيطرون على البحار المشرقية ، وكانوا يتخذون من كيليكيا الغربية (الصعبة) ومن كريت مُرْتكزاً لهم . وقد تعاون القرصان مع رجال الأعمال الايطاليين والسوريين ، الذين اتخذوا ديلوس مركزاً لهم ، على اختطاف ضحايا الحرب الأهلية في سورية وبيعهم في سوق الرقيق . وكان ذلك يتم في ديلوس ، حيث ينقلون الى المزارع الايطالية والصقلية . وكان العبيد يعملون فيها بعدما هيئت الأرضين لاستخدام انجع الوسائل الممكنة لاستغلال هذه البلاد بعد الخراب الذي اصابها اثناء حروب هنيبعل .

لقد كان العبيد الذين يقيمون في شبه الجزيرة الايطالية وصقلية يضمون ممثلين عن جميع فئات المجتمع . فأي امرىء من أي فئة كان يمكن ان يقع ضحية الحظ والتغيير في حرب اهلية . فبعض الزعماء الذين قادوا العصيان الذي قام به العبيد اخيراً ، كانوا رفيعي التهذيب ورجال دربة ادارية . وحتى في سنة ١٩٨ ق.م. كان ثمة عصيان فاشل لعبيد المزارع في ساتيا ، وهي مستعمرة لاتينية إلى جنوب شرقي رومة . إلا أن العصيانات التي قام بها عبيد ـ المزارع بدأت وهي في حال عجز . لقد كانوا يعملون جماعات مقيدة بالسلاسل ، وكانوا يسجنون ليلاً . فالبداءة جاءت من العبيد ـ الرعاة . كان لا بد من تسليح هؤلاء ، كي يستطيعوا حماية اغنامهم ضد السالبين ، من البشر وغيرهم ، وقد كان هؤلاء العبيد ـ الرعاة في مراعيهم الصيفية في الجبال المرتفعة بعيدين عن المراقبة إلى درجة كبيرة . لقد كان لدى العبيد ـ الرعاة السلاح وحرية الحركة ، وكان عبيد ـ المزارع كثيرين عدداً . فلما حمل الرعاة ـ العبيد السلاح وحرروا عبيد ـ المزارع تمكن العبيد ـ الثائرون من العثور على القادة الاكفياء ومن تجميع جيوش كان باستطاعتها ان تقابل الجنود الرومان على ارض المعركة . وهذا يوضح لنا لماذا نجحت حروب العبيد في صقلية (١٣٥ ـ ١٣٢ و١٠٤ ـ نحو ١٠٠ ق.م.) ولماذا استطاع العصاة الصمود هذه المدة .

وفي سنة ١٣٥ ق.م. وهي السنة التي بدأت فيها حرب العبيد الأولى في صقلية ، كان ثمة عصيان للعبيد في ديلوس وفي اتيكا . ليس ثمة ما يدل على ان ثورات العبيد المتلازمة زمنا والتي قامت في بقاع مختلفة من عالم البحر المتوسط كانت نتيجة عمل مشترك منظم ، أو أن انباء الواحدة منها كانت المثير لغيرها ، إلا أنه من المحتمل ان تلازمها الزمني لم يكن كله مصادفة . كانت ديلوس ، في سنة ١٣٥ ق.م. ، مرتبطة سياسياً باثينا ، وتجارياً كان ارتباطها بصقلية وايطالية . وفي سنة ١٣٢ ق.م. حمل ارسطونيكوس ، وهو مدع لعرش برغامون ، السلاح في أرض المملكة السابقة ، التي كان آخر ملوك اسرة برغامون قد اوصي بها للشعب الروماني (١٣٣ ق.م.) وكانت الحكومة الرومانية قد جعلت من المملكة ولاية اسيوية ، ولزَّمَت جمع الضرائب في الولاية لرجال اعمال رومانيين . وقد استنجد ارسطونيكوس بالعبيد ، واعلن انشاء « دولة الشمس » . لقد عبر ذلك عن الرأي الذي كان يثير زعماء عصيان العبيد في صقلية . فالشمس هي التجسيد الالهي للعدل . انها تعطي الضوء والدفء للعبيد والاحرار والفقراء والاغنياء على السواء . و« المؤسسة » الرومانية كانت تمثل الاغنياء ومالكي ـ العبيد وتجار العبيد . وكان الثوار يحاولون لا اقامة دولة بديلة للدولة الرومانية فقط ، بل مجتمع بديل للمجتمع الهلّيني ، الذي كان يومها يعامل عماله بوحشية . وقد كان هذا ايضاً هدف المجالد التراقي سبارتاكوس الذي هرب من السجن، وجمع جيشاً من العبيد وسيطر على الريف الايطالي من ٧٣ إلى ٧١ ق. م .

كان الحاكم الايراني الأول الذي تحدى رومة هو متراديتس السادس حاكم كابادوكيا البونطية في شمال شرق آسية الصغرى . ففي سنة ٨٨ ق. م. استولى متراديتس على ولاية آسية الرومانية واحتل ديلوس واستأثر بدعم أثينا . وقد جعل من نفسه محررا للأغارقة من التجبر الروماني ، وقد كان ثمة مجزرة لملتزمي الضرائب الايطاليين وغيرهم من رجال الأعمال الايطاليين في الأراضي المحررة، وفي سنة ٨٨ ـ ٨٩ ق.م. تقدم جيش متراديتس في بلاد اليونان الى الحد الذي وصل اليه جيش اكزوكسيس في ٤٨٠ ـ ٤٧٩ ق.م. . وكما غُلِبَ اكزوكسيس غلب متراديتس، واضطر الى عقد الصلح سنة ٨٥ ق.م. إلا أنه حمل السلاح مرتين ضد رومة قبل وفاته سنة ٦٣ ق.م.

وقد كان تحدي متراديتس الفاشل لرومة أقوى من أي تحدّ آخر جابهه الرومان منذ العصيان المقدوني الفاشل في ١٤٩ ـ ١٤٨ ق.م. وكان ثمة دولة ايرانية أخرى ، هي فرثية ، التي انزلت برومة ، في كاري (حرّان) في ما بين النهرين سنة ٥٣ ق.م. اكبر انكسار حربي منذ انتصار هنيبعل في كاني سنة ٢١٦ ق.م. لقد كانت ارض المعركة في كاري سهلا . والمسافة التي تفصل ارض المعركة في كاري عن اقرب ميناء على البحر المتوسط سببت مشاكل فنية كبيرة للجيش الروماني الذي توغل مسافة شاسعة داخل القارة ، وقد قللت الأرض هناك قدرة الاعداد والعدة والفن العسكري للمشاة الرومان في التغلب . وقد وجد كراسوس نفسه في كاري عاجزاً امام قوة دونه عدداً من الرماة الفرثيين تدعمها قافلة من الابل تحمل كمية هائلة من السهام . لقد محي جيش كراسوس باكمله .

كان هذا أول انهزام ساحق اصاب الرومان . ان القرطاجيين والدول الأغريقية والعصاة العبيد ومتراديتس ـ جميع هؤلاء خضعوا في النهاية ، كل بدوره . لكن اشد اعداء الرومان عليهم ، واكثر الضحايا البائسين في الفترة التي تلت عصر هنيبعل لم يكونوا الفرثيين ، لقد كانوا الرومان انفسهم .

إن حروب الرومان فترة ما بعد هنيبعل ضد دول الأغارقة المشارقة كانت قصيرة ، وقد تمكنت رومة من ضبط خصومها دون ان تلزم نفسها حالاً بأي أمر حربي أو سياسي دائم . وفي الجهة الثانية فقد اورثت حروب هنيبعل رومة التزامات مباشرة في ايطالية القارية الى الشمال من جبال أبنين وفي اسبانية فيما وراء البحار . وقد كانت الخدمة العسكرية الطويلة ، بالنسبة إلى الجنود ـ الفلاحين الرومان في تلك الانحاء النائية مؤذية اقتصادياً ، كما كانت الخدمة العسكرية على طول السور الكبير وما وراءه بالنسبة إلى الطبقات المقابلة والمعاصرة لهم في الصين . كما كانت ، بالمقارنة ، فرصة افاد منها الطامعون في امتلاك الأرض من الرومان ، على نحو ما حدث في الصين . فإن آخر القبائل المستقلة في حوض البو لم يُقْضَ عليهم حتى سنة ٢٥ ق.م. ، ولم يتم اخضاع مماثليهم في اسبانية الا في سنة ١٩ ق.م. وفي هاتين السنتين كانت حدود الامبراطورية الرومانية الحربية قد امتدت في اوروبة الغربية القارية الى نهر الراين ، وفي آسية القارية الى نهر الفرات . اما في اوروبة الشرقية ، حيث حُمِلَت رومة بسبب العصيان المقدوني القوي (١٤٩ ـ ١٤٨ ق.م.)، على ان تضم مقدونيا حالاً ، وعلى ان تتولى بنفسها

الدفاع عن الحد الشمالي لمقدونيا ، فإن الحد الروماني المحلي ، الذي تمّ إنشاؤه ، وصل إلى نهر الدانوب سنة ٢٧ ق.م. .

وفي الوقت ذاته فإن الدمار الذي اصاب جنوب شرق ايطالية وصقلية ، اثناء حرب هنيبعل ، والسياسة التي تلت ذلك والتي اتبعتها « المؤسسة » الرومانية في تخريب ما تبقى من عالم البحر المتوسط ، ثم ترك هذا العالم في حال يرثى لها من الدمار ، اتاحت الفرصة لاستغلال على مقياس كبير . وهذه الفرصة ترتّب عليها قيام طبقة اجتماعية جديدة من المتنفّعين وذلك في اطار الجسم السياسي الروماني . وقد تمكن رجال الأعمال الرومان من جمع رأس مال نقدي ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه رومة تحتل شبه الجزيرة الايطالية وتوحدّها ، على غرار ما حدث في الصين اثناء عصر الدول المتحاربة . ورجال الأعمال هؤلاء ، مع اصحاب الاملاك من « المؤسسة » الرومانية ، كانوا يملكون ، في ما بينهم ، حصة الأسد من ثروة الجماعة الرومانية . وكانت غالبية المواطنين الرومان فقيرة ، وكذلك كانت الدولة الرومانية .

في سنة ٢١٥ ق.م. وهي السنة الرابعة من حرب هنيبعل ، افلست الخزينة الرومانية . لكن المتعهدين الذين كانوا يزودون الجيوش الرومانية ، في ايطالية وفي ما وراء البحار ، بالمواد الغذائية والثياب والسلاح تعهدوا بأن يستمروا بتقديم هذه المواد التي لا غنى عنها ، دَيْنا طيلة مدة الحرب . وقد تبين أنهم يملكون من رأس المال السائل ما مكنهم من القيام بذلك من ٢١٥ إلى ٢٠١ ق.م. يضاف إلى ذلك أنه في سنة ٢٠٥ ق.م. تقدم عدد من المدن ـ الدول في المنطقة التي ظلت عامرة في شمال غرب شبه الجزيرة الأيطاليّة ـ وبعضها كانت مستعمرات بلدية رومانية والبعض الآخر كان حلفاء رومة ـ بهدايا ثمينة ، طوعا ، إلى رجال الحملة التي كان شيبيو يجمعها لهجومه على إفريقية القرطاجيّة . وفي السنة ذاتها تقدّمت الخزينة الرومانية المفلسة ببيع قطع من الأرض التي انتزعتها من المستعمرات البلدية الرومانية في كامبانيا ـ وهي التي كانت قد انفصلت عن رومة في ٢١٥ ق.م. ثم أُخْضِعَت من جديد سنة ٢١١ ق.م. ـ وقد تقدم المشترون من بين اولئك الذين كان باستطاعتهم ان يدفعوا الثمن نقداً .

وقد اصبحت الحكومة الرومانية ، اعتباراً من ٢١٥ ق.م. تحت رحمة المُدينين الرومان ، فكان عليها ان تمنحهم شروطاً تتيح لهم فرصاً ذهبية للغش ، وعندما كان يبدو غشهم فاضحاً كانت السلطات العامة تحاكم المتعهدين المحتالين بشيء كثير من

التردد ، إذ كانت هذه السلطات تخشى ان يلجأ المجرمون إلى قطع الأزواد ، ومثل هذا العمل يضع رومة في مأزق ، إذ قد يعني انكساراً حربياً سريعاً . وفي سنة ٢٠٤ وسنة ٢٠٢ ق.م. قبل ان تنتهي الحرب ، كان على الخزينة ان تبدأ بتسديد ديونها أقساطاً . وفي سنة ٢٠٠ ق.م. كان عليها ان تدفع القسط الأخير ، ففعلت ذلك على انفع طريقة للمُدينين ، اذ عرضت الدفع بشكل اراض عامة تقع ضمن نصف قطر لا يتجاوز الخمسين ميلاً من رومة ، وهي منطقة كان لا بد فيها لاسعار الأرض من الارتفاع . وفضلاً عن انها دفعت الأرصدة على شروط غير ملائمة ، فإن الخزينة كانت قد موّلت نفقات حرب هنيبعل بأن فرضت جزية سنوية على الأفراد من دافعي الضرائب ، وكان المستفيدون من ذلك خمسة وعشرين ونصفاً من كل أربعة وثلاثين شخصاً . وقد تمكنت الخزينة من ذلك بسبب الأموال التي نالتها الخزينة من حصة الحكومة من الاسلاب التي حملتها إلى رومة الحملة الرومانية التي نهبت آسية الصغرى في سنة ١٨٨ ق.م.

ولم تكن حصة الحكومة من الاسلاب التي حملتها الجيوش الرومانية الى رومة المصدر الوحيد الذي يسرّ للخزينة الرومانية ان تزيد في اموالها بين سنتي ١٠١ و١٦٨ ق.م. فقد كان ثمة تعويضات الحرب ـ على سبيل المثال تلك التي فرضت على قرطاجة في سنة ٢٠١ ق.م. وعلى الامبراطورية السلوقية سنة ١٩٠ ق.م. ـ وكان هناك املاك هي رأس مال منتج للضرائب : ومثال ذلك الأرض التي انتُزِعَت من الجماعات التي انفصلت ثم أُخْضِعَت من جديد في جنوب شرق ايطالية وكل الأراضي التي كانت تخص قرطاجة وكورنت والمناجم والغابات في مقدونيا التي كانت املاك التاج والمناجم الاسبانية التي كانت ملكا لحكومة قرطاجة أو للجماعات الاسبانية الوطنية التي كانت قد قُهِرَت وأحتُلَّت بلادُها . فبعد احتلال مقدونيا في سنة ١٦٨ ق.م. ألغِيَت الضرائب المباشرة على المواطنين الرومان المقيمين في إيطالية أو في الجماعات الرومانية البلدية خارج إيطالية التي كانت قد منحت وضعاً مالياً إيطاليا .

وهكذا فإنه بدءاً من سنة ٢١٥ ق.م. كانت الاقلية من المواطنين الرومان تزداد ثراء ، فيما كانت الاكثرية الفقيرة تزداد فقراً . واثرياء الحرب من رجال الأعمال لم يكونوا منتجين . لم يكن هؤلاء من رجال الصناعة ، ولم يكونوا حتى تجاراً في ما عدا تزويد الجيش، وفي الرقيق . لقد جمعوا ثروتهم من التزامهم للرسوم الجمركية وللضرائب التي كان يدفعها رعايا رومة في الولايات . ومن ثمَّ فإن اعضاء

« المؤسسة » الذين كانوا يحتكرون تولي الوظائف العامة ، والذين كان يتوجب عليهم ان يحموا رعايا رومة بحيث لا يسلخ ملتزمو الضرائب الرومان جلودهم ، كانوا يعنون بأن يؤمنوا لأنفسهم مكاسب غير مشروعة . وكانوا يفعلون ذلك أما جزئياً عن طريق الاستثمار في مصالح التزام الضرائب خفية ، وأما ، غالباً ، عن طريق استئجار الأراضي أو شرائها في الممتلكات الرومانية التي كانت تتوسع باستمرار في ايطالية . وكان هذا مجزياً .

ففي جنوب شرق إيطالية كانت مساحات شاسعة من الأرض أصبحت املاكاً رومانية . وفي الوقت ذاته كانت الاملاك الرومانية العامة تزداد اتساعاً نتيجة انتزاع الأرض من الدول الإيطالية ، تلك الدول التي كانت قد انفصلت اثناء حرب هنيبعل . كما أن الأرض التي كانت ملكاً خاصاً في الممتلكات الرومانيّة كانت تطرح في السوق بسبب إفلاس الفلاحين المالكين للأرض الذين توجب عليهم القيام بالخدمة العسكرية لسنوات متوالية على الجبهات النائية . فكان ثمة مجال للحصول على ارباح طائلة من استئجار الأراضي العامة أو من ابتياع املاك الفلاحين ـ الجنود المفلسين .

إن جزءاً كبيراً من مساحة شبه الجزيرة الايطالية باجمعها يتكون من مرتفعات وعرة لا خير فيها من الناحية الزراعية ، لكنها تصلح مراعي صيفيّة قيّمة للأغنام والأبقار إذا امكن العثور على مراع شتويّة في المنخفضات لتتمم عملها ، وإذا كان ثمة حق مرور مضمون لتنقّل الحيوانات مرتين في السنة . ومنذ أن تمّ توحيد شبه الجزيرة الايطالية سياسيًا في سنة ٢٦٤ ق.م. أصبح من الممكن أن تُطوَّر طاقة البلاد الرعائية على مقياس واسع . وانتزاع الأراضي بكميات كبيرة وبيع الأرض في الممتلكات الرومانيّة في إيطالية بعد حروب هنيبعل جعل هذا التطوير الاقتصادي المجزي أمراً عملياً لفئة قليلة من المواطنين الرومان التي كانت تملك من المال ما يكفي لاستئجار الأراضي العامة ولشراء الأراضي الخاصة والحيوانات . وقد كانت الاحياء البشرية ، على شكل الرعاة ـ العبيد ، امراً ضرورياً مثل الحيونات كي تدر الأرض الأرباح من صناعة الرعي . ومستأجرو الأرض في المناطق المنخفضة أو مشتروها كان لهم ان يختاروا احد سبيلين لاستعمالها : اما ان يغرسوا فيها الكرم والزيتون ، أو ان يحولوا الأرض الصالحة للزراعة مراعي شتوية . وقد كانت ثمة سوق

جد مربحة للزيت والخمر في مدينة رومة وفي غيرها من المدن الأيطاليّة ، وكذلك في المناطق الأوروبية الواقعة شمالي إيطالية ، حيث كان انتاج الزيت والخمر غير ممكن اما بسبب الجو المحلي واما بسبب المنع الذي كانت تفرضه الحكومة الرومانيـة في الممتلكات التي كانت تقع تحت سلطة رومة . إلا أنه في الفترة الممتدة من ٢٢١ إلى ٣١ ق.م. كانت كروم العنب وبساتين الزيتون ، مثل الحيوانات ، تعطي ارباحاً فقط في حال قيام العمال ـ العبيد على خدمتها .

حقيقة لقد كان العمل الذي يقوم به العبيد باهظ الثمن نسبياً . ان العبيد كانوا يجب ان يُبْتَاعوا ، ثم كان لا بد من اطعامهم وايوائهم على مدار السنة ، والعبد الذي استُنْزِفَت قواه ، والذي لم يكن صالحاً للبيع كان عبئاً ثقيلاً على المزارع أو صاحب الحيـوانات ؛ بينمـا كان بـاستطاعتـه ان يستخدم عمـالاً احراراً مـوقتين في مـواسم العمل ، دون ان يتحمل مسؤولية دائمة نحو المستخدمين الموقتين . إلا أنّ الاحتفاظ بالعمال العبيد بصورة دائمة كان له مبرر حاسم للأمر . ان عمل العبـد كان بجملتـه تحت تصـرف سيده مـا دام العبد قـادراً على العمل ؛ والحـرّ المستأجـر قـد تجنـده الحكومة للخدمة العسكرية في اي وقت ، ويحتفظ به ، كما لو كان عبداً عاماً تماماً ، لسنوات متوالية . ولم يكن لمستأجره الخاص أي ضمانة ضد هذه المجازفة .

وترتب على هذا انه ، بدءاً من انتهـاء حرب هنيبعـل ، أخذ الاقتصـاد الريفي وسكان شبه الجزيرة الايطالية كلاهما طريقهما نحو تبدّل ثوري . فالأراضي الصغيرة الممتلكـة حرة ، والتي كان يملكها الفلاّحون الأحرار والتي كانت تنتج الحبوب لتغذية الملاكين ، تحوّلت تدريجاً إلى مزارع واسعة ، مؤلفة من مراع صيفية وشتوية متصلة ببعضهـا البعض . وفي المناطق المنخفضـة أصبحت الأراضي الحرة الصغيـرة أيضاً كروما وبساتين زيتون ، وهاتان الوسيلتان الجديدتان لاستثمار الأرض كـانتا كلتـاهما تعتمدان على عمل العبيد . ولم يبلغ هذا التبـدل غايتـه ابداً . فقـد ظلت الأراضي المملوكة حرة قائمة باعداد كبيرة ، ولم تكن كل الحبوب اللازمة لاطعام سكان رومة يُتَزَوَّد بها من الحبوب التي كانت تشحن من صقلية وسردينية على انها ضريبة . ومع ذلك فلم تحلّ سنـة ١٣٥ ق.م. وهي السنة التي انـدلعت فيها حـرب العبيد الأولى الصقلية ، حتى كانت الثورة الاقتصادية والديموغرافية (البشرية) قد قـطعت شوطـاً كبيراً بحيث انها احدثت نقصاً في القوى البشرية التي كانت خاضعة قـانونـاً للتجنيد

الاجباري .

إنّ أعضاء « المؤسسة » الرومانية كانوا لا مبالين في موقفهم من الظلم الفاحش والقسوة اللتين تتمثلان في نظام الرق ، ومن الفقر الذي شمل الأكثرية العاجزة سياسياً من رفاق الاوليغاركيين من المواطنين . لكنهم كانوا يخشون من ازدياد الصعوبة في جمع الجيوش التي لها من القوة ما يمكنها ان تلبي التزامات رومة العسكرية المتزايدة . كما أنهم أخذوا يدركون ان المجندين المتردّدين يكونون جنوداً ضعيفين . وفي سنة ١٣٣ ق.م. بلغ هذا الاهتمام بالحفاظ على فعالية رومة العسكرية ، ولعله كان أكثر من الاهتمام بالعدل الاجتماعي للاحرار الذين كانوا مواطنين (رومانا) ، حداً حمل أحد أعضاء « المؤسسة » الرومانية ، وهو طيباريوس سِمبرونيوس غراخوس ، على ان يقترح قانوناً ، ثم ينجح في إقراره ، الذي كان ممهداً الطريق لثورة في الكيان السياسي الروماني . لقد حدد قانون غراخوس مساحة الأرض التي يجوز لمواطن ان يملكها ، وان يوزع ما تبقى من الأرض قطعاً بحيث تكون مساحة القطعة محدودة وان يكون الذين يمتلكونها خاضعين للتجنيد الاجباري . وقد أثار هذا القانون عاصفة في الطرف الغربي للعالم القديم للأويكومين ظلت تهب مدّمرة لمدة مئة من السنين ـ وهو القرن الذي كان الطرف الشرقي للعالم القديم للأويكومين اثناءه تعصف به الحروب المستمرة بين الامبراطورية الصينية والهزونغ ـ نو .

لقد دفع غراخوس حياته ثمناً لقانونه في سنة ١٣٣ ق.م. (قتله رفاقه الارستقراطيون) . ثم دفع أخوه غايوس حياته ثمناً للقانون في سنة ١٢١ ق.م. وقد أثار هذا القانون نقمة لا في « المؤسسة » الرومانية وحدها ، ولكن أيضاً بين المواطنين في الدول التي كانت قد انفصلت قبلاً ، إذ أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون يقيمون ، دون أن يزعجهم أحد ، في جزء من الأرض التي كانت قد انتزعتها رومة من دولهم . وفي سنة ١١١ ق.م. كانت كل الأراضي الرومانية العامة التي امكن استعادة ملكيتها قد اعيد توزيعها ، ولم يؤد ذلك إلى حل لأي من المشكلتين اللتين كانتا الباعث على التشريع الغراخي ، فلا المشكلة العسكرية ولا المشكلة الاجتماعية حلتا . واعتباراً من سنة ١٠٨ ق.م. بدأ حل المشكلة بشقيها ولكن على أساليب كانت بطبيعتها مضادّة لبقاء الحكومة الدستورية في الكيان السياسي الروماني .

في سنة ١٠٧ ق.م. انتخب غايوس ماريوس ، الذي لم يكن من « المؤسسة »

الوراثية ، قنصلاً (فقد كان القنصلان اللذان ينتخبان سنوياً ، هما اعلى الموظفين العامين في الدولة الرومانية) . وقد جمع ماريوس جيشاً خاصاً ، وذلك عن طريق تجديد لا دستوري سمح بموجبه للمواطنين الرومان الفقراء أن يلتحقوا بالجندية . وقد تقبل هؤلاء الخدمة برغبة . لم يكونوا يخسرون شيئاً ، وكان من الممكن أن يكسبوا الكثير . إذ أنه كان بينهم وبين ماريوس اتفاق ضمني بأنه لن يسرحهم دون أن يؤمن لهم حاجتهم ، وانهم يتعاونون معه لرمي ثقلهم كقوة عسكرية نظامية للضغط سياسيّاً على « المؤسسة » الرومانية لفرض شروط تُرْضي مطالب الجند وتحقّق مطامح قائدهم . لقد كان ماريوس أول الثوار من سادة الحرب في رومة . وبدءاً من سنة ١٠٨ ق.م. كانت في الواقع يحكمها سادة الحرب ـ ولم يكن ذلك بصراحة ، باستثناء يوليوس قيصر الذي حكم حكماً ملكياً بشكل واضح ، ولذلك وضع حد له بسرعة وبعنف .

وأشكال الحكم الروماني اللادستورية والاتوقراطية والعسكرية لم يحاول أحد سترها بغشاء شفاف من الشرعية المستعادة حتى بعد ٣١ ق.م. فإلى قبل ذلك التاريخ كلّف النظام (أو على الأصحّ انعدام النظام) سكان ايطالية جولتين من الحرب الأهلية ـ الأولى من ٩٠ إلى ٨٠ ق.م. والثانية من ٤٩ ـ ٣١ ق.م. ومن سخرية القدر أن أبرز مظهر للثورة الرومانية هو أنه في المدة الواقعة بين مقتل طيباريوس غراخوس سنة ١٣٣ ق.م. إلى انتحار مرقس انطونيوس سنة ٣٠ ق.م. كانت صواعق جوبيتر تنزل الواحدة بعد الأخرى من أعلى الاشجار في غابة كانت اشجارها في تناقص مستمر . وقد كانت اهداف جوبيتر اللاعبين على مسرح القوى الروماني : الأخوان غراخوس وسَنّا وسرتوريوس وكتلين وبومبي وكراسوس ويوليوس قيصر وسكتوس بومبيوس ومرقس انطونيوس ـ وجميع هؤلاء اللاعبين ، الذين استمتعوا بهذه اللعبة القتالة ، قُتِلوا بعنف . وقد نجا ماريوس من مثل هذا المصير بعد ان ابتلى تقلب الظروف بؤساً ونعمة . وكان ثمة اثنان آخران من سادة الحرب ماتا في فراشهما . والأول من هؤلاء هو (لوسيوس كورنيليوس) سُلّا ، الذي كان اشدهم هولا ، لكنه كان العبانا في السياسة . والثاني كان امهرهم جميعاً . هو (غايوس يوليوس قيصر) أوكتافيان أغسطوس ، وهو ابن اخت ليوليوس قيصر ، لكن قيصر كان قد تبّناه .

قضى أوكتافيان نحبه في فراشه . وقد كان يستحق ذلك . كان قد نجح في

وقف الثورة الرومانية التي استمرت مئة سنة . ولكن ذلك لم يتم قبل أن سارت سلسلة من رجال الحكم الرومان اليائسين المكسورين على درب الثورة الذي كان قد سبقهم عليه زعماء البروليتاريا المنسيون . فماريوس نفسه ورفيقاه سِنًّا وسرتوريوس هما النظيران الرومانيان للأمير البرغامي ارسطونيكوس الداعي إلى المساواة ،ولأونوس وسلفيوس الملكين الرقيقين الصقليين . وسكتوس بومبيوس ، وهو ابن بومبي ، اتفق مع القرصان على عمل مشترك ، وهم الذين كان ابوه ، بومبي المقتول ، قد طاردهم وقضى عليهم .

لقد كانت الثورة الرومانية انتقام هنيبعل المتأخر من رومة . ولكن اذ وقع قميص نيوسوس القرطاجي على الدولة الرومانية النخرة ـ وهي المناظر الغربي لدولة تشين ـ فإنه لفّ عالم البحر المتوسط المعذب بكامله .

٣٧ ـ الامبراطوريات الصينية والكوشانية والفرثية والرومانية ٣١ ق.م. ـ ٢٢٠م

منذ سنة ٤٨م وحتى بعد بدء القرن الثالث للميلاد كادت الرقعة بكاملها، التي كانت تقوم فيها مدنيات اقليمية من اويكومين العالم القديم، ان تتجمع سياسياً في أربع امبراطوريات، امتدت أملاكها في منطقة مستمرة عبر القارة من ساحلها الهادي الى ساحلها الأطلسي.

ومعنى هذا انه في هذه الحقبة من تاريخ العالم كان التوحيد السياسي، على مثل هذا المقياس الجبار، هو القاعدة العامة. إلا انه كان ثمة استثناء بارز في هذه القاعدة العامة وذلك في شبه القارة الهندية. فإقامة امبراطورية كوشان سنة ٤٨م أدى الى توحيد شمال غرب الهند، كما انه وحّد هذا الجزء من الهند مع بكتريا سياسياً. وقد كان هذا تبدلاً كبيراً من حالة الفوضى السياسية التي كانت تنتاب الهند منذ السنوات المبكرة للقرن الثاني ق.م. إلا أن الهند، في القرن الأول للميلاد، كانت لا تزال مصابة بتصدع سياسي، إذا قورنت بالهند كما كانت في القرن الثالث قبل الميلاد. فقد كانت يومها شبه القارة الهندية بكاملها، باستثناء طرفها الجنوبي، تحت حكم أسرة ماوريان.

ففي القرن الأول للميلاد كان قلب امبراطورية ماوريان القديمة، وهو في ولايتي بيهار وأوتار برادش الهنديتين اليوم، كانت تحكمه أسرة سُنْغا، التي جاءت في أعقاب الموريان في سنة ١٨٣ق.م. وأصبحت عاصمة الموريان السابقة بتاليبُترا، عاصمة السنغا. ومع ان ملكاً اغريقياً كان قد احتل بتاليبُترا في وقت ما في القرن الثاني ق.م.، فإن امبراطورية كوشان لم تمتد الى هناك في اتجاهها الجنوبي الشرقي. يضاف الى ذلك أن القسم الأكبر من املاك الموريان في الدكن كانت في هذه الفترة تحت حكم أسرة خليفة ثانية معروفة باسم اندرا (اوستافاها) (من نحو ٢٣٠ ق.م. ـ ٢٢٤م) وقد كانت لها القدرة نفسها التي كانت للسنغا. وقد كان طرف شبه القارة، كما كان من قبل، مقسوماً سياسياً بين عدد من الدول الصغرى. فبين نحو ٤٠م ونحو ١٥٠م كان السكا

(السكيثيون) الذين كان الفرتو ـ سكيون قد طردوهم جنوباً في شرق من حوض نهر السند ، يثبتون كيانهم في أجِّين . وكانوا يثبتون في مهاراشترا وجودهم على حساب الاندرا . وأمارتا السكافي اوجين ومهاراشترا كانتا ولايتين تتمتعان باستقلال ذاتي في امبراطورية كوشان ، ولكن معظم شبه القارة كان لا يزال خارج إطار امبراطورية كوشان .

وكان ثمة جزء آخر من أويكومين العالم القديم الذي لم تضمه اي من الامبراطوريات الأربع ، وهو حوض النيل الأعلى . لقد ذكرنا قبلاً ان الحدود الجنوبية لمصر الفرعونية كانت وصلت جنوباً الى نقطة على النيل فوق الشلال الثاني وذلك في عصر المملكة المتوسطة . وقد وصلت الى نبتا تحت الشلال الرابع مباشرة في عصر المملكة الحديثة . ولما انهارت المملكة الحديثة في القرن الحادي عشر ق.م . أصبحت نَبَتَا عاصمة لواحدة من الدول الخليفة (كوش) ، وهذه الدولة ذاتها ، استمر وجودها بعد ان فشلت في توحيد عالم مصر سياسياً وذلك بضم مصر بالذات الى حكم المملكة الكوشية . وفي وقت لا نعرفه توسعت مملكة كوش صعداً مع وادي النيل في ما وراء نَبَتَا الى ميرو على ضفة النيل اليمنى ، بين التقاء النيل بعطبرة والشلال السادس . وقد نُقِلَت العاصمة من نبتا الى ميرو . ولعل ذلك تم في القرن السادس قبل الميلاد .

كانت ميرو تفضل على نبتا في أمور ثلاثة . كانت ميرو تتمتع بزخات من المطر ، في ما كانت نبتا تعتمد على الري كلية . وكان ثمة مناجم حديد غنية في ميرو ، الأمر الذي أدى الى قيام صناعة معدنية . والأمر الثالث هو أن الدولة التي تكون عاصمتها ميرو تتصل بالمنطقة التي يمكن اجتيازها وسكناها (التي خرَّبها الجفاف سنة ١٩٧٣م) ، الممتدة غرباً بين الصحراء شمالاً ومنطقة الغابات المدارية الماطرة ، من ضفة النيل الأبيض الغربية الى سواحل افريقية الأطلسية .

ومع أن مملكة كوش لم تتمكن من احتواء مصر ، فانها نجحت في الحفاظ على استقلالها عن الامبراطورية الفارسية الأولى وامبراطورية البطالمة والامبراطورية الرومانية على التوالي . ويبدو ان مملكة كوش قضى عليها برابرة افريقيون هم النوبا (النوبيون) في القرن الثالث للميلاد .

وفي الوقت ذاته يبدو ان الطرف الشمالي للهضبة الحبشية كان قد قدمها ، في زمن مبكر من القرن السابع ق.م . ، قوم مهاجرون من اليمن (الزاوية الجنوبية الغربية من

شبه الجزيرة العربية)، وقد ظلت اليمن ومستعمرتها في افريقية خارج حدود الامبراطوريات الأربع.

وهكذا فإن الامبراطوريات الأربع لم تضم الجزء المتمدن من اويكومين العالم القديم بكامله ؛ ومع ذلك فقد شملت في ما بينها على جزء كبير هام منه .

وقد كانت العلاقات السياسية بين الواحدة والأخرى من هذه الامبراطوريات يتحكم فيها، في الغالب، التضاريس التي تبدو في الخارطة السياسية. فالامبراطوريتان الرومانية والفرثية لم يكن بينهما وبين الامبراطورية الصينية حدود مشتركة. وامبراطورية كوشان لم يكن لها حدود مع الامبراطورية الرومانية. ولما كانت الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية تقع كل منهما في طرف من الطرفين الأبعدين للقارة، فقد كانت الصلات المباشرة بينهما قليلة. الواقع ان سكان كل من هاتين الامبراطوريتين البعيدتين كانوا يعون وجود الجماعة الأخرى على نحو ضئيل جداً. ومن الجهة الثانية كانت كل من امبراطورية كوشان والامبراطورية الفرثية على اتصال مباشر، نسبياً، بالامبراطوريات الثلاث الأخرى، بما في ذلك الامبراطورية البعيدة التي لم تكن جارهما المباشرة. فقد كانت هاتان هما الدولتان المركزيتان، وكان رجال الاعمال فيها هم الوسطاء في التجارة غير المباشرة عبر القارة بين الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية. والامبراطورية الرومانية وامبراطورية كوشان كانت بينهما صلات تجارية وحضارية دون ان تنشب بينهما حرب قط. وقد كانت العلاقات بين الامبراطورية الصينية والامبراطورية الفرثية ودية أيضاً. ومن الجهة الثانية كانت ثمة حروب بين الرومان والفرثيين وبين الفرثيين والكوشان وبين الكوشان والصينيين . ولكن هذه الحروب لم تكن مزمنة ولا كانت مدمرة ، كما انها لم تؤدّ الى تبديل رئيس دائم في الخارطة السياسية .

إن احتلال أسرة الهان الغربية المتقطع لفرغانة بين ١٠٢ و٤٠ ق . م . أعيد على أيدي أسرة الهان الشرقية بين ٧٣ و١٠٢ للميلاد. وفي القرن الثاني للميلاد كانت فرغانة وحوض تاريم مناطق متنازع عليها بين امبراطورية الصين وامبراطورية كوشان. وكانت سجستان منطقة متنازع عليها بين امبراطورية كوشان والامبراطورية الفرثية، وارمينية بين الامبراطورية الفرثية والامبراطورية الرومانية. وقد رتبت الأمور بين سنتي ٦٣ و٦٦ بأن اعتُبِر تاج ارمينية كسبا اضافيا للأسرة الارساسية الفرثية ، لكن اشتُرِطَ ان الارساسي الراغب في تاج أرمينية يتوجب عليه ان يثبت حقه بزيارة لرومة حيث ينعم

عليه الامبراطور الروماني بالمنصب .

ومنذ ان جعل بومبي من سورية ولاية رومانية، سنة ٦٤ ق.م. ، لم تحدث تبديلات دائمة في الحدود بين الامبراطورية الفرثية والامبراطورية الرومانية، اذ اتخذت الحدود خطا على مجرى نهر الفرات وانحناءته الغربية. لقد هاجم الفرثيون سورية، لكنهم لم ينجحوا في ان يقيموا لهم كياناً دائماً هناك، بعد انتصارهم الكبير على جيش كراسّوس في كاري سنة ٥٣ ق.م. وفي سنة ٣٦ ثم في ٣٤ـ ٣٣ ق.م. هاجم مرقس انطونيوس المنطقة الواقعة شرق الفرات في اتجاه شمال شرقي حتى شمال ميديا (أذربيجان)؛ وفي ١١٤ ـ ١١٧م حاول الامبراطور تراجان ان يضم ارمينية والجزيرة الفراتية وجنوب ارض الرافدين الى الامبراطورية الرومانية. وقد انتهت محاولة كل من هذين المغامرين الرومانيين بالفشل الذريع. وأعاد هدريان، خليفة تراجان، وذلك سنة ١١٧م حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية الى خط نهر الفرات، لكنه احتفظ للامبراطورية الرومانية بمدخل الخليج العربي وهو الذي كان تراجان قد احتله موقتا. وقد منح هدريان الدولة ـ الواحة بالميرا (تدمر) حكماً ذاتياً وشجع التدمريين على إنشاء مراكز تجارية على أطراف الامبراطورية الفرثية الجنوبية الغربية، على ان لا تكون هذه المراكز بادية بشكل واضح. والتوسع الوحيد الى الشرق من نهر الفرات تحت حكم روماني مباشر كان الاستيلاء على الجزء الشمالي الغربي من بلاد الجزيرة بين سنتي ١٩٤ و١٩٩م.

كانت ثمة ثلاثة طرق تربط الامبراطوريات الأربع ببعضها البعض. إلا ان المسافرين على هذه الطرق، سواء أكانوا جيوشاً مسلحة او رسلاً دبلوماسيين او تجارا او مبشرين، ندر أن انتقلوا على أي منها رأساً من الامبراطورية الصينية الى الامبراطورية الرومانية. فقد حافظت هاتان الامبراطوريتان المتباعدتان على الاتصال في ما بينهما غالباً بطريق الوسطاء، الذين كانوا يقومون بنقل المتاجر والرسائل والمعلومات على مراحل ـ يدا بيد وكلمة بكلمة.

كان الطريق الأبعد شمالاً يجتاز السهوب اليوراسية من الثكنات القائمة على سور الصين الكبير الى المستعمرات الاغريقية الواقعة على شاطىء البحر الأسود الشمالي، والتي أصبحت محميات رومانية. وكان ثمة طريق أقصر، لكنه أكبر مشاقاً وهو طريق الحرير. كان هذا يبدأ في لويانغ، عاصمة أسرة الهان الشرقية الواقعة في سهل الصين

الشمالي، ويمر بحوض تاريم وعبر تيان شان الى الصغد في وادي زرفشان الواقع بين المجريين العاليين لنهر سرداريا وامودرايا (سيحون وجيحون). وقد تشعب هذا الطريق من الصغد غرباً شعبتين. فالمسافرون الذين كانوا يرغبون في تجنب بلاد الفرثيين كان باستطاعتهم الوصول الى البحر الأسود بطريق خوارزم وبحر قزوين (الخزر) والمنخفض الواقع بين سلسلة القفقاس وهضبة أرمينية. اما المسافرون الذين كانوا مستعدين لمجابهة موظفي الجمرك والشرطة الفرثيين، كان باستطاعتهم ان يقصدوا أيا من الموانىء السورية الواقعة على البحر المتوسط. وقد كانت أقصر الطرق عبر بادية الشام من «مدينتي القوافل» - تدمر (بالميرا) او البتراء. وكانت تدمر نقطة التقاء الطريق من فرثية الى البحر المتوسط مع طريق من الموانىء العربية على الخليج العربي، وكانت البتراء ملتقى طريق من فرثية مع طريق بري من اليمن.

كان الطريق البحري هو الأكثر مصاعباً، لكنه كان الأكثر ربحاً بالنسبة للتجارة. ان القناة التي كانت تصل ميناء السويس (على البحر الأحمر) بالفرع الأبعد شرقاً في دلتا النيل عن طريق وادي توميلات قد تكون اتمت، او لعله قد أعيد العمل بها، على يد بطليموس الثاني (٢٨٢ - ٢٤٥ ق.م.)، وهذه كانت تزود المسافرين بطريق مائي بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وطوال الزمن الذي كانت فيه امبراطورية البطالمة قوة بحرية وعسكرية، كانت تسيطر على البحر الأحمر، وكان لها مواطىء أقدام في ما يعرف اليوم بساحل إرْترية. كان هدفها من وجودها هناك هو صيد الفيلة الافريقية لاستعمالها ضد الفيلة الهندية التي كانت تحت تصرف السلاقسة. إلا أن الأغارقة الذين كانوا قد استوطنوا مصر كانوا مستعدين لترك التجارة البحرية بين مصر والهند في أيدي البحارة السبأيين اليمنيين. ونحو أواخر القرن الثاني قبل اليلاد اهتمت حكومة البطالمة بانشاء شفرات مباشرة من الموانىء المصرية على البحر الأحمر الى دلتا السند، وبذلك تجنبوا السبأيّين. وقد تمكن ملاح اغريقي، مغبشة صورته، في تاريخ لا تؤكده المصادر، من التعرف الى مواسم الرياح الموسمية واتجاهاتها، وذلك بحكم معرفته للبحار الجنوبية (فقد لا يكون «هيبالوس» الاسم الشخصي لملاح اغريقي تاريخي، بل صفة شعرية للريح التي أفاد منها الملاحون الاغريق المجهولون).

إن اكتشاف الأغارقة المصريين لطبيعة الرياح الموسمية مكنهم من تقصير الزمن الذي كان لازما لرحلة «ذهاب وإياب»، بين مصر ودلتا السند. كما ان ذلك مكنهم من

الابحار رأساً من مضيق باب المندب الى الطرف الجنوبي للهند، وحتى من تجنب سيلان واقامة مركز تجاري في «أريكامدو» على الساحل الشرق للهند، الى الجنوب من بندشيري الحالية. وقد كان الاتصال بداخل البلاد بطريق أريكامدو أيسر من الاتصال عن طريق أي ميناء على الساحل الغربي.

ويبدو ان التجارة الاغريقية البحرية بين مصر والهند بلغت ذروتها نحو أواسط القرن الأول للميلاد ـ أي في الوقت الذي كان فيه داخل شمال غرب الهند قد أصبح مأمون الأسفار للتجار بسبب فرض «السلم الكوشاني»، أيام وُحِّد شمال غرب الهند سياسياً مع بكتريا. وفي القرن ذاته أخذ البحارة الهنود يقلدون الانجاز الاغريقي في الابحار رأساً الى الهند عبر بحر العرب. فقد وصل اولئك البحارة الهنود شبه جزيرة الملايو وذلك بالابحار من موانىء واقعة على ساحل الهند الشرقي رأساً عبر خليج البنغال. وقد اتجه بعضهم نحو برزخ كرا، ثم نقلوا المتاع براً، وركبوا البحر ثانية في خليج سيام وبحر الصين. وقام غيرهم بالسفر المستمر الطويل من خليج البنغال الى بحر الصين، وذلك عبر مضيق ملقا. وقد كانت الأسفار الهندية عبر خليج بنغال وما بعده، مثل أسفار الاغريق عبر بحر العرب وما بعده، سلمية. لم تكن السفن سفناً حربية، بل كانت تجارية، ولم يكن البحارة فاتحين، بل بحارة.

كان من الضروري ان تُصرَّف التجارة الدولية بواسطة لغات وكتابات. في الفترة الواقعة بين ٣١ ق.م. كان ثمة ثلاث لغات عالمية، ولكل منها كتابتها الخاصة بها، وهي التي كانت شائعة في النصف الغربي من اويكومين العالم القديم، من أملاك امبراطورية كوشان الى الشاطىء الشرقي للمحيط الأطلسي.

كانت الأولى في الميدان اللغة الآرامية وكتابتها الفباء مشتقة، مثل الألفباء الاغريقية، من الفينيقية. لقد كانت هذه الأوسع استعمالاً للمراسلات الرسمية في الامبراطورية الفارسية الأولى. وفي الدول الاغريقية الخليفة للامبراطورية الفارسية الأولى، تخلت الآرامية عن مكانتها الرسمية «للكويني» الاغريقية. ومع ذلك فإن ثلاثاً من الدول التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى، عبر الدول الخليفة الاغريقية السلوقية، وهي فرثية وفارس والصغد ـ أعادت الآرامية الى الاستعمال الرسمي ثم أصبحت هذه اللغة لغة الأدب أيضاً، في صيغ ثلاث للبهلوية: بطريقة خلاصتها أن الكلمات الآرامية المدونة بالالفباء الآرامية، اعتبرت «أشكالا» ثم قُرِئت كما لو كانت

كلمات ايرانية بالمعنى ذاته. وفي الوقت ذاته كانت الآرامية، في نهاية القرن الأخير قبل الميلاد، قد حلّت محل كل من الكنعانية والأكديّة على أنها لغة التخاطب لسكان الهلال الخصيب الناطقين بالسامية. واللغة الأكدية، التي كانت، في الألف الثاني قبل الميلاد، اللغة الدولية لآسية الصغرى ومصر، كما كانت في «الهلال الخصيب»،كانت قد اختفت تقريباً. وحتى في بابل (جنوب العراق) كان ثمة بضعة من العلماء الذين كانوا يقرأون الأكدية المكتوبة بالخط المسماري. وقد ظلت اللغة الكنعانية (العبرية) في سورية كلغة للطقوس الدينية فقط (على نحو ما كانت الحال بين الجماعة اليهودية في فلسطين). وقد كانت الكنعانيــة لغة التخاطب فقط في المستعمرات الفينيقية (دول ـ المدن) في حـوض البحر المتوسط الغربي.

وقد استمر استعمال اللغة الاغريقية رسمياً بعد القضاء على الحكم الاغـريقي. فالفرثيون والفرثيون ـ السكا وحكام السكا الذي خلفوا الاغارقة سياسياً الى الشرق من نهر الفرات، ساروا على خطوات حكام الأغارقة البكتريين والاغارقـة الهنود في سكهم نقوداً مزدوجة اللغة، كان أحد النقشين عليها بالأغريقية. والنقوش الموجودة عـلى نقود الأباطرة الكوشيين مدونة بالالفباء الاغريقية، ولو ان اللغة ليست اغريقية بل هي نوع من السكا الايرانية. وبكتريا، وهي بلاد كانت العلاقات فيها بين الايرانيين الوطنيـين والاغارقة المتدخلين ودية بشكـل خاص، استعملت الالفبـاء الاغريقيـة لتدوين اللغـة الايـرانية المحليـة ـ وعلى سبيـل المثال كـما هو الحـال في نقش عثر عليـه في معبد بنـاه الامبراطور الكوشاني كانيشكا (حكم حول ١٢٠ إلى ١٤٤م)، في المكان المسمى سِنرخ كوتال، حيث عثر عليه رجال البحث الاثري.

وإلى الغرب من نهر الفرات، حيث غلب الحكم الروماني على الحكم اليوناني، كانت اللاتينية، التي كانت تكتب بالفباء اغريقية (رومانية)، هي اللغة الرسمية. إلا أن رجال الحكومة الامبراطورية وممثليها المحليين كانوا يتراسلون باللغة الاغريقية مع المواطنين والرعايا الرومان الذين كانت اللغة الأم لديهم الاغريقية او لاولئك الاغارقة الذين كانت الاغريقية لغة حياتهم الحضارية. وقد حافظت اللغة الاغريقية على منزلتها، كلغة تخاطب، وذلك ضد اللغة اللاتينية، باستثناء جنوب شرق ايطالية. وفي آسية الصغرى ظلت الاغريقية منتشرة على حساب اللغات غير الاغريقية. ومن الناحية الثانية فقد كانت اللغة اللاتينية هي اللغة الواسطة التي نشرت الحضارة الهلينية في البلاد التي كانت خاضعة للرومان في محيط البحر المتوسط الغربي (باستثناء صقلية

ونابولي حيث كان السكان يستعملون الاغريقية) وفي اوروبة القارية في ما وراء جبال الابنين إلى خط الدانوب والراين .

وقد حملت التجارة واللغة معهما عناصر أخرى حضارية ـ مثل الديانـة . والفن المنظـور كـان واحـد من السبل التي عبرت بها الديانة عن نفسها . إن تاريخ الاديان في اويكومين العالم القديم (بين نحو ٣٣٤ ق. م. و٢٢٠ م) هو موضوع الفصل التالي. اما الآن فالذي نود ملاحظته هو ان الفن المنظور الهليني ، وكذلك الفن الهندي المنظور والنظم الاجتماعية ، كسبت مناطق جـديدة في القـرنين الأول والثـاني للميلاد . وقـد عرفت هذه الفترة الموجـة الأولى من التهنيد Indiazation في كمبودجيا وجنـوب فيتنام ، حـالياً . كـما عرفت الفن المنـظور الهليني يكسب مجالاً جـديداً لنفسـه في امبراطـوريـة كوشان ، وخصوصاً في عاصمة الامبـراطوريـة تَكْسيلا (تكشـاسيلا) في قنـدهار عـلى الـطريق بـين بكتـريـا وبيهـار . وقـد هُلْيِنَت تكسيـلا من جهتـين ـ من بكتـريـا عبـر الهندوكوش ، ومن الاسكندرية عبر بحر العرب . والزَخم النسبي للمؤثـرات الهلينية من هـذين المصدرين ، والـزمن الذي بـدأ فيه مجـرى الاثرين المـزدوج يصب في تلك الجهات ، هما ـ الآن ـ امران قيد البحث .

وتسرّب الحضارة الهندية الى جنوب شرق آسيـة ، وتسرب الحضـارة الهلينية الى قندهار هما مثلان على « التسرب السلمي » . وثمة تشابه قريب بين اساليب الفن المنظور الهليني في قندهار وفي الامبراطورية الرومانية . ولكن الولايات الرومانية التي نُشِرَت فيها الهلينية في ثوب لاتيني ، فقد سارت الهَلْيَنَة في اعقاب الفتوح الرومانية العسكرية .

والامبراطوريـات الأربع التي شملت ، بـين سنة ٤٨م والسنـوات الأولى للقرن الثالث الميلادي ، في ما بينها اكثر اويكومين العالم القديم ، كانت تختلف واحدتها عن الأخرى بماضيها ، ومن ثم كانت تختلف في تركيبها .

إن امبراطورية الهان الشرقية في الصين (٢٥ ـ ٢٢٠م) والامبراطـورية الفـرثية طيلة القرنين المنتهيين بسنة ٢٢٤م ، كانتا ، على التوالي ، صورة جديدة لامبراطـورية الهان الغربيـة والامبراطـورية الفرثية (١٤١ ـ ٣١ق.م.) . وقـدا قامت في كـل من المنطقتين ، وفي فتـرات متباعـدة ، اضطرابـات نسبية ، إلا أن هـذا لم يؤدّ إلى تبديـل دستوري بناء في اي منها ، وفي كلا الحالتين عاد النظام القديم ، بعد انقطاع موقت ،

الى ما كان عليه . ومن الجهة الثانية فقد كان قيام امبراطورية كوشان (٤٨م) ، وانتهاء قرن الثورات والحروب الاهلية في عالم البحر المتوسط ، الذي حدث قبلاً ، إذ انتصر أوكتافيان (اغسطوس) على انطونيوس وكليوباترة في اكتيوم (٣١ق.م.) - كان هذان الحدثان انطلاقاً أصيلاً ، يقابل الانطلاق الجديد الذي حدث في الصين لما زالت الدول المتحاربة وقام مكانها حكم تشين الامبراطوري أولاً ، ثم حكم الهان الغربي الامبراطوري بعده .

من حيث التركيب السياسي كان ثمة تطابق كبير بين امبراطورية كوشان والامبراطورية الفرثية ، وشبه اقل بين امبراطورية الهان الشرقية والامبراطورية الرومانية . ففي كل من الامبراطوريتين الوسطيين (كوشان وفرثية) كان هناك درجة كبيرة من التحول السياسي . فنسبة كبيرة من الممتلكات الامبراطورية كان يحكمها ولاة أو ملوك اصاغر حكماً ذاتياً ، وكان اعتراف هؤلاء بسيادة الحكومة الامبراطورية ، في بعض الأحيان ، اعترافاً اسميّا فقط . فضلاً عن ذلك فان سلطة كل من الحكومة الامبراطورية وإدارة امراء الاقطاع كانت مقيدة بسلطة البارونات الذين كان لهم الاشراف المباشر على الفلاحين - وبمعنى آخر على مصدر جميع الأجور والضرائب .

وكان حكم الهان الشرقية ، نظرياً ، مركزياً وبيروقراطياً ، أما من الناحية العمليّة فقد كان البيروقراطيون هم أصحاب الأراضي ، وقد تضاربت واجباتهم كموظفين مدنيين مع مصالحهم كملاك ، وقد اخضعوا واجباتهم لمصالحهم ، وقد كان هذا هو السبب الذي أدّى إلى فشل كل من أسرة الهان الغربيّة وخليفتها وانغ مانغ ، كل بدورها ، في تنفيذ الاصلاحات الزراعية التي كانت الحاجة ماسة إليها لانقاذ المجتمع الصيني من الانهيار . فالفئة الوحيدة التي كانت تحت تصرف الامبراطور لتنفيذ الاصلاحات اللازمة هي فئة الموظفين - اصحاب الأراضي ، وهؤلاء كان لهم مصلحة خاصة في ان يتأكدوا من بقاء الاصلاحات حبراً على ورق .

بعد قيام أسرة الهان الشرقية (٢٥م) وقضائها على ثورة الفلاحين (٣٦م) ، كان الموظفون - الملاكون هم الأقوى ، وقد اساءوا استعمال سلطتهم اساءة فاضحة . فقد كان التعيين في الوظائف يقوم على اساس التبعية لا الكفاية . ولم تكن امتحانات التعيين للوظائف المدنية تُجْرى بأمانة . وأجور الأرضين التي كان يدفعها الفلاحون - المستأجرون إلى الملاكين رُفعَت الى مستويات مرتفعة جداً بالنسبة الى الضرائب التي كان يتوجّب على

الملاكين أنفسهم دفعها . في شمال الصين ، المنطقة التي كانت مهد المدنيـة الصينية ، وهي الأرض الـواقعـة الآن خلف السـور الكبيـر ، نقص عـدد المسجلين من دافعي الضرائب ، وترتب على ذلك ارتفاع في الضرائب والسخرة والخدمة العسكرية بالنسبة للرؤوس . وهـذا النقص في عدد المسجلين لـدفع الضـرائب لم يكن ناتجاً عن نقص السكان بعد فترة من الفوضى والحرب الاهلية (٩ ـ ٣٦م) ، بل لأن الفلاحين الاحرار هربوا باعداد كبيـرة . فالتجـأ بعضهم إلى املاك أصحـاب الأراضي ، حيث كانـوا ، بوصفهم يعملون عند صاحب الأرض ، يتعرضون لضغط اقتصادي أقل من ذلك الذي كانوا يتعرضون له وهم تحت رحمة الحكومة الامبراطوريـة . والبعض الآخر هـاجر الى الجنوب ، حيث كانت رقابة الحكومة الامبراطورية أخف ، وحيث كان ثمة أرض بكر يمكن ان تُسْتَغَلَّ .

تعـرضت سلطة البيروقـراطيين ـ المـلاكين الصينيـين ، منذ اواسط القـرن الثاني للميلاد ، لتحدّ على أيدي خصيان البلاط الامبراطوري اولا ، ثم من سنة ١٨٤م وما بعدها ، لثورتي فلاحين تزعم كلا منهما زعيم تاوستي . وعلى كل فإن المنتصرين لم يكونوا لا الخصيـان ولا الفلاحـين ، بل سـادة الحرب ، الـذين كـان اكثـرهم من أصحـاب الأراضي . وقد مر بالصين في الجزء المتأخر من القرن الثاني للميلاد ، ما مرّ بالرومـان بعد حرب هنيبعـل . فقد تنـاقص عدد الـذين يمكن ان يجندوا من الفـلاحين ، وحلت محلهم جيوش محترفة كانت تجند من الفقراء ، وأصبحت هذه الجيوش جيـوشاً خـاصة للقواد العسكريين ، وكانت تتطلع الى هؤلاء القادة لتنال المكافأة على خدماتها . ففي سنوات ٢٢٠ ـ ٢٢٢م انقسمت امبراطورية الهان الشرقية ، بشكل واضح ، إلى ثلاث ممالك ، كان يحكمها ثلاثة قواد عسكريين ، كانوا قد قسموا الامبراطورية من قبل في ما بينهم في الواقع .

كـانت الامبراطـورية الـرومانيـة ، من حيث المبدأ ، في الفتـرة بـين ٢١ ق.م. و٢٣٥م ، أقـل مشاركـة في الأمور العـامة مـع امبراطـورية الهـان الشـرقيـة منهـا مـع الامبراطورية الفرثية وامبراطورية كـوشان المعـاصرتـين لها : كـانت امبراطـورية الهـان الشرقية ، نظرياً ، دولة مركزية الادارة وبيروقراطية الصيغة ، ولو ان دستورها النظري لم يكن يوضع موضع التنفيذ . وكانت الامبراطورية الرومـانية ، مثـل الامبراطـوريتين الوسطيين ، خاضعة للتحول . « فالمؤسسة » الـرومانيـة كانت عـادة تحجم عن تحمل

المسؤولية المباشرة لادارة البلاد مما أوجد فراغاً سياسياً . لقد جعلتها كذلك لأنها دمّرت حكوماتها السابقة . وقد تمسك اغسطوس بهذه القاعدة الرومانية ، بقدر ما كانت الأحوال تسمح له في احياء النظام في عالم البحر المتوسط الذي كانت الحكومة الجمهورية السابقة قد نقلته الى حالة الفوضى . فمنذ سنة ٣١ ق.م. جرب اغسطوس وخلفاؤه تنظيم الامبراطورية الرومانية على أنها « اتحاد » من المدن ـ الدول ذات الاستقلال الذاتي . وكانوا في ذلك يسيرون على الأسس التي استنها السلوقيون للمشرق ، واتبعها بومبي (٦٧ ـ ٦٢ ق.م.) . وقد حاولت الادارة الامبراطورية ان تقصر مسؤولياتها بالذات على منع المدن ـ الدول المكونة للامبراطورية ، من شن الحرب واحدتها على الأخرى ، وعلى حمايتها من هجمات الاعداء من خارج حدود الامبراطورية .

كانت الامبراطورية الرومانية ، مثل امبراطورية الهان الشرقية ، تعوزها القوى البشرية . فالتفجر السكاني الذي بدأ في العالم الهليني في القرن الثامن ق.م. ، خمد في مقدونيا في القرن الثالث ق.م. وفي القرن الثاني ق.م. في بقية الاقطار الناطقة بالاغريقية ، وفي القرن الأخير قبل الميلاد في ايطالية . وفي الدور الأول من حياة الامبراطورية الرومانية (٣١ ق. م ـ ٢٣٥م) كان ثمة شعب واحد ، داخل حدود الامبراطورية ، الذي كانت اعداده تزداد بشكل واضح : هو الشعب اليهودي . لا شك ان سكان جنوب فلسطين كانوا قليلين سنة ٥٨٦ ق.م. لما صفى نبوخذ نصر المملكة الجنوبية ، إلا أنه منذ ذلك الحين انتشر اليهود في جزء كبير من أرض المملكة الشمالية ، كما ان شتاتاً يهودياً كان قد انتشر بعيداً : أولاً في بابل ثم في مصر وفي النهاية في انحاء العالم الهليني . في بابل ، وبالنسبة إلى رومة اعتباراً من سنة ٦٣ ق.م. ، كانت طلائع الشتات اليهودي من المهجرين ، لكن اكثر التشتت اليهودي كان طوعياً . فقد استقر اليهود في الخارج جنوداً مرتزقة أو تجاراً . واطراد نمو السكان اليهود يبدو أغرب اذا تذكرنا ما كان يصيبهم (وجيرانهم) من خسائر في الأرواح في ثوراتهم ضد الحكومة الرومانية الامبراطورية في فلسطين (٦٦ ـ ٧٠م و١٣٢ ـ ١٣٥م) وفي قبرص وبرقة (نحو سنة ١١٥ ـ ١١٧م) . وفي العصيان الاخير (برقة) لم تنجح الجماعة اليهودية في السيطرة الموقتة على برقة ذاتها فحسب ، بل انها اتخذت برقة قاعدة للهجوم على مصر .

لقد ركز اغسطوس حدود الامبراطورية الرومانية على خطوط يسهل على جيش صغير محترف من المتطوعين ان يحميها . وبذلك يكون هذا الجيش صغيراً الى الحد الذي

يمكن به لامبراطورية يتناقص عدد سكانها ان تزوده بالعدد اللازم ، كما أنه يكون عبثاً خفيفاً على عاتق دافع الضرائب .

انقص اغسطوس عدد الجنود في الجيوش الضخمة التي كان منافسوه ، الذين أزيلوا الآن ، قد جمعوها إلى الحد الأدنى الذي كانت تقتضيه حماية الحدود . ولم يكن ثمة احتياط للدفاع المكثف . فإذا كان ثمة حاجة الى قوة متحركة للقضاء على ثورة يقوم بها رعايا الامبراطورية ، أو لشن حرب أهلية ، كان يجب ان يجمع الجنود بتخلية الثكنات في القطاع الذي كان يبدو بعيداً عن الخطر . وقد كان هناك حاجة ماسة الى جيوش رومانية متحركة بسبب الثورات اليهودية الثلاث التي اشرنا اليها وبسبب حربين اهليتين في سنة ٦٩م وسنة ١٩٣ ـ ١٩٦م .

كانت حدود الامبراطورية في الجنوب «حدودا طبيعية» على اطراف الصحراء الكبرى والصحراء العربية . والممر الضيق الذي هو مجرى نهر النيل ، والواقع بين الصحراوين، لم يكن من العسير تحصينه في بلاد النوبة الدنيا . وفي اوروبة القارية كان يوليوس قيصر ، والد اغسطوس بالتبني ، قد أوصل الحد الروماني الى نهر الراين ، واغسطوس اوصله الى نهر الدانوب كذلك . وقد تولى خلفاؤه اقفال الثغرة بين مجرى الراين الأعلى ومجرى الدانوب الاعلى بين نحو سنة ٧٠ و١٣٨م ، ببناء تحصينات صناعية بين الراين فوق كوبلنز والدانوب فوق رغنزبورغ . ولما فتح الجزء الاكبر من الجزيرة البريطانية وضم الى الامبراطورية اقيمت تحصينات مماثلة هناك ، من البحر الى البحر ، على يد الامبراطور هدريان (سنة ١٢٢م وما بعدها) والامبراطور تيطس انطونينوس بيوس (سنة ١٤٢م وما بعدها) . وهذه التحصينات الرومانية تبدو قصيرة وهشة ، إذا قيست بسور الصين الكبير ، طولاً وضخامة . فالتحصينات الرومانية لم تكن تعدو سنادات للحدود الطبيعية ـ هما البحر والنهران الكبيران . إلا أن الناحية الطبيعية في الحدود النهرية امر مُعَزِّر . فمع ان النهرين (الراين والدانوب) كانا تحت حراسة اسطول نهري روماني في الفصل الذي كانا يصلحان فيه للملاحة ، فانهما كانا يجتازان بسهولة في جميع الفصول ، وخاصة عندما كان الجليد يغطيهما ، عند اشتداد البرد . يضاف الى ذلك ان خط الراين ـ الدانوب هو اطول خط يمكن ان يُرْسم بين البحر الاسود وبحر الشمال .

جرب اغسطوس أن يقصر الحد النهري الاوروبي للامبراطورية الرومانية ، بنقل

الحد من الراين إلى الألبة ، لكن القوى البشرية في الامبراطورية لم تكن كفؤا لاتمام مثل هذا العمل . فالقوى البشرية كانت قد تضاءلت بسبب الثورات الاقتصادية والسياسية في القرنين السابقين . ومثل هذا العمل لو اتيح له ان يتم كان قد أدى إلى تنزيل القوى البشرية العسكرية اللازمة لحماية الحدود . وقد حال دون تنفيذ مشروع اغسطوس ثورة قام بها (٦ ـ ٩م) البانونيون ، الذين كانوا قد اخضعوا حديثاً ، ومنازلهم بين البحر الادرياتيكي ونهر الدانوب، والقضاء على ثلاث فرق رومانية (٩م) بين الراين والألبة على أيدي جرمان كانوا قد أُخْضِعُوا حديثاً . وقد كشفت استحالة اتمام المشروع بعد هذه الهزائم ، ضآلة مصادر القوى ـ البشرية في هذا الوقت (بالمقارنة الواضحة مع كثرة هذه القوى قبل حرب هنيبعل واثناءها) . وقد استمر هذا الضعف الديموغرافي . فالامبراطورية الرومانية بدأت بفتح بريطانية وضمها ، لكنها عجزت عن السير بذلك إلى النهاية . وقد نجح الامبراطور تراجان ، وهو نظير هان وو ـ تي ، في احتلال داسيا (ترانسلفانيا) وضمها في سنة ١٠١ ـ ١٠٦م ، لكنه فشل في ١١٤ ـ ١١٧م في توصيل حدود الامبراطورية الشرقية ، إلا فترة قصيرة جداً ، إلى شواطىء بحر قزوين والخليج العربي .

كان اكبر انجاز سياسي للامبراطورية الرومانية نقل رعاياها ، تدريجاً ، إلى درجة المواطنة الرومانية . لقد دشنت هذه السياسة في القرن الرابع قبل الميلاد ، وقد كانت احد الاسباب في نجاح الرومان في ان يضموا إلى دولتهم شبه الجزيرة الايطالية أولاً ، ثم حوض البحر المتوسط بكامله . ولم تكن هذه السياسة تطبق باستمرار . فقد كان هناك تردد وتوقف . وعلى كل فقد بلغت السياسة ذروة استكمالها سنة ٢١٢م لما منحت المواطنة الرومانية ـ أو لعلها فرضت ـ على جميع سكان الامبراطورية الذين لم يطالهم هذا من قبل ، وذلك باستثناء اقلية ضئيلة ، ظلت خارج الأطار .

وسياسة رومة الليبرالية في منحها المواطنة الاجانب الذين غلبوا في الحروب ، تناقض تماماً سياسة اثينا الضيقة في القرن الخامس قبل الميلاد . ولعلّ هذا التناقض يوضح لنا السبب في ان رومة هي التي وحدت حوض البحر ولم يتح لاثينا انجاز مثل ذلك . وعلى كل فإن المساواة في الوضع السياسي ، لا يعوّض عن الظلم الاقتصادي والاجتماعي . وسياسة رومة الثانية التي كانت ذات أثر في توسيع املاكها كانت ضمانة المصالح الخاصة للاغنياء ، ضد مطالب الفقراء . ففي فترة ٣١ ق.م. ـ

٢٣٥م ، كان التوسع في منح المواطنة في الامبراطورية الرومانية تصاحبه ثغرة بين الأغنياء والفقراء كانت تتسع باستمرار . فقد زاد عدد الحالات التي لم يكن فيها مساواة امام القانون ، اضافة الى انعدام المساواة في الاملاك والدخل وفي مستوى المعيشة ، الروحي منها والمادي على حد سواء . ففي هذه الفترة كان الظلم الاجتماعي يتزايد في كل من الامبراطوريتين اللتين كانتا تقعان في الطرفين الابعد من اويكومين العالم القديم .

لقد ذكرنا قبلاً ان البيروقراطيين ـ الملاك ، من اتباع كونفوشيوس ، في امبراطورية هان ، عجزوا عن اخضاع مصالحهم الخاصة لواجباتهم العامة . وان التخاذل الخلقي لهذه « المؤسسة » التي كانت ذات جذور عميقة ، ازداد صلفاً ووقاحة ، حتى اكثر مما كان عليه مما ادى بحكم الهان الغربية السابقة الى النهاية المحزنة . وعلى كل فإن الخدمة المدنية الكونفوشية في الهان كانت أقل سوءاً من أي خدمة مدنية كانت قد قامت في اي مكان . فقد كانت تفوق الخدمة المدنية الرومانية ، التي وضعها اغسطوس ، بنفس النسبة التي كان السور الكبير يتفوق على التحسينات الرومانية في المانية وبريطانية .

لقد بدأت المدينة ـ الدولة الرومانية مسيرتها التوسعية وكان كل ما عندها فئة من الموظفين الاداريين الضعفاء . ومثل أكثر المدن ـ الدول ـ الاترسكية والاغريقية والفينيقية ـ في حوض البحر المتوسط في الالف الأخير ق.م. ـ كانت رومة يحكمها فريق صغير من الموظفين العامين غير المحترفين الذين كانوا ينتخبون سنوياً . والمتطلبات الادارية التي اقتضاها توسع رومة المتوالي لم تقابلها ، بشكل محسوس ، زيادة الوظائف العامة الانتخابية التي كان يمكن ايضاً ان تطول مدتها . والسبيل الأوحد الذي كان يلجأ اليه ، وذلك لتخفيف العجز الاداري ، وهو تلزيم تزويد الجيوش وجمع الضرائب لشركاتٍ كان أصحابُها مواطنين أفراداً. وهذه الشركات هي التي تجمعت لديها الخبرة الإدارية للعالم الهليني على ما كان عليه يومها . فقد استعمل الجميع قوى عاملة من العبيد والمحررين المتعلمين .

وقد سار اغسطوس على خطة أبيه بالتبني ، يوليوس قيصر ، فحد من فرص الشركات في ان تجني ارباحاً خاصة ، غير مشروعة ، على حساب حكومة رومة ومواطنيها ورعاياها ، إلا أنه إقتبس عنها تنظيمها . فقد اتخذ لنفسه « أسرة قيصريّة »

مكونة من العبيد والمحررين على نطاق واسع وذلك ليكونوا في خدمته على أنهم المدبرون المختصون به ، وعوّض النبلاء الرومان من أعضاء « المؤسسة » السابقة والمتطفلين اللاصقين بها ، الذين كانوا قد أثروا عن طريق المقاولات العامة بأن أختار منهم أعلى طبقتين من الموظفين ذوي المرتبات المجزية . وهذه البيروقراطية الرومانية لم تتمتع بالتماسك الذي تمتعت به نظيرتها البيروقراطية الصينية . وبشكل خاص فانه لم يربطها بعضها بالبعض الآخر تمسكها بفلسفة متوارثة جاءتها بحكم عملها الوظيفي . ومع ذلك فإن هذه الإدارة الرومانية الامبراطورية ، المكونة من ذئاب تحوّلت الى كلاب لحراسة القطيع ، كانت أفضل بكثير مما كان عند الدولتين الوسطين ، الفرثيين والكوشان ، من ادارة مدنية لامبراطورية بدائية . وقد كان على هذه الادارة المركزية ، في نهاية المطاف ، ان تتحمل عبئاً لم يكن اغسطوس قد خطط له . فقد كان في نيته لا أن يدبر أمر الإدارة المحلية للمدن ـ الدول التي كانت الخلايا المؤلف منها الجسم السياسي مباشرة ، بل ان يشرف عليها فقط ، ومن ثم فقد ظلت اعداد الموظفين في الإدارة الامبراطورية صغيرة أصلاً . ان منشىء « السلم الاغسطي » عجز عن رؤية مستقبلية تتعلق بمواطني المدن ـ الدول المكوِّنة للامبراطورية ، ذلك بأن هؤلاء المواطنين قد يفقدون الاهتمام بالحكومة المحلية لجماعاتهم فيما إذا جردت هذه الجماعات من إمتيازها التاريخي السيادي في أن تشن الحروب ضد الجيران . ففي وقت مبكر من القرن الثاني للميلاد ـ وهو عصر ذهبي خداع المظهر بالنسبة إلى عالم البحر المتوسط ـ كانت الحكومة المحلية قد انتابتها الفوضى ، كما أخذت الإدارة المركزية للامبراطورية تجد نفسها مرغمة ، وبكثير من التردد ، على التدخل المباشر في مجال العمل الاداري المتسع النطاق .

وفي القرن الثالث للميلاد أصابت الكارثة كلا من الامبراطوريات التي كانت قد اقتسمت ، في القرنين السابقين لذلك ، القسم الأكبر من اويكومين العالم القديم .

وقد تحملت الامبراطورية الرومانية نصف قرن من الفوضى (٢٣٥ ـ ٢٨٤م) ، بل أنها استمرت في الوجود عبره ، وهو الذي كان ، بالذات ، استمراراً عجيباً لشبه العصر الذهبي الذي سبقه (٩٦ ـ ١٨٠م) . ففي نصف القرن الروماني البائس هذا خفضت قيمة النقد الامبراطوري الى درجة الصفر ، وقد تعرضت بلاد الامبراطورية إلى هجمات قام بها معتدون من وراء الحدود ، وكانت هجمات مخربة . فقد انتصر

القوط على الامبراطور داسيوس وقتلوه سنة ٢٥٠م ؛ وفي سنة ٢٦٠م . انتصر الفرس على الامبراطور فاليريان وأسروه ، وقد قضى بقية عمره في الأسر . وقد تقسمت الامبراطورية موقتا ، كما حدث للامبراطورية الصينية في ٢٢٠ - ٢٢٢م ، الى ثلاث وحدات طبيعية ، وبلغ الهبوط بالمالية الامبراطورية الى الادنى ، بحيث ان دفع المرتبات تم ، لبعض الوقت ، عيناً ، وكانت التجارة تتم بالمقايضة . وقد كان هذا تراجعاً إقتصادياً مخيفاً في عالم البحر المتوسط ، إذ أنه في هذا العالم تم اختراع النقد في القرن السابع ق.م. وفيه ، حتى قبل ذلك التاريخ ، كانت السبائك الذهبية تستعمل أساساً للتبادل التجاري وتسعير السلع .

في سنة ٢٢٤م قام في إيران ملك فارس المحلي باغتصاب مفاجيء للسلطة الامبراطورية ، الأمر الذي كان إعادة لانقلاب مشابه تم في سنة ٥٥٠ ق.م. إذا أنه حول أواسط القرن السادس ق.م. خلع التابع الفارسي قورش الامبراطور الميدي استياجس وتولى الأمر مكانه . وفي سنة ٢٢٤م خلع تابع فارسي هو اردشير (ارتاكسركسيس) الامبراطور الفرثي ، ارطايانوس الخامس ، تولى الأمر مكانه . وقد وسم حكام إيران الامبراطوريون الجدد باسم « ملوك الاجزاء والاطراف » . ومع ذلك ، فإن الامبراطورية الفارسية الثانية (الساسانية) ورثت التركيب المهلهل للامبراطورية الفرثية دون أي تبديل ، وهذا كان واقع الحال . وقد كانت اعتداءات الساسانيين ضد جيرانهم أعنف مما قدر عليه الارساسيون في العهد الضعيف للامبراطورية الفرثية في دورها الاخير . إلا أن الساسانيين لم يكونوا أكثر نجاحاً في فرض سلطة الحكومة المركزية على الامراء المحليين .

وقد اثارت اعتداءات الساسانيين على الامبراطورية الرومانية ردود فعل عسكرية ، بعد ان استعادت هذه قوتها سنة ٢٨٤م . ففي سنة ٢٩٨م أرغمت الحكومة الرومانية الامبراطور الساساني نرسه على اعادة جميع الأراضي الرومانية السابقة التي كان شاهبور الأول (حكم ٢٤٢ - ٢٧٣م) قد انتزعها منها وضمها إلى ملكه ، كما أرغمه على القبول بما قامت به الامبراطورية الرومانية من ضم خمس ولايات أرمنية تقع على الضفة اليسرى لمجرى دجلة الأعلى . وقد كان الاعتداء الساساني ناجحاً في الجهة المقابلة . فقد وسع مؤسس الدولة الساسنية ، ادشير ، حدود الامبراطورية التي انتزعها من الامبراطور الارساسي ارطبانوس الخامس، بفتح امبراطورية كوشان

ايضاً . ومع ذلك فيبدو أنه قد فرض سلطانه عليها دون ان يصفيها ، إذ أن بقية منها استمرت ، أو لعلها عادت الى الظهور ، في وادي كابل . وهذه البقية قاومت انسياح الشعوب الهونية في القرنين الخامس والسادس للميلاد ، ولم يُقْضَ عليها نهائياً إلا في القرن الحادي عشر .

بعد انقسام امبراطورية الهان الشرقية إلى ثلاثة أجـزاء متحاربـة فيما بينهـا في ٢٢٠ ـ ٢٢٢م ، ظلت الصين مقسمة سياسياً من سنة ٢٢٠ إلى سنة ٥٩٨م ، باستثناء مدة قصيرة من ٢٨٠ إلى ٣٠٤م . وعصر التجزئة السياسية هذا ، الذي بدأ سنة ٢٢٠م كان اطول مدة من نوعها عرفها العالم الصيني منذ ان توحد سياسياً لأول مرة في سنة ٢٢١ ق.م. يبدو ، على المستوى السياسي ، ان تجمع القسم الاكبر من اويكومين العالم القديم في عدد لا يزيد عن أربع امبـراطوريـات لمدة قـرنين ، بدءاً من سنـة ٤٨م ، إنما هو توقع محتمـل لتوحيـد سياسي لـلاويكومين بكـامله ، حول الكـرة . والامبراطوريات الأربع بالذات كانت موقتة بطبعتها ، مع ان كلا منها عادت فيما بعد إلى الظهور على الخارطة في سلسلة من التقمصات السياسية (تقمصات الامبراطورية الصينية السياسية كانت الاكثر ثباتاً) . وعلى كل فإن الدين كان المستوى الذي طبعت عليه الامبراطوريات الأربع ، في حياتها القصيرة ، بصماتها في تاريخ البشرية .

٣٨ ـ تفاعل الاديان والفلسفات في أويكومين العالم القديم

« إن الالم هو ثمن التعلم » . جاء هذا القول في تمثيلية وضعها الشاعر التمثيلي ايخليوس وعرضت على المسرح في ٤٥٨ ق.م. في اثينا ـ وهي السنة التي كانت فيها اثينا تشن حرباً شعواء على جبهتين . وهذه الشعوائية كانت نذيراً بقيام « زمن اضطراب » . وقد كانت آلام مثل هذا الزمن ، مع ما يرافقها من تنوير ، مقدمة لقيام كل من الامبراطوريات الأربع التي تعايشت في اويكومين العالم القديم بين سنتي ٤٨م و٢٢٠م . « فزمن الاضطراب » في العالم الهليني استمر من ٤٣١ ق.م. الى ٣٢ ق.م. ، وفي جنوب غرب اسية وفي مصر استمر من ٣٣٤ ق.م. إلى ٣١ق.م. ، « وزمن الاضطراب » في الهند بدأ حول سنة ٥٠٠ ق.م. واستمر حتى ٣٢٢ ق.م. وعاد للمرة الثانية ، بعد مدة هدوء قصيرة ، من حول ٢٠٠ ق.م. إلى ٤٨م ، وفي الصين امتد « زمن الاضطراب » من سنة ٥٠٦ ق.م. إلى ٢٢١ ق.م.

وقد عرضنا في الفصل الخامس والعشرين بصورة عامة لخمسة من اصحاب النفوس الكبيرة التي استجابت أفراداً لتجربة الألم العامة ، حتى في وقت مبكر في القرن السادس ق. م .

وقد تخلى كلٌ من هؤلاء الخمسة عن دين مجتمعه التقليدي . وقد كان التخلي عنيفاً في بعض الحالات ، وكان أكثر لباقة في حالات أخرى ، إلا أنه كان ، في كل حال ، ثورياً . فاشعياء الثاني أعلن ، بما لا يقبل البحث ، على نحو ما أعلن اخناتون قبل ذلك بسبعة قرون ، انه يوجد اله واحد فقط . (كان حوزيا ، ملك جنوب فلسطين، قد مهد السبيل لوقفة اشعياء الثاني هذه بالغائه جميع الاماكن المقدسة في مملكته ، باستثناء هيكل القدس ، وباخراجه ، من هذا الهيكل ، جميع الالهة والالهات الذين كانوا قد تقاسموه من قبل مع يهوه) . وقد خفض زرواستر رتبة جميع الالهة في مجمع الالهة الايراني التقليدي ، إلى درجة الشياطين ، باستثناء واحد ـ

« الروح الاكبر » أهورا مزدا . وقد حاول فيثاغورس اصلاح اسلوب الحياة الهلينية بطريقة تحكمية بحيث أنه أثار ثورة مضادة . وفي الهند تجاهل بوذا وماهافيرا (مؤسس الديانة اليانية) كلاهما آلهة المجمّع الهندي الآري التقليدي ونظام الطبقات . وقد أعلن كونفوشيوس ـ ولعله كان يعتقد ذلك ـ انه كان يعيد الروح الاصلي للمؤسسات الصينية التقليدية ؛ ومع ذلك فانه بتفسيره « شرف المحتد » على أنه خصلة خلقية لا امتيازاً موروثاً ، كان يُحْدِث ثورة اخلاقية .

هؤلاء الخمسة أصحاب الرؤى جميعهم تفلتوا من الاطار الاجتماعي التقليدي للديانة وأقاموا اتصالاً شخصياً مباشراً مع الحقيقة الروحية القائمة خلف الظواهر ، مع ان إثنين فقط منهم ، وهما زرواستر واشعياء الثاني ، أدركا أن هذه الحقيقة المطلقة هي ذات شخصية شبه ـ بشرية وهي تختلف عن الآلهة الرفاق الذين أنزلت مرتبتهم او طرحوا خارجاً في نقطتين هما : أن هذه الشخصية فريدة وأنها قادرة على كل شيء . وفي نطاق اللاهوت الذي علمه زرواستر نجد ان هاتين الصفتين هما ، بالنسبة إلى أهورا مزدا ، إمكانتان ، وان تكاملهما يتوقف على انتصاره النهائي في حربه القائمة على قوى الشر التي لم تقهر بعد .

وإذا استمر تألم البشرية في العالم القديم وازداد حدة على مر الزمن ، فقد ولّد حاجة لإقامة صلات مع الحقيقة المطلقة بحيث لا يكتفى بأن يكون مباشرة بحسب ، بل يجب ان تشبع العاطفة ايضاً . وقد اقتضى هذا الطلب الاحتفاظ بتصور لطبيعة الحقيقة الروحية المطلقة ، أو باحياء لمثّل هذا التصور ، بحيث تكون (الحقيقة) شبيهة بالانسان بمعنى ان تكون شخصاً أو الها ، على الأقل ، مظهره شخصي . كان المتعبد يتوق إلى ان يصبح مؤمناً ، وأن يعتقد جازماً في خير الحقيقة الروحية المطلقة وقوتها . وكان هذا التوق يجاريه تحرق الى حقيقة روحية بحيث يبدو شعور هذه الحقيقة بالعناية بحاجة المتعبد البشري واضحاً ، وان تكون لهذه الحقيقة القدرة على تخليصه (أي المتعبد) من الشر بشكل لا يقبل الجدل . ومثل هذه المتطلبات العاطفية يمكن تحقيقها فقط عن طريق إقامة علاقة بين شخصيتين ـ الواحدة بشرية والثانية الهية !

في الصين وفي الهند وفي العالم الهليني حيث كان التصور شبه ـ الانساني لطبيعة الحقيقة المطلقة قد هبط الى ما هو دون أفق الفلاسفة ، فان رد الفعل العاطفي

للتألم اقتضى احياء الظاهرة التقليدية الشبيهة بالانسان لشخصية الحقيقة المطلقة ، وهي التي احتفظ بها لاهوت الزرواسترية واليهودية . وفي الهند والصين أعادت الديانات الجديدة التي تفتقت ، بشكل ضعيف ، عن الفلسفات الاقليمية للالوهية مكانتها ، واتجهت ، موقتاً ، نحو التوحيد . لكنها لم تصبح توحيدية بما لا يقبل الجدل حسب النموذج اليهودي . وفي حوض البحر المتوسط عادت الى الالوهية الحياة على نمط توحيدي لكنه كان متسامحاً ، على نحو ما يظهر في الروح الهندية والصينية ، في جميع الديانات الاقليمية المتنافسة ، باستثناء الدين الذي قدر له الانتصار في النهاية . فالمسيحية المنتصرة ورثت عن سابقتها ، اليهودية ، التوحيد المتزمت . لكن المسيحية خرجت عن التوحيد اليهودي بأنها ابتلعت وتمثلت الديانات المنافسة المقهورة ، والتي كانت ، بأجمعها ، ديانات لا يهودية .

شاهد القرن الثالث للميلاد تمزق كل من الامبراطوريات الأربع التي كانت ، لمدة قرنين تقريباً ، قد امتدت عبر العالم القديم في خط جغرافي متجاور . إلا أن الالم الروحي الطويل الآمد للبشرية والذي كان قد سبق فترة الراحة كان ، عند حلول القرن الثالث للميلاد ، قد انتج نتائج تاريخية . ففي كل من الامبراطوريات الأربع كانت الديانات والفلسفات الاقليمية قد انتجت ديانات جديدة ، ذات طابع مميز . وقد استنبطت هذه الديانات الجديدة من القديمة بطريقة الاختيار والنشر والتركيب . والعوامل المساعدة في نشر الديانات الجديدة كانت الشتات (الدياسبورة) وقد كان اوائل المجندين في الشتات هم المهجرون ، وسارت على خطاهم الحاميات العسكرية التي كان يقيمها بناة الامبراطوريات في البلاد المفتوحة ، وكان التجار يتبعون هؤلاء . قد حمل المنتزعون من أرضهم والمنقولون إلى بلاد أخرى ، سواء كان ذلك ثابتاً أو موقتاً ، ما يمكن حمله من أساليب حياة الاسلاف . وقد أصبح هؤلاء المهاجرون ، بطريقة اتوماتيكية ، ناشرين لهذه الأمور التقليدية ، بين الاكثريات الأجنبية في مواطن المغتربين الجديدة . وقد يصبح المغتربون ايضاً ناشرين ، واعين ومتعمدين ، للثروة الروحية التي حملوها معهم . وأخيراً فان الكهنة قد قدموا خدمة كبيرة للديانات الجديدة ، كما حملها المبشرون إلى مناطق نائية . وقد كان هؤلاء الكهان والمبشرون محترفين ، مع أن دعوتهم الدينية لم تكن بالضرورة عملاً يشغل كل وقتهم .

إن نشر الديانات الأجنبية وتقبلها ثم امتزاجها بالديانات المحلية القائمة ـ كان ذلك كله أبعد مدى في المناطق التي كانت فيها الديانات المحلية عاجزة بشكل واضح عن تلبية حاجات البشرية العامة لديانة يمكنها ان تعين النفوس البشرية في صراعها مع زمن الاضطراب . وقد كانت المناطق الجائعة روحياً هي الواقعة في الطرفين البعيدين أي في العالم الهليني والصين .

وقد أعان انتشار الديانات الجديدة على تلبية المطالب الاقليمية وسائلُ النقل الحديثة التي كانت نتيجة إيجابية للحروب ، واقتلاعُ الناس من أوطانهم والاستعمارُ والتجارةُ المسكونية . فقد كان ثمة طرق بحرية وبرية طويلة تصل طرفي اويكومين العالم القديم الابعدين . كان ثمة أيضاً لغات عامة ، مثل الاغريقية الاتيكية المعروفة باسم كُوْيْني واللغة الارامية وأشكال ثلاثة من البهلوية واللهجات الهندية والسنسكريتية الجديدة التي تغلبت على اللهجات المحلية في القرن الثاني للميلاد في شمال الهند وعلى الدكن في القرن الثالث للميلاد . وثمة كُوْيُني صينية (فيها تسوية لأشكال الحروف واللغة المحكية) ، وهي التي سادت في الصين بين الموظفين والتجار بعد توحيد العالم الصيني في سنة ٢٢١ ق.م. وكان ثمة واسطة ثالثة للتواصل وهي الفن المنظور . وهذه الوسائل العديدة الأشكال كانت ذات أثر بالغ لما كانت الامبراطوريات الأربع تتعايش في تجاور جغرافي واحدتها مع الأخرى . وفي هذه المدة التي تعتبر زمن توطيد سياسي وسلام نسبيين كان اويكومين العالم القديم في حالة من التوصل غير عادية .

اثناء عملية الاختيار والنشر والتقبل والتركيب التي انتهت بظهور الديانات الجديدة التي تشبع العواطف ، كانت الوسائل الهلينية فعالة بشكل خاص . فاللغة الاغريقية والفن المتطور الاغريقي والفلسفة الاغريقية كانت تعمل يداً بيد في حوض البحر المتوسط « لتطوير » الديانات المختلفة التي كانت تنافس المسيحية هناك ولتطوير الدين الذي انتصر في النهاية عليها كلها ، أي المسيحية بالذات .

ان الهلينية لم تُشْعِر بوجودها مباشرة بأي صيغة من الصيغ إلى أبعد من الهند شرقاً . إلا أن البوذية الماهايانية في شمال غرب الهند إتخذت من الفن المنظور الهليني أداة لها ، على نحو ما اتخذت المسيحية والديانات التي فشلت في منافستها من ذلك الفن أداة ، ولكن في حوض البحر المتوسط . ولما نقلت الماهايانية من

شمال غرب الهنـد إلى شرق آسيـة عبر حـوض سيحون ـ جيحـون وحوض تـاريم ، رحلت الاداة نفسها معها . ومن هنا ، من هذه الصيغة المنظورة ، جاء تأثير الهلينية غير المباشر في شرق آسية . أما في الجهة المضادة فقد استمر الفن الهليني والفلسفة الهلينية في الانتشار في العمق في غـرب اوروبة وشمـال أفريقيـة على أساس أنهمـا (الفن والفلسفـة) وسائـل تحت تصـرف المسيحيـة . وهكـذا فـإن الهلينيـة كـانت الوحيدة ، بين المدنيات الاقليمية التي ظهرت قبل العصور الحديثة ، التي شعر القوم بوجودها ، ولو إلى درجة محدودة ، عبر اويكومين العالم القديم من الساحل الشرقي (الهادي) إلى الساحل الغربي (الأطلسي) .

إن زمن الاضطراب وما تبعه يربطان معاً ، وللمرة الأولى ، لا المناطق الرئيسة لاويكومين العالم القديم فحسب ، بل حتى المناطق النائية منه . فقبـل ذلك كـانت المدنيات الاقليمية تنشأ منفصلة واحدتها عن الأخرى ، وكانت كل منها تطور اسلوب حياتها على نحوها الخاص ، وكانت الديانـة جزءاً أصيـلاً من هذا . ومـع ان النمط العامل لكل من هذه المدنيات الاقليمية كان متميزاً ، فإن هذه المدنيات جمعاء كانت قد ورثت ، على المستوى الديني ، عدداً من « الصور البدائية » التي تعود إلى مرحلة ما قبل المدنية في تاريخ البشرية . وهذا التراث العقلي المشترك مكّن للعنصر الديني في واحدة من المدنيات الاقليمية ، عندما ينتزع نفسه من بقية الاجزاء المكونة لتلك المدنية ، ان يتكيف نحو ديانة مدنية إقليمية أخرى ، كما أنه يمكنه ان يُقْبَلَ في تلك الديانة الأخرى . وعلى العكس من بعض العناصر المدنية في مدنية إقليمية ، نجد ان العناصر الدينية لم تكن غريبة كلياً عن المدنيات الاقليمية الأخرى .

ولعلّ أقدم هذه « الصور البدائية » المشتركة دينيـاً ، هي الأم ، وهي ولا شك أقوى هذه الصور . انها موضوع لأقدم تمثيل فني منظور للشكل البشري . ولما كانت الامومة ، كمـا تبدو في هـذه الصورة ، لا تتعـارض مع البكـارة ، فمن الواضـح ان صـورة الام هذه قد اتخذت شكلها قبل اكتشاف الابوة ـ أي قبل ان يعرف القوم ان المرأة لا يمكن ان تحمل قبل ان تكون لها علاقة جنسية مع ذكر . ولا أنه قد عُرِف ، منذ فجر الوعي ، ان الامومة كانت تعني ولادة طفل . ولكن التعرف إلى أن الأم لا بد لها من رفيق ذكر ، وان الطفل لا بد ان يكون له أب ، ليس أمراً بدائياً . وفي البدء تسلط ظل الأم على الطفل ، أما الأب فإما أنه لم يكن له وجود ، أو أنه كان ، في أكثر

الحالات ، شخصاً صورياً . وقدرة الام كبيرة بالنسبة الى أي ذكر يمكن ان يعايشها ، ومن ثم فقد اختار بعض الالهة الذكور الاقوياء الشكيمة ان يظلوا عزاباً . ويمكن التمثيل على ذلك بذكر أتون وأشور ويهوه ومثرا .

ونسبة القدرة عند الأم والطفل والأب تختلف بين واحدة وأخرى من المدنيات الإقليمية . وحتى في إطار مدنية واحدة فإنها تختلف بين مرحلة وأخرى في تاريخ تلك المدنية . وهذا التباين جعل كلا من الصور المختلفة التي رسمت للعائلة المقدسة تجذب اليها من الناس اولئك الذين كانت صور أسلافهم لها مختلفة . فقد تزود مدنية إقليمية ما مظاهر للصورة العامة كانت محرومة منها مدنيات اقليمية أخرى .

صورة الام صورة متشكلة . فقد تكون اما لطفل بشري أو لذرية لأي نوع من الاحياء . وقد تكون ، في الوقت ذاته ، الأرض ، التي هي الأم المشتركة للحياة بأجمعها . وفي كل مظهر من هذه المظاهر يتعين على الأم عادة ان تربي نسلها وتحبه . لكن ، مع أنها تكاد تكون دوماً خصبة ، فهي ليست سليمة التصرف دوماً . فالهة ـ الأرض كوتليكو الميزو ـ اميركية ، أم الآلهة والبشر ، وهيكاتي الالهة ـ الام الهلينية والآلهة ـ الام الهندية كالي ـ كل هذه كان في قدرتها ان تستعمل قوتها تخريباً وإيذاء ، كما كانت تفعل ذلك ابداعاً وخيراً ، وقد قامت بذلك فعلاً . وفي آسية الصغرى أوقعت الألهة ـ الأم سيبيل أذى كبيراً بابنها أو زوجها او لعله كان الابن والزوج مندمجين كليهما في عشير ذكر فرد .

وما دامت حتى الأم يمكن ان تنجرف الى الوحشية ، فلا غرابة في أن يكون الطقس ، من الناحية الخلقية ، قوة متقلبة . ذلك بأن الطقس متقلب بشكل جشع ، وجشعه يمكن ان ينتهي باتلاف المزروعات بالفيضان أو الجفاف ، وقد يمكن ان يحملها على انتاج وفير بمنحها المطر في الفصل المناسب أو منعه عنها أيضاً (ومعنى مناسب هنا ينصرف الى خدمة أغراض الانسان الفلاح) . ومن المعتاد ان يكون اله ـ الطقس ذكراً ، ومن اليسير ان يكون الأب . فبالمقارنة برق الأم العادي نحو طفلها فان حالة الأب ، كحالة الطقس ، تنتقل دون سابق معرفة لأن التصرف غير عقلاني ، من الخير الى الغضب ، وتعود ثانية من الغضب الى الخير .

وبالمقارنة نجد ان مسيرة الشمس اليومية والسنوية منتظمة مقننة ، والشمس

ذاتها عادلة . اذ انها تمنح نورها ودفئها لجميع الخلائق دون محاباة . فنحن نعتمد عليها بثقة أكبر من الثقة التي نوليها الام الأرض ، ودون ان نذكر الأب الطقس . ولكن بما ان الشمس تسمع وترى كل شيء يصنع على الأرض ، فإنها تحتفظ بسجل لجميع الأرباح والخسائر الخلقية لكل كائن بشري .

لا تمنحنا النجوم الأخرى الثقة ذاتها التي تأتي من الشمس . فالسيارات مذبذبة كالطقس ، والنجوم الثابتة جامدة ، وقدر الانسان يقرره أثر النجوم، وقد يكون هذا الأثر سيّء العاقبة .

تموت البذرة فصلاً كي تعود الى الحياة ثانية كغرسة سيتولى الزراع الانسان حصدها ، وهذه القدرة الانباتية هي التي يعيش المؤمنون من البشر بأكل لحمها وشرب دمها . ومن المؤكد ان القدرة على انتاج الطعام هي هبة النفس ضحية للبشرية ، وذنب موتها الطوعي يقع على رؤوس البشر الذين ينعمون بخيرها . والسر الكامن في ان هذه القدرة تموت وتبعث حية كل سنة ، يمنح المؤمنين من البشر الأمل في ان موتهم ستعقبه القيامة ايضاً . ولكن اليست هذه القدرة الواهبة ذاتها هي ايضاً مجرمة ؟ الا تلقي بالمؤمنين بها من بني البشر في حالة من الجنون بحيث أنهم يمزقون الكائنات الحية إربا ـ بما في ذلك الكائنات البشرية ـ وينعمون بالتهام لحمها نيئاً ؟

وثمة صورة بدائية أخرى هي صورة المخلص ـ وهو الذي نحتاجه نحن الكائنات البشرية في كل حين ، إلا أننا أكثر حاجة اليه في زمن الاضطراب . وصورة أخرى هي صورة الاله المتجسد كائناً بشرياً . وقد كان الفرعون الهاً متجسداً . كان كل فرعون ، على الأقل منذ بدء عهد الأسرة الفرعونية الخامسة ، يعتبر أنه ولد لأمه البشرية دون تدخل أب بشري ، ودون قيام أي علاقة جنسية عليا ، بل ولد نتيجة كلمة أمر الهية ينطق بها . ومن الذي يدري في أي وقت سابق بعيد في تاريخ تطور الإنسان العاقل وتطور الكائنات السابقة للبشرية ظهرت صورة الاله المتجسد ؟

والصور البدائية ليست متمايزة بالضرورة. فالإله المتجسد والمخلص والبذرة والابن قد تتوافق هوية واحدها مع هوية الآخر. الأم قد تكون عذراء واخصابها لا يحتاج شريكاً بشرياً، وطفلها، بالتبعية، لا أب له. وبديل ذلك ان تكون الأم زوجة متفانية في حبها لزوجها كتفانيها في حبها لابنها. وليس ثمة تأكيد على جنس صاحب

الصورة باستثناء حالة واحدة. فالأم، بطبيعة الحال، لا يمكن ان تكون ذكراً، والطقس ندر ان يكون أنثى، ومع ذلك ففي ديانة مصر الفرعونية كانت الأرض ذكراً، والسماء أنثى. وفي أكثر الديانات نجد الشمس ذكراً إلا أن الشمس منتظم وعادل، وان يكون الرجل غير جشع فأمر فيه تناقض. ولذلك فثمة منطق أفضل في الجنس الأنثوي للالهة الشمس في مدينة أرينا الحثية، وعند الهة ـ الشمس اما تيرازو التي هي الأم الأولى للأسرة الامبراطورية اليابانية، وفي اللغة الالمانية (ونضيف هنا اللغة العربية ـ المترجم).

لقد عرضنا الى الآن المواد الممكن الافادة منها لنشوء ديانات جديدة قد تفي بالحاجات الروحية للبشرية في زمن الاضطراب . فلننتقل الآن الى استعراض النتاج الواقعي. وسيكون عملنا أوضح فيما تتبعنا العرض منطقة منطقة.

ان الديانة المتوارثة «للمؤسسة» في الصين كانت قد انتهى أمرها في الواقع قبل ان يحس الناس بالحاجة الى ديانة تعبدية. «فالسماء» (تيان) كانت قد فقدت دلالتها الأصلية لشخصيتها قبل أيام كونفوشيوس. ان «سلطة السماء»، التي منحت أسرة امبراطورية ما تعتمد عليه بحسب ما قاله الأمراء ـ الاداريون ـ العلماء الكونفوشيون، وهم الذين وصلوا الى السلطة والنفوذ أثناء حكم هان وو ـ تي، كانت (أي سلطة السماء) في الحقيقة سلطة بشرية تمنحها هذه الطبقة المسيطرة نفسها وتستردها حسب الحاجة. والمادة الوحيدة التي كانت متيسرة في الصين لديانة تعبدية كانت عبادات طقسية محلية بدائية حضارياً. وقد فتح توحيد الصين السياسي، في سنة ٢٢١ ق.م.، الطريق أمام هذه العبادات الطقسة لأن تلتحم بعضها بالبعض الآخر وبالفلسفات التي عرفتها «المؤسسة». إن الكونفوشية التي استنها وو ـ تي أساساً لتولي المناصب العامة لم تكن فلسفة كونفوشيوس ومنشيوس. فقد أفسد هذه الفلسفة اختلاطها بديانة عامة اختلاطاً غير متكافىء معها. والافساد المقابل للطاوية ذهب بعيداً جداً. فالفلسفة الطاوية ـ التي كانت تعزف، بالمرة، عن المشاركة في القضاياالعامة ـ كان باستطاعتها ان تزدهر في الوقت الذي كانت فيه الكونفوشية في أفول. فعلى سبيل المثال كانت الطاوية في صعود في مطلع حكم هان ليو بانغ، كما أنها تمتعت بازدهار آخر في القرن الثاني للميلاد، إذ أظهرت ثلاثة قرون من التجربة المحزنة ان الكونفوشية اساءت استعمال احتكارها للسلطة الادارية. إلا أنه مع هذا الانتعاش للطاوية على أنها فلسفة متحذلقة، فقد أنتجت الطاوية، في الوقت ذاته، ديانة شعبية، وهذه الديانة نظمت بشكل فعال بحيث

انها زودت ، بالتشجيع والقيادة ، ثورتين قام بهم الفلاحون متحدين حكم الهان الشرقية سنة ١٨٤ م .

هل كان هذا التحول الذي نقل فلسفة صينية اصيلة الى ديانة تطوراً صينياً ذاتياً، أم هل كان مبعثه خارجياً مثل الماهايانا ـ وهي ديانة تعبدية ذات أصل هندي كانت قد انبعثت من الفلسفة البوذية الثيرافادية؟ لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال الأخير، اذا نحن أخذنا بعين الاعتبار، ان الماهايانا كانت، في القرن الثاني للميلاد، قد أخذت تدخل الصين دخولاً رفيقاً. من المؤكد انه لما كان دخول الماهايانا الى الصين على أشده فيما بعد، أخذت الديانة الطاوية (وكانت هذه قد استمرت بعد فشل الثورتين الفلاحيتين اللتين كلأتهما) عقيدة الماهايانا وتنظيمها وذلك كي توفر للصين مقابلاً أصيلاً معترفا به لهذه الديانة الهندية القادمة من الخارج.

كان تطور الماهايانا في الهند عملية تدريجية ولم يكن ثمة انقطاع في الاستمرار، على المستويين الاجتماعي والتنظيمي. فنظام الرهبنة البوذي (سانغا) نقل من البوذية الثيرافادية الى الماهايانا، وهذا ظل الأساس التنظيمي للبوذية في تعدد أوجهها. ومن الجهة الثانية فان النتيجة التراكمية للتطور، على المستوى العقائدي، كان تغيراً داخلياً.

كان على الراهب البوذي الثيرافادي ان يجاهد، بكل مقدرته، كي يتم له الوصول الفردي الى النيرفانا؛ وذلك لأن الكاهن، مع انه يستوحي تعاليم بوذا وقدرته، لا يستطيع ان يطلب من بوذا نفسه العون الروحي، لأن بوذا نفسه، بعد ان وصل الى حالة النرفانا، لم يعد الوصول اليه ممكناً. لقد ظلت النرفانا الهدف الأخير للراهب الماهاياني، لكن الهدف الأول مرتبة لهذا الراهب كان ان يصبح بوذيساتفا، وكان يستطيع ان يتطلع الى الحصول على العون، في محاولته بلوغ هذا الهدف، من مجمّع البوذيساتفا القائمين، والذين يمكن ان يتقدم اليهم للحصول على هذا العون. فالبوذي الماهاياني كان يأمل في الوصول الى هدفه المباشر، بمساعدة بوذيساتفا؛ وهذا لم يكن المقصود منه الوصول الى النرفانا، بل الوصول الى الاقامة في السماء.

والبوذيساتفا هو عامل في التجربة الروحية التي وضع بوذا أسسها. لقد وصل الى عتبة النرفانا، وأصبح باستطاعته الآن ان يدخل النرفانا اذا اختارِ ذلك؛ ، إلا أنه قد

اختار بدلاً عن ذلك (كما اختار بوذا نفسه)، وكان اختياره تطوعاً، أن يؤجل دخوله، وذلك كي يقدم المساعدة لزملائه المنتظرين. واذا نظرنا الى القضية في إطار «الصور البدائية» فالبوذيساتفا هو المخلص. وقد غيّر أحد البوذيساتفا، واسمه افالوكيتا، جنسه في الصين كي يتم له ان يكون كوان يِن، أي روح الرحمة الانثوي. فقد كان هناك حاجة شديدة للأم في الصين بعد سقوط حكم الهان الشرقية، وعندها تقدمت كوان يِن للقيام بهذا الدور المناسب زمنيا. ان العطف الغيري، الذي كان عند البوذيساتفا، كان يثير في البوذي الماهاياني استجابة تعبدية ورغبة في ان يحاول السير في خطى البوذيساتفا. فالماهايانا هي، في واقع الأمر، ديانة تعبدية من النوع الذي يتطلبه زمن الاضطراب.

يبدو ان الماهايانا اتضحت معالمها خلال القرنين الأولين للميلاد، وانها تبلورت في شمال غرب الهند، حيث كانت المدرسة السرفاستيفادية المحلية للفلسفة البوذية أكثر استعداداً من الثيرافاديين المتمركزين في الجنوب، للتحرك في اتجاه الماهايانية. وفي الوقت ذاته كانت الهندوكية تمر بتغير مماثل، وهذا انتهى أخيراً، ولو تدريجياً، الى حالة جمود. وهنا لم يكن ثمة انقطاع في الاستمرار على المستوى التنظيمي. والحلقة التنظيمية في هذه الحالة كانت طبقة البراهمة. فالبراهمة احتفظوا بسيطرتهم على الهندوكية بالرغم من التبدلات الجنسية في هذه الديانة.

تتفق الهندوكية الفيدية والديانة الرومانية الاصلية في ان العلاقة بين الآلهة والمتعبدين لهم كانت تقوم على تبادل مألوف. فاذا تمت الطقوس بشكل صحيح، ترتب على الآلهة ان تتجاوب تجاوباً صحيحاً، وكان الأصل المعتمد المنفعة الذاتية. وفي الصيغة الجديدة للهندوكية، التي كانت في حقيقتها ديانة جديدة، كان الالهان شيفا وفيشنو نظيرين للبوذيساتفا البوذي الماهاياني. ومن المحتمل ان هذين الالهين الهندوكيين كانا يعبدان قبل الميلاد بمدة طويلة، ولكن لعلهما كان لهما اسمان آخران. والصفة الجديدة التي بدّلت عبادتهما كانت إدخال علاقة عاطفية بينهما وبين المؤمنين بهما. ففيشنو، مثل البوذيساتفا اميتابها، هو المخلص، وهو كذلك الإله الذي يتجسد. وتجسدانه الأكثر شعبية هما راما وكرِشْنا، إلا أنه قد تجسد في بوذا ايضا. وشيفا كان يملك خلقية تكافؤ الضدين لصورتي الطقس والانبات البدائيتين. كان بإمكانه ان يكون مخرباً ومبدعاً ولم يتجسد قط والمتعبدون له من البشر هم تحت رحمة جشعة. وشيفا هو الحقيقة الروحية والقدرة القائمتان خلف كلية الطبيعة. ليس له اهتمام خاص بخير الانسان إلا أن

الانسان يتوجب عليه ان يقبل بشيفا كما يجده، اذ ان الانسان هو نفسه جزء من الطبيعة التي يمثلها شيفا.

كان توحيد زرواستر العنيف قد اخطأ المرمى في ايران. فقد استولى الكهنة الايرانيون التقليديون اي المجوس على ديانته الثورية، كما استولى البراهمة، على عبادة فيشنو وشيفا الطقسية في الهند. فبعد وفاة زرواستر حدث في إيران مثل ما حدث في مصر عقيب وفاة اخناتون، أي ان تعدد الآلهة عاد الى نشاطه وذلك استجابة للجوع المستمر لذلك. والصفات الروحية التي كانت لاهورا مزدا آلت الى الهات تساويها في العدد، وكل لها كيانها الخاص بها. يضاف الى ذلك ان اناهيتا، وهي آلهة ـ ماء محببة تعود في أصلها الى ما قبل الزرواسترية، نجحت في استرجاع مكانتها. وقد كانت هذه خطى على طريق تحول الزرواسترية الى ديانة عاطفية؛ إلا أن هذه الخطوات الأولى لم تسر قدما، حتى ان الزرواسترية المخففة، التي صنعها المجوس، لم تكسب قلوب الايرانيين تماماً.

إن بلاد المشرق، حتى لو ضممنا اليها حوض الرافدين، ليست أوسع رقعة من اي من الهند او الصين، إلا انها، في العصر السابق لتوحيدها السياسي مرتين في عهد الامبراطورية الفارسية اولا ثم في زمن الامبراطورية الرومانية، كانت أقل اتساقاً على المستوى الثقافي من اي من شبه القارة الهندية والصينية. فهذه المنطقة الصغيرة نسبياً، الواقعة الى الغرب من ايران، نشأت فيها ما لا يقل عن خمس مدنيات: السومرية ـ الأكديّة والمصرية الفرعونية والسورية والاناضولية والهلينية. يضاف الى ذلك ان هذه المدنيات، بالرغم من مصاقبتها واحدتها للأخرى، لم تكن منفصلة فحسب، لقد كانت الفروق بينها كبيرة في كلا الأمرين ـ الأسلوب الخارجي والروح الداخلية. ومن ثم فقد كان تفاعلها نشيطاً لما خلق زمن الاضطراب الحاجة الى ديانة تشبع العواطف. وقد قوي هذا التفاعل بسبب الفقر الروحي الواضح الذي كانت تشكو منه واحدة من هذه المدنيات الاقليمية الخمس، وهي المدنية الهلينية. صحيح ان العالم الهليني، في عصر ما بعد الاسكندر، لم يكن يعاني نقصاً في المصادر الروحية الأصلية كذلك الذي كانت تشكو منه الصين المعاصرة له. فقد حافظت ديانتان، على الأقل، في العصر الذي افتتحه الاسكندر في المشرق، لما هاجم الامبراطورية الفارسية سنة ٣٣٤ ق.م.، على حيويتها: الأسرار الاليوزينية وعبادة ديونيسوس. فديمترا الاليوزينية كانت الأم

الأرض؛ وابنتها «كوري» وهي فتاة، كانت البذرة التي تموت وتدفن وتعود الى الحياة ثانية. وقد كان قبول شخص في هذه الأسرار يضمن له نعيماً أبدياً بعد الموت، في جنة الخلد (في العالم الآخر). اما ديونيسوس فقد كان النظير الهليني لشيفا. لقد كان أخلاقياً وشرهاً في طبيعته المتناقضة. وقد تخطت الأسرار الاليوزينية العوائق واستمرت في عصر ما بعد الاسكندر من التاريخ الهليني، كما ان عبادة ديونيسوس عادت اليها الحياة بشكل ايجابي.

وفي الوقت ذاته ثبتت الحياة الخاصة حاجاتها ضد متطلبات الخدمة العامة، فكان ان لبت الأسرار الاليوزينية وعبادة ديونيسوس حاجات الكائنات البشرية الروحية، بقطع النظر عما اذا كان الطالبون مواطنين ام غرباء، وأشخاصاً أحراراً ام عبيداً، وذكوراً أم إناثاً. لقد كان هناك، بطبيعة الحال، عبادة عامة لديونيسوس في أثينا؛ وقد كانت التمثيلية الاتيكية جزءاً منها. وقدكانت الأسرار الاليوزينية ايضا تحت جناح المدينة ـ الدولة الاثينية؛ إلا ان اليوزيس بالذات لم تكن مدينة ـ دولة ذات سيادة، على نحو ما كانت عليه أثينا. لقد كانت مدينة مقدسة، وكان وقوعها في بلاد الدولة الاثينية مصادفة، وبسبب انها كانت مقدسة «لا سياسية» فقد كان باستطاعة أي كائن بشري ان يصل إليها. اما فيما يتعلق بعبادة ديونيسوس، فان إحياءها في عصر ما بعد الاسكندر كان عملاً دينياً خاصاً، هدفه تلبية الحاجات الروحية الخاصة. والفعاليات التي أدت الى انتشار الاحياء الديونيسي في العالم الهليني في عصر ما بعد الاسكندر لم تكن الحكومات، لقد كانت جماعات خاصة (ثياسوي)؛ وقد وضعت شعبية هذه الديانة الهائمة بعض الحكومات في مآزق، وذلك لما أصبحت العبادة فيها شأناً خاصاً. ان بطليموس الرابع (حكم ٢٢١ ـ ٢٠٣ ق.م.) وهو أبرز اتباع باخوس سياسياً في عصر ما بعد الاسكندر، طلب من الجماعات (ثياسوي) الباخية في مملكته ان يتسجلوا في الدواوين؛ والحكومة الرومانية قضت على الجماعات (ثياسوي) الباخية في ايطالية (١٨٥ ـ ١٨١ ق.م.).

بعد ان قضى الاسكندر على الامبراطورية الفارسية قام سباق بين الديانات المتنافسة كي تصبح الديانة العالمية للمشرق، ومثل هذا الأمر حدث في حوض البحر المتوسط بكامله لما توحد سياسياً تحت حكم الامبراطورية الرومانية. وقد نجحت المسيحية في هذه المنافسة وذلك باتباعها سبيلاً كانت له سابقة في اللاهوت المصري الفرعوني. كان المصريون يعتقدون بأن الفرعون، حين وفاته، كانت واحدة من

أرواحه، وهي الروح التي يمكن ان تعتزل الأرواح الأخرى، تصعد الى السماء، وهناك كانت تلتهم بقية الآلهة التي كانت القادمة الجديدة تجدها مستقرة هناك. وإذ يلتهم الفرعون هذه الآلهة المنافسة، فإنه يستولي على قوتها. وقد استولت المسيحية على قدرات منافساتها وذلك بتقليد العمل الأسطوري للفرعون الصاعد. فالتهمت المسيحية الآلهة والالهات السورية والمصرية والاناضولية والهلينية، ومن ثم فقد انتقلت قوى هذه الآلهة والالهات إليها وأصبحت قوة لها.

وفي السباق للاستيلاء على دور الأم، كان هناك على الأقل خمس طالبات هن اللواتي تقدمن لذلك. وهذه كانت إيزيس المصرية وسيبيل الفريجية وارطميس الأفسية وديمترا الاليوزينية وآلهة متجسدة في مريم، زوج النجار الجليلي. وقد كسبت مريم السباق اذ اتخذت شخصية إيزيس المتهلّينَة وصورتها وصفاتها. في سنة ٢٠٤ ق.م. خففت الحكومة الرومانية من حدة الحروب الهنيبعلية بأن استوردت سيبيل من بسينوس او لعل ذلك كان من برغاموم، وذلك في شكلها الوطني كحجر أسود يقوم خصيان على خدمته. فلما خفت الحدة، عزلت هذه الضيفة الفريجية في رومة، وهي التي كانت قد دعيت بشيء من التهور، بقدر ما كان ذلك ممكناً عملياً. وفي الجهة الثانية كانت إيزيس قد تهلّيَنَتْ كنظيرة منعشة لديمترا قبل ان تصبح مما ينقل بحراً (بلاجياً). وبهذا الزي اجتاحت إيزيس الامبراطورية الرومانية تحف بها علامات النصر.

وأما في بيتها، في مصر، فقد كانت إيزيس الزوجة الوفية للآلهة اوزيريس الذي كان قد مات وحُنِّط، لكن زوج الآلهة المصري لم يكن قابلاً للتصدير، وكان لبطليموس الأول مستشاران مشتركان للشؤون الدينية، هما منيثو الكاهن المصري والكاهن الاغريقي الاليوزيني تيموثيوس. هذان المستشاران صنعا زوجاً لايزيس قابل للتصدير هو سرابيس ـ وهو «ضم» لاوزيريس مع أبيس الإلّه المصري المتجسد في عجل. والفراغ الروحي الذي نشأ عن إزالة زفس (وقد أصابه ما أصاب تيان) أتاح لسرابيس المجال لأن يدخل مجمّع الآلهة الهليني، إلا ان سرابيس، في هيأته الهلينية المحترمة كان نسخة فضفاضة من اسكليبوس، إله الشفاء الهليني. ولم يكن بإمكان سرابيس ان يحل محل زفس بحيث أنه يشكل الأب في العالم الهليني. وقد اقتنص يهوه إلّه اليهود الوطني الحاذق، هذا الدور.

لم تكن إيزيس الزوجة الوفية فحسب، بل كانت الأم الحنون أيضاً. وقد ربت

إبنها حورس كي يصبح حامياً ومخلصاً لأوزيريس الذي تعـود اليه الحيـاة. وفي السباق الذي قام في المشرق خارج حدود مصر، للحصول على دور الابن، لم يكن لحورس مجال ليجاري يسوع بن مريم.

إن أقدم ما وصل الينا من أخبار يسوع هي الأعمال التي دونها أتباعه المتحمسون الذين كانوا قد قبلوا العقيدة بأن يسوع، مثل الفراعنة، لم يكن له أب إنسان، بل إنه ولد لأمه من إله. وفي حالة يسوع لم يكن الاله رع (المصري) بل الله. (كان واسطة الله روحه؛ ذلك بان صفات الله، مثل صفات أهورا مزدا، قد أصبحت آلهة صغيرة كل منها لها شخصيتها الخاصة بها، وذلك لتخفيف التزمت الروحي للتوحيد). وبحسب ما ورد في الكتب المقدسة المسيحية فقد رفض يسوع نفسه فكرة الألوهية بالنسبة إليه في أي معنى كانت. وعلى الأقل في قولين له مدونين يرمي يسوع الى القول بأنه لا يستوي مع الله في الهوية. إلا أنه يمكن ان يكون إلها بالمعنى الهندوكي، في كونه إنساناً قضى نهائياً على ذاته EGO. ومن ثم فقد نزع جانباً النقاب الذي يغطي، في أكثر الرجال، الحقيقة الروحيـة المطلقة القائمة في الداخل. وبالنسبة الى المدرسة اللاثنائية في الفكر الهندي تكون هذه الحقيقة المطلقة أساساً لجميع المظاهر، وهي تُشِعُّ أنوارها بالشكل والحين حينما يُنزع هذا النقاب المعيق الذي يدور حول التمركز النفسي الفردي. ولعل هـذه الرؤيـة المباشـرة للحقيقة الروحية المطلقة، عبر يسوع، هي التي حملت المؤمنـين به من غير اليهـود في التصدي له؛ لكن لو ان يسوع ذاته عاش حتى دعي اليها، فمما لا ريب فيه انه كان أنكر وضعاً لا يمكنه القبول له. ولعله كان، أسوة بغيره من أحبار اليهود، يدعـو نفسه «ابن الله»؛ إلا أنه، من حيث التعبير اليهودي، تصبح بنوته لله هذه تعبيراً مجازياً القصد منها التنويه بعلاقة ود وثقة خاصة به. كان يسوع من مستقيمي الـرأي، ولذلـك فإن أفقـه الجغرافي والعنصري كان متجهاً نحو يهود فلسطين. ولما أرسل تلاميذه في حملة تبشيرية، أشار عليهم بأن يكتفوا بوعظ الخراف الضالة.

واتباع يسوع من اليهود لم يتهموه بأنه لم يكن من مستقيمي الرأي. ولقد اختلف يسوع مع الفريسيين لأن يسوع فسر الشريعة اليهودية باعتباره صاحب سلطان، دون ان ينتظر بعض الوقت ليحصل على إجماع مسبق للأحبار حول نقطة ما. وتكاد تكون أكثر تفسيرات يسوع غير التقليدية التي انفرد بها تتفق تماماً مع زملائه من الأحبار الذين اتبعوا التقليد المألوف. اما الصدوقيون فقد وافقوا السلطات الرومانية المحلية لما حكمت على

يسوع بالموت لأنه سمح لليهود المقيمين في القدس ان يخاطبوه على أنه «المخلص» (أي الانسان المحرر الملكي للشعب اليهودي). لقد تمسك الصدوقيون بموقفهم وهو أن إعدام يهودي متطرف واحد كان ضماناً شرعياً لمنع قيام مجموعة مخلصية يهودية قد يحتاج إخمادها الى إزهاق أرواح الكثيرين من اليهود. ولنا ان نخمن ان يسوع لم يتفرد كثيراً إذ أنه كانت له مشاركات كثيرة مع الفريسيين. والفريسيون، على العكس من الهشمونيين وخلفائهم المتعصبين، رفضوا ان يحملوا السلاح ضد الحكومات، وطنية كانت ام أجنبية، ما دامت تلك الحكومات تسمح لرعاياها اليهود بأن يمارسوا ديانتهم اليهودية بموجب متطلبات التقليد اليهودي السوي.

يسوع ابن مريم والله (يهوه) أب يسوع، يطغيان على مريم بالذات بموجب اللاهوت الرسمي للكنيسة المسيحية. وقد يبدو، للوهلة الأولى، كما لو ان إيزيس قد تراجعت عن مكانها إذ اتخذت صورةمريم، لأن إيزيس كانت قد خلفت زوجها وابنها وراءها في مصر لما بدأت رحلتها عبر العالم الهليني. ومع ذلك فمريم والدة الإلّه (ثيوتوكوس) هي، في القسم الأكبر من العالم المسيحي غير الانجيلي (البروتستانتي)، آلهة في كل شيء إلا في الاسم. وفي هذا التفرع حافظت إيزيس على قدرتها التي كانت لها في زمن ما قبل المسيحية.

كان يهوه، مثل زفس، قد بدأ عهده على أنه إله الطقس. ولما كان زفس قد خرج من ميدان السباق، فان المنافس الوحيد ليهوه للقيام بهذا الدور هو جوبيتر دوليخينوس، وهي صيغة مُرَوْمَنَة لإلّه الطقس لبلدة دوليخي (دولخ) التي تحتل موقعاً استراتيجيا في شمال سورية. عند دوليخي يتقاطع الطريق الجنوبي الشمالي الذي يربط مصر بآسية الصغرى مع الطريق الشرقي الغربي الذي يصل انحناءة الفرات الغربية بالبحر المتوسط. وترتب على ذلك أن دوليخي كانت محطة لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للجنود الرومان في تنقلهم من حدود الامبراطورية الشرقية او إليها أو حتى فيها. وقد ترتب على ذلك أيضاً ان أصبح جوبيتر دوليخينوس يتمتع بشعبية كبيرة بين أفراد الجيش الروماني. وقد جعل عباده المحليون من الحثيين ركوبته ثوراً. فيما كان هو نفسه يقلب بين يديه صاعقة الطقس والبلطة المزدوجة. وقد ألبسه المؤمنون به من الرومان الزي الروماني. وقد تنقل، في هذا الزي، مع الجنود صعداً مع نهر الدانوب، ثم مع نهر الراين نزولاً، ثم جاز البحر الى التحصينات الهدرياتية في بريطانية.

كان وضع دوليخينوس يفضل وضع يهوه في أمر واحد. فقد كان للأول زوج أنثى كانت تقابله كمساوية له، وكانت تقف على ظهر أيِّلَة. وقد كان لزوجات الجنود الرومان، دور الى جانب أزواجهن في عبادة دوليخينوس. ومع ذلك فإن امتلاك دوليخينوس لب الجنود كان قصير الأمد. لقد بدأ في القرن الثاني للميلاد وانتهى في القرن الثالث. لقد كان لجوبيتر دوليخينوس حيوية أقوى من حيوية سرابيس، إلا أنه لم يكن، هو أيضاً، كفؤا ليهوه.

وفي مجال التنافس على دور البذرة التي تموت وتعود الى الحياة، خرج اوزيسريس المصري بسبب تحنيطه، كما خرج أتيس الاناضولي بسبب خصيه لنفسه؛ وتموز السومري ـ الأكدي كان قد إنحدر مع بقية أجزاء مجمّع الآلهة السومري ـ الاكدي، باستثناء النجميات. وكان ثمة سباق عنيف بين أدونيس السوري وديونيسوس وكوري الاليوزيني وباخوس، ولكن حتى في هذا السباق، كان يسوع هو المجلي. فقد اعتقد بعض أتباعه أنهم رأوه حياً في اليوم الثالث بعد يوم صلبه، ثم ظهر لهم في عدد من المناسبات التالية. فلما كتب القديس بولس رسالته الأولى الى أهل كورنثوس كان الطقس الديني المميز للجماعة المسيحية قد أصبح أكل جسد المسيح وشرب دمه في بدائل نباتية: الخبز والخمر؛ وقد استقرت الصيغة اللفظية للطقس الديني. فلا ديونيسوس أو أدونيس كسب دور الله الميت والمحيي، بل يسوع هو الذي كسب ذلك، وهذا بالاضافة الى انتصاراته الأخرى.

لقد كان ليسوع منافسون أشد شكيمة في دور المخلص، ولكن أعنف جهاد بذله كان في اقتناص دور الإله المتجسد.

فقد كان المخلصان المنافسان ليسوع هما خورس الذي انتصر على خاله سيت، ومثرا وهو إله ايراني كان زرواستر قد أنزله الى منزلة الشياطين، إلا أنه هاجر من إيران الى آسية الصغرى، وكمهاجر ثَبت ألوهيته متحالفاً مع الشمس والنجوم التي تملك الحظوظ. وقد كان ارتفاع أسهم مثرا، مثل دوليخينوس، يعود الى اهتمام الجيش الروماني. فقد حمل الجنود مثرا من الفرات الى تاين وسُلوى (في بريطانية)؛ إلا أن حياته كانت قصيرة. فقد بدأ حظه في القرن الأول للميلاد، وفي القرن الرابع كان مثرا يحارب في معركة خاسرة ضد يسوع.

وقد تنافس مثرا ويسوع في تشددهما في المطالب الأخلاقية التي فرضاها على المؤمنين بهما، لكن مثرا كان في وضع أضعف في أمرين حاسمين. فبدل ان يكون مثرا مضحياً وضحية بريئة، كان قاتلاً شريراً (إلا اذا كان الثور الذي قتله مثرا، بالمصادفة، هو شبه لمثرا بالذات). والأمر الثاني هو ان مثرا كان يكره النساء ولم يكفه انه كان بدون أم وأنه كان أعزب، بل ان عبادته، على خلاف عبادة دوليخينوس وعلى خلاف المسيحية ، كانت تقبل الذكور فقط . كان يسوع أعزب مثل مثرا ، لكن يسوع كان له أم مثال ـ إيزيس ، وقد كان حتى في أضيق دائرة من اتباعه نساء مقدسات . ومن ثم فقد كان مجال للنساء في حياة الكنيسة المسيحية .

وقد أصبح يسوع، لا مثرا، مخلص شعوب البحر المتوسط. لقد رغبوا في ان يكون المخلص كائناً بشرياً مثلهم، ورغبوا ايضا في ان يكون هذا المخلص البشري ممثلاً للأكثرية البشرية التي لا امتيازات لها، والتي أسهمت الى درجة قصوى في الآلام التي هي أمر يشترك فيه العموم. والانسان الذي كسب هذا الدور كان، على ما يبدو، نجاراً لا حول له، لا ملكاً بادي القوة. ولما قبل الملك بطليموس الأول لقب «مخلص»، الذي أطلقه عليه الروديون، لا شك انه كان سيدهش لو ان أحداً تنبأ له ان هذا اللقب سيرثه صانع يمكن ان يكون متحرراً من واحد من رعاياه الأسيويين ـ وهذا سيتم في وقت تكون فيه أسرة البطالمة قد انتهى أمرها بالمرة.

وكان أشد الأدوار مدعاة للمنافسة ذلك الدور المتعلق بالإله المتجسد. والنموذج السابق للإله المتجسد، هو الفرعون. وقد كان الامبراطور الروماني فرعوناً، إضافة الى كونه المدبر الأول للدولة نيابة عن مجلس الشيوخ والشعب الروماني. وهكذا فإن جميع الأباطرة على التوالي كان كل واحد منهم الوريث الشرعي للإله المتجسد المصري (الى ان رفض أورليان هذا التراث المصري). وكانت عبادة الإله البشري الامبراطوري الاسمنت الذي كان يربط أجزاء الامبراطورية واحدها بالآخر ؛ كما كانت هذه العبادة قد حافظت على ترابط الملكية المصرية المزدوجة، لمدة تزيد عن ثلاثةآلاف سنة. وبقدر ما كانت الحكومة الامبراطورية الرومانية تتسامح مع أي من فريق من رعاياها في أن يعبدوا الامبراطور على أنه إله، فان الحكومة بتسامحها كانت تعرض للخطر الوحدة السياسية العزيزة عليها ـ ومعها السلام العزيز الذي لا يقدر بثمن ـ الذي منحته رومه للعالم الهليني.

وقد تسامحت الحكومة الرومانية مع رعاياها اليهود إذ رفضوا ان يقدموا للامبراطور ما يتطلبه من تكريم إلهي، لكن هـذا الاستثناء لليهـود كان محـدوداً بطبيعـة الحال لأن اليهود كانوا جماعة عرقية. ومثل هذا التسامح لو أنه منح للمسيحيـين لكان الأمـر على درجة كبيرة من الخطورة؛ ذلك لأن الكنيسة المسيحية لم تكن محدودة باعتبارات عرقية؛ فقد كانت غايتها المعلنة هي ان تقبل البشرية جمعاء هذا الدين الجديد. وفي مقابل ذلك كان من المستحيل على المسيحيين ان يقوموا بالطقوس المتعلقة بعبادة الامبراطور دون ان يكون في عملهم هذا رفض ضمني بأن إله المسيحيين ليس هو الإله الحقيقي الوحيـد. ومعنى هذا بالتمام هو رفض لروح المسيحية. ومن ثم فكان لا بد من قيام صـدام مباشر بين الحكومة الرومانية والكنيسة المسيحية. وقد كان انتصار المسيحية في هذه المعركة غاية في العجب.

والديانة المنافسة الوحيدة التي لم يكن باستطاعة المسيحية ان تهضمها كما انه لم يكن بإمكانها القضاء عليها هي ديانة التنجيم (عبادة النجوم) البابلية.

بين سنتي ٣٣٤ ق.م. و٢٢٠م شهد أويكومين العالم القديم قيام ثلاث ديـانات تعبدية كبرى: الهندوكية المتعددة الآلهة والبوذية الماهايانية والمسيحية. وقد كانت كل من الماهايانية والمسيحية ديانة تبشيرية وكان المؤمنون بهما يطمعون في أن ينشـروا دينهم بين البشر أجمعين. وفي الجهـة الثانيـة كانت الهنـدوكية المتعـددة الآلهة، مثـل الزرواستـرية واليهودية، دينا لمجتمع واحد خاص مغلق، وكانت مرتبطة بالمؤسسات والبنية الوطنية الخـاصة بـذلك المجتمـع؛ هذا مـع العلم بأن الـوعاء الاجتمـاعي الذي ظهـرت فيه الهندوكية كان كبيراً، بحيث انه كان مساوياً لعالم كامل في ذاته.

بدأت المسيحية وكأنها واحد من المذاهب العديـدة التي قامت داخـل اليهوديـة. والمسيحيون ـ (اليهود)، الذين كانوا المسيحيين الأصليين، كانوا يعتقدون، ولا شـك، بأن يسوع عاد الى الحياة بعد أن أُمِيت. ومهما كانت التجارب التي أدت الى هذا المعتقد بين أتباع يسوع، فإن المعتقد نفسه كان مخلصاً بما لا يقبل الشك، ولأنه كان مخلصاً كان منعشاً روحياً. وهذا يبرر شفاء المسيحية من خيبة الأمل التي غشيت المسيحيين نتيجة لرد الفعل الذي أصابهم من جراء صلب المسيح. والمسيحيون ـ (اليهود) كان يصعب عليهم ان يصدقوا ان الانسان ـ وهو يهودي مثلهم ـ الذي قام من بين الأموات كان ابن الله إلا بأخذ الأمر بالمعنى المجازي. إذ لو أنهم قبلوا هذا الاعتقاد لما أمكنهم ان يظلوا جزءاً من

الكيان اليهودي؛ والواقع أنهم ظلوا فيه الى أن انقرضوا.

والنجاح الذي يدعو الى الدهشة - وقد تم على يد مسيحي يهودي هو القديس بولس - هو انتزاع مسيحية لا يهودية من الدين اليهودي، بحيث كان باستطاعة غير اليهود ان يقبلوا بها بحرية دون ان يلتزموا بمراعاة الشريعة اليهودية. ومما يدعو الى الاعجاب، بشكل مساو للدهشة الأولى، هو أن هذه المسيحية ذات الصيغة اليهودية السابقة، نجحت في النهاية في ان تضم اليها جميع سكان الامبراطورية الرومانية باستثناء اليهود، ومشايعي اليهود من اتباع يهوه الملتزمين أي السمرة.

إن المسيحية كما أوضحها القديس بولس نجحت في التغلب على الديانات الاقليمية المنافسة لها، بأن امتصتها، ولو ان ثمن ذلك كان التخفيف قليلاً من الوحدانية التي ورثتها عن اليهودية. ففي المسيحية كما شرحها القديس بولس، كما كان الحال في زرواسترية المجوس، رفعت صفات الله الحق الوحيد - في هذه الحال هي كلمة يهوه وروح يهوه - الى درجة التساوي في المظهر مع الإلّه، فأصبح يسوع الإلّه المتجسد، بالمعنى ذاته كما كان الفرعون والقيصر وراما وكريشنا. وباعتبارها «أم الله» أصبحت أم يسوع الانسانة آلهة في الواقع.

وقد أفادت الكنيسة المسيحية قوة من فعالية تنظيمها. فالديانات المشرقية المنافسة، مثل نظام الرهبنة البوذي، لم يكن لها تنظيم مركزي. والجماعات المحلية التي ظلت محتفظة بارتباطها بهذه الديانات الأخرى كانت مستقلة إدارياً واحدتها عن الأخرى؛ وكل ما كان مشتركا بينها هو معتقد طقوس متماثلة. وقد كان للمسيحية أيضاً جماعاتها المحلية. وقد اتسعت هذه من الناحية الجغرافية مع خلايا المدن - الدول القائمة في إطار الامبراطورية الرومانية. إلا ان المسيحية أخذت عن الامبراطورية الرومانية تنظيمها الى حد أنها أخضعت هذه الخلايا المحلية الى تدرج إداري كهنوتي على مستوى امبراطوري؛ وهذا الإنجاز التنظيمي كان فريداً من نوعه. والامبراطوريات المدنية التي خلفت امبراطورية الاسكندر على أيدي خلفائه - بطليموس وسلوقس وليزماخوس - والتي كانت قد انطفأ ذكرها، عادت الى الظهور على انها بطريركيات كهنوتية مسيحية، فيما اعترف الزملاء الشرقيون لبطريرك روما (البابا) بأنه الأول بين أقرانه، مع أنهم لم يقبلوا دعوى البابا بأنه عهد اليه بالأولية وبسلطة اوتوقراطية على الكنيسة المسيحية الكاثوليكية بأجمعها خارج الحدود الجغرافية للبطريركية الرومانية.

وتحول فريق يهودي الى كنيسة مسيحية مسكونية أمر يدعو، في واقع الأمر، الى الدهشة؛ ومثل ذلك يقال عن تحول الفلسفة البوذية الترافادية الهندية الى الديانة البوذية الماهايانية المسكونية. وكانت قوة الماهايانية كديانة تبشيرية تكمن في استعداد المؤمنين بها الى التعايش بسلام مع الديانات التي كانت قائمة قبلاً في المناطق التي غزاهـا المبشرون الماهايانيون. ولم يكن في الماهايانية أي كبت قد يأتيها من ماضي البوذية الترافادية بحيث يحول دونها والتسامح او يجعل هدفها ليس الفتح بل التعايش المتكافل. وعلى العكس من ذلك فان الماضي اليهودي للمسيحية كان عائقاً للاهوتيـين والمبشرين المسيحيـين. فلم يكن باستطاعة المسيحية ان تعيش وتسمـح لغيرهـا ايضا بـالعيش؛ كان عليهـا اما ان تقضي على منافساتها او ان تمتصهـا. وكان مثـل هذا الامتصـاص يجب ان يتم بشكل خفي. ومع ذلك فقد امتصت المسيحية اكثر مما دمرت. ففي واقع الأمر كانت وسيلتها في نشر مبادئها أقرب الى اساليب الماهايانية مما يحب ممثلوها الرسميون ان يعترفوا به.

وقد ترتب على انتشار الماهايانية وانتشار المسيحية ان تاريخ البشرية اتخذ منعطفاً جديداً. وقـد كان أويكـومين العـالم القديم المسـرح الذي مثلت عليـه هذه الأحـداث الدرامية، لكن الأثر النهائي لهذه الأحداث كان عالمياً.